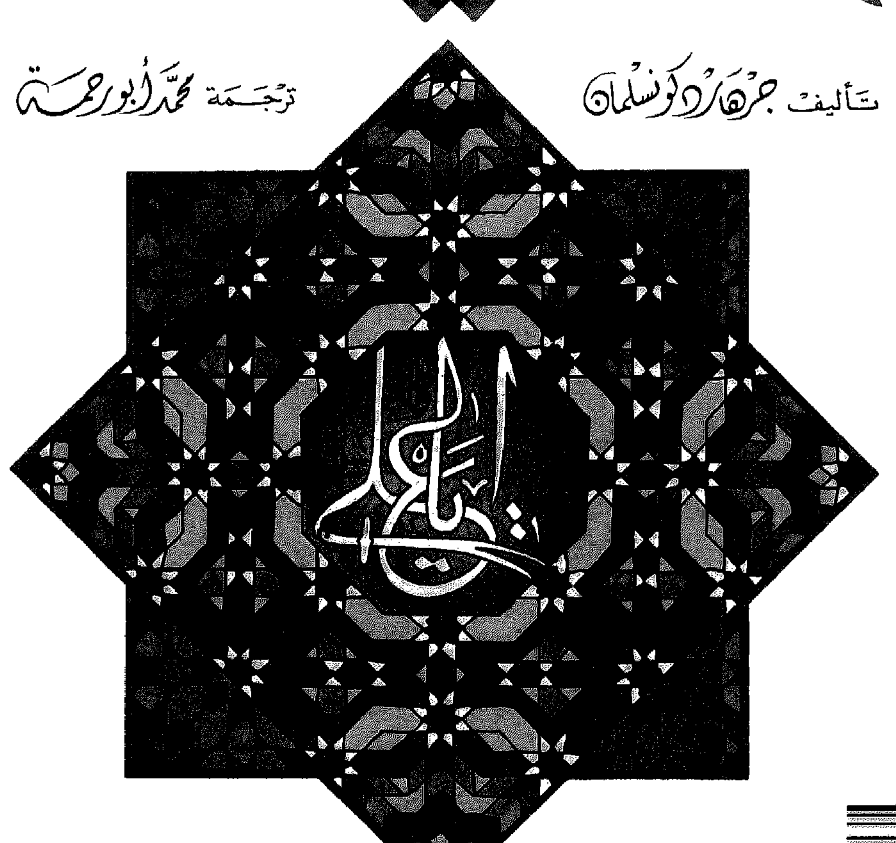


سطوع نجم الشيعة

تأليف جرهارد كونسلمان

ترجمة محمد أبو رحمة



مكتبة مدبولي
القاهرة

سُطُوعِ نَجْمِ الشِّيعَةِ

طبعة أولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م
طبعة ثانية ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

الناشر
مكتبة مدبولى
ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع
تليفون ٧٥٦٤٢١

سطوع نجم الشيعة

الثورة الإيرانية من ١٩٧٩ حتى ١٩٨٩

تأليف

جرهارد كونسلمان

ترجمة

محمد أبو رحمة

النصوص التاريخية مترجمة عن النص الألماني

مكتبة مدبولي

القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

محمد وعلي

في الليل عندما غادر محمد مكة ، عندما قرر أهل عشيرته من قريش قتله . . . كان علي هو الذي أنقذ حياته .

يقول المؤرخ « ابن إسحاق » في هذا : « إلا أن جبريل أتى إلى الرسول وأخبره بألا ينام في سريره الليلة القادمة . ولما انقضى الثلث الأول من الليل وتجمع رجال قريش أمام بابه ، منتظرين نومه لينقضوا عليه إلا أن الرسول رآهم وطلب من علي أن ينام في سريره كما كان يفعل الرسول ، وأن يتشح ببردته الحضرموتية الخضراء ، على أن لا يصيبه الأذى » .

وانخدع رجال قريش فبينما كانوا يعتقدون أن محمداً ﷺ يرقد في سريره نائماً كان هو يجهز للهجرة .

وعن خروج الرسول من بيته يخبرنا ابن إسحاق ـ معتمداً في ذلك على شهود عيان ـ قائلاً : ومن بين هؤلاء الذين تجمعوا أمام باب محمد ﷺ كان أبو جهل الذي كان يقول بما معناه: «يزعم محمد ﷺ إن أنتم اتبعتم دينه سوف تصيرون ملوكاً على العرب والعجم ، وبعد موتكم سوف تبعثون لتنعموا بالفردوس الذي يشبه في بهائه حدائق نهر الأردن ، فإذا لم تتبعوا دينه كانت الحرب بينكم وبعد موتكم سوف تبعثون لتحرقوا في نار جهنم » . وهنا يخرج النبي إليهم وبيده حفنة تراب ويقول : ﴿ **يسٓ والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم ، تنزيل العزيز الرحيم ، لتنذر قوماً ما أنذر**

آباؤهم فهم غافلون ، لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ، إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ . ثم يضيف ابن إسحاق بما معناه وبعد انتهاءه من تلاوة هذه الآيات نشر محمد ﷺ التراب على رؤوسهم ومضى في طريقه . ثم أتى رجل ، ولم يكن قد انضم لهذه الجماعة ، وسأل : ماذا تنتظرون هنا ؟ فأجابوه ننتظر « محمد » ، فقال : لقد خرج إليكم « محمد » ونثر التراب على رؤوسكم ومضى ، أفلا ترون ماذا حدث لكم ؟ فمد رجال قريش أيديهم إلى رؤوسهم فوجدوا تراباً . فشرعوا يبحثون ونظروا إلى السرير وفيه علي ملتفاً برداء النبي فهمسوا : إن « محمد ﷺ » ما زال هنا ، وهو ينام في مضجعه . وانتظروا حتى الصباح ولكنهم رأوا « علي » ينهض من مضجعه . فكان علي قد رقد في سرير النبي وكله ثقة بكلام الرسول ، ولقد نام ليلة آمنة بعد وعد محمد ﷺ له بأنه لن يمسه سوء .

أما محمد ﷺ فكان قد كسب وقتاً يغادر فيه مكة . وبهذا هرب من عشيرته التي أرادت قتله والتي اضطربت بدعوة محمد .

وأما علي فقد تعلم أن يثق بمحمد ﷺ . فلقد أقام في بيت محمد ﷺ منذ كان طفلاً . فقد كان أبوه أبو طالب من الفرع الفقير بقبيلة قريش ، ولهذا فقد أصابته هو وأهله الفاقة على نحو خاص عندما حلت أزمة اقتصادية بتجار مكة . وكما روى فقد كان أبو طالب يقوم على عائلة كبيرة . ولقد حزن محمد لفكرة أن يصيب قومه الجوع ، ولما كان موسر الحال بعد زواجه طلب من أبو طالب عمه إعطائه علياً على الأقل حتى ترفع الفاقة عن بيوت مكة .

وكما روى فقد حصل محمد ﷺ على إذن أبي طالب بضم علي إليه وقد حدث هذا في وقت كان محمد ﷺ لم يسبب فيه بعد ضيقاً لأهله ، بمحاولة تحويلهم عن آلهتهم ودعوتهم لعبادة الله . في هذا الوقت كان لا يزال وحيداً في إيمانه بالله الواحد القهار .

أول إنسان آمن بهذه العقيدة بعد محمد ﷺ كان علي بن أبي طالب . أما كيف حدث هذا فيخبرنا ابن إسحاق كاتب سيرة الرسول ﷺ : « ذكر أحد

العلماء ، أنه عندما كان يحين وقت الصلاة ، كان محمد ﷺ يخرج إلى شعاب مكة ، بينما كان علي يصحبه دون علم بقية أفراد الأسرة . فكانا يؤديان هناك صلاتهما ويعودان مع حلول الليل إلى البيت. وبقي الأمر على ما هو حيناً من الزمن حتى فاجأهما أبو طالب ـ أبو علي ـ وهما يصليان ، فسأل الرسول ﷺ أي دين هذا ، الذي تتعبد له . فأجاب محمد ﷺ : إنه دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم . ولقد أرسلني به الله إلى الناس » .

وكما تقول مراجع السيرة الأولى للرسول فإن أبا طالب أدرك أن « محمد » ﷺ تبع الطريق السليم وبالرغم من عدم مقدرة أبي طالب على هجر دين آلهته ، إلا أنه ترك « علياً » في رعاية محمد .

ولكي يطمئن قلبه سأل أبو طالب ـ كما يقول ابن إسحاق ـ ابنه «علي» عن الدين الذي يؤمن به فأجابه علي «يا أبي طالب إني أؤمن بالله وبرسوله وبالذي أوحي إليه. ولقد صليت لله مع الرسول ﷺ واتبعته». وتقول مصادر أخرى بأن خديجة زوجة محمد ﷺ قد سبقت «علي» في الإيمان بالله، ولقد تزوجت خديجة محمد وهو في الخامسة والعشرين من عمره. والتعبير هنا صحيح : تزوجته . فلقد كانت خديجة سيدة أعمال تتمتع بمكانة مرموقة من قبيلة قريش وبين أهل مكة جميعاً ، وكان محمد ﷺ أحد المشتغلين بتجارة خديجة ، ولقد لفت نظرها بعد ذلك بأمانته ومهارته . وكانت خديجة قد كلفت « محمد » بقيادة قافلة إلى الشام وقد ذكرت الأخبار أنه قام بمهمته على خير وجه . وكما يذكر ابن إسحاق أنه بعد عودته من دمشق سألته خديجة ـ التي كانت تكبر « محمد » بكثير ـ إن كان يريد أن يتزوجها . وبالرغم من أن هذا الطلب من المرأة ما زال عالقاً بذاكرة قبيلة قريش ، إلا أن هذا الأمر لم يجد استغراباً . فلقد كانت مساواة المرأة بالرجل متوطدة بصورة عادية في الفكر الإنساني . فلقد كان باستطاعة المرأة حينذاك اختيار زوجها ، وعلى كل حال فقد شعر النبي ﷺ بالتكريم عندما صار زوجاً لخديجة سيدة الأعمال . هذه المرأة التي يقول عنها ابن إسحاق : كانت أكرم نساء قريش وأشرفهن وأغناهن . وبعد عشر سنوات من زواجها به لاحظت خديجة أشياء غريبة على زوجها. وتقول مصادر

التاريخ « وسرعان ما أصبح أحب شيء لديه أن يكون وحيداً » .

كان محمد ﷺ قد بلغ الأربعين وكان قد توقف عن العمل بتجارة أهله وسرى إحساس بأن هناك شيء يشقيه .

وأثناء رحلته إلى الشام كان قد أدرك وهو متألم أن الناس هناك يعرفون بوجود الله . ولقد أوحى الله إليهم سواء كانوا يهوداً أو نصارى ، ولقد خاطبهم بلسانهم . وقد عرف ماذا يريد الله منهم وتحت أي شرط يفتح الله لهم أبواب الفردوس ، النعيم الأبدي ، فإن حلت عليهم اللعنة الأبدية ، فيكون هذا هو ذنبهم فقد كان بوسعهم تجنب نار جهنم باتباعهم طريق الله .

أما أهل الجزيرة العربية فكانوا يجهلون غضب الله فالله لم يهدهم إلى الطريق المستقيم . ورجال العرب ونساؤهم يعيشون ـ يوماً بيوم . مخالفين إرادة الله بدون أن يعرفوا عن ذنبهم شيئاً . فلم يعبدوا إلّهاً واحداً ، بل عدة آلهة ، كانت جميعاً آلهة زيف طبقاً ليقين محمد . وعبادة آلهة مختلفة كانت وحدها كفيلة بإثارة غضب الله . والله يعرف أن العرب مذنبين بلا ذنب . فهذه لم تكن مشيئته . وقد نمى اليقين عند محمد ﷺ ، أن الوقت قد حان أن يلتفت الله إلى العرب ويخاطبهم بلسانهم وفي ذات الوقت صار يتضح له بأن الله قد اختاره هو ليبلغ العرب باسم الله كيف يوجهون حياتهم وكيف يعبدون الله . وصار ينتظر لحظة تكليف الله له وأمره بتبليغ رسالته . كان محمد ﷺ ينتظر الوحي .

وكما تقول مصادر التاريخ . فلقد ذهب خارج المدينة إلى أن أحرقته أشعة الشمس ، وذات مرة أحست خديجة بالخوف ، فأرسلت خدمها إلى التل إلا أنهم عادوا بدون محمد . وعندما عاد أخيراً إلى بيته يعاني الإرهاق ، ألحت عليه خديجة بأن يخبرها بالذي يدعوه إلى هجر المدينة ، فأخبرها بأنه ينتظر رسالة الله .

والعهدة على الراوي ـ المؤرخ ابن إسحاق ـ حين يحدثنا عن رد فعل خديجة : فبالذي نفسي بيده ستصير نبي هذه الأمة . وعندما سمع محمد ﷺ حقاً صوت السماء الذي أوحى إليه بمشيئة الله ، آمنت خديجة به .

ويقول ابن إسحاق : لقد كانت هي أول من آمن بالله ورسوله وبما أوحى إليه ، وبهذا خفف الله عنه العبء . فحين كان محمد ﷺ يقابل بالرفض والإنكار فيحزن لهذا ، كان الله يجعله ينسى هذا عندها حالما يرجع بيته فتأزره وتعضده وتؤمن به وتطمئنه. وفي النهاية كان علي وخديجة يشكلان نواة الإسلام في مكة أما علي نفسه فيقول ما معناه : « عندما كنت صبياً كان الرسول ﷺ يضعني في حجره ويضمني إلى صدره وأحياناً كان يمضغ الطعام ثم يطعمني إياه، وكنت أتبعه كما تتبع الفرس أمها. وكان كل يوم يعلمني شعيرة يجب على المسلم اتباعها ، ويأمرني بالإلتزام بها ولم تكن حينذاك عائلة قد آمنت بالإسلام فقد كان رسول الله ﷺ وزوجته خديجة المؤمنين الوحيدين وكنت أنا ثالثهم . ولقد رأيت نور الوحي وتبليغ النبي ﷺ بالرسالة وقد سمعت أيضاً ولولة الشيطان أثناء نزول الوحي على محمد ﷺ فسألته يا رسول الله ما هذا الصراخ ، فكان يجيب أنه الشيطان الذي يأس من أتباعه ، وأنت تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلا أنك لست رسولاً » .

كان علي يكبر. وكان محمد ﷺ لا يكسب أنصاراً لدينه إلا بشق الأنفس ـ من رجال قبيلة قريش ـ. أما عدد خصومه بين أقرباءه فبقي كبيراً. وقبل عام من هجرته لمكة لعداوة قبيلته له ، كانت خديجة قد ماتت ، هذه المرأة التي أحاطت محمد ﷺ بالرعاية .

وفي نفس العام أي ٦٣١ ميلادية مات أبو طالب، أبو علي، وكان قد نجح من زمن بعيد في التغلب على الأزمة المالية والتي اضطرته ذات يوم لترك علي لمحمد ليقوم على تربيته . وعلى الرغم من أنه استعاد مكانه بين الأغنياء إلا أن أبو طالب لم يفكر في استعادة علي . وكان أبو طالب في السنوات الأخيرة حريصاً على منع رجال قبيلته من صب غضبهم على دين محمد ﷺ الغريب والوهمي . فإن أرادوا السخرية منه أو إيذاءه ، ولأنه كان يصلي بطريقة تخالف طريقتهم. كان أبو طالب يمنعهم ويحذرهم في ترك محمد ﷺ لحاله، إلاَّ أن أبو طالب لم يدخل دين الإسلام وبموته انتهى امتناع إيذاء رجال قريش لمحمد ﷺ . فإذا ما أتيحت لهم الفرصة كانوا يقذفون محمداً بالقاذورات

والحجارة وكذلك بأحشاء الحيوان . ويوماً فيوماً كانت تزداد كراهية القبيلة ضد هذا المرتد ، الذي لم يعد يعبد آلهة مكة .

وفي نهاية تطور هذا الصراع كان القرار بقتل محمد ﷺ وعندما كانوا يريدون إنجاز مهمتهم كان محمد ﷺ قد غادر بيته بالفعل ، وكان علي قد ساعد في إخفاء هجرة محمد ﷺ . ولم ينتقم أحد من علي لأنه خدع المتآمرين بنومه في سرير محمد . وبعد أسبوع من هجرة محمد . كان علي يغادر مكة في الخفاء فلقد كانت هناك حاجة لعلي في المدينة . وفي هذا الحين كان هذا المكان الذي يقع على بعد ٣٠٠ كم شمال مكة يسمى « يثرب » . وكانت يثرب تتكون من بيوت طينية منخفضة تقف بجوار بعضها . ولم يزد عددها عن المائة . وكان سكانها من الحضر والفلاحين والرعاة . فكانت يثرب مدينة إنتاج وهي بهذا تختلف عن مكة التي يكون فيها التجار أهم طبقة في مجتمعها . وفي الشوارع بين بيوت مكة كان دائماً هناك مئات من الابل التي كانت تكوّن القوافل التي كانت قريش فخورة بها .

ومع أن يثرب كانت تقع في طريق القوافل المتجهة للشام والعراق إلا أنها لم تكن تجذب التجار للإقامة بها . وكانت يثرب مهمة لهم لوجود أبار ماء بها . وماء الواحة كان حلواً للغاية . ولما كان الماء يوفر شروط حياة مناسبة فقد قامت هناك البساتين والحقول حيث تنمو الحبوب ومزارع التمر وأشجار البرتقال وكرم العنب ، وكانت يثرب واحدة من المستوطنات العديدة في شبه الجزيرة العربية التي يسكنها اليهود ، والتي نشأت بفرار اليهود من الفرس أمام جيوش بابل . إلا أنهم كانوا قد فقدوا سيطرتهم على منطقة يثرب من زمن بعيد . فلقد هاجرت قبائل عربية جنوبية إلى الشمال بصورة مكثفة . وفي الوقت الذي كان محمد ﷺ قد جاء فيه إلى المدينة كان اليهود والعرب يعيشون سوياً في سلام . إلا أن النزاع كان قائماً بين القبائل العربية ذاتها . فكانت قبيلتان هناك تتقاتلان . وقد عانى المجتمع اليثربي من هذا النزاع ثم حل الشقاق الكامل. وقد جعلت الحرب الأهلية الغادرة ـ بأسلوب حرب العصابات ـ الحياة غير محتملة بالنسبة لأهل يثرب . وغالباً ما حاول حكماء يثرب حضن النزاع الدامي إلا أن محاولاتهم في

العثور على حكماء محايدين باءت بالفشل . وكان من يعيش في دائرة المدينة لم يكن يستطيع أن يعيش محايداً حقاً أثناء تفاقم الصراع . وفي النهاية كان المطلوب رجلاً يستطيع بقوة سيطرته أن ينهي الصراع وكان لا بد أن يأتي هذا الرجل من خارج يثرب .

وقد فكر حكماء القبائل المتناحرة أيضاً في محمد ﷺ الذي حصل بعقيدته ـ من أن هناك إله واحد قهار فوق البشر ـ على مكانة مرموقة بين المفكرين الذين كانوا يلتقون في الأسواق وفي طريق القوافل . وعن الحديث الذي وجهه بعض رجال يثرب إلى المنادي إلّه واحد. يقول ابن إسحاق في السيرة ما معناه: «فقالوا: ليس هناك شعب فرقه النزاع مثل شعبنا فمن المحتمل أن يوحد الله على يديك ، فإذا ما وحد الله الناس في مدينتنا بدينه هذا فلن يوجد من هو أقوى منك لدينا » . فعقد محمد ﷺ وزعماء قبائل يثرب في النهاية معاهدة : أن يقبلوا النبي عندهم ويحموه على أن يخلق النبي ﷺ بمشيئة الله نظاماً مستقراً بينهم . فأنجز محمد ﷺ المهمة الموكولة له في وقت قصير فأخذ شيئاً فشيئاً يجعل من القبائل المتناحرة مجتمعاً موحداً وكان يؤكد دائماً على أنه ليس إلا واسطة بين الله المهيمن وبين أهل يثرب .

وكان محمد ﷺ يبلغ مشيئة الله إلى زعماء العشائر ـ وكذلك فيما يختص بالصراعات. فالله يبلغ الحق من خلال الرسول ﷺ وكانت كل قضايا الناس توضع أمام هذا المهاجر من مكة . وقد أعطت المهمة تحت اسم أعظم الرجال محمداً سلطة مطلقة تقريباً من يثرب ، والتي يصبح اسمها قريباً مدينة الرسول ومنها اشتق اسمها « المدينة » فيما بعد . وفي المدينة كان محمد ﷺ المشرع والمنفذ في وقت واحد . أما القوانين التي يطبقها فكان يأخذها من الوحي يرسله الله إليه ، وسرعان ما وجد محمد ﷺ مساعداً مناسباً في إدارة شؤون المدينة يثرب علياً بن أبي طالب والذي كان ثبت نفسه كأحد أفراد أسرة الرسول ﷺ ، فبزواجه من فاطمة ابنة الرسول ﷺ صار علي صهر رسول الله ﷺ . كان علي هو الذي أقنع الرسول ﷺ بأن من ضرورة السياسة الداخلية الخروج إلى الحرب التي تجلب الغنائم . أما خصومه فلن يكونوا خير الأهل في مكة ، قبيلة قريش .

وكان علي منظم حملات الإغارة على قوافل تجار مكة . ومن خلال خطط ذكية وتنفيذ سليم لحملات الإغارة استنفذ علي قوة أغنياء وطنه السابق . إلَّا أنه لم تكن نهاية كل الحملات سعيدة . فقد جرح علي في إحداها ١٦ مرة وقد حدث هذا في المعركة التي كان محمد ﷺ قبل بدءها قد وضع سيفه في يد أبي دجنة وفي هذا الوقت اكتسب علي شجاعة في القتال ومهارة في تدبير أمـور مجتمع يثرب الذي ازدهر مرة أخرى .

وفي العام التاسع من حكم الرسول في يثرب كان القرار قد اختمر لـدى محمد ﷺ بمحاربة البيزنطيين .

وتحدثنا أخبار هذا العهد بأن سكـان شبه الجـزيرة العـربية حينئـذ كانـوا يعانون من فـاقة كبـرى سببها ارتفـاع غير عـادي للحرارة ، فسـاد الجفاف ولم يستطع أحد تصور أن محمداً ﷺ سيشن حرباً في هذا الوقت الحرج بالذات . ولم يظهر أحد الرضـا لما دعى الـرسول ﷺ للخـروج للقتال. وتوالت مبررات الامتناع على أسماع محمد ﷺ . ولقد دهش عندما قال له أحد رجال يثرب أنه لا يستطيع الخروج معه لأنه سيقع يقيناً في هوى البيزنطيات الشقراوات وبهـذا يرتكب ذنباً . فكان أن أعفى محمد هذا المحارب الذي يخشى الفتنة .

مثل هذه الأحداث دفعت الرسول ﷺ أن يسلم أمور الحكم في يثرب أثناء غيابه لعلي الذي يثق فيه .

وكان تكليف محمد ﷺ لعلي بتمثيله ـ وإن كان مؤقتاً قد جعل علياً ـ الذي فضل على آخرين ـ يوقن إنه سيحصل على مكانة خاصة بعد وفاة الرسول ﷺ ثم صارت مهمة إدارة الحكم تتخذ أهمية أكثر أثناء السنوات العشر منـذ استدعـاء محمد إلى يثرب وحتى موته . أما رقعة المجتمـع الذي صار محمد ﷺ مسؤولاً عنه فصارت تتسع . فشملت في النهايـة مكة كـذلك وطن محمـد ﷺ ، والتي كانت قاومت فيما قبل دين النبي . وفي أواخر أيامه كان محمد ﷺ يسيطر على الجزء الأعظم من شبه الجزيرة العربية وصارت دولة الرسول ﷺ عنصراً سياسياً دولياً . وبالرغم من هذا التطور فإن « محمد » ﷺ ترك أمر تنظيم خلافته . ومع

أنه كان يعيش في ديار مدينة يثرب بضعة رجال أكفاء إلا أنه لم يشأ إعطاء أحد منهم سلطة في حياته ، ولم يشأ أيضاً إلحاق الضرر بواحد منهم ولا أحد يعرف إن كـان النبي ﷺ لديـه حينذاك فكـرة مسـاعـدة آل بيتـه للوصـول للسلطة أم لا . وربما كانت ستكون لديه هذه الفكرة لو أن أبناؤه بقوا على قيد الحياة . إلا أن خلفه المباشر اقتصر على فاطمة . وكان محمد ﷺ متـألماً كثيـراً لوفـاة ابنة إبراهيم ـ من الجارية القبطية مريم ـ في يناير عام ٦٣٢ م . وبعده بخمسة أشهر كان النبي ﷺ نفسه يغادر المؤمنين إلى الأبد .

ويـروي علي ـ كما أوردت الأخبـار ـ ساعـة وفاة السيـد الـقـوي لـدولـة الإسلام ما معناه : « مات رسول الله ﷺ ورأسه على صدري وسال دمه من فمه على يـدي فلطخت به وجهي . وقـد كلفت بتغسيل الـرسـول ﷺ وسـاعـدتني الملائكة في ذلك . وكان الضجيج يملأ الدار : وكانت ملائكة كثيـرة تنزل من السماء وأخرى تصعد إليها . ولـم يفتنـي أي حركة صدرت عنها . وكانت تصلي على محمد حتى واريناه التراب. فمن كان أقرب لرسول الله ﷺ مني في حياتـه ومماته؟ » وقد أمدتنا السيرة بأخبار أخرى عن حدث محمد ﷺ ، منها مـا جاء على لسان عائشة . أقرب زوجات الرسـول إلى قلبه ، وأورده ابن إسحـاق في سيرة الرسول ﷺ : « رجع النبي ﷺ من المسجـد ووضع رأسـه في حجري ، وهنا دخل رجل من عائلة أبي بكر وكان يحمل في يده مسـواكاً أخضـر ، وهنا لمحت في عيني الـرسول ﷺ أنـه يرغب في هـذا السواك . سـألتـه : أتـريـد المسواك فقال نعم ، فأخذته ومضغته حتى لان وأعطيته إياه . فحك به أسنانـه على نحو لم أره منه من قبل ثم وضعه جانباً . ثم لحـظت أن رأسه ثقلت على حجري ، ولما نظرت إلى وجهه كانت عيونـه شاخصـة وقال : نعم مـع الرفيق الأعلى في الفردوس . فقلت وبالذي أرسلك بالحق ، لقـد خيرت فـاخترت . ورحل رسول الله ﷺ . ومات النبي ﷺ ورأسه على صدري . كان هذا في وقت كان الدور علي بين نساء النبي ، ولم أكن جائرة على أحد في ذاك الوقت . وقد حـدث من خلال قلة خبـرتي وسني الصغيرة أن مـات الـرسـول ﷺ بين يـدي فـوضعت رأسـه على وسـادة ثم وقفت وضـربت وجهي وصـدري كمـا كـانت

الأخريات يفعلن». وخاتمة رواية عائشة عن موت النبي ﷺ تظهر أنها كانت مضطرة للدفاع عن نفسها . فلا بد أن يكون أحد قد اتهمها بأنه لم يكن من حقها مطلقاً وفي هذه اللحظة أن تحتضن محمداً . أما الذي وجه لها الاتهام فقد يكون علي . الذي قص رواية فيما بعد عن لحظة وفاة الرسول ﷺ . ولم يلتفت إلى رواية علي بأنه الشاهد الوحيد على الوفاة . إلا عندما نشب الخلاف على خلافة رسول الله ﷺ في الحكم . وفي هذا الوقت كان العداء بين علي وعائشة قد اتخذ أهمية سياسية وتسببت هي في إلحاق الضرر به . أما سبب العداوة بينهما فهو معروف ويرويه ابن إسحاق على لسان عائشة : « كان الرسول ﷺ دائماً يقترع على أي زوجة يصحبها معه إن أراد الخروج من المدينة . وقد فعل هذا عندما حمل على قبيلة (مستلق) فكانت القرعة لي . فأخذني الرسول ﷺ معه . وكانت النساء قد اعتدن حينئذ على أكل شيء بسيط حتى لا يكن ثقيلات أثناء الطريق . وعندما أعدت ناقتي جلست في خدري وجاء الرجال يحملونه ويضعونه على ظهر الناقة ويربطونه بالحبال هم ساقوا الناقة . وبعد انتهاء الحملة على (المستلق) اتخذ النبي ﷺ طريق العودة . وبالقرب من المدينة توقفنا للراحة . وهناك قضينا جزء من الليل . وعندما نادى بالرحيل كان البعض يجهز نفسه لهذا ، فانتحيت جانباً، كي أقضي حاجتي ، وكنت أضع على جيدي عقداً من العقيق (يماني) ولما انتهيت من قضاء حاجتي كان العقد قد سقط من جيدي . وفي طريق عودتي إلى المخيم وضعت يدي أبحث عنه فافتقدته : مع أن الرحيل قد بدأ ، إلا أنني رجعت مرة أخرى إلى هذا المكان لأبحث عن عقدي (اليماني) حتى عثرت عليه . وكان الرجال المكلفون بسرج ناقتي قد أتوا أثناء ذلك بعد انتهاءهم من عملهم إلى خيمتي التي كنت قد غادرتها . وقد اعتقدوا أنني كالعادة في خدري الملفوف بالبساط ولما كانوا موقنين أنني في الخدر حملوه على الناقة ومضوا . وعندما رجعت إلى المخيم لم أجد أحداً ، كان الجميع قد رحلوا . فتدثرت بثيابي ورقدت فقد كنت على يقين من أنهم سيعودون إلي بمجرد أن يفتقدوني . والله بمجرد أن رقدت مربي صفوان بن المعطل من قبيلة سليم . ولسبب ما كان قد تأخر عن جماعة النبي ﷺ ولم يقض الليل مع الآخرين . وعندما لمحني صفوان بن المعطل جاءني ووقف

عندي وكان قد رآني ذات مرة قبل أن نكلف بلبس الحجاب . وعندما عـرفني صاح: إنا لله وإنا إليه راجعون ، زوجة النبي . وبينما كنت لا أزال متدثـرة في ثيابي كان هو يقول : أي شيء أبقـاك هنا ؟ يـرحمك الله . فلم أرد عليـه فأتى بناقته وطلب مني الصعود إلى ظهرها بينما كان يقف بعيداً عني . ثم قاد الناقـة ومضى مسرعاً ليلحق بجمـاعته . ولكن بـالله لم نلحق بهم ولم يفتقدوني حتى طلع الصباح وتوقفوا . وبعد أن استراحوا طلع عليهم صفـوان بن المعطل وأنـا برفقته . وسرعان ما نشر المفترون أكاذيبهم عني فاضطرب الجيش كله ولم أدر أنا ـ بالله ـ عنه هذا شيئاً » .

وتحكي رواية عائشة أن الرسـول ﷺ قد اتخـذ موقفـاً متحفظاً منهـا بعد عودتها إلى المدينة مباشرة . وكانت هي مندهشة من ذلك ، لأنها كانت مريضة وكان محمد ﷺ يهتم بها للغاية أثناء مرضها فيما قبل . ولم يبح لها لوقت طويل عن سبب سلوكه المتحفظ تجاهها . وذات ليلة عندما خرجت مع النساء لقضاء حاجتها عرفت من إحدى قريباتها أن هناك من يقول عنها أنها خانت الرسول ﷺ مع صفوان بن المعطل. وكان على عائشة أن تدرك أن محمداً ﷺ نفسه شكّ في الأمـر ، إنـه قـد حـدث شيء في تلك الليلة من شـأنـه أن يلطخ عـرض بيت النبي ﷺ . . وكان عليٌّ دون الأقارب كلهم الذي صرح بهذا على أوضح وجه ولقـد أوردت السير مـوقف عليّ هكـذا: «إن النسـاء كثيـرات، وأنت يـا نبي الله تستطيع أن تعوض عائشة بسهولة». ولم تغفر عائشة لعلي أبداً أنه أشار بإخراجها من بيت النبي ﷺ . ولكن مكانة عائشة التي تهددها الخطر ، سرعان ما توطدت ثانية ، عندما أعلن الوحي للرسول ﷺ بـراءة عائشـة [سورة ٢٤ ـ١١ ـ١٥ ـ] وقد تأزم موقف عليّ لأن رسول الله لم يأخذ بنصيحته . فلم يدخل بيت عائشة حتى موت النبي ﷺ إلا نادراً .

ويـروى أن « علي » قام بتـرتيب بيت النبي ﷺ مبـاشـرة بعـد مـوت النبي المفاجىء فقد كـانت ورقات من القـرآن مبعثرة على المـوائد والـرفوف . وقـد أحـس علي بأنه مسؤول عن ترتيب وتأمين هذه الأوراق ، ولم يعرف أنه في بيت آخر كانت تتخذ قرارات سياسية . وقد أدرك كبار الأنصـار في المدينـة ـ هكذا

صار اسم أهل المدينة ـ بعد وفاة الرسول ﷺ مباشرة أن الفرصة واتتهم لاسترجاع استقلالهم السابق. فقبل عشر سنوات كان هؤلاء الكبار قد أتوا بالنبي ﷺ إلى المدينة ليقضي على الحرب الأهلية هناك وبهذا تخلوا عن سلطتهم . فتقرير ما يحدث في المدينة صار بيد الرسول ﷺ وأقاربه وأصحابه الذين أتوا معه من مكة . والآن صار الأقارب والصحابة في المدينة ولكن بدون سلطة الرسول ﷺ . وكان بعض كبار الأنصار يرى أن عهد الحرب الأهلية قد ولى من زمن بعيد ، وبهذا يكون وجود غرباء مكة ليس له ضرورة . وفي بيت الوجيه سعد بن عبادة تم تدبير مؤامرة نزع سلطة الطبقة المالكة . وقد أكد هذا العجوز المرموق ـ في حديث طويل للغاية ـ على فضائل المدينة العريقة . وها هو قد أعد لانقلاب . إلا أنه أثناء حديث ابن عبادة كانت صيحات ترتفع في المدينة : « أبو بكر هو الخليفة » .

أما أبو بكر فكان حما النبي ﷺ . وكانت عائشة ـ أقرب زوجات محمد ﷺ إلى قلبه ـ إبنة أبي بكر . وكانت عائشة قد برئت من خيانتها للرسول ﷺ أثناء غزوة في الصحراء من خلال الوحي . وقد أعطت مكانتها ثقلاً سياسياً لأبيها .

وعندما أعلن أصدقاء أبي بكر كلمتهم في المدينة بأن الرجل موضع ثقتهم هو خليفة الرسول ﷺ اختاره الله ، أثاروا بهذا موجة من الرضا . وهكذا كان أن صار النداء يردد في كل مكان . « أبو بكر هو الخليفة » وصارت هذه الصيحة رغبة العامة .

وصار أبو بكر مرشحهم لمنصب خليفة رسول الله ﷺ ، وفي منزل سعد بن عبادة حيث المتآمرين لنزع سلطة الغرباء كلهم لم يستطاع التغاض عن مطلب الجمهور وهكذا صار زعماء الأنصار في النهاية من مؤيدي أبي بكر . ولما ظهر علي أخيراً في موقع القرار السياسي لم يكن هناك له أي فرصة حقاً .

ولعدة دقائق اعتقد علي أنه ما زال باستطاعته خلق تيار ، فقادة جزء من الجيش في العاصمة كانوا في أنتظار تلبية أمر علي . وتحكي الروايات أن تمرد

الصراع على السلطة في الدولة الإسلامية الناشئة

كانت فاطمة قد قررت الكفاح من أجل حقوق زوجها . فكان يصدر عن بيتها لأيام عديدة نحيب ، على شكل اعتراض رتيب على ظلم المؤمنين . إلا أن الخليفة أبا بكر لم يخش هذا ، فهو أيضاً يتذكر جملاً قالها الرسول اكتسبت الآن فجأة قيمة التعاليم . ونص أحد هذه التعاليم على التالي : « بعد موت رسول الله ﷺ يكون ما يملك ملكاً للفقراء » وللتوزيع العادل لنصيب الفقراء يكون الخليفة هو المختص . وكان الخليفة هو أبو بكر . واستناداً إلى هذا التوكيل الذي يعرفه هو فقط قام الخليفة أبو بكر ينزع ملكية أراضي واحتي فدك وخيبر الخصبة والتي كانت ملكاً للنبي ﷺ وصارت ملكاً لفاطمة .

أما رواية أبناء علي فهي واضحة في تحديد أن النبي ﷺ نظم مسألة خلافته، فقد روي أن « علياً قال : وضع النبي ﷺ يده على عنقي وقال هذا هو أخي ووريثي وعليكم طاعته » وأن محمداً ﷺ قال أيضاً « إن علياً دائماً مع الحق ومع القرآن وسوف يكون الحق والقرآن معه . ولن يفصل بينهما حتى يوم القيامة » .

وقبل موت محمد ﷺ بقليل كان قد قام بالحج من المدينة إلى مكة والمسلمون يعتبرون هذا إكمالاً لكل النبوءات وإتماماً للدين وكان كل من يؤمن بأحقية علي بعد موت النبي ﷺ كان يرى أن محمداً ﷺ كان قد نظم بوضوح مسألة الخلافة قبل عودته للمدينة . ففي موقع يدعى غدير قم ، قام محمد ﷺ

أمام كل المؤمنين الذين ذهبوا معه إلى مكة بتكليف عليّ بلا شك بتجهيز نفسه لتسلم أعلى منصب . أما من آمنوا بهذا التكليف فسرعان ما صاروا شيعة علي أي حزب علي أو حزب آل بيت النبيّ ﷺ . إلاّ أن أتباع حزب علي كانوا قلة فلم يستطيعوا مقاومة الخليفة أبي بكر مقاومة جدية .

أما أبو بكر فقد حال ـ من خلال تصرفه الحازم ـ دون ثورة الأنصار ، فهو أيضاً من آل بيت النبي ﷺ بوصفه أباً لعائشة ـ أحب زوجات النبي إلى قلبه ـ كما أن أبو بكر بلا شك من قبيلة قريش . ثم إنه أكد بذلك على حقه بكلمة أخرى للنبي : ما معناه « قيادة المؤمنين تبقى دائماً في يد قريش » وبما أن أبا بكر قد تسلم السلطة كان هذا المعنى قد اكتمل . فصار اعتراض عليّ وفاطمة إبنة النبي ﷺ بلا صدى يسمع ، أما علي الذي كان أشجع المحاربين في عهد محمد ﷺ فقد قتل بسيفه في موقعه صفين ٥٢٣ من أعدائه ! ـ ظل مستبعداً عن الفتوحات المجيدة لفرسان المسلمين ، والتي بدأت بعد موت محمد ﷺ مباشرة . وكان النبي نفسه قد أعلن من قبل أن الله سيفتح الشمال والجنوب والغرب والشرق أمام الإسلام » وبتعبير آخر أن الله سيساعد في أن يسيطر دين الله على العالم كله، وقد أراد أبو بكر أن يعمل بسرعة على تحقيق النبوءة ، فأعطى قائد قوة الفرسان المسلمة الأمر : اتجه للعراق وافتح هذه البلاد وامضي حتى حدود الهند وعامل أمة العجم (الفرس) بالحسنى إن خضعت لك » .

وبسرعة تم الإستيلاء على الأرض الخصبة حول دجلة والفرات وبعد عام من بدء الاقتحام الإسلامي بدأت إمبراطورية الفرس في الانهيار . وبعد ست سنوات دخلت دلتا النيل ضمن أملاك المسلمين. وفي هذا الوقت مات أبو بكر فتسلم عمر بعده السلطة فقد كان هو أيضاً من أقرب صحابة النبي ﷺ . وقد تم تسلم السلطة بلا مشاكل . فقد نادت الأغلبية التي كان لها نفوذ أيام النبي ﷺ ـ بعمر خليفة ولم يقف ضد عمر إلا مجموعة صغيرة من الرجال ـ الذين كانوا يدعمون حق علي الشرعي أي هؤلاء الذين كانوا يؤيدون قريب رسول الله ﷺ ، وأقرب آل بيته نسباً إليه ، في حكم الإمبراطورية الإسلامية .

إلا أن هذه المجموعة لم تكن قد تحررت من الشلل الذي أصابها منذ

بداية أبي بكر بالخلافة . وهكذا لم يكن لهؤلاء الرجال معارضة مؤثرة ضد مبايعة عمر بالخلافة . ولم يثبط هذا التراجع من عزيمة علي في أن يصير حاكماً .

فقد غير علي موقفه تجاه الخليفة : فصار مستعداً للتعاون معه . فنصح علي عمراً باستحداث تقويم جديد يلتزم به المسلمون . فاقترح علي بأن يبدأ التقويم من بدء هجرة النبي من مكة إلى المدينة .

ومع أن آخرين من ذوي النفوذ قد اقترحوا مولد النبي ﷺ كبداية للتقويم إلا أن علي استطاع أن يكسب الجولة .

وهكذا صار عام ٦٢٢ ميلادية أول سنة في التاريخ الهجري . وبالرغم من أن « علياً » استطاع النفاذ إلى وعي الجمهور في الدولة الإسلامية إلا أنه ظل مستبعداً من الخلافة كذلك بعد مقتل عمر ، وكان عمر قد اغتيل بيد حرفي مسيحي ينتمي إلى ولاية العراق . وتقول الروايات أن القاتل فعل هذا لأنه كان غير راض عن سياسة الخليفة الضريبية وقد صار في كل مكان في الإمبراطورية المتنامية جباة يجمعون الضرائب لبيت المال في المدينة . وكانت الضرائب تفرض جزافاً ـ وسرعان ما صارت تختلف من ولاية لأخرى .

وكان « علي » واحداً من المنتقدين لنظام جمع الضرائب وقد تسبب هذا الموقف في النهاية في أن لا يكون لعلي بين أثرياء العاصمة أصدقاء لترشيحه بعد مقتل عمر ، فالعائلات التي هاجرت مع محمد ﷺ إلى المدينة ، صارت تعد من العائلات الثرية للغاية في البلاد فظنت ـ وعندها سبب قوي ـ في أن علياً لو صار خليفة فسوف يخفض سيل المال إلى المدينة من خلال نظام ضريبي عادل ، فصرفت نظرها عن علي مرة أخرى وبايعت عثمان ـ قليل الشأن ـ الذي ينتمي إلى بني أمية وهو من لم يثبت وجوده في حياة محمد ﷺ إلا في مهام متواضعة . وقد ظهر عثمان أنه دعى لتوحيد القرآن . وقد وجد أسباباً قوية لعمله هذا فلقد كان هناك مئات الآلاف من نسخ القرآن تستعمل في الإمبراطورية الإسلامية الضخمة . فكان أن نشأت أخطاء نتيجة تعدد الناسخين ، ونتج عدم دقته ، كذلك الصياغة تختلف من إقليم لآخر ،

وفي بعض الأحيان كانت تغيب أجزاء كاملة من القرآن. وهكذا صار فحوى القرآن مختلفة وكان سبب الإختلاف يوجد في كيفية نزول الوحي على محمد ﷺ . وفي الروايات كيف كان يتم إبلاغ الوحي إلى محمد : فكان الروح الأمين ينزل الوحي إلى قلب محمد ﷺ . ورواية أخرى تروي عملية الوحي هكذا : الله ينزل ملائكته بكلمته . ولم يحدث مطلقاً أن الوحي نزل بسورة كاملة ، وأن أجزاء كبيرة من نصوصها لها علاقة ببعثها . وقد كان لدى محمد ﷺ ذاته المتشككين الذين سألوا عن سر قصر ما ينزل به الوحي .

وفي هذا الشأن قد كان لدى الخليفة عثمان أسباب معقولة لمراجعة القرآن أما علي الذي حاول بنفسه ترتيب ما خلفه الرسول فكان يرى مصالح ذاتية لعثمان تستتر خلف محاولاته هذه : فعثمان ينتمي لبني أمية الذين اتخذوا موقفاً عدائياً ضد النبي في سنوات ما بعد نزول الوحي فكانت الشبهة قائمة من أن الخليفة عثر الآن على حيلة يمسح بها من القرآن التذكير بالمسلك العدائي لبني أمية ضد الإسلام . ويفترض أنه كان هناك بعض نقاط في النصوص السابقة للقرآن تنسحب على عداوة بني أمية للنبي .

ولقد كشف على هذه الخدعة : فالخليفة أثناء مراجعة القرآن كله يستطيع استئصال النصوص المختلف عليها .

وخشي علي أيضاً من محو النصوص التي تذكره بالشجاعة وبالإخلاص في الإيمان . وكانت هذه النصوص بالذات جزء من أساس استحقاق علي للسلطة في الدولة .

وقد عارض بعض فقهاء القرآن ما أمر به الخليفة وقاوموا فكرة قبول الصيغة الموحدة للقرآن التي عمل على إصدارها ، وكان من بين هؤلاء الذين رفضوا التنازل عن نسخة القرآن الخاصة به عبد الله بن مسعود والذي كان يعيش في المدينة العسكرية الكوفة . وذات جمعة خطب ابن مسعود في الجامع فعارض بصراحة تامة عملية توحيد القرآن فقال : « يا رجال الكوفة أخفوا مصاحفكم وحافظوا عليها . فما قيمة هذا الكتاب الجديد ؟ فالذي قام عليه رجل كان يلعب

في الرمل عندما كنت أنا قد سمعت ٧٠ سبعين سورة من فم الرسول ﷺ »، فأمر الخليفة عثمان باعتقال ابن مسعود بسبب هذه الخطبة . إلا أن رجال الكوفة عضدوا هذه الفقية الذي لا غبار عليها حقاً . كما أيد علي من بعيد ـ من المدينة ـ هذا الأسير .

أما الخليفة عثمان فقد أدان موقف علي بهذه الكلمات: « إنه في طريق الضلال ويؤيد كل من يسعى في طريق الضلال » .

وفي الكوفة ببلاد الرافدين كان المركز الأول قد نشأ لمقاومة السلطة المتوطدة ضد الخليفة عثمان الذي لم يتهم فقط بتزييف القرآن وأيضاً بمحاباة أقاربه في توزيع مناصب الدولة الإسلامية .

وطالب الساخطون في الكوفة بأن يقوم ـ أقرب أقارب الرسول ﷺ الذي ما زال على قيد الحياة ـ وهم يعنون بذلك علياً زوج ابنته ـ بتسلم السلطة . ومن جماعة الساخطين نما عود شيعة علي . .

ولما كان عثمان يعمل على إعطاء المناصب الرفيعة المؤثرة ، فقد أدى هذا إلى أن يعين أحد أفراد بني أمية حاكماً على الكوفة عاصمة الولاية وكان يدعى وليد بن عتبة ، ومع أنه لم يكن والياً سيئاً إلا أن ميله للإفراط في شرب الخمر أثار سخط المؤمنين ، وكان من ضمن مهامه كوالي إلقاء خطب الجمعة في جامع الكوفة .

وكان من سوء حظه أنه بعد ليلة ماجنة ألقى الخطبة بلسان ثقيل بل إنه في النهاية نام وليد بن عتبة على سجادة الصلاة . وكان أن استغل هذه الفرصة واحد من شيعة علي : فقلم بسحب خاتم هذا النائم ، الذي كان يحمل رمزاً لمنصبه الرسمي . وقام زعماء شيعة علي بإرسال الخاتم إلى الخليفة عثمان حيث يقيم في المدينة ، وبدون الخاتم خلع وليد بن عتبة ـ حسب تقاليد الدولة الإسلامية ـ من الولاية . ولم يبق أمامه إلا الرحيل إلى العاصمة ليحاسبه الخليفة . واضطر وليد بن عتبة للأعتراف بأنه خرق تعاليم الرسول بعدم قرب الصلاة في حالة سكر . والقانون الإسلامي يعاقب مرتكب مثل هذا الخرق بالضرب ثمانية جلدة

وهذه العقوبة تسري على الوليد بن عتبة أيضاً ، الذي كان والياً على الكوفة ، إلا أن الخليفة شاء حماية قريب فأجل العقوبة ، فغضب علي لهذا ورأى في مسلك الخليفة مثالاً على سوء استخدام المنصب في تفضيل أفراد عشيرة الخليفة ، وعندما لم يتقدم أحد من حاشية الخليفة لمعاقبة الوليد ـ خوفاً من غضب الخليفة ـ أخذ علي بنفسه العصى لتنفيذ المهمة، ولم يغتفر بني أمية لعلي قط أنه ضرب أحد أبناءهم وبهذا وصم العشيرة كلها بالعار وعلت الصيحات خارج الكوفة في مكة والمدينة عثمان ليس خليفة شرعياً وهو لا يستحق الطاعة ويجب عزله ، أما الخليفة الشرعي للمؤمنين فهو علي زوج ابنة النبي ﷺ ومعاونه .

وقد تعالت هذه الصيحات أيضاً في مساجد وادي النيل، فكذلك في مصر كانت قد تكونت جماعة من أنصار علي وكان قائدها هو عبد الله بن سبأ . فلقد بحث في القرآن عن نبوءات عن المستقبل . وفي سورة (٢٨) عثر علي هذه الكلمات :

« . . إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد . . » .

وحسب إجماع الأراء يكون قد أوحي للنبي ﷺ بأن الله سيعيده من مكان هجرته ـ المدينة ـ إلى مكة مرة أخرى .

أما عبد الله بن سبأ ففسر النص هكذا : الله سوف يمكن عودة محمد بجسده من الجنة إلى مكة . ومن هذا استنبط هذه النتيجة : عندما يعود النبي ﷺ ليقيم بين الأحياء فإنه سيضع في اعتباره بالتأكيد الاستعانة بأهم مساعديه الأولين مرة أخرى . وبلا شك كان علي أهم هؤلاء .

وحسب رأي ابن سبأ يكون الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان قد ارتكبوا إثماً في تولي منصب ليس لهم والذي هو حسب مشيئة الرسول ﷺ ـ وبالتالي مشيئة الله ـ من نصيب علي . وقد رأى عبد الله بن سبأ الوقت قد آن لتصحيح تاريخ الدولة الإسلامية : فيجب عزل عثمان وإعلان علي خليفة وقد اشتد ساعد المعارضة لما جاء نبأ أن الخليفة ذاته فقد خاتمه الرسمي ـ وبذلك أيضاً رمز شرعيته ـ بطريقة

غريبة ولم ينفع عثمان أن يكون هذا النبأ خاطئاً ففي الولايات البعيدة ، مصر وبلاد الرافدين ، زالت سيطرة الخليفة ثم تدفق مئات ـ صارت آلاف ـ من هاتين الولايتين إلى المدينة . أما من وصل أولاً هناك فكان المتمردون القادمون من مصر وقد أصابتهم الدهشة لتراجع الخليفة . فقد اعلن عثمان عن استعداده لخلع الولاة الذين يمتون له بصلة قرابة . وبهذا غادر الرجال المدينة راجعين مرة أخرى إلى أوطانهم . إلا أنهم في الطريق في منطقة العريش ، أسروا فارساً ارتابوا في مسلكه ، وعثروا معه على رسالة إلى والي مصر ، وكانت الرسالة تحتوي على أمر بقتل زعماء الجماعة التي كانت في المدينة . وبدافع السخط عاد الرجال إلى العاصمة وشرعوا مع الثوار ـ الذين كانوا قد وصلوا من بلاد الرافدين أثناء ذلك إلى المدينة ـ في الإحاطة ببيت الخليفة ثم محاصرته . وصار نداؤهم : « الموت للخليفة عثمان » . وكان الخليفة إذا غادر منزله يُسب ويرمى بالوسخ ويهدد بالسلاح . وهنا حذر كثير من العقلاء من خطر انقسام وحدة المسلمين من خلال نشاط شيعة علي . أما ابن عمر ، **سلف عثمان** ، فقد قال كلمات ما زالت حقيقتها مرة حتى اليوم : إذا قتل عثمان فلن يصلي المسلمون معاً أبداً ، ولن يحارب المسلمون معاً ضد الكفار أبداً . وعندما أخذ الثوار المجتمعون أمام قصر عثمان في لعنة الخليفة حاول عثمان تبرير موقفه فقال: ماذا فعلت أنا من أجل هذه المدينة ، فقبل أن آتي إليها لم يكن بها ماء للشرب ، فاشتريت أنا بئر رماح وأوصلت ماءها إلى المدينة . واليوم صارت جواريّ لا تستطيع الوصول إليها لتحضر الماء إلى بيتي . وفعلت أكثر من ذلك فقد ضاق مسجدها بالمؤمنين فوسعته فصرت أنا لا أستطيع الصلاة به . فمن أعطاني الخلافة أهؤلاء الناس في الخارج أم الله؟ ومن يأخذ مني الخلافة أهؤلاء في الخارج أم الله ؟ ويقول علماء الشيعة اليوم بأن علياً حاول لفت نظر عثمان لأخطائه وبخاصة التي تتعلق بمحاباته الظاهرة لأهله . وأعطى مثالاً يعرفه الجميع : عندما تزوجت ابنة الخليفة من عبد الله بن خالد حصل الزوجان من بيت المال ، أي من خزانة الدولة على ٦٠٠٠٠٠ درهم وهو ما يوازي اليوم ٧ ملايين من الجنيهات المصرية تقريباً . وقد أثار غضب علي لأن الخليفة لم يوقف شر أقاربه الدائم في امتلاك الأراضي . وبهذا نشأت خلال سني حكمه

مئات من طبقة من الاقطاعيين التي لم يكن لها وجود في شبه الجزيرة العربية في العهد الجاهلي ولا في صدر الإسلام . وكان السبب في هذه التطورات التعسة أن عثمان تولى الخلافة طاعناً في السن ، فقد كان يبلغ سبعين عاماً ، وقد كان سعيداً في البداية بأن يساعده أقاربه المخلصون في النهوض بأعباء مهام الحكومة المتنامية . وفي النهاية ترك مسؤوليات الحكم للمخلصين له . وفقد السيطرة على الدولة . وبمرور الزمن صار تابعاً لعائلته . وقد أدت المسؤولية بلا رقابة إلى أن الأقارب الذين عينوا ولاة أقاليم نمت شراهتهم في جمع المال فمالوا إلى استغلال الآخرين . وضد تعاليم القرآن في عدم استعباد المؤمنين بنفس الدين ، قام الولاة من بني أمية بتسخير الكثيرين في أعمال العبيد ، فالمؤمنون من الرجال والنساء كان يتم ربطهم بالتبعية المادية ثم يتم تحويلهم إلى عبيد . وكلما كان هذا المسلك الشاذ يتسع كلما اتسعت دائرة أعداء الخليفة وروايات شيعة علي تخبر بأن « علي » حاول قيادة الخليفة إلى الطريق القويم وقال لعثمان : « إن أفضل عباد الله هو الإمام العادل ، المهدي والهادي . ومن واجب الإمام العادل أن يختبر الأمور المستحدثة إن كانت تنفع الناس . فإن لم تنفعهم فيجب استبعادها » .

والآن حيث يحتل الساخطون شوارع المدينة ، يصمت علي محافظاً على نوع من الحياد **الأناني** وقد قام بالوساطة لحين بين الثوار والخليفة ، إلا أنه لم يبحث عن حل للصراع . وعندما بدأ الثوار في حصار بيت عثمان ، كان علي يعرف بالتأكيد أنه هو المستفيد من هذا النزاع . وفي هذا الوقت وجد علي في عائشة حليفة له ، وهي الزوجة المقربة للرسول ﷺ ، التي لم تكن تطيق عثمان ولهذا كانت تحرض ضده . إلا إنها لما عرفت أن علياً هو المستفيد من هذا ، وهو الذي لم تغفر له نصيحة النبي ﷺ بهجرها ، غادرت المدينة متذرعة بالحج . فلم تكن تشأ أن تكون شاهدة لنصر دامٍ يحرره شيعة علي . وفي يوم من شهر يونيو لعام ٦٥٦ م . شرع الثوار في اقتحام بيت عثمان وقتلوه . ويروى أن دم الخليفة سال على المصحف الذي كان يقرأ فيه . وكان ابن أبي بكر - الخليفة الأول للرسول ﷺ - هو الذي سدد إليه الضربات القاتلة . والأكيد أن

علياً لم يطلب قتل عثمان إلا أنه كان المستفيد من ذلك . فلما كان لم يتبق أحد من صحابة الرسول الذين هاجروا معه إلى المدينة والذين كونـوا طبقة راقيـة . فقد صارت السلطة من نصيب علي . ويقال إنه ظل متردداً طيلة خمسة أيام في قبول منصب الخليفة إلاَّ أن علياً أعلن خليفة في ٢٥ يونيو عام ٦٥٦ م وهو مـا انتظره ربع قـرن تقريبـاً . وهو الـزمن الذي مضى على وفـاة النبي محمد ﷺ وكانت الخمسة وعشرين عامـاً هي الفترة الـوحيدة لـوحدة الإسـلام . فهي لم تتكرر بعد ذلك قط .

انقسام الإسلام

كان النبي محمد ﷺ هو الذي تنبأ نفسه بانهيار الوحدة وقد روى أحد العبيد الذي أعتقه محمد ﷺ ما معناه: في منتصف الليل استدعاني الرسول ﷺ وقال: « **أمرت بالصلاة على أموات مقبرة باقي ، فلتأتِ معي . فذهبت معه وعندما وقف بين المقابر صاح : السلام عليك يا أمة راقدة في القبور كقطع الليل البهيم يهددنا خطر الانقسام ، كل منها ستكون أسوأ من الأخرى ، والأخيرة ستكون أعظم مصيبة من الأولى** » .

أما الانقسام الأول الذي وقع بقتل عثمان ، فقد شطر السلطة بين علي كممثل لشيعة علي ، وبين بني أمية ، الذي قتل عميدهم . ولكن بني أمية كانوا ما زالوا أقوياء ، ولم يفكر زعمائهم في الخضوع لعلي . وقد ترك مؤرخو صدر الإسلام صورة عن شخصية علي تعد بلا شك وصفاً واقعياً لهذا الرجل : فقد اتفقوا على أنه كان ذا عينين واسعتين ثاقبتين استطاعتا سحر الآخرين. أما حجمه فكان لا بد أن يكون صغيراً غير فظ . وكان لون بشرته أعمق من بشرة أهل شبه الجزيرة العربية وكان له لحية كثيفة طويلة بيضاء . ويروى أنه كان يصبغ لحيته أحياناً . وفي حياة الرسول أثبت علي حنكة وصلابة . إلا أن هذا كان قد مضى عليه ربع قرن . كان علي مقاتلاً يعرف كيف يستخدم سيفه ذا الفقار ومنذ أن توقف عن الاشتراك في الحروب لم يلمس سيفه تقريباً . ولم يكن علي عنده السلاح الكافي لمواجهة أقارب الخليفة المقتول عثمان بني أمية . وبعد مبايعته مباشرة أمعن علي في إقناع زعيم البيت المعادي بأن ذنب قتل عثمان في عنق

الثوار ـ أما هـو علي ـ فليس له عـلاقة بهـذا . ولقد وصـل إلى السلطة بطريق شـرعي . أما زعيم بني أميـة فكان معـاوية وكـان مـا زال يقيم في دمشق واليـاً عليها . وقد كتب إليه علي هذا الخطاب بما معناه : « لقد بايعني الرجال الذين بايعوا من قبل أبا بكر وعمر وعثمان وقد أقسموا لي بالـطاعة المفـروضة . فمن كان معهم لا يستطيع أن يكون ضدي بعد ذلك ومن لـم يشهد البيعة فهي ملزمة له . ولقد أجمع المبايعون على رجل واحـد ، أي عليّ بما يـرضي الله ، لقد وجدوا الإمام الذي يقودهم ، فإن كان هناك من لا يقبل هـذا القرار فـلا بد من إعـادته إلى طـريق المؤمنين فلا اعتـراض على بيعة الإمـام والـذي يقـدم على الاعتراض يعتبر خصماً ومن يتردد في إقرارها فهو خائن» . إلاّ أن علياً لم يتلقَ رداً على كتابه . بينما كان بني أمية في دمشق ينتظرون تطورات أخرى للأحداث .

وقد كانوا قد أقاموا لهم بعاصمة ولاية الشام مركزاً آمناً ، ومنذ عدة أجيال كان بني أمية يعدون من أقوى جمـاعات التجـار في شبه الجـزيرة العـربية ولم يكونوا ضمن المؤمنين الأول الذين تبعوا النبي ﷺ . ولـم ينضم رجال بني أمية إلى العقيدة الجديدة إلا عندما انتقل أهـل المدينة إلى صف محمد ﷺ . فانضم بني أميـة إلى المنتصر ، ولم يصلوا إلى أوج قـوتهم إلا عندمـا صار واحـد من عشيرتهم خليفة ـ عثمان ـ وصار هدف رجال بني أميـة الأول هو الحفـاظ على النفوذ الذي حصلوا عليه .

وكانت الفرصة قد حسبت لصاحب السلطة في الدولة الإسلامية في أيام الجمعة لكي يعلن الجامع مبادئه السياسية .

ففي العـاصمـة ـ المـدينـة ـ كـان الخليفـة يخـاطب المؤمنين ، أمـا في الولايات فكان الولاة يخاطبون الرعية ، فقد استغل معاوية بعد تولي علي بقليل منبر جامع دمشق كقاعدة للدعاية ضد الخليفة . أما اسم علي فلم يذكره قط ، فقد كان يتحدث عنه (بقاتل عثمان) وكل من سمعه عرف الذي يعنيه .

« إن قاتل عثمان هو قاتل جبان هذا الذي قتل رجـلاً عجوزاً مـريضاً قـد استولى مجرم على الخلافة ، ولقـد أقسم كل أهـل الشام على الانتقـام ، لقد

قتلت عثمان ، وقد بكاه مائة ألف رجل في جوامع الشام » .

وأرسل علي إلى خصمه معاوية التالي : « أنت تقول إننا ننتمي لأصل واحد مشترك فالهاشميون آل النبي ﷺ وبني أمية لهم جد واحد مشترك هذا صحيح إلا أن بني أمية لا يتساوون مع بني هاشم ، فنحن بني هاشم اتبعنا الطريق المستقيم ، أما أنتم فلم تتبعوا الإسلام إلا فيما بعد ، ونحن مؤمنون ولسنا خونة مثلكم ، ومنا خرج رسول الله ﷺ وأنتم أنكرتم الله ، وأبناؤنا وعدوا بالجنة أما أبناؤكم ففي نار جهنم » ، وقد ورد في الروايات كلمات علي التي تظهر عجزه في مواجهة معاوية بالرغم من يقينه بأنه على حق ، وبعض الكلام في تلك الروايات يشهد على قنوطه : « بالله إن معاوية ليس أمكر مني إلا إنه يكذب ويخادع ولولا أنني أأبى الخداع من مبدأه لكنت أمكر إنسان على وجه الأرض » وظل علي لا يفهم سر تحول الناس عنه وبالذات في المدينة ومكة ، أما الذي لم يفهمه على وجه الخصوص فكان التحول في الموقف تجاه عثمان : فقد كان هذا الخليفة مكروهاً ، وعارضه رجال من جميع أنحاء الدولة وقرروا تأييد شيعة علي ، وما كاد علي ينصب خليفة ـ كما كان يتمنى الشيعة ـ حتى ابتعد عنه الكثيرون واستحل غضبهم .

وقد ظل الأمر لغزاً بالنسبة له فلم يفهم عدم إقبال الكثيرين عليه ، وكان علي يستطيع أن يجد حلاً للغز في شخص عائشة ، أرملة النبي ﷺ ، فلقد ساهمت في التقليل من شأن الخليفة عثمان ، إلا أن عائشة كانت في الطريق إلى مكة للحج ساعة اغتياله . فلم يستطع أحد أن يقول إن عائشة قد حرضت القتلة . ومن الواضح تماماً أنها حبذت موت عثمان .

أما وصول علي للسلطة كنتيجة لاغتيال الخليفة ، فلم يخطر في بال عائشة فهي لم تستطع طيلة حياتها أن تغفر لعلي نصيحته للنبي ﷺ ذات مرة بطلاقها . كانت عائشة في الثامنة عشر عندما توفي النبي ﷺ . ولم تكن قد أكملت عامها الخامس والأربعين عندما وقفت ضد علي ، ولأنها كانت ذات يوم أقرب نساء محمد إلى نفسه قد أعطاها هذا مكانة عالية عند بسطاء الناس وفي نفوس من بيدهم السلطة . وقد أعطاها هؤلاء لقب (أم المؤمنين) ، ولقد أدى

نفوذها في مكة إلى امتناع هذه المدينة عن طاعة علي .

وبالرغم من أن أصحاب السلطة لم يتمردوا إلَّا أنهم اتخذوا موقفاً سلبياً . ولم يكن هذا الموقف لأرملة النبي ﷺ صاحبة الطموح السياسي كافياً . وهكذا شاءت أن تقضي على علي كما قضت على عثمان . أما الحلفاء المسلمون التي كانت في حاجة إليهم قد بحثت عنهم من بلاد الرافدين على شاطىء دجلة والفرات. ومن أجل ذلك قطعت مسافة تقترب من الألف كيلو متر ، إلا أن هذا العمل لا يشهد على مهارة عائشة السياسية . لأنه في منطقة دجلة والفرات بالذات كان يتجمع أنصار مخلصون لعلي ، ومن بين هؤلاء كان حاكم مدينة البصرة ، فبالرغم من أنه استقبل عائشة إلا أنه لم يراع أصول اللياقة ، فلم يتدخل عندما صرخ أحد زعماء القبائل المهمين في أرملة النبي ﷺ : والله إن سلوكك هذا لهو أكثر إجراماً من سلوك قتلة عثمان الذين تطلبين المساعدة ضدهم . لقد دنست شرف رسول الله ﷺ . واختلطت بالرجال . ولم تستح رفع حجابك » . لقد هاجم زعيم القبيلة عائشة لأنها أقدمت على قطع الصحراء وحيدة بين الرجال . وكان على عائشة أن تدرك أنها لا تستطيع كسب أنصار في العراق بحملتها ضد علي . وقد حدث تحول غير ملحوظ في وعي العرب خلال ربع قرن بعد وفاة النبي ﷺ ، فمحمد ﷺ والخلفاء الثلاثة الأول كانوا رجالاً يرون مركزاً لهم في صحراء شبه الجزيرة العربية ، هذه الأرض القاحلة القائظة . وقد أضافت الفتوحات بعد موت النبي ﷺ إلى الدولة الإسلامية مدناً ومناطق غنية من بينها دمشق والبصرة والكوفة ، وكذلك الأرض الخصبة على ضفاف دجلة والفرات. وقد أثبتت التجارب أن الحياة في مثل هذه المدن وعلى ضفاف مثل هذه الأنهار أكثر رفاهية عنها في قيظ صحراء مكة والمدينة . وهكذا تنامى الإحساس إلى كثير من الرجال بهجر المدينتين اللتين كانتا تمثلان مركز السلطة حتى هذه اللحظة ، لكي يجدوا مركزاً جديداً في بلاد الرافدين ، حتى علي نفسه ـ الذي وجد جحوداً في مكة والمدينة ـ أدار ظهره لمدينتي النبي ﷺ عندما صار الموقف غير محتمل فيهما ويمم وجهه شطر بلاد الرافدين . وكان السبب لهذا التحول ليس

في جاذبية الطقس لمراكز التجارة على النهرين الكبيرين وإنما كان لـدى طبقة النخبة في مكة والمدينة ، فلقد صارت هذه النخبة ثرية وذات نفوذ أثناء سنوات الفتح . وأصابت خطاً في الغنائم التي كانت تجلب إلى بيت المال في العاصمة . ونتج عن هذا الثراء أن افراد هذه النخبة صاروا ينعمون بحياة الرفاهية ، رفاهية بشكل أساسي أو جوهري في الفكر . ولم يعد هناك مكان للحماس الديني . وقد حاول علي كخليفة إعادة فكر المؤمنين مرة أخرى إلى أصوله الأولى أي إلى المبادىء التي أرساها النبي ﷺ . فأحست النخبة في مكة والمدينة بثورية هذا الرجوع إلى الأصل بالذات . إلا أنهم كانوا يرون أن زمن الثورة قد ولى .

وقد دفع عدم تقبل تلك النخبة للأفكار الثورية علياً إلى أن يتخذ ـ بعد تسلمه السلطة مباشرة ـ قراره بعزل كل المسئولين الذين يثبتوا ـ طبقاً لرأيه ـ عدم كفاءتهم. وفي اليوم الأول لخلافته مباشرة أعلن في خطبة معالم طريقه: «أيتها الأمة سيكون التغيير إنقلاباً من أعلى إلى أسفل . فطلاب الخير تراجعوا أثناء السنوات الأخيرة أمام هؤلاء الذين لا يهمهم التقدم إلى الأمام . وهذا ما يتحتم تغييره . ففي الدنيا يقوم الحق والباطل ، يشعر الناس بالانجذاب نحوهما إلا إنه يجب عليهم اتباع الحق فقط . ومن المألوف أن يعلو الباطل بينما من النادر أن يعلو الحق . وقد علمتنا التجربة أن النادر يستطيع أن يحقق النصر . ويجب علي أن أعترف أنه لم يحدث كثيراً أن ينتصر الخير عندما يتحول الناس عن الحق ويتبعون الباطل . وقد فهم الجمهور بالطبع قصد علي . فقد أعلن الحرب على الانتفاعية السياسية لصالح التغيير الفكري : يجب أن تعود الصلاة محوراً للحياة . ويجب أن تعود إليها أهميتها التي كانت لها أثناء حياة النبي ﷺ ، ويرتبط بهذا ترك المظاهر والرفاهية .

ويحدد العلامة سعيد محمد حسين طابطبائي في كتابه « شيعة الإسلام » التغيير الذي أحدثه علي : « أثناء السنوات الأربع والشهور التسعة التي حكم فيها علي ، لم يستطع علي أن يمحو كل الأخطاء التي حاقت بالعالم الإسلامي . إلا أنه أحرز نجاحاً في ثلاثة مجالات رئيسية :

١ ـ من خلال أسلوبه العادل والمستقيم في الحياة ذكر بأسلوب حياة النبي ﷺ

خاصة لدى الأجيال الجديدة التي لم تعاصر رسول الله ﷺ. وعلى النقيض من الحياة الرغدة التي كان يعيشها معاوية في دمشق فضل علي أن يبقى منزله المتواضع ، بل أن يبقي عليه فقيراً مثل بيوت المساكين ، وقد كمنت ثوريته في أنه لم يفضل أصدقاؤه أو أقاربه على الآخرين عند توزيع الأموال أو المناصب ، فبالنسبة لتوزيع الغنائم كان علي يفعل مثلما كان يفعل الرسول: كل يحصل على نصيبه العادي بدون تفضيل آل بيت الخليفة، ولم يحدث قط أن قدم علي الأثرياء على الفقراء . ولم يعطي الأقوياء قيمة أكبر من الضعفاء .

٢ ـ بالرغم من الصعاب الجامة أو البالغة التي كان على علي أن يتغلب عليها منذ بدء ولايته والتي كلفته وقتاً كثيراً ، إلا أنه ترك لنا ثروة عظيمة من الحكمة ورؤية ذات فكر عن أمور الدين . ووصل لنا عنه ما يقرب من أحد عشر حديثاً عن المسائل الدينية والإجتماعية وقد أثرى علي العلوم الإسلامية من خلال أحاديثه وخطبه ، ولقد اهتم أيضاً بالنحو العربي ووضع أسس الأدب العربي . وكان علي أول رجل في الإسلام يشتغل بالميتافيزيقا، وقد انشغل بها لدرجة إنه في وسط المعارك يشرع في نقاش مع رفاقه عن قضايا الوجود .

٣ ـ تكللت جهود علي بالنجاح في تأهيل معلمين اشتغلوا بالدين فيما بعد . أما تلاميذه فقد أمسكوا بناصية علم الفقه وعلوم الدين وتفسير القرآن . ويرى العلامة سعيد بن حسين الطابطبائي مؤلف معالم ثورة علي أن علياً قاد حركة دينية ثورية راديكالية ويقول العالم الطابطبائي : « المقصود هو الثورة بكل معانيها لإعادة النظام بين العلاقات . وليس المقصود ثورة بمعناها الحالي في السياسة والاجتماع . فثوري حقيقي مثل علي لا يستطيع أن يحقق هدفه بحلول وسطى ولا باللباقة والتملق . وقد أدى أسلوبه غير الملتوي في التفكير والتعامل إلى أنه لم يتعامل كسياسي . فتصوره لم يقم على نجاح سياسي بل كان محدداً بفكره عن الحق ومشيئة الله » .

أما فشل علي كخليفة فله مبرره القوي وهو إن رجال النخبة في مكة

والمدينة اعتادوا على حكم رجال السياسة الذين يفكرون في المصالح الاقتصادية للطبقة العالية بالذات . وهم لم يشاؤوا الرجوع إلى عصر النبي ﷺ ولا أن يطلب منهم الخضوع . أما علي فلم يملك القوة لهدم نظام السلطة القائم في أهم مدينتين في شبه الجزيرة العربية . إلا أن تطلعه إلى بلاد الرافدين أحيا لديه الآمال . فأرسل علي ابنه الحسن كرسول إلى الكوفة . وكان على الحسن أن يؤثر على الأوضاع في هذه المدينة لصالح والده . وقد نجح الابن بالفعل في كسب أحد الرجال الأذكياء في صف أبيه : وقد وجد أحد العلماء الكلام المناسب ليشيع جماهيرية علي بين الناس . وقد حفظت لنا الروايات الشيعية خطبة هذا العالم : « أيها المسلمون لا بد لنا من رجل يعلونا وينظم أمور ديننا ، ويبلغنا مشيئة الله ، ويحمينا ويساعد المستضعفين في استخلاص حقهم . إنه علي أحق رجلاً لهذه المكانة . فقد كان أقرب الناس إلى النبي ﷺ وهو أفضل من يعرف تعاليم الدين وهو أقل من يتعلق بزينة الدنيا . فعلي يطلب أيضاً المساعدة حتى يستطيع أن يفصل بين الحق والباطل وأن يمحو النزاع والانقسام من الدنيا. فواجبكم أن تعضدوه». ويقال إن سبعة آلاف رجل لبوا هذا النداء معلنين الكفاح في صف علي . الذي كان في حاجة ماسة إلى هؤلاء السبعة آلاف مقاتل نظراً لنجاح عائشة أقرب نساء النبي ﷺ إلى نفسه في قيادة جيش من مكة إلى المدينة بهدف القضاء على عليّ . وعند البصرة وقع الصدام المسلح بين فريقي علي وعائشة وكانت عائشة تقود رجالها بنفسها . وكانت قد صنعت لنفسها هودجاً أحاطته بسياج من الجلد ليحميها ضد النبال والرماح وتم تثبيت الهودج على ظهر ناقة ، وهكذا كان لكل خصم رمز ديني يراه جنوده : فالهودج الذي فيه زوجة رسول الله ﷺ كان يمثل خصوم عليّ وعلى الناحية الأخرى كان علي المخلص للنبي ﷺ على رأس أتباعه . وسرعان ما أحس علي بأن رمز الهودج تفوق عليه فكان يسبح فوق رؤوس الجنود فيرفع الروح المعنوية لأعداء علي إلى أقصى درجاتها . فإذا ما أراد علي الانتصار كان عليه إسقاط هذا الهودج . وفي النهاية نجح أحد الجنود الشجعان في الوصول إلى ناقة عائشة وبضربة واحدة قطع أربطة الساق الأمامية للناقة فسقطت الناقة بالهودج . وفر أتباع أرملة النبي ﷺ . وانتصر علي وقد اتخذت هذه الموقعة في التاريخ العربي

اسم « موقعة الجمل » وقد جرت أحداث هذه الموقعة يوم ٤ ديسمبر عام ٦٥٦ م . وشاءت عائشة ، بعد هزيمتها في هذه المعركة أن تحصل على صلح مع عليّ إلا أن علياً رفض هذا رفضاً قاطعاً وأمر بإعادة عائشة إلى مكة . أما هو نفسه فلم يشأ العودة قط إلى هناك وأعلن الكوفة عاصمة له .

وصار لعلي في بلاد الرافدين سلطة لا ينازعه فيها أحد واستطاع في هذه البلاد أن يطبق مبادىء حكمه . وأن يحقق في الواقع مبادئه المثالية كحاكم عادل . ولم يستطع أحد أن يقول عنه إنه ارتكب باطلاً . إلاَّ أن استقامته كانت مكمن نهايته .

وهكذا خسرت عائشة مكانتها المرموقة ، وفي مجرى التاريخ الإسلامي ندرت الإشارة إليها . بينما كثر ذكر زوجة محمد الأولى خديجة . ويقال إن رسول الله ﷺ قد قال عنها إنه يود أن يكون معها في الجنة . أما الشخصية التي رفعها المسلمون درجة لم يصل إليها أحد من آل بيت النبي ﷺ فكانت فاطمة ابنة النبي والتي كانت خليلة أمها .

لم يكن علي سيصير بهذه الأهمية بين رجال بيت النبي محمد أو كان سيتساوى معهم لو لم يتزوج ابنة الرسول فاطمة . فهي التي أعطت الفرصة لعلي ليسري دم رسول الله ﷺ في أجيال جديدة . ظلت هبة الرسول المؤثرة طوال مئات السنين . وقد روي عن ميلاد فاطمة نوادر : « ظهر الملاك جبريل للرسول وقال له : سلام الله عليك وهو يأمرك بألا تقترب خديجة وأن تبتعد عنها » وبعد أربعين يوماً أتى الملاك جبريل للنبي ﷺ ومعه طعام من الجنة وأمره بإحضار خديجة. وتروي خديجة ما معناه: قضيت الليل والنهار في البيت وحيدة وأغلقت الأبواب وانتظرت وذات ليلة دق الباب ففتحته فرأيت رسول الله ﷺ فدخل وكان من عادته أن يصلي أولاً ـ كنا في شهر رمضان ـ إلا أنه تناول طعامه وأتى بعد ذلك إلى مضجعه . لأنه في هذه الليلة أتى مباشرة إليّ وأخذني في الحال إلى الفراش فظهر لي نور فاطمة . ومنذ هذا الحين كانت فاطمة تخاطبني وهي في بطني وهكذا لم أصبح وحيدة » .

ومع أن الروايات تذكر ميلاد فاطمة من أبيها محمد وأمها خديجة إلا أنها تصمت عن ذكر ابنة الرسول ﷺ خلال العشر سنوات الأوائل التي قضتها في مكة . ويرى المؤرخون أن ميلاد فاطمة لا بد أن يكون في العام ٦٠٥ ميلادي أي قبل سبعة عشر عاماً من هجرة آل بيت النبي من مكة إلى المدينة . أما عن كيفية ذهاب الفتاة من مكة إلى المدينة فلا نعرف شيئاً . ومن المحتمل أن علياً حملها من مكة إلى مكان آمن . ويقيناً أن علي أخذ فاطمة كزوجة له إلى بيته . ولم

تـورد الروايـات التاريخيـة أخباراً عن فـاطمة إلا بعـد موت النبي ﷺ . وأحـد أخبارها يقول : « لما مات النبي انتزع الخليفة أبو بكـر أرض « فدك » وهـاجم عمر منزلها بجماعة من رجاله وأثناء هذا صدمت فاطمة بـالباب فجـرحت وقام واحد من خدم عمر بضربها حتى أجهضت من حملها في الشهـر السادس. بعـد ذلك مباشرة أخذت هي أبنـاءها وخـرجت بهم من المدينـة إلى بيت مهدم إلى المكان الذي يـدعى (مكان الأشجـان) وهناك بكـت ولعنت جـلاديها وقبعت ساعات حزينة بلا حراك . وهكذا قضت ما تبقى من حيـاتها في بكـاء ولعان . وكـانت تـطلب أن تـدفن ليـلاً حتى لا يمثـل بجثتهـا هؤلاء الـذين لاحقـوهـا بالبغض » . وقد اتفق المؤرخون على أن فاطمة قد ماتت في نفس العام الذي توفي فيه النبي محمد ﷺ . إلا أنه غير معروف إن كانت قد ماتت متأثرة بجراحها التي ألحقها بها خادم عمر . ولا يخبرنا أي مصدر عن سبب ترك علي ـ زوجها ـ لها بدون حماية ، ولم نعثر في روايات عن خبـر يقول لنـا إن علياً طلب الثـأر لضرب فاطمة .

ويقوم عالم الاجتماع الشيعي علي شريعتي (١٩٣٣ ـ ١٩٧٧) في كتابه (فاطمة هي فاطمة) بوصف المرحلة الأخيرة في حياة ابنة الرسول : « ومضى الزمن وصحابـة الرسـول منشغلون بتوسيـع سلطتهم بينما علي يعيش في عـزلة وفاطمة تنتظر الموت . كانت تنتظر بقلق الخلاص الذي وعدها به النبي ﷺ . وكل يوم كان قلقها يزداد . فالموت كان الخلاص الوحيد لها من هذه الحياة . ثم دنا أجلها فقبلت أطفالها . كان الحسن في السابعـة من عمره والحسين في السادسة وزينب في الخامسة وأم كلثوم في الثالثة . وانتهت حياتهـا المعذبـة . وبقي علي وحيداً مع أطفاله . كان عليه أن يحيـا في هذه الـدنيا ثـلاثين عامـاً بعدها » .

ومن الثابت في تاريخ مذهب الشيعـة كيفية ازديـاد أهمية فـاطمة . وقـد صارت رمزاً لكـل شيء إلّهي في حياة جـوهر النســاء ، فاطمـة صارت الـرمز الأعلى للأنوثة وللأنثى .

ويرى عالم الاجتماع علي شريعتي مكانة ابنة النبي ﷺ في عقيدة الشيعة الآن هكذا : « بعد وفاتها صارت فاطمة تعيش في التاريخ وجسدت ضحية سيطرة العنف والاضطهاد والاستغلال في التاريخ الإسلامي .

حدث ما كان محمد ﷺ يخشاه : فالمؤمنون يتقاتلون في حرب مفتوحة وظهرت النتيجة الدموية للإنقسام . ولم يكن بانتهاء وقعة الحجل يعني انتصار علي . فالمعارض الهام معاوية ما زال يحتفظ باستقلاله بولاية الشام وباعتماده على تسليح جيشه الجيد وقائده الكفء عمرو بن العاص كان متأكداً من تفوقه على أي هجوم يأتي من الكوفة .

في البداية كان على الوالي الإعداد الدعائي للقتال القادم . فبطريقة خفية كان معاوية قد حصل على القميص الذي كان يرتديه عثمان عندما قتل . وكان عليه بقع سوداء ، فصارت لرجال دعاية معاوية رمزاً لاستشهاد رجل عادل ولم يجرؤ أحد في الشك في حقيقة القميص وبقع الدم عليه . وعندما علق الوالي القميص في جامع دمشق اتجه آلاف من الناس ليشهدوا هذا الدليل الدامي . وكان يسمع النحيب والأغاني الهستيرية وقد أقسم معاوية أمام المؤمنين الثائرين بما معناه « لن أضع سيفي هذا حتى أنتقم لعثمان » وبهذا كان أعلن الحرب ضد علي .. وبكل إصرار تقدم جيش معاوية من دمشق تجاه الشرق . وتجمع أيضاً أنصار علي فمضى مقاتلو الكوفة على امتداد الفرات لمسافة ٥٠٠ كيلو متر حتى وصلوا بالقرب من مدينة الرقة في الشام . وعندما رأى كل خصم خصمه لم يجرؤ علي أو عمرو قائد معاوية أن يقوم بالهجوم الحاسم . وظل الجيشان يعسكران أمام بعضهما البعض مدة ثلاثة أشهر تقريباً ، ولم يقع بينهما إلا مناوشات بسيطة وقد وضح لعلي أن هذه المناوشات خطأ إستراتيجي جسيم .

فقد كان عليه أن يحسم الموضوع فكان كل يوم من التردد يقلل من شأن علي بين أنصاره فلقد بدأ إيمان الناس الراسخ في أحقيته الأكيدة في الخلافة في التزعـزع وبدأ القواد يشعرون بتردد الحاكم وكان هو يحاول تبـرير الانتـظار بأنـه يأمـل في انهيار جيش معاوية وعمرو « إني أريد أن يتبعوا نوري » إلا أن شيئاً من هذا لم يحدث . وعندما قرر علي الهجوم بدا أن جنوده يقاتلون برضا وكان الأمر الذي أذاعه الخليفة يبشر المقاتلين بمسرات الفردوس : إن أبـواب الجنة مفتـوحة ، الحوار في انتظارنا ، وأما أنتصرنا وأما لحقنا بالرسول وصحابتـه . وتقدم جيش علي ببطء إلا أنه كان من الصعب إيقافه ، وبدا أن خطوط دفاع جيش الشام قد أخذت في الانهيار ، فأنقذ القائد عمرو نفسه بحيلة عبقرية : فـأعطى فـرسانـه الأمر بقطع أوراق من المصاحف ورشقها على أسنة الرماح . فتراجع رجال عليّ على الفور ، فصفحات القرآن المرفوعة أمامهم أصابت عـزيمة القتـال عندهم بالإحباط فهـم لم يستطيعوا كمسلمين مؤمنين أن يحاربوا القرآن . وعندما توقف القتال قام عمرو بمخاطبة جيش علي : « أنظروا إذا تقاتلنا فمن سيبقى ليحارب من أجل الإسلام ضد الكفار ، من سيصوم ويصلي كما أمر الله ورسوله ؟ فلندع القتال ودعوه أنتم أيضاً » كان ما قاله عمرو منطقياً وكان على أتباع عليّ الإقـرار بذلك فحرب المسلمين ضد أخوتهم المسلمين تستطيع القضاء على الإسلام . وعندما اقترح عمرو أن تقوم هيئة تحكيم بالفصل لمن معه الحق : معاوية الذي يتهم علي بأنه مذنب بقتل الخليفة عثمان أحـد أبناء بني أميـة ، أم علي الذي ينكر هذا الإتهام . ولما كان كثير من زعمـاء حزب علي يـرون أن هيئة تحكيم اسم الله سوف تنصر العدل ، والعدل في صف علي ، فهو أقرب الناس للنبي . إلا أن علياً اعترض على هذه المحكمة وقد أوردت الروايات كلام علي : « هذا الإقتراح ليس إلا حيلة من أعداءنا ، فهم يخشون من الهزيمة ، وليس أمامهم إلا فرصة بذر الشقاق بين صفوفنا ، لقد خرق معاوية وعمرو قانـون الله دائماً فـأنا أعـرفهما منذ الصبا . فهما لا يصدقان القرآن وهما لا يستعملانه الآن فجأة بدافع الـورع المستيقظ بل خـوفاً من ضعفهمـا ». إلا أن قواد عليّ ثـاروا على تبريـر عليّ ، فكان عليه أن يتنازل وإلا قتل . وهم يريدون التحكيم .

ولقد ظهر في التاريخ المبكي لشيعـة علي بالـذات التحول السـريع بين

الغضب والرضا . فعلي نفسه مر بهذه التجربة مرتين خلال شهور قليلة : فلم يكد يصير خليفة حتى قامت ضده ثورة في العاصمة ولم يكد يقترب من النصر الحاسم في المعركة حتى فقد القواد الإهتمام بالنصر . ولقد وردت هذه الظاهرة عدة مرات في الروايات . أما علي ، والذي يقول عنه المؤرخون الشيعيون المعاصرون بأنه لم يقبل لفظ الحلول الوسطى ، فقد انحنى أمام إرادة قادة جنوده وقبل الشروط التي تفرضها المحكمة .

ولقد كانت هذه الشروط من وضع معاوية . فقد أراد والي الشام أن يرشح كل حزب ممثلاً له لدى المحكمة واقترح مرشحه في الحال : القائد عمرو يمثل حزب بني أمية ولم يعترض علي ولكن عندما أراد الخليفة ترشيح ابن عمه عبد الله ابن عباس ممثلاً له اعترض معاوية في الحال بحجة أن مثل هذه القرابة لا يمكن أن يصدر عنها حكماً غير منحاز . وكان باستطاعة علي رد هذا الإعتراض بحجة أن عمرو هو صديق معاوية الحميم ، بالإضافة أنه قائد جيوشه ويهمه أمره ، فإنه لن يكون مناسباً لإصدار حكماً عادلاً غير منحاز إلا أن علياً لم يكن عنده القوة لقول هذا . فسحب اقتراحه الشخصي بالترشيح لهيئة المحكمة وأعلن معاوية محاولة إخراج الخليفة من حِدته : فرشح اسم فقيه القرآن الذي كان على دراية عظيمة بالقرآن وبقوانينه . ولم يكن هذا العارف بالحق الذي لا غبار عليه إلا : أبو موسى الأشعري .

فكان من سوء حظ الخليفة أن اتبع الأشعري تكتيكاً غريباً ففي أول لقاء بينه وبين عمرو اعترف الأشعري بصلة القرابة بين معاوية وبين عثمان المقتول بما في ذلك من تبعات قانونية . وفي هذا الحين لم يكن هناك في الدولة الإسلامية من يقتنع بأن علياً بريء براءة تامة من دم سلفه . فإذا ما أقر معاوية بحق معاوية بالثأر لعثمان فإن الأفكار تتجه فوراً بأن من يستحق العقوبة هو علي . وقد اعتبر أنصار علي أسلوب أبي موسى الأشعري علامة على أن هذا الحكم قد خان موكله ، لأنه لم يكن مقتنعاً بأحقية علي المشروعة .

أما علي فقد أصيب بخيبة أمل كبيرة عندما بُدء في تحرير بنود الاتفاق فكان علي مقتنعاً بأنه سيذكر في هذه الوثائق بلقبه الشرعي كخليفة إلا أن عمرو

لم يوافق مطلقاً على ذلك بالذات وأشار إلى أن واجب المحكمة هو تحديد إن كان علي حق له تسمية نفسه خليفة أم لا . فإن كان علي مشتركاً في قتل عثمان ، فلن يكون من حقه ادعاء الخلافة لنفسه .

وهذا هو موضوع بحث المحكمة . فإذا ما ذكر علي بالفعل في أول محاضر المشاورات بأنه خليفة فيكون قد تم بهذا مصادرة أهم قرارات المحكمة وكان أن قبل أبو موسى الأشعري هذا المنطق . وهكذا كان علي قد عزل ـ على نحو أو آخر ـ فلقد تنازل ممثله عن منصب الخلافة لعلي . أما القائد عمرو فكان يتصرف بحسم : فقد أعلن موكله ـ والي دمشق ـ أميراً للمؤمنين وبهذا بلغ الإنقسام أوجه : ففي العالم الإسلامي خليفتان يقف كل منهما في مواجهة الآخر .

أما قواد علي ، الذين ظلوا على إخلاصهم له حتى هذه اللحظة ، فقد ثارت ثائرتهم لهذا التطور في الأحداث . فرموه بالضعف لعجزه عن الدفاع عن نفسه ضد أعمال المحكمة الباطلة ، وكان الموت لعلي أفضل من هذا العار . إلا أن علياً دافع عن نفسه ضد هذا الإتهام : « إن حبي لأبنائي وخوفي من ضياع نسل النبي دفعني إلى التراجع » وقد أثار هذا الموقف الساخطين لدرجة أنهم أعلنوا تمردهم صراحة فانفصل من جيش علي أربعة آلاف مقاتل ورفضوا في تلك اللحظة تلبية أوامره وقد أطلق المؤرخون العرب على هذه الجماعة اسم « الخوارج » الذي صار شعارهم « لا حكم إلا لله » .

وانعزلت جماعة الخوارج بعد ذلك وأقامت عند دجلة ، بالقرب من بغداد التي كانت حينذاك قرية صغيرة . وقد حاول عليّ منع انسحاب الخوارج بخطبة : « في اليوم الذي رفع فيه أهل الشام المصاحف على الرماح مخادعين قلتم لي إنهم إخوتنا ورفاق عقيدتنا . وقد أشاروا علينا بكتاب الله أنهم لا يبغون قتالاً ضدنا وكان علينا أن نقبل اقتراحهم بالهدنة وإقامة المحكمة . ولهذا كظمنا غيظنا ضدهم . أما أنا فقد قلت حينذاك : « إن فعلنا ما تريدون فلسوف نبدأ بالرحمة وننتهي بالنحيب على مصيبتنا إلاّ أنكم لم تقتنعوا . فنفذتم الهدنة وأقمتم التحكيم .

إلا أن قـواد الخوارج ردوا بعنف ، فـطلبوا بـأن يعـرف علي بـأن قبـولـه للتحكيم عمل باطل لأنه أقام حكم البشر فوق حكم الله . فحكم الله كان سيظهر في نتيجة القتال بين الجيشين . إلا أن علي أصـر في رده على أن التحكيم لم يكن فكرته . بل فكرة قواده ، أما الخوارج الذين صمموا على هجر علي ، فلم يقبلوا المناقشة أو المشاورة ، وقد خرج علي في النهاية بنتيجة : سوف أضطر لمحاربة هؤلاء الرجال الذين ما زال مسلكهم يشكل لغزاً بالنسبة له ، ولقد رأيت بعيني أنـه لم يتبق من الخوارج إلا عشـرة أفراد إلا أن هؤلاء سيكـونـون بـذرة الإنشقاق ».

وعندما اضطر علي بالفعل لقتال الثائرين قـال : « لقد أخبـرني الرسـول ذات مرة بنبأ هذا القتال ، وأنا أذكر نبوءته فقـد قال لي : (مـا معناه) يـا علي سوف تقاومك فرقة ، هي على الباطل ، وسوف تنال ثواباً عظيماً إن استأصلت شـأفتها » . وكان مركز قوة علي في الكوفة ما زال على عهده السابق ، إلا أن الخليفة (خليفة على جزء فقط من الدولـة) . شعر بـأن الوقت يعمـل لصالـح معاوية . وقد أوردت الروايات كلام علي اليائس : « لقد استنفرتكم للجهاد فلم تجـاهدوا ، وطلبت منكم الـطاعة فلم تـطيعوني وأنـا آمـل أن يبادلني معـاويـة معاونيه ، ولسوف أعطيه عشرة من عندي مقابل واحد من عنـده » . وفي خطبـة الجمعة نادى علي في جامع الكوفة للجهاد ضد معاوية الذي خدعه ، هو أقرب آل بين النبي ﷺ . إلا أنه لم يستحث أي استعداد للقتال . فينتهي الأمر بعلي إلى القنوط : « والله الذي نفسي بيده، لقد خذلتموني، وصـار كلامي يـزعجكم ورجعتم به خلف ظهوركم . أما معاوية فسينتصر مع أنه على باطل» والآن نمـا في عقل البعض في الكوفة فكرة أن علياً لم يكن الرجل المناسب لتقلد منصب الخليفـة . فقـد انهـارت سلطة عليّ . وكـانت النتيجـة سيـطرة الفـوضى على البلاد ، فعم احتقار القانون وصارت العصابـات ترهب سكـان القرى والمـدن على ضفاف دجلة . أما الجمهور الذي عانى من انحطاط الأخـلاق فقد أحـال ذنب ما حدث على الخليفة علي « لقد طعن في السن » كان هذا هو الرأي الذي سرعان ما ساد بلاد النهرين .

استمر زمن العنف والفوضى أكثر من عامين . ثم كان أن أقسم ثلاثة رجال على استئصال أسباب المصيبة التي أحاقت بالعرب . وقد شعر هؤلاء الثلاثة في الشهور الماضية بالتعاطف مع الخوارج . إلا أن حنقهم لم يكن موجهاً ضد علي فحسب . فقد رأوا في ثلاثة أشخاص ذنب انهيار الإمبراطورية العربية ـ التي انتهت إلى الإنقسام . فقرروا التخلص من ثلاثة آفات : الخليفة علي الذي فقد السيطرة على الإمبراطورية ، ومعاوية الذي زعزع السلطة من الخليفة . وعمرو بن العاص الذي ساعد سيده معاوية للقضاء على سلطة الخليفة بالخداع والحيلة . وقد قررت الخطة قتل الثلاثة في يوم جمعة من شهر رمضان أي اليوم السابع عشر من رمضان عام ٤٢ هـ والذي يوافق في ٢٤ يناير عام ٦٦١م على أن تجري عمليات الاغتيال في الكوفة ودمشق والفسطاط ـ المستعمرة العسكرية على النيل ـ وبالرغم من التحضير التام لعمليات الاغتيال إلا أن علياً فقط هو الذي قتل في يوم الجمعة هذا بضربة حجر . أما عمرو فقد نجا لأنه في يوم الجمعة هذا شعر بتوعك وفي الساعة المعتادة لخروجه خرج من منزله بالفسطاط قائد من حراسه فقتل . ولم تنجح عملية الاغتيال في دمشق لأن الرجل المكلف بقتل معاوية كان قد تم اعتقاله قبل ساعات قليلة من ساعة تنفيذ خطته . أما علي فكان قد سار على قدميه في صباح الجمعة قاصداً الجامع للصلاة ليقابل قاتله الذي كان قد تربص له في الحارات الضيقة المحيطة بالكوفة .

شيعة علي تبايع الحسن

كان الفزع هو رد فعل أهل الكوفة على خبر موت علي . وقد ارتجفوا بسبب مسلكهم في الماضي ولخوفهم في المقام الأول من المستقبل الذي ينتظرهم. فقد كان علي السد الحائل ضد خضوع أهل بلاد الرافدين لأهل الشام المبغوضين لكنهم الآن فقدوا زعيمهم الذي كان يعرف دائماً ـ حتى لو كان أنصاره جبناء ـ كيف يستخدم سيفه « ذا الفقار » والآن يطلب أنصار علي أن يتسلم ابنه الحسن هذا السيف ، لأنه يجب التحسب لخروج جيش معاوية من الشام أما زعماء المسلمين ، والذين خذلوا علياً ، فقد أظهروا الآن فجأة الاستعداد لقتال حاسم. فاجتمع ٤٠ ألف مقاتل في الكوفة لحرب معاوية . وكانوا قد بايعوا الحسن أكبر أبناء علي وفاطمة ابنة النبي ﷺ . ولم يتقين العلماء ، إذا ما كان الحسن قد ولد في العام الثالث أو الرابع للهجرة ، ولكن ولد على كل حال بعد هجرة محمد ﷺ والتي قام به أيضاً علي وعندما مات علي لم يكن الحسن قد أكمل عامه الأربعين بعد . وقد اتفقت الروايات على أن الحسن لم يظهر فرحاً لتولي الحكم وقد أدرك علي نفسه أن ابنه لا يهتم بالسياسة أو لا يظهر تفقهاً لها في الدولة الإسلامية ولقد كان للحسن اهتمامات شخصية في صباه المبكر ، وهكذا اكتسب لقب المطلّق وذلك لتغييره الدائم لزوجاته فلأن الإسلام لا يصرح له بأكثر من أربع زوجات ـ باستثناء النبي سمح له بأكثر من هذا العدد ـ كان الحسن يطلق زوجة ليحل محلها أخرى ، يكون زواجه منها أيضاً مؤقتاً . وقد قام بعض الرجال ـ غير الراضين عن مسلك

الحسن ـ بوضع قائمة لزوجات الحسن فبلغ عدد نساء هذه القائمة مائة امرأة . وكان من نتيجة هذا أن التصقت بالحسن سمعة سيئة ألحقت سلطته السياسية بالخسارة. في البداية عمّ التفاؤل بين أنصار شيعة علي في بلاد الرافدين بالحاكم الجديد . إلا أنه سرعان ما استبد بهم الغضب وقد عسكر ٤٠ ألف مقاتل في مدينة الكوفة وحولها ، وكان العسكر يطلبون رواتب وطعام ويطلبون إمدادهم بالخمر ، الذي حُرم على المسلمين . ولما كان المطلوب تجنب النزاع والصراع انتشر الملل بينهم، وكان الحرفيون والتجار ينظرون إلى هذه التطورات بعدم الرضا . فألحوا على حاكمهم بأن يدفع تلك الشرذمة المسلحة إلى الحرب بأقصى سرعة ممكنة ، فهجوم أهل الشام على بلاد الرافدين صارت تزداد احتمالات وقوعه بين يوم وآخر . وبعد عدة أسابيع من التردد لاحظ حتى أنصار شيعة علي المخلصين أن مسلك حفيد الرسول يعد على الأقل غريباً فانتشرت إشاعة تقول أن الحسن يتفاوض مع معاوية على قيمة المبلغ الذي سيدفعه بيت مال الشام في حالة تنازل زعيم شيعة علي عن منصبه في الدولة .

أما تطابق هذه الإشاعة مع الحقيقة فلم يكن يعرفه حتى هذه اللحظة إلا الحسن وأقرب المقربين إليه . ولما طال أمد المفاوضات كان على الحسن أن يخرس الإشاعات . فصار التردد يمثل خطراً عليه ـ فقد شرع الساخطون يألبون المشاعر بين صفوف الجند ضد الخليفة المتردد ، ولذلك أمر الحسن أخيراً بخروج الجيش لملاقاة حلفاء معاوية . أما هو نفسه فقد بقي في الكوفة لكي يصلي من أجل شيعة علي ـ حسب قوله هو . إلا أنه سرعان ما فقد الأمل من سماع أخبار انتصارها . وفي نهاية الأمر اضطر الحسن للحاق بقواته وعندما وصلها أدرك أن حالة قواته ميؤوس منها فكانت معنويات جنده القتالية قد انخفضت وفقدت كل حماسها ، ورأى الحسن قواده وقد ركبهم الذعر ففقدوا كل سيطرة على رجالهم . وكان أن حدث أثناء نقاش حامٍ أن قام أنصار الحسن حفيد النبي ﷺ بضربه وإصابته بجروح .

عندئذ فقد الحسن الأمل في نهاية طيبة لمعركته مع معاوية وأدرك في يسر أنه خسر معركته السياسية فقرر الحسن التعامل مع معاوية في الحال. فأرسل

مبعوثا إلى دمشق بغرض محدد للتنازل فرد عليه معاوية فوراً بأنه مستعد أن يكافىء الحسن بسخاء وفي حالة تنازله عن كل الحقوق التي حصل عليها بانتمائه لعائلة النبي ﷺ . وكان العرف ينص على أن يقوم الحسن بنفسه بتحديد المبلغ الذي يراه مناسباً . وفي رده قام الحسن بتحديد مطالبه مقابل تنازله عن الخلافة يطلب خمسة ملايين درهم ـ مرة واحدة للأبد ـ ويمنح طيلة حياته إقليم غني في فارس وتعادل قيمة هذه المطالب الآن عشرة ملايين دولار . وقد مدّ الحسن إثر التنازل عن الخلافة على أخيه الحتسين أيضاً ، فبيع حقوق الأخير تعني نصف المبلغ الذي طلبه الحسن لنفسه ولكي يبرر الحسن خيانته لقضيته ببيع حقوق بيت النبي ﷺ ردّد الحسن مقولة مزعومة عن الرسول ﷺ تضفي على استسلامه صيغة تقديس إطاعة مشيئة الله . ونصّ المقولة هو : « بحسن يجعل الله حزبي الإسلام المتناحرين أمة واحدة » . ولما كان أهل الكوفة مبهوتين لما حدث فقد أقروا تنازل حفيد النبي ﷺ عن السلطة في الدولة الإسلامية . واستمعوا إلى خطبته الأخيرة في الجامع غير مبالين . وقد قام الحسن بمحاولة تبريره للتنازل عن السلطة : لكل قوة حين حدده الله أو لقد أخضع الله الدنيا للتغير المستمر ولقد قال الله للنبي ﷺ : « **لقد أعطيتم الدنيا لحين . ولما كانت طاعة الله مفروضة علينا فإني خاضع لأمر الله** » . لم يكن قد مضى على وفاة علي إلاّ ستة أشهر وها هو بيت النبي ﷺ يفلس وها هي سلطة المطلق تنتهي بسرعة وبلا ذكر .

وكان أهل الكوفة يعتبرون الحسن خائناً أما الحسين فكانوا ينظرون إليه على أنه ضحية أخيه . ولقد قبل الاثنان الخضوع أمام تسلم معاوية الشرعي للسلطة وأقروا بنزع الخلافة عن بيت النبي ﷺ . وكان معاوية قد نظم أمر حضورهما لطقوس التسليم . بعد ذلك صار الحسن والحسين في الكوفة شخصين غير مرغوب فيهما فرحلا إلى المدينة وأصبحا لا يمثلان خطراً على الحاكم الشرعي .

أمنية الرسول لا تلبى

يؤمن الشيعة بأن النبي ﷺ كان يبغي حفظ أعلى سلطة في الدولة الإسلامية لأفراد عائلته . ومن هنا نفهم أمر تفضيل علي ، والذي قام بدوره بتسليم القرآن والسيف « ذا الفقار » إلى الحسن .

ومن الجلي ـ طبقاً لرؤية الشيعة ـ أن الرسول ﷺ كان يشاء إنشاء أسرة حاكمة من آل بيته تحكم حتى قيام الساعة . إلى أن ما حدث بعد موت النبي ﷺ في عام ٦٣٢ م هو أن أهمية دين محمد ﷺ بقيت على حالها إلا أن إرادته السياسية لم تتحقق فلم ينجح محمد ﷺ في إقناع رفاقه بانقضاء عادة أهل شبه الجزيرة العربية في انتخاب زعيم لهم من خلال المبايعة وكان هذا التقليد متبعاً عند القبائل منذ نشأة الفكر الإنساني وكان شيوخ القبائل يستغربون فكرة وجود حاكم يحكمهم ويرغمهم على تنفيذ إرادته . وإنشاء أسرة حاكمة من آل بيت النبي ﷺ كان يتساوى مع تأسيس مملكة . وقد أدى تسلم أبي بكر للسلطة بهذه السرعة إلى الحيلولة دون وراثة العرش عام ٦٣٢ م . وبعد ٢٤ عاماً عندما قبل عليّ مبايعة المؤمنين له في جامع المدينة كانت فكرة حكم آل بيت النبي ﷺ للأبد قد انسلت من وعي المسلمين . وشيئاً فشيئاً كان قد فتر الشعور بأن قائد الدولة الإسلامية يكون مسؤولاً عن الأمور السياسية والدينية معاً . فلم يطلب من الخليفة ـ خليفة رسول الله ﷺ ـ الإتيان بآيات أو القيام بتغيرات ثورية في الدين ـ وهكذا ظل منصب الخليفة يكتسب ثقلاً سياسياً أكثر .

فأثناء خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ، أخذ خليفة رسول الله ﷺ يصير بسرعة حاكماً دنيوياً ـ أي ملكاً .

وكان سبب عدم تلبية أمنية الرسول ﷺ في قيادة آل بيته للمؤمنين ، هو انتظار علي قرابة ربع قرن لهذا الأمر فشيعة علي كانوا قد فقدوا جذورهم في قلوب المسلمين . وصارت الشيعة فرقة من فرق الإسلام . ومع أنها بقيت عنصراً من عناصر العالم الإسلامي إلا أنها استبعدت من أي قرار سياسي . وكان الحسن هو الذي حقق التخلي عن السياسة وقد هجر الناس الذين آمنوا به . لقد باع المنصب الذي تركه محمد ﷺ لنسله ـ من أجل المال ـ وصار حفيد النبي ﷺ هذا لا يشكل خطراً على معاوية ، فقد عاش الحسن منعزلاً ولم يشك ضيق ذات اليد ، فالمال الذي دفع له مقابل تنازله عن الخلافة كان يكفيه . ولم يمتد العمر بالحسن فقد مات في العام ٤٩ هـ وكان سن حفيد الرسول حينذاك ٤٥ عاماً تقريباً . ويقال إنه مات بالسل والهزال .

وقد حاولت شيعة علي في القرون اللاحقة تجميل صورة هذا الزعيم الضعيف التعس . فقد اجتهدت في جعل الحسن ضمن شهداء المذهب الشيعي . فنشأت لذلك روايات تقول أن الحسن قتل بتدبير معاوية . فكانت أسمة ـ التي صارت أقرب نساء الحسن لقلبه في أواخر أيامه ـ قد حصلت على منشفة من دمشق كانت عولجت بسم خاص وقد أشير عليها باستعمالها لها كالتالي : « بعد أن يقذف حسن بمنيه فأعطه هذه المنشفة كي يجفف بها ذكره » ويروى أن هذه المرأة ـ أسمة ـ قد وعدها رسول الخليفة في دمشق ، بأن يتزوجها ابن معاوية ، إن هي قتلت الحسن ، وكانت أسمة تملك طموحاً شخصياً ولقد أدركت أن الحياة مع الحسن خالية من مستقبل واعد . فقد كان المنتصرون في الصراع على السلطة في الجزيرة العربية هم سادة دمشق وليس أبناء بيت النبي ﷺ . ويروى أن أسمة قامت بعد اتصال جسدي بإعطاء المنشفة للحسن ليطهر بها نفسه ، فسرى السم من خلال ذكر الحسن إلى جسده ، ومات حفيد النبي ﷺ نتيجة تشنج حاد . ولكن من المستبعد أن يكون معاوية ضالعاً في موت الحسن ، فمثل هذه الجريمة غير الضرورية لن يقدم بها الخليفة الذي

أدرك تماماً أين الرجل المهم وأين الرجل الذي صار في الظل . ولم يعد لـدى معاوية ما يخشاه من الحسن ، الذي دفع له أجره . وهذا الحاكم بالذات من بني أمية يعرف إمكانية الموت السياسي المشتبه فيه بالإشتراك في عملية اغتيال مثل هذه .

فمعاوية نفسه قد ألب المشاعر ضد علي بإثارة الظنون بأن « علياً » قد شق طريقه للسلطة بقتله الخليفة عثمان .

بموت الحسن تقدم الحسين ـ ابن علي وفاطمة أنبته النبي ـ ليتزعم حزب الشيعة ، وكان الحسين يصغر الحسن بسنة أو سنتين ـ ويقال أن جده محمداً ﷺ قد أحاط حفيده الحسين بحنان كبير . وقد عاش الحسين منعزلاً أثناء خلافة أبيه عليّ . كما أن الأخبار عن الأخ الأصغر قليلة أثناء فترة محاولة الحسن للحكم . ويقال أن الحسين لم يكن موافقاً على تنازل الحسن عن الخلافة . ويروى أن الأخوين عاشا في نزاع بعد أن تركا الكوفة إلى المدينة والآن ، بعد أن مات الحسن ، أثبت الحسين ذكاءً . فقاوم إغراءات خصمه بسرعة تنشيط شيعة علي في بلاد الرافدين فلقد خبر تأرجح هؤلاء ، فلم يشأ الحسين التعامل معهم .

وقد كشف حفيد النبي هذا عن موقف شريف متحفظ ، ولكن غير معاد بالمرة تجاه معاوية عدو سلالة النبي . وإلى هذه اللحظة كان الحسين واقعياً فقد أدرك أن بني أمية يحكمون قبضتهم على الإمبراطورية الإسلامية الواسعة . وبإحساس مرهف اختار معاوية الرجل الذي كان عليه أن يحكم منطقة الكوفة . فقد اكتسب معاوية واحد من دعائم حكم علي لنفسه خبيراً بالإدارة أما اسمه فكان « زياداً ». وكان قد عاش هذا الرجل أثناء حياة علي وهو يعاني من عار بنوته لجارية . فقد كانت سمية ، أمه ، ملكاً لأم معاوية وكان أبو معاوية أيضاً أباً لزياد إبن الجارية . أما أثر الفرق بين الأمرين : أن زياداً كان ينظر إليه كعبد ، بالرغم من استخدام علي له ، وقد أدرك معاوية إمكانية كسب هذا الرجل واستغلها . فتبنى هذا الأخ غير الشقيق وبهذا أعطاه الحق الكامل في الإنتماء

لبني أمية . وبهذا ظل زياد عارفاً بجميل معاوية . وقد قام زياد أثناء خدمته لبني أمية بالعمل على الأمن والنظام على ضفاف دجلة والفرات . وصارت بلاد الرافدين ، المعبر الإستراتيجي الهام بين العاصمة دمشق والولايات الشرقية في فارس ؛ منطقة امنة ومحررة من العصابات التي كانت تتحكم في المدن والقرى هناك منذ خلافة علي . ومن خلال الأمن في بلاد الرافدين استمدت الدولة الإسلامية قوة لفتوحات جديدة في الشرق ، فانطلقت قوات المؤمنين مدمرة الملك الصغيرة جنوبي بحر الأرال ومحتلة مناطق حدود شبه القارة الهندية . وقد أستطاع معاوية إنجاز إيقاف الصراع والتنازع بين المسلمين فلم تعد الجيوش تستنزف قوتها في الصراعات الداخلية ، فتركزت هذه القوة في فتوحات جديدة . وقد قدر الحسين هذا النجاح للخليفة . فلم يعمل على اضطراب أعمال حكومة معاوية . فقد كان الحسين يمارس التمنع السياسي . ويروى أن الحياة الهادئة لحفيد النبي ﷺ هذا قد أنهاها حلم، فقد رأى أثناء نومه أن كرسي الخليفة معاوية قد انقلب في قصر يحترق . وبعد أن أفاق من نومه عرف الحسين أن معاوية قد مات هذه الليلة . فشعر بخطر وتحدٍّ قادمين عليه .

لما كانت فكرة إقامة أسرة حاكمة لدولة الإسلام لم تتحقق أثناء السنوات الأولى بعد وفاة النبي محمد ﷺ ، فقد تغير فكر الناس أثناء حكم الخليفة معاوية . فقد أنس أصحاب النفوذ فكرة أن يكون الحاكم ابناً للحاكم السابق . ولم تصطدم مبدئياً رغبة الخليفة في تسليم ابنه الحكم بالرفض ، لكن الرفض كان لشخصية الإبن ، يزيد . فقد كان مستخفاً مستهتراً لا يقوى على تحمل المسؤولية. وكان أن قال أحد الرجال البارزين ـ في المدينة ـ والذين يذكرون العهد الذهبي الذي حكم فيه النبي ـ « علينا أن نبايع من يداعب الكلاب والقرود ، من يشرب الخمر ويرتكب الآثام علناً ، كيف نكون مسؤولين عن هذه البيعة أمام الله ؟ » ولكن معاوية نفذ رغبته . فجعل قبل موته الشخصيات الهامة في كل الولايات يقسمون بالولاء لابنه يزيد ، ويموت معاوية في أبريل عام ٦٨٠م، أي في العام الهجري الثامن والخمسين . وبعد أيام قليلة من موت الخليفة استدعي الحسين إلى مقر إقامة حاكم «المدينة» وهناك وضع أمامه هذا

النص : بسم الله الرحمن الرحيم « هذا الكلام أملاه يزيد الفقير لله ، أمير المؤمنين .

لقد عاش معاوية طبقاً لأحكام الله وهو الذي كرمه بالحكم والحياة ، تولاه الله برحمته في الوقت الذي حدده . فقد دنا أجل معاوية . لقد مات الخليفة شريفاً ورعاً . وأنا يزيد خليفة وعلى أهل البلاد أحراراً وأرقاء ، مبايعتي وإعلان طاعتهم وخضوعهم لي » .

وقد كان الحسين من هؤلاء الذين تحفظوا تماماً ضد شخصية يزيد . ولما كان لا يرغب في الإنتظار لمبايعة سريعة فقد طلب من والي المدينة منحه مهلة حتى يوم الجمعة القادم ليعلن مبايعته للخليفة يزيد في المكان الصحيح. وفي يوم الجمعة كان ممثل الخليفة ينتظر حفيد النبي الحسين بلا جدوى وسقطت المبايعة لأن الحسين فر إلى مكة في الليل . وبهذا ظهر عدو جديد لبني أمية . وهكذا انتهت الفترة الوجيزة لوحدة العرب في عهد معاوية ومن جديد بدأ عهد الإنقسام والحرب الأهلية .

ولم يمض إلا أسبوعان حتى وصل إلى بلاد الرافدين خبر إعلان حفيد النبي خصومته ليزيد . وبذلك بدأت شيعة علي في رفع رأسها . فأحس والي الخليفة في الكوفة بأن عليه أن يخطب بعد صلاة الجمعة مبيناً مخاطر الحرب الأهلية على وجه العموم . وقد استمع له أهل الكوفة إلا أن كلمات الوالي فقدت تأثيرها عليهم . فقد كانوا أرسلوا رسلهم لملكه يطلبون من الحسين تقلد منصب الخليفة عندهم . أربعة رجال كانوا قد غادروا الكوفة على إبل سريعة متخذين أربع طرق مختلفة حتى يحدوا من خطر فشل البعثة لتنبه دوريات الصحراء للخليفة يزيد .

وكان الرجال يحملون رسائل ، كان مجموعها مائة وخمسين ، كانت تحمل توقيعات عدة آلاف من أسماء رجال الكوفة الذين أرادوا التعبير من خلال توقيعهم عن رغبتهم في العودة بالحسين حاكماً على الكوفة .

وقد وصل الرسل الأربعة إلى هدفهم . وأعطوا رسالة أهل الكوفة إلى

حفيد النبي ، إلا أن الحسين لم يظهر ميلاً بتلبية نداء الذهاب إلى بلاد الرافدين . فقد كان لا يزال يذكر جيداً أن حكم عليّ والحسن في بلاد الرافدين قد انتهى بكارثة وعار . وكان الحسين يخشى التحول المرض لأنصاره في تغير رأيهم وكذلك خشى الخيانة . إلا أن شيعة علي لم تتراجع عن خطتها في الحصول على الاستقلال عن الخليفة في دمشق وذلك من خلال الحسين ، فأرسلوا من يبلغ الرجل المتردد بأنه صار هنا ١٢٠٠٠ رجل يقدمون حياتهم للحسين في الحرب ضد يزيد . فحثت هذه الرسالة الحسين بالتخلي عن تردده في الذهاب إلى الكوفة فقد ظن أن الاثنتي عشر ألف مقاتل يكفون لإيجاد أساس قوي لسلطة بيت النبي ﷺ . فمضى الحسين في طريقه ولكنه كان حريصاً فأرسل قبله مسلم بن عقيل آملاً من خلال تقاريره أن يحصل على المعلومات الضرورية حتى يستطيع تحديد إن كان سيدخل المدينة ولم يكن الموقف الذي وجده مسلم بن عقيل مشجعاً كثيراً . فكان التدخل الحاسم للحاكم الجديد في الكوفة المخلص لسيده يزيد ، كان قد حد بالفعل من عدد أنصار الحسين. أما الحاكم الذي كان قد وصل الكوفة مؤخراً ، فلم يتحدث عن ويلات الحروب الأهلية ، ولكن هدد كل من أعلن مناصرة الحسين .

ومرة أخرى يحل اليأس بعد الحماس بأنصار بيت النبي ﷺ . فشعر الحاكم الجديد بأن إخافة الناس قد عادت عليه بالنفع . فأمر أهل الكوفة بأن يبحث كل منهم بين أقاربه أو جيرانه عن ثوار شيعة علي وأن يبلغ عن المشتبه فيه . وهكذا سيطر الشك على أهل الكوفة. وقد ضمن الحاكم وجود رجل من عشيرة الحسين في الكوفة. فقام عملاؤه ببحث منظم وسرعان ما عرفوا بوجود ابن حفيد النبي ﷺ في منزل أحد أنصار شيعة علي فاستدعى الحاكم الرجل الذي أخفى مسلم بن عقيل وكواحد من أنصار شيعة علي لم يخف هذا الرجل تعاطفه مع الحسين. وهنا ثار حاكم المدينة لهذا العناد الجامح لدرجة أنه جلد هذا الرجل ورمى به في السجن . وكان الرجل المنكوب أحد أعيان الكوفة ، فأثار ما حدث في قصر الحاكم مشاعر أنصار الحسين . فاجتمعوا أمام القصر مرددين لهتافات الكراهية ضد الخليفة يزيد وواليه في الكوفة . فلمّا لم يظهر

القصر رداً على ثورة الجماهير بسرعة . شرع المتظاهرون في التفرق شيئاً فشيئاً . إلا أن الغضب تفجر مرة أخرى ، عندما أعلن في المدينة أن ابن حفيد النبي ﷺ اعتقل واقتيد إلى القصر . ومن جديد تجمع أنصار شيعة علي إلا أن حصن الوالي ظل مغلقاً أمامهم . فرأى الحاكم أن يلقن الجماهير درساً . فأوقف ابن الحسين على سطح مقر الحاكم وجعله ينظر على الجماهير التي تجمعت في قلب المدينة . ثم ضرب الجلاد عنق مسلم بن عقيل بمهارة أطارت برأسه مرة واحدة وسقطت وسط الجماهير . وبذا أعطى الحاكم تحذيراً لكل من يحلم باستعادة السلطة من خلال الحسين. فلم يعد هناك في الكوفة من يظهر ميلاً لدعم قضية الحسين . أما حفيد النبي ﷺ ، الذي كان مسلكه في البدء حريصاً ومتروياً ، صار فجأة متعجلاً . وقد كان قد وصل على مقرنه من الكوفة وفي عجلته أمر آل بيته ، زوجاته وخدمه ، بمغادرة مكة ، والإتجاه إلى الكوفة ، وقد أتى الحسين وأسرته جمعاً من آخر يوم من العام الستين الهجرية - سبتمبر ٦٨٠ م - بمدينة القادسية ، التي تقع على بعد ١٠ كيلومترات من الفرات ، وفي الطريق انضم إلى الحسين نفر قليل . ففي الطريق في الصحراء لم يقدم إليه إلاّ جماعات قليلة في البدء لمناصرته ، وفي القادسية عرف الحسين بمقتل ابن عقيل الذي كان قد أرسله كمستطلع إلى الكوفة .

وحتى هذه الساعة كان يأمل في دخول المدينة دخول الفاتحين محاطاً بترحيب شيعة علي . والآن تحطمت الآمال في استعادة الخلافة ولم يكن هناك تفكير في الرجوع .

وكان قد تتبع قافلة آل الحسين - على مسافة بعيدة - فرسان من المدينة وكانوا قد أخذوا الأمر الواضح بمراقبة ما يقوم به حفيد النبي . أما التدخل الفعلي فلم يكن يتم إلا في حالة تفكير الحسين في العودة إلى المدينة . وقد شاء يزيد أن تبقى من الآن فصاعداً الأماكن المقدسة - مكة والمدينة - مغلقة أمام آل بيت النبي ﷺ سلالة رسول الله . أما ما ظل مغلقاً أيضاً فكان طريق الحسين إلى أنصاره في الكوفة وقام حاكم المدينة بتنظيم حاجز من الفرسان والراجلين ليمنع قافلة الحسين من التقدم .

ولمـا أدرك الحسين الخطر ، قـام ـ بدافـع الخوف من عـزلـه عن المـاء الضروري للحياة ـ بتوجيه جياده وإبله الحاملة لهوادج النساء والـزاد إلى القرب من الفرات . فقد كان يريد أن تطول المواجهة بينه وبين خصومه . وكان قصده هو المناورة بأحقيته كحفيد النبي ﷺ ، حتى يستطيع أن ينجو بحيـاته ـ وربمـا بكرامة ـ من هذا الموقف الحرج .

أما المباحثات الأولى التي جرت بين الحسين وقائد قـوات الخليفة فقـد طبعت بقواعد العرب الممتازة في اللياقة . فقد احترم القائد الـدمشقي الأصل الرفيع لخصمه . فقد كان هو نفسه ابناً لأوائل صحابة النبي ﷺ .

ونظر القائد بحيرة إلى جـوادين كبيرين مملوءين بـالورق عـرضهما عليـه الحسين وكـان على الأوراق توقيعـات الـرجـال الـذين طلبـوا من حفيـد النبي الحضـور إلى الكـوفـة . ويـروى أن رد فعـل القـائـد كـان عبـارة عن الكـلام التالي : « أما أنا فلم أوقع ، وهذا ما هو ثابت ، ولهذا فهذه الأوراق لا تهمني في شيء » وطالت المباحثات بين الحسين وقائد قوات الخليفة لعدة أيام . أما حاكم الكوفة فكان ينتظر حلاً سريعاً ونهائياً للمشكلة فوجه إلى القائـد التوبيـخ : بأن ضاعت الفرصـة لصنع جميـل للخليفة في دمشق . وكـانت النتيجة أن الـرجل ـ الذي أجرى المباحثات مع الحسين ـ قرر قتل الحسين بأي صـورة ولا بد أن يكون هذا القرار قد اتخذ في عصر يوم ٩ أكتوبر ٦٨٠ م . أي في بداية العام ٦١ من الهجرة .

وكـان أن وجه إنـذاراً أخيراً إلى الحسين : فـأما المبـايعـة في دمشق أو القضاء عليه في المعركة . فطلب الحسين مهلة للتفكير أثناء الليل ويؤمن شيعة اليوم أن الحسين كان يحتاج ذريعة ، لأنه كان قد أصر ـ من فترة طويلة على عدم التسليم للخليفـة يزيـد . ويروى أن الحسين في تلك الليلة قـد صرح بـأقـوال جديرة بالملاحظة . كان النهار حاراً ولم يرطب الجو إلا في منتصف الليل . وقد جلس الحسين على بساط على الرمـل مع قلة من الرجال الذين بقوا معه . فقد كان الرجـال المسلمون الـذين انضموا إليـه أثناء الـطريق ، قد رحلوا عنـه منذ

أيام . ويروى أن المتبقين من الأنصار قد سمعوا أن الويلات ستحل بالعالم العربي من خلال سلالة النبي ﷺ .

فرسول الله وعلي كانا مباركين أما الحسن والحسين فقد سمحا بتدبير الإنقسام للدولة الإسلامية . والآن يجب وضع نهاية لهذا الفراغ المخرب ولم ينم الحسين إلا قليلاً في هذه الليلة . وقد روي أنه مع طلوع الشمس استيقظ الحسين بأفكار تواسيه .

فيروى أنه رأى في منامه أن النبي قد ظهر له وقال « **في الليل ستكون عندنا في الجنة ، والإنتقال من الحياة إلى الموت ليس مهماً ، فالموت ينهي كل الآلام ، وقد بشرتك ذات يوم بالجنة . كلمتي ستعطيك ثقة وسوف تقودك** » . وكان أن بكت نساء الحسين وانتحبن لهذا الكلام . ولكن الحسين طلب منهن التماسك : « إن بكينا ضحك العدو ومن منا يريد غبطه على هذا الضحك » . كربلاء هو اسم المكان الذي استعد فيه حفيد النبي محمد ﷺ لآخر قتال له . وكان معه ١٥٠ مقاتلاً . ويقدر مؤرخو الشيعة عدد خصمه بـ ٥ آلاف وبمثل هذا التفاوت في القوة لم يكن هناك أوهام عن نتيجة القتال . ولمرة أخيرة حاول زعيم شيعة علي استخدام عنصر الإقناع . وقد كان رجلاً ذا كلام ساحر خاصة في وقت الشدة ، فركب الحسين ناقته كلماته تعبر أقاربه وأنصاره الملتفين حوله فسيسمعها أعداءه . وقد بقيت هذه الكلمات للشهيد الحسين مقدسة عند الشيعة حتى اليوم .

وقد استخدم الحسين كثيراً من عناصر الفصاحة ، فاستعان بالمبررات ، وعبارات الرجاء ، والتهديد المباشر إلا أنها بقيت بلا أثر . وفي قيظ الظهيرة أصاب الوهن صوت الحسين فجف حلقه وشفتاه ولسانه بفعل العطش. وأخيراً انتهت الخطبة . وصار القرار للسيوف . وبدأت المعركة بالمبارزات التي انتهت بمقتل رجل الحسين أو أحد رجال الخليفة ، ولما كان أعداء الحسين يتفوقون عدداً ، فقد استطاعوا تحمل الخسارة بسهولة أكثر من القوة الصغيرة لأنصار الشيعة . وهكذا ذابت بسرعة الجماعة التي أحاطت بالحسين ، وفي النهاية كان قائد الخليفة يزيد قد ضاق بالمبارزة ففتح قتال الساحة . إلا أن مقاتلي الأمويين

لم ينجحوا بسرعة في كسر الحلقة حول الحسين ، وكان العطش قد أصاب المهاجمين والمدافعين إلا أن رجال الحسين كان العطش قد أثر فيهم بصورة خاصة لأن العدو كان قد حال بينهم وبين ماء الفرات . وهكذا خارت قوتهم بحلول العصر . فانكسرت الحلقة حول الحسين ، فصار على حفيد النبي ﷺ الآن أن يستخدم سيفه ، ويؤمن كثير من أهل الشيعة أن السيف الذي كان بيد الحسين هو « ذا الفقار » ، الذي دافع به عن نفسه النبي ﷺ وعلي ، وقد أجمعت روايات المؤرخين أن الحسين قاتل ببسالة عظيمة وعندما انكسر حفيد النبي ﷺ أمام اليد العليا للخصم في النهاية كان قد أصيب بأربع وثلاثين ضربة سيف وثلاث وثلاثين رمية نبال .

ويروى أن قائد أعداء الحسين قال عن موته « لم يستمر صراع الموت طويلاً ، فقد استغرق لحظات تلزم لموت ناقة » .

وفي لحظة انتصار مس مقاتلي الخليفة جان الدم . فقتلوا أنصاره وأهل الحسين بلا رحمة . وقام المنتصرون بفصل الرقبة عن جسد كل القتلى بما فيهم الحسين . وخلعوا الثياب عن الأجساد الدامية بلا رأس . ومثلوا بكثير من جثث القتلى . وقد بقيت الجثث الدامية المقطوعة الرأس بلا دفن وكان من بين الضحايا أثنان من أبناء الحسين وكان يبلغان من العمر الحادية عشرة والثالثة عشرة . وعندما هوجمت الخيام ، التي تحوي نساء البيت ، قتل طفلان آخران واحد منهما كان رضيعاً والآخر في الخامسة . وفي المساء لم يبق على قيد الحياة إلا نساء وعدد قليل من الغلمان ، فتم إرسالهم ليلاً إلى الكوفة فتركوا كربلاء باكين ووصلوا الكوفة باكين . وكان أن أثار منظر النساء القانطات مشاعر أهل الكوفة المترددين ودخلت النساء والفتيات من باب المدينة يترنحن من الكلل . أما أصحاب الفضول الذين كانوا ينتظرون هناك فشرعوا في النحيب وسرعان ما أصابتهم الهستيريا وقد سمعت هناك صرخات مدوية ، وكانت النساء تضرب صدرها ولم يكن الرجال والنساء يبكون وزر آل الحسين بقدر ما كانوا يبكون ذنبهم وإحباطهم الذي أدى إلى مقتل حفيد النبي ﷺ . أدى مصرع الحسين إلى أن تصير سلالة محمد وعلي وآل بيتهما ثانية في ضمير كثير من

المسلمين ، أنبل جنس عاش يوماً ما على أرض الدولـة الإسلاميـة وحدث ان إحدى بنات الحسين لم تستطع كظم غيظها وأحتقارها ، فصاحت بالمنتحبين: « ماذا تبكون ؟ أمصيرنا تبكون ؟ لقد أغريتمونا بالحضور هنا برسائلكم ورسلكم ثم قتل أناس مثلكم رجالنا وأطفالنا والآن تبكون على ما حدث لنا » .

وصار مصرع الحسين عند كربلاء أهم حدث في مجرى التاريخ بالنسبـة للشيعة وظل هذا الشهيد رمزاً للشيعة حتى يـومنا هـذا . فشباب الشيعـة الذين يشتركون في المعارك المشتعلة في الشرق الأوسط يتخذون قضية الحسين قدوة لهم ، والجهاد يعتبرونه واجبهم الأسمى . وتذكر الحسين يحث المحاربين على الإصرار والتضحية بـالنفس . فالحسين نبـع القوة لشيعـة اليوم . وكـان أن قام المنتصرون في كربلاء بإرسال رأس الحسين إلى دمشق حتى يسر الخليفة يزيد بذلك. إلا أن الخليفة لم يشعر بالنصر بموت زعيم شيعة علي . وقد أحس يزيد أن الحسين ميتاً لهو أخطر عليه من الحسين حياً . فقد كان انقسام الإسلام غير وارد في حالة واحدة فقط وهي مبايعـة الحسين له . فقـد قوى استشهاد حفيد النبي ﷺ شيعة علي في رفضهم للحكام الـذين لا تمتد جـذورهم إلى آل بيت النبي ﷺ . وقد قوى انقسام الإسلام عريكتهم . وأدى انفصال شيعة علي إلى تشجيـع قوى أخـرى تبغي الإنفصال عن دمشق ، في التجـرؤ على الصـراع . وهكذا نشأت بعد الأحداث الدامية في كربلاء وحركة إنفصالية في مكة المدينة المقدسة . وأثناء المعركة حدث مـا كان لا يمكن تـوقعه : فقـد حاصـر جيش الأمويين مكة وقذف الجامع الكبير حول الكعبة بالمنجنيق . فـاحترقت الأستار المحيـطة بالبنـاء المقـدس عنـد المسلمين ، واشتعلت بلهب لامـع وسقـطت رماداً .

ولم يكن قد مضى إلا نصف قرن على مغادرة الرسول ﷺ للمؤمنين إلا أن كلماته قد نسيت : « **أيها المؤمنون ، لا تتقاتلوا في ظل الكعبة** ». وبعد أسابيع قليلة فقط من الهجوم على الكعبة أي في نوفمبر ٦٨٣م يموت الخليفة يـزيد . ويقال أنه شهق شهقاً عالياً لحظة موته . ويرى الشيعة في ذلك أن يزيـداً أدرك جرمه ورأى طريقه إلى النار المخلدة . وفي دمشق كان قد تم العثور بسرعة على

خليفة جديد فمبدأ وراثة الابن الأكبر لعرش أبيه كان قد استقر . أما اسم الخليفة الجديد فكان معاوية الثاني وكذلك كان الشيعة قد قرروا تنظيم التغيير في منصب الزعامة بين أفراد آل النبي ﷺ . فقد قبلت شيعة علي قاعدة تسليم الزعامة لأكبر ابن حي من سلالة النبي ﷺ .

وكان من الباقين على قيد الحياة بعد مذبحة كربلاء عليّ بن الحسين ، شاب في العشرين من عمره فعندما قتل الأب كان عليّ بن الحسين مريضاً لدرجة أنه كان لا يستطيع حراكاً . وبهذا تفادى ضربات سيوف قوات الخليفة إلا أنه سيق مع نساء الحسين وبناته إلى الكوفة . وكان عليّ بن الحسين الإبن الوحيد له الباقي على قيد الحياة . ورأى فيه الشيعة المتشددين متلقياً للنور الذي حل بعليّ ثم الحسن ثم بالحسين .

أصغر أبناء علي لا يستطيع أن يكون نور المؤمنين ، وكان هناك ابن آخر على قيد الحياة لعلي صهر محمد ﷺ ، وكان هذا الإبن الأخير المباشر لعلي يدعى محمداً . وكان يعتبر علماً خارقاً في كل مجالات القرآن . وكان يكتفي تماماً بهذه المعرفة . ولم يكن يدفعه طموح لتزعم المؤمنين ضد قتلة أخيه الحسين ، ضد بني أمية . ولما كان يطلب من محمد هذا بالقصاص من الأسرة الحاكمة في دمشق رد بإجابة مناورة : « الثأر لدم الحسين هو واجب كل مسلم ». وبالرغم من عزلته إلا أن محمداً آبن علي الأصغر جُر إلى السياسة وكان أحد خدم علي ، ويدعى مختاراً ، قد حرك سخط الفقراء في بلاد الرافدين ، وكان عدد الفقراء قد ارتفع بصورة كبيرة في المنطقة حول مدينة الكوفة . فهناك كان يعيش عبيد ، اختطفوا من الولايات الشرقية وجنود أجانب ، ظنوا أنهم يستطيعون العثور على ضالتهم في الحرب بين الكوفة ودمشق .

كل هؤلاء الذين يأملون في الكثير وليس لهم ما يفقدونه ، كان ذخر الثورة ، الذي يعتمد عليه الثائر مختار . وكان بحاجة إلى من يعطي الانتفاضة بريق الدافع الديني . وكان آخر أبناء علي هو الرجل المنشود . فأعطى مختار لحفيد النبي ﷺ لقب « المهدي ». وأعلن مختار أن هذا المهدي هو سيد المعرفة بالله وقوته . وقد أخذ عن الحسين العلوم السماوية ، وباستطاعته النظر

إلى داخل النفوس وهكذا حمل المهدي آخر أبناء علي لقب المعصوم . إلا ان المهدي لم يتحمل في الواقع أي مسؤولية قط عما فعله مختار ، فعندما اندلعت الإنتفاضة حقاً على ضفاف الفرات ، وعندما قتل مئات من الناس في الكوفة ، كان المهدي خارج المدينة ، وقد علم المهدي ببشاعة ما حدث من خلال سلة مملوءة برؤوس مقطوعة ورسالة من مختار وقد أخبره مختار : فلتعلم أن تسامحي ورحمتي قد نفذا ، فقطعت رؤوس قتلة الحسين وها أنا أرسلهما إليك . ولن آكل طعاماً ولن أشرب ماءً حتى أعثر على كل من اشترك في الحرب ضد الحسين وأقتله . وسلام الله عليك » .

وبذل مختار ما في وسعه ليبر بقسمه فوصلت سلة أخرى بحمولتها الدامية إلى بيت المهدي الذي لم يملك شجاعة فيطلب وقف هذا الإعدام الجماعي . بل على النقيض فقد شكر مختاراً بأن العقاب حل أخيراً على الطواغيت الذين يحملون ذنب قتل الحسين .

ولما امتدت الإضطرابات في بلاد النهرين إلى الطبقات الفقيرة في العاصمة دمشق ، صارت الدوائر الحاكمة في بلاط الخليفة مضطرة للتدخل عسكرياً ضد ثورة مختار والمهدي . فكان أن انسحب المقاتلين الذين بقوا على ولاءهم للإثنين ، أمام جيش الأمويين . وسلكوا طريقاً محاذياً للساحل الغربي للخليج العربي(*) .

كما أن المهدي نجا من الملاحقة . وقد اكتسب أثناء الفرار أيضاً ثقلاً سياسياً ، بل وزاد بعد ذلك أيضاً .

إلا أنه لم يستطع الحصول على اعتراف جماعي من الشيعة فقد حال بينه وبين ذلك عنصر حاسم : فهو لم يكن من نسل سلالة النبي محمد ﷺ ، ففي عروقه لا تجري دماء رسول الله . فأم الحسن والحسين كانت فاطمة ابنة النبي ﷺ ، أما ابن علي الوحيد الحر فكان ابناً لامرأة ليست من هذا النسل

(*) الخليج الفارسي / العربي ـ كما ذكره المؤلف في الأصل (المترجم) .

الشريف وكان نسبه الشريف ينتمي لعلي فقط وبالرغم من هذا احتفظ بعد موته بمكانة مرموقة بين أنصاره ، فلم يصدقوا أنه مات وقالوا أنـه اختفى في منطقـة رضوى الجبلية المليئة بالشعاب . وأن محمد بن علي ، المهدي، سوف يعـود ليحرر الفقراء والمستغلين والمستضعفين والمستعبدين من نيرهم، ولسوف يقوم المهدي بإعـادة العدل على الأرض . ومـا زالت هناك حتى الآن فـرقة صغيـرة تناصر المهدي . ولا تمثل ظاهرة المهدي في مجمل تاريخ الشيعة إلا حدثاً ذا أثر ضئيل .

أما علي ابن الشهيد الحسين فكان هو زعيم شيعة علي كلها ، فلما كان أبوه حفيداً للنبي ﷺ ، فلا يجوز الشك في أن علي بن الحسين هو من آل بيت رسول الله ﷺ . وبهذا ينتسب إلى أشرف بيت على الإطلاق . وتبالغ روايـات الشيعة في المنافسـة بين علي بن الحسين ومحمد المهـدي فيروى أنهمـا اتفقا على الوقوف أمام الحجر الأسود ، الذي وضع في أحد أركان الكعبة ، وانتـظر الإثنان إشارة من هذا الحجر تعلن عن حامل النور الإلهي . وتضيف الروايات أن المهدي تقدم أولاً مصلياً أمام الحجر الأسود إلا أنـه لم تظهـر الإشارة ، ثم تقدم علي بن الحسين أمام الحجر فارتعش لدرجة أنه كان سيقع من مكانـه في الجدار وفي نفس الوقت سمع صوت من عـلٍ ، يعلن أن علي بن الحسين هو الإمـام الـوحيـد والحقيقي للمؤمنين ، وكـان الإسم الـذي حمله هـو « زين العابدين » .

إن المسلمين ـ الذين يؤمنون أن رسول الله ﷺ قد أظهر بجلاء وصرامة الأهمية الخاصة لعلي بن أبي طالب صهر محمد ﷺ ـ يؤمنون بضرورة احتياج الإنسان في طريق حياته خلال الدنيا إلى قيادة تبعده عن شر الدنيا وتفتح له باب الجنة إلى السعادة الأبدية .

وأساس هذه القيادة هو الوحي من خلال رسول الله ﷺ الذي وهب البشر دين الإسلام . وقد أوضح الوحي للبشر الفروق التي يجب أن يقوموا بها حتى يحفظوا لنفسهم السلامة ويظل باب الفردوس مفتوحاً أمامهم . فإذا ما أراد المؤمن ضمان أنه اتبع الطريق الصحيح إلى الجنة فإنه يحتاج إلى معرفة شاملة وفهم عميق للوحي وتفسيره . ولما كانت هذه المعرفة وهذا الفهم لا يتوافران لدى كل البشر ، فإن الإنسان يحتاج إلى شخصية قائدة ، تملك رؤية لمشيئة الله ، ويكون بمقدورها إبلاغ هذه المشيئة إلى المؤمنين . وهذا الشخص الذي يجوز له تحمل مسؤولية الحفاظ على رسالة الله وشرحها يسمى إماماً، أما مهمته هذه فيكلف بها من قبل الله . ولما كان النبي ﷺ قد ميزه الله بالقدرة على العصمة ، فلقد تميز الأئمة بهذه المقدرة أيضاً . وتستند العصمة إلى صحة أن مشيئة الله هي الحفاظ على الدين نقياً وسليماً ، حتى يمكن إيصاله إلى البشر دائماً بلا نقصان . وهذا لا يمكن حدوثه ـ كما يرى علماء الشيعة ـ بدون عصمة وبدون حماية الله من الضلال واستنبط من هذه التأويلات أن الوجود الدائم للنبي ﷺ بين البشر ليس ضرورياً ، أما الضروري فهو وجود الإمام . فالمجتمع

الإنساني بدون شخصية قائدة سوف يحيد عن الطريق الصحيح . وكإشارة لضرورة وجود أئمة معصومين استشهد بالآيات القرآنية من سورة الأنعام : ﴿ **فإن يكفر بهم هؤلاء ، فقد وكلنا بها قوماً ليسوا كافرين** ﴾ . وطبقاً للمذهب الشيعي فهناك إمكانية توحد الرسول والإمام في شخص واحد ، فيكون هذا الإنسان بأمر الله مبلغاً وحافظاً؟؟ إلا أنه يبرز بصراحة العدد المحدود للرسل خلال التاريخ الإنساني ويوجه المؤمن أيضاً إلى حقيقة أن هؤلاء المبلغين لمشيئة الله لا يوجدون في كل عصر . ويتم تغطية الوقت بين ظهور رسول ورسول بالأئمة وتؤمن الشيعة بوجود سلسلة من الأئمة في المجتمع الإسلامي بعد بعثة رسول الله ﷺ . وقد اختار الله هؤلاء وحددهم والدليل على ذلك يوجد في القرآن : ﴿ **وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا** ﴾ . سورة الأنبياء .

أما شروط الإمامة فهو الانتساب لعلي بن أبي طالب وبذا لحفيدي الرسول الحسن والحسين . فقد أعطاهم الله السلطة العليا على البشر وكل الأئمة الذين أتوا بعدهم ورثوا معرفة هيمنة الله من الأئمة الثلاثة الذين أعطاهم رسول الله ﷺ السلطان ليحموا البشرية كافة من الضلال والعقائد المضللة .

زين العابدين

كان علي بن الحسين ـ زين العابدين ـ أول الأئمة الذين تسلموا زعامة المؤمنين عن طريق وراثة الابن لأبيه . ويذكر المؤرخون الشيعيون من الخصائص التي ميزت هذا الامام هو أنه كان ابناً لفارسية جلبت كسبية حرب من حملات المسلمين في الشرق ، وقد قام علي بإهداء هذه الفتاة النبيلة والجميلة لابنه الحسين ، ويذكر المؤرخون الشيعيون أن رسول الله ﷺ نفسه قد ألمح لآل بيته عن ميزات الفرس . فيرددون أن محمداً قال : أفضل بيوت العرب هو بيت النبي ﷺ ، وأفضل الأمم غير العربية هي أمة الفرس .

وهكذا تقول الروايات الشيعية بأن « علياً » ضم لبيته أميرة فارسية وكان أن ارتقى الأصل الفارسي النبيل بمكانة زين العابدين في نفوس المؤمنين . والجدير بالملاحظة أن مشيئة علي بالذات التي لا تظهر احتراماً للملك في العالم الإسلامي ، هي التي تعتز بسريان الدم الملكي في عروق سلالة النبي . وبالرغم من صدق صلة القرابة هذه مع أسرة نبيلة هامة قضي عليها أثناء الفتح الإسلامي لفارس ـ لم يعد زين العابدين يملك طموحاً في زعامته السياسية للمؤمنين . أما المبادرة النفوذ والسلطة ، فقد تركها ابن الحسين لأخويه يسعون لها . وعاش في مكة إلا أنه لم يتدخل في اضطرابات أهل هذه المدينة . وقد فقدت الكوفة ـ قلب بلاد المؤمنين ـ أهميتها بعد مصرع الحسين وكانت شيعة علي قد دمرت نفسها بخيانة أسرة النبي ﷺ . وبهذا صارت الكوفة واحدة من مدن الولايات الكثيرة في الإمبراطورية الإسلامية أما دمشق ، عاصمة

بني أمية والتي يقيم بها الخليفة ، فكانت مركز الأحداث السياسية . أما مكة والمدينة ـ مدينتا رسول الله ﷺ ـ فقد كانتا تكافحان من أجل الاستقلال ، وكان سكان مكة تلك المدينة بالذات التي يوجه كل المسلمين وجوههم شطرها خمس مرات كل يوم . وكذلك المدينة المنورة ، تحتفظان باستقلالهما ولم تشاء الخضوع لحكم خليفة أموي .

وكان يحكم مكة خليفة مناوىء، لا يهتم بهيمنة حكام بني أمية في دمشق والذي يميل أكثر إلى تنشيط الاتجاهات الشيعية حتى يخالف برنامج حكم بني أمية .

ولم تتوافر النية قط لدى هذا الخليفة لتسليم مسؤولية الحكم لواحد من نسل علي . ولم يستطع بني أمية غض الطرف عن الأهمية المتنامية لمركز السلطة المنافسة .

وكان الخليفة عبد الملك ـ الذي كان يحكم في دمشق منذ عام ٦٨٣ م ـ يخشى اتخاذ إجراءات عسكرية ضد المدينة المقدسة ، وقد حاول عبد الملك من خلال الحيلة أن ينتزع عن المدينة المقدسة أهميتها بالنسبة للمؤمنين . فلقد تذكر الخليفة أن النبي نفسه لم يقرر الكعبة كمركز للإسلام إلا مؤخراً

أما في السنوات الأولى للوحي فقد كان محمد ﷺ يتجه أثناء الصلاة ناحية القدس ولم يعلن محمد ﷺ التوجه ناحية الكعبة أثناء الصلاة إلا بعد الغضب على اليهود الذين لم يشاءوا ـ بفعل اغترارهم بدينهم ـ أن يعرفوا شيئاً عن دين أهل المدينة .

وقد قام الآن عبد الملك بتصحيح هذا القرار فصارت القدس وجهة المؤمنين من جديد . وقد قرر هذا الحاكم بناء جامع في القدس . وكان عبد الملك قد أمن نفسه في هذا الشأن بدعم أحد علماء القرآن المرموقين وكان يدعى الزهري ـ الذي شهد بأن محمداً ﷺ نفسه قد ساوى في الأهمية بين المدن الثلاثة المقدسة ، مكة والمدينة والقدس .

وطبقاً لرأي هذا العالم ، إن كلام النبي ﷺ حمل تفضيلاً للقدس . وهذه

الفكرة ليست شاذة . فقبل عام من هجرة محمد ﷺ من مكة إلى يثرب ـ ليتولى هناك المسؤولية السياسية ـ وذات ليلة نادرة صعد النبي على درجات من نور إلى السماء وهناك تلقى الوحي وعرض عليه اللوح المحفوظ الذي سجل عليه كل ما حدث ويحدث وسيحدث على الأرض .

وتخبرنا الروايات أن محمداً ﷺ صعد إلى السماء من على الصخرة الرمادية ، الموجودة على تل موريا بالقدس منذ القدم ، وإليها عاد أيضاً . على هذه الصخرة بنى عبد الملك قبة فخمة ، ما زالت تسطع أشعة مذهبة على المدينة المقدسة حتى اليوم . وهكذا نشأت قبة الصخرة وطبقاً لمشيئة الخليفة كان على المؤمنين الحج إلى هذا المسجد . إلا أن هذه البدعة لم تتحقق فقد ظلت مكة في نفوس المسلمين أهم كل المقدسات . وهكذا اضطر الخليفة أن يناضل من أجل السيطرة على مدينة مكة الثائرة . ولم يشأ زين العابدين أن يتدخل في هذا الصخب، ويقول المؤرخون الشيعة إن هذا الإمام الرابع قد عزل نفسه عن الحياة الدنيا وأغلق منزله أمام كل غريب وقضى وقته في الصلاة . إلا أنه يقال إنه كان له كثير من التلاميذ ، فقد انتشر مذهب الشيعة في عهده انتشاراً كبيراً (وكان من بينهم من لديه الاستعداد للإيمان) .

ومن الواقع أن نشاط زين العابدين قد أزعج بني أمية في دمشق . فقد قتل الإمام الرابع بأمر منهم .

وفي هذا كانت روايات الشيعة واضحة للغاية : فهي تروي أن الوليد ابن الخليفة عبد الملك ، قد دس السم لزعيم شيعة علي . وقد حدث هذا في عام ٧١٢ م ، أي في عام ٩٥ بعد الهجرة .

السم يقضي على بعض الأئمة

ظل زين العابدين إماماً لمدة ٣٥ عاماً أي منذ موت أبيه الإمام الحسين في عـام ٦٨٠ م . وقد عـاش زين العابـدين ستين عامـاً . فتبعه في الإمـامـة ابنـه محمد بن علي الذي عاش أيضاً استشهاد الحسين في كربلاء ، وكان عمره أربع سنوات حينذاك . وحسب الصيغة الشيعية فإن محمد بن علي صار إماماً بأمر من الله . وبعد عشرين عاماً من قيادته لشيعة علي ، أي في عام ٧٣٢ م . قتل هذا الإمام أيضاً بالسم ، مرة أخرى بتدبير من بني أمية . فقد صار السم أمراً عادياً للتخلص من الأشخاص حتى بين أفراد بني أمية نفسهم .

فقد قتل الخليفة عمر الثاني(*) عام ٧٢٠ م . بعد دس السم له في طعام العشاء وقد قام بهذا العمـل أهل الخليفـة لأنهم خشوا أن يقضي هـذا الرجـل الكـريم والحكيم والورع ـ الـذي كان استثنـاءً بين الخلفاء ـ على مصـدر ثراء العائلة . وقد منحت مثـل هذه المنـازعات بين أفـراد بني أمية الفـرصة لـلإمام الخامس أن يحيا مطمئناً سنوات طويلة في مكة ، وكانت أهميته كحفيد للرسول يدركها كثير من المؤمنين الذين يسعون إلى مكة للحج . وكان محمـد بن علي يلقنـهم بمعـرفة القرآن وبمشيئة الله ، كما تلقاها هو عن أبيه ، وكما تلقاها هذا بدوره عن الحسين حفيد النبي ﷺ . وقـد شهدت شيعـة علي للإمـام الخامس ـ كما فعلت أيضاً مع الإمام الرابع ـ بأنه أكثر من عدد المؤمنين الحقيقيين .

(*) يقصد عمر بن عبد العزيز . (المترجم) .

وعندما قتل محمد بن علي أيضاً بسم بني أمية كانت ابنه جعفر بن محمد في الثلاثين من عمره . وقد تقلد منصب الخلافة في وقت حرج . فقد أدت الانتفاضات ، التي اندلعت خاصة في شرق الإمبراطورية الإسلامية ، إلى نهاية دموية وحشية لبني أمية وأثناء هذه السنين انتعش أمل شيعة علي في أن العدل سينصفها .

فأعدت محكمة لمحاكمة هذه الأسرة التي ألحقت الأذى بآل علي . وفي حوالي عام ٧٤٥ م - بينما كان قد مضى أكثر من ١٢ عاماً على زعامة الإمام السادس لشيعة علي - يكتب حاكم ولاية العراق - فارس إلى الخليفة في دمشق رسالة هزته هذا نصها : « أنائم بيت أميَّة أم هو يقظ ؟ سألت نفسي هذا السؤال محتاراً . فأنا أرى جمرات تتوهج تحت الرماد سرعان ما تصير لهباً فإن لم يطفىء النابهون الجمر أتت على الأخضر واليابس في بلاد المسلمين ولسوف تشعل الخطب المحرضة نيران الحرب » .

وكان أن رأى الوالي رايات سوداء ترفرف على بعض منازل المدينة . ولم يستطع أحد أن يفسر له معنى هذه الرايات السوداء . إلَّا أن الوالي أيقن إنها لن تكون إلا رمزاً للثورة . ولم يكن لديه إلَّا سؤال واحد فقط هو إن كانت شيعة علي هي التي تقف وراء هذا العمل ، أو أن أحفاد النبي ﷺ يطمعون في السلطة في الإمبراطورية الإسلامية ، وكانت هناك شعارات خطيرة ، تعود لرجل أسمى نفسه أبا مسلم والذي ظل أيضاً في الخفاء وكان أن تطايرت هذه الشعارات : « سيفي سيكفر عن خطايا كل من ليس من حزبنا ، والقبر سيكون سجنهم الأبدي » ولما كان أبو مسلم يتحدث عن « حزبنا » فإنه لم يكن يعني إلا شيعة علي . كان هذا الرجل المجهول يخاطب الطبقات الغفيرة المستضعفة ، التي تعيش في شرق الإمبراطورية الإسلامية وقد اختلطت الحجج الدينية بنظريات الصراع الطبقي : فكان أبو مسلم يخطب في سخط على الخليفة الذي صار ملكاً مستغلاً - بالرغم من أن النبي محمد ﷺ لم يأمر باسم الله - الناس في الجزيرة بإقامة مملكة فإن كان علي قد تولى السلطة بعد وفاة رسول الله ﷺ لم يحدث قط أن تضرع المؤمنون للملك .

أما ما كان لا مفر من حدوثه فهـو « الأبناء الحقيقيـون لآل بيت النبي ﷺ ـ سلالته الحقيقية ـ سيتسلمون الحكم ويصيرون زعماء روحانيون . وهنا يمكن التحرر من شر الفساد وستبدأ نهاية الانحطاط الأخلاقي » ومن بداية نهاية حكم بني أمية .

وفي الوقت الذي بدأ فيه انهيار دولة بني أمية ، كان قد تم اعتقال الإمام السادس وإرساله إلى دمشق إلا أنه لم يستطع أحد إثبات اشتراكه في أعمال الثورة التي أثارت قلاقل في الولايات الشرقية .

وفي هذه المرحلة من هياج المشاعر في بلاد الرافدين لم يشأ حكام بني أمية أن يثيروا الثائرين إلى أقصى حد. إذا ما قتل الإمام فيتحول في الحال إلى شهيد وقديس للثورة . فأطلق سراح محمد بن جعفر . وبدافع من الريبة فرض عليه رجال بلاط الخليفة الأموي الرقابة . إلا أن الإمام السادس بقي على عزلته عن رجال الثورة .

ولم تكن النية متوفرة لدى أبي مسلم ـ قائد الثائرين في بلاد الرافدين لمبايعة الإمام السادس خليفة . وعندما دخل الكوفة ومعه ٥٠ ألف مقاتل وأمامه ترفرف الرايات السوداء ورآه الناس في الجامع قال أبو مسلم للمؤمنين بأنه لم يختر ليطهر العالم من الشر وهذه المهمة لها رجل آخر اسمه عبد الله بن محمد وكان عبد الله بن محمد هذا يبلغ من العمر ٢٤ سنة . ولم يكن هناك خلاف على أنه ينتسب للنبي محمد وأنه من أسرة رسول الله ﷺ ، إلا أنه لم يكن من نسل النبي . . ولم يستطع حتى أن يزعم أن نسبه يرجع إلى رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة فقد كان عبد الله بن محمد الحفيد البكر لأحد أعمام النبي ﷺ وكان هذا العم يدعى عباساً . كان تاجراً غنياً وكان واحداً من هؤلاء الذين عادوا الإسلام طويلاً إلا أنه بعد هجرة النبي ﷺ بقليل بدأ عباس في إدراك أهمية النبي ﷺ وعندها استطاع النبي دخول مكة لأول مرة عام ٦١٨ م . كان العباس ضمن هؤلاء الذين بايعوه خارج مكة . إلا أن عباساً لم يستطع محو عاره بين المسلمين بأنه قاتل على الجانب الآخر أثناء المناوشات الأولى بين أتباع محمد وأعدائه . وهناك عار آخر لعباس لم تستطع سلالة علي الحقيقية نسيانه ، فقد روي : « أن

عباساً سخر من علي لأنه فكر عند وفاة رسول الله ﷺ أن يصير خليفة له » ولهذا النسب لعم الرسول هذا استند عبد الله بن محمد ، الذي كان على استعداد لقيادة الثورة إلى دمشق لينتزع السلطة من بني أمية . وفي نوفمبر عام ٧٤٩ م . عندما كان في الكوفة يتلقى المبايعة من المؤمنين هناك ، كان يحمل اسماً آخر بدا له مناسباً أكثر لما سيقوم به . فكان ابنه يدعى عباساً ـ مثل عم محمد ـ فأضاف هذا الثائر إلى اسمه عبد الله اسم : أبو العباس واستغنى عن لقبه ابن محمد .

بعد حصوله على المبايعة مباشرة أعلن عبد الله أبو العباس برنامجه مخاطباً مباشرة بمهارة ضمير أنصار شيعة على : « الحمد لله الذي أنعم علينا بالإسلام والذي جعل عشيرتنا أشرف العشائر . ولقد سمونا على الجميع بنسبنا إلى رسول الله : فقد نشأنا من نفس منشأه الكريم . ولقد منَّ الله علينا بأعلى درجات الإسلام ، ولقد وصف الله مهمتنا في الزعامة في القرآن قائلاً : ﴿ **إنَّما يريد الله أن يذهب عنكم الرجز أهل البيت** ﴾ .

ولقد أعلن الله تفضيلنا وأمر المؤمنين بحبنا واحترام حقوقنا . وقد شرفنا وفضلنا بالجزء الأكبر من الغنائم فيا أهل الكوفة لقد بقيتم دائماً أوفياء لنا ولقد تحملتم بشجاعة صلبة كل أنواع الظلم حتى آن الأوان أخيراً فجعلنا الله حكاماً عليكم . وينبغي علينا الآن أن نفضلكم وأنا أسمح لكم بإهراق الدم حتى يتم الثأر » .

وقد روي أن عبد الله أبو العباس قد تأجج حماساً عند آخر كلماته فلم يستطع الاستمرار في الخطبة .

وقد روي أيضاً : مضى نصف رجال الكوفة مع عبد الله أبو العباس إلى دمشق . فالذي فشل رجال الكوفة من قبل أجيال ثلاثة في تحقيقه لعلي ـ الذي خلف النبي ﷺ ـ أتموه الآن تجاه واحد من نسل أحد أقارب آل بيت النبي . فلم يشأ أهل بلاد الرافدين أن يبذلوا الحياة من أجل الحسين حفيد النبي والذي يجري فى عروقه دماء جده ـ وها هم يخاطرون بكل شيء في سبيل

عبد الله أبو العباس . وعلى أكتافهم دخل حفيد عم النبي ﷺ دمشق كخليفة . الذي نادى بالإنتقام من بني أمية ، الذين خدعوا علي بالحيلة ونزعوا عنه حقه المشروع كخليفة للنبي فلا يجب الإبقاء على أي فرد من بني أمية . وقد منح أبو العباس نفسه لقب السفاح ، ثم عمل على تحقيق معنى اسمه الجديد . وقد تم قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية أثناء هروبه إلى مصر وقد لقي كل أفراد العائلة ـ فيما عدا واحد ـ نفس المصير ـ وقد استطاع هذا الناجي الوحيد فيما بعد من تأسيس إمارة قرطبة في شبه جزيرة أيبريا .

وبتولي حفيد عم النبي عباس السلطة في دمشق لم يكن زمن أفضل قد بدأ بالنسبة للإمام السادس : فقد قام «السفاح» باعتقال الزعيم الحقيقي لشيعة علي . وتم إيداع الإمام السادس في السجن في بلاد الرافدين . أي في نفس المنطقة التي علق على أهلها كل من علي والحسين آمالاً عريضة وأصيبوا بخيبة الأمل . أما خليفة السفاح فقد سمح للإمام السادس بالعودة إلى المدينة بشرط ألا يظهر أي طموح سياسي . وبالرغم من أن جعفر بن محمد ـ طبقاً لقناعات الشيعة ـ قد التزم تماماً بهذا الشرط ، إلا أنه قتل بالسم عام ٧٥٧ م . بأمر من ثاني الخلفاء العباسيين . وقد جرى هذا في عام ١٤٠ بعد الهجرة .

جعفر المنصور كان ثاني خلفاء الدولة التي حلت محل بني أمية . ولم يحكم مؤسس دولة العباسيين إلا أربعة أعوام فقط ثم وضع الموت نهاية لحكم السفاح . وأثناء حكمه لم تعد دمشق العاصمة فالخليفة الذي كان قد جاء من الشرق أراد العودة إلى هناك . فهو لم يشعر بالإرتياح في واحة بالغرب تقع على مقربة من الصحراء المقفرة فقد كان يستريح أكثر لأرض الرافدين دجلة والفرات والتي كانت لا تزال خصبة . أما أبو جعفر المنصور فقد أظهر تبرماً أكثر من الحياة في دمشق المدينة المتربة وهكذا اتخذ قراره ببناء عاصمة في الشرق كان اسمها بغداد . وفي العراق يعلم أبو جعفر المنصور بموت الإمام السادس مسموماً ـ كما أراد هو ـ أي الخليفة . فكتب في الحال رسالة إلى والي المدينة يأمره فيها أن يذهب فوراً بعد استلام الرسالة إلى منزل سليل النبي المتوفى بحجة أنه جاء لتقديم عزاء الحاكم وأمره أن يسأل عن نص الوصية التي تنظم

يقيناً مسألة خلافة الإمام أما الرجل الذي ستذكره الوصية فيجب قطع رأسه في الحال . بذا اعتقد أبو جعفر المنصور أنه يستطيع كسر حلقة الأئمة . وبهذا ينتهي العباسيون من مشكلة الحياة في خوف دائم من نجاح السلالة المباشرة للنبي ﷺ في الوصول لحقوقها يوماً ما .

وكان أن نفذ والي المدينة تعليمات مولاه ، فأبلغ أسرة الإمام المتوفى بعزاء الخليفة ، ثم استفسر بعد ذلك عن نص الوصية إلا أنه أسقط في يد الوالي عندما قرأ آخر رغبة للإمام المقتول فلقد اختار جعفر بن محمد ، الإمام السادس أربعة خلفاء له هم : الخليفة ، والوالي ، وابنه الأكبر إسماعيل، وابنه الأصغر موسى بن جعفر كاظم . فكان أن حالت قائمة الأسماء هذه الوالي من تنفيذ الجزء الأهم في أمر الخليفة ، أي قتل خليفة الإمام السادس المسمى بالوصية . ولم يتم إزالة خطر الأئمة الشرعيين . فالخليفة لا يزال يخشى أن يقوم رجل طموح متذرعاً باللقب الشرعي لخلافة النبي ﷺ بطلب الطاعة من جمهور مكة والمدينة أو أهل بلاد الرافدين . إلا إنه كان هناك خطر أعظم وهو أن يقوم أي شخص ـ كثرت أتباعه ـ من آل بيت رسول الله ﷺ ولا يستطيع أن يثبت خلافته المباشرة ، بمحاولة بإثارة انتفاضات تحت شعار أحقيته ـ من صلة الرحم بالنبي ﷺ وبعلي ـ في خلع العباسيين .

أما ابن السفاح الذي صار الآن حاكماً ، فقد أدرك بنفسه هذه الفرصة المتاحة ، لأن أسرته ذاتها قد استولت على السلطة في الإمبراطورية الإسلامية بنفس هذه الشعارات . وها هو واحد من أسرة النبي ﷺ قد أدرك فعلاً إمكانية استيلاءه على السلطة وكان اسمه عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي وقد أراد بطول الاسم أن يوثق انتسابه المباشر للجذور الأولى لأسرة علي .

أما هدفه فلم يكن الإستيلاء على السلطة في الدولة كلها وإنما فرض سيطرته على الجزء الشرقي فقط . وكان أن عثر عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي على محرضين يقومون بالدعاية له .

وكانوا تجاراً يتجولون في قرى العراق يبيعون بضائعهم ويحاولون أيضاً

إقنـاع المشترين منهم بـوجود رجـل من نسل النبي ﷺ على استعـداد لاستئصال الظلم . وقد عثر المحرضون على مستمعين يصغون لهم ، فأهل بلاد الرافدين كـانوا يشعـرون بالـظلم . فعند تـولي السلطة كان العبـاسيـون قـد وعـدوا أهـل الشـرق بمكافـأة جزيلة مـع ولاءهم . إلا أن هذا الـوعد سـرعان مـا صار طي النسيان .

وكـان محـرضـو عبـد الله بن حسن بن الحسن بن علي يتـوقعـون إثـارة مستمعيهم إلا أنهم سرعان ما اصطدموا بالتـراجع . أمـا سبب ذلك أن بسـطاء النـاس والحرفيين والفـلاحين كانـوا قـد فهمـوا أسلوب الـطمـوحين من أسـرة النبي ﷺ : فكان يتم تعبئة الفقراء ويصيرون ذخر الثـورة ويبدلـون حياتهم في ذلك ، وما يكاد ينتصر الطموحون ، حتى يستغل الفقراء مرة أخرى مثلما كـان يحدث من قبل .

وكان أن أمر أبو جعفر المنصور بمراقبة الرجل الطموح عبد الله بن حسن ابن الحسن بن علي وبذا عرف أن ابنا عبد الله محمد وإبراهيم هما الراغبان في السلطة ودفعوا فقط بالأب في المقدمة .

ولكي يقضي أبو جعفر على تدبير الثلاثة حبـك حيلة أثبتت فاعليتهـا في الجزيرة العـربية : فقـام الخليفة بـدعوة عبـد الله بن حسن بن الحسن بن علي وابنيه ومعهم شخصيات هـامة من إقليم دجلة والفـرات لوليمـة أقامهـا لهم في الكوفة ، وقد عرف أن هؤلاء المشكوك في أمرهم لن يرفضوا مثل هذه الدعوة . أما إذا قبلوها فيكونوا قد سقطوا في يد خصمهم .

أما عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي فلم يجد مخرجاً : فهو لم يعثر على سبب وجيه لرفض الدعوة . أما ابنـاه محمد وإبراهيم فقد رفضا الوقوع في شرك الخليفة فاختفيا في قرى بعيدة عند أصدقاء مخلصين وكما كان متوقعاً فقد أثار امتناعهم عن الحضور غضب الخليفة لأن أبا جعفر المنصور كان يـريدهمـا هما بالذات وارثي زعامة شيعة علي وعندما أتى الأب وحده للوليمة صـرخ فيه الخليفة : « ولداك مجرمان يتآمران ضـد الحكم الشرعي » ثم قيـد عبد الله بن

حسن بن الحسن بن علي وصحبه بالوثاق ، وسيقوا إلى القبو المعتم لقصر الحاكم ، وضرب حولهم حصار من جدران . وكان شق صغير في الجدار يسمح للسجناء بالتنفس . أما ابنا عبد الله فقد نجحا في الفرار إلى المدينة وأثارت رواياتهما عن وحشية أبي جعفر المنصور تعاطف الناس مع سلالة آل النبي ﷺ .

وارتفعت لساعات طويلة صيحات الثائر ، الإمام الذي عرف كيف يبقى طويلاً على قيد الحياة .

استمر زمن الإضطراب والسخط المتزايد لبعض أنصار شيعة علي لسنوات طوال، وذلك بسبب أن موسى بن جعفر الكاظم أصبح الزعيم الفعلي للشيعة. فالكاظم هو ابن الإمام السادس الذي احتال على الوالي بخدعة الأسماء الأربعة ، ومنع بذلك تنفيذ أمر الخليفة بقتل المرشح لمنصب الإمامة .

وهكذا تمَّ إنقاذ الإمام السابع موسى بن جعفر الكاظم وقد اتفق المؤرخون على أن هذا الإمام لم يشارك في مؤامرات أو أعمال تحريض شيعة علي ضد الخليفة . بل إنه اختفى لزمن خوفاً من انتقام أبي جعفر المنصور ، وقد حرص الإمام السابع بدقة على ألا يلفت نظر الخليفة بطموحه السياسي . ولا بد أن حفيد علي هذا قد استوصى بحياته الخاصة، فقد قيل عنه إنه أنجب ثمانية عشرة ابناً وثلاث وعشرين ابنة ولم يكن لأحد أن يعترض على هذا بل إن الإعتراض على أن موسى بن جعفر الكاظم لم يتزوج قط . أي أن الجواري هن اللاتي ولدن له أبناءه الواحد والأربعين .

وكان الإمام يواجه منتقدي أحوال بيت زعيم الشيعة قائلاً : « بالرغم من ذلك كان أبنائي أشرف من كل الرجال الذين لا ينتسبون إلى عشيرتنا ولا اعتبار إلا للأبوة . فإليها يعود النسب الشريف » أما المحير فكان الموقف الذي اتخذه الإمام السابع من بناته : فقد حرم عليهن الزواج أو الإنضمام للحريم بدون زواج وهو قد أراد بذلك أن يحول دون أن يزيد أبناء بناته من عدد المطالبين بالحق في زعامة المؤمنين .

وقد واجه موسى بن جعفر الكاظم مشكلة في الإعتراف كخليفة ، فالوصية التي كان والي المدينة قد اطلع عليها ـ كانت تنص بالخلافة بجانب الخليفة والوالي وموسى بن جعفر الكاظم أيضاً الإبن البكر للإمام المقتول المدعى إسماعيل . وقد روي أن الإبن البكر هذا قد مات في الشهور بين كتابه الوصية وقتل الإمام السادس .

وطبقاً للصيغة الشرعية للشيعة فإن تقلد منصب الخلافة هو من حق الإبن البكر حتى في حالة وفاته . وكان هناك فئة من الشيعة أرادت الإلتزام بالقاعدة الشرعية السارية . وكانوا يرون أنه بموت الإبن الوارث للإمامة تكون حلقة الأئمة قد انكسرت ويكون الله قد أعطى إشارة بذلك بأن زمن الأمَامة قد أنتهى . بينما يرى فريق آخر من المؤمنين بأن إسماعيل هذا هو الإمام الشرعي الحقيقي ، الذي لم يمت مطلقاً ، بل رفعه الله إليه ويظل إسماعيل إماماً عبر الزمن ، لأن الله سيبعثه مرة أخرى يوم القيامة . فالإمام السابع إسماعيل قد أخفاه الله عن أنظار المؤمنين .

إلا أن أثر هذا الخليفة الشرعي لعلي يظل بين الناس ويراقب مسلكهم . ويؤمن فريق من الشيعة أن إسماعيل سيقف يجوار الله يوم القيامة ليحاكما معاً البشر . وهذا الفريق من الشيعة الذي يؤمن بهذا المبدأ هي فرقة الشيعة الموجودة حتى اليوم . ويعيش أتباعها في الهند ، وفي مناطق خاصة بهم في إيران ، وفي وسط آسيا .

إلا أن غالبية الشيعة تعتبر هذا المذهب هرطقة : « الله لا يكسر حلقة الأئمة » وهذه الغالبية مقتنعة بهذا تماماً .

وقد حث الوحي الإلهي الإمام السادس بسحب المنصب مرة أخرى من ابنه البكر ، بل إنه قبل موته صار إسماعيل ـ بأمر من الله ـ مؤمناً عادياً .

إلا أن الخلاف بُنيَ حول نظام الوصية ، فطبقاً لها كان يجب أن يخلف الإمام السادس إبنه الأصغر ، إلا أنه كان للإمام ولدان آخران بين ابنه البكر وابنه

الأصغر كانا أيضاً على قيد الحياة . فلما وقع الأخير على موسى بالذات استاء الأخوان الآخران اللّذان يكبرانه .

ويروى أن موسى استطاع أن يثبت من خلال معجزة أن الله اختاره هو . فقد وضع موسى في فناء منزله حطباً وأشعل النار فيه . ثم دخل إلى وسط النار وبقي واقفاً هناك بدون أن يلحق أدنى أذى بملابسه أو شعره أو جسده . وتمضي الأسطورة قائلة : « ثم طلب موسى من أخويه المتعجبين أن يدخلا إليه في النار ، إن كانا موقنين أنهما على حق في منصب الإمامة . فلم يجرؤ واحد منهما على الحركة . وبعد ذلك لم ينازع أحد الإبن الأصغر للإمام السادس على زعامة المؤمنين .

وعندما انتهى موسى بن جعفر الكاظم من مزاعم أخويه وصار إماماً لا خلاف عليه ، لم ير أن واجبه هو تزعم أنصار شيعة علي الثائرين . وترك هذه المهمة لابن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي سجين الكوفة المحاصر الجدران . وكان ابنه محمد خاصة هو قد صار زعيماً لثورة الشيعة والتي كانت لا تمارس عنفاً حتى هذا الحين .

وما لا خلاف عليه ، أن محمد بن عبد الله استطاع أن يقول عن نفسه أنه من نسل أحد أفراد أسرة النبي .

فحدث أن الخليفة أبي جعفر اتسع صدره على نحو غريب للغاية لزعيم الثوار هذا .

وقد بقيت كلمات خطاب يقال أن الخليفة أرسله لمحمد بن عبد الله : « بسم الله الرحمن الرحيم . من أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله فلتعلم أن هؤلاء الذين يحاربون الله وخليفته ، يعيثون في الأرض فساداً وسوف يلحق بهم عقابهما . فيقتلون أو يصلبون وتقطع أوصالهم . وسيصلون عذاباً عظيماً في ملكوت الله . ولن يرحم إلا من تاب قبل أن يُغلَبَ . فلتعلم يا محمد بن عبد الله أن الله غفور رحيم وأنا أقسم لك بالله ورسوله أن أعفو عنك تماماً أنت وأبناؤك وكل أسرتك وكل أتباعك شريطة خضوعك . فدمكم ومالكم حرام عليّ . وأنا

وأنا أهبك ألف ألف درهم وكل ما تحتاجه غير ذلك ولك أن ترحل إلى أي مكان تشاء . وسيفرج عن كل أقاربك الموجودين في سجوني ولن يسأل أحد من أتباعك أو يحمل مسؤولية وأقسم أن ألتزم بعهدي ».

كان الخليفة أبو جعفر المنصور يريد عقد اتفاق شبيهاً بهذا الذي تم قبل تسعين عاماً بين الحسن حفيد النبي محمد ﷺ وبين الخليفة الأموي معاوية : فقد تنازل الحسن حينذاك عن حقه في حكم الإمبراطورية الإسلامية مقابل المال . ولكن في هذه المرة لم يحالف النجاح الخليفة : فلم يكن محمد بن عبد الله يرتكن إلى الحلول الوسطى مثلما فعل الحسن ذات مرة فقد استلم الخليفة هذا الرد الموبخ على رسالته : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله المهدي وأنا أيضاً أعرض عليك شروط العفو التي عرضتها عليّ ، وأيضاً أقدم لك ألف ألف درهم فنحن على الحق . من خلالنا فقط نحن سلالة النبي ﷺ بررتم مزاعمكم في السلطان . وفقط بمساعدتنا استطعتم الخروج من الظلام . والله وهب السلطان لأبينا علي . فكيف تسمحون لأنفسكم بأن ترثوا ملكه وسلالة علي الحقيقية ما زالت على قيد الحياة ؟ فنحن فقط الذين نستطيع تبرير حقنا من خلال نسبنا الشريف ، وفاطمة ابنة النبي ﷺ هي أمنا ونحن لسنا مثلكم أبناء نساء مطلقات أو حلت عليهم اللعنة فقد اصطفانا الله فقد جعلنا ننتسب إلى محمد رسوله ﷺ . وأنا على صلة رحم بفاطمة التي جعلها الله سيدة نساء الجنة . وأنت تعرف حقي . وتعرف أنني أحق منك بالسلطان وما وعدتني به من عفو وعدت به آخرين قبلي . فبأي قسم لك أثق؟ » أدرك الخليفة أن الإشارة إلى صلة الدم بفاطمة في رسالة محمد بن عبد الله كانت ملحوظة ذكية . فهذه المرأة كانت ابنة رسول الله ، فاجتهد الخليفة في كتابة رد يقلل فيه من شأن صلة القرابة تلك بهذه الحجة : « ألا تذكر أن الله لم يفضل النساء على الرجال بأي حال من الأحوال ؟ فأي قيمة تستند إليها في نسبك إلى امرأة ؟ ولهذا أورثنا نحن خاتم الرسول وليس أنتم والسلام عليكم ورحمة الله ».

إلا أن عبد الله بن محمد أصر بعناد على موقفه من استحقاقه للسلطان .

وفي النهاية كان على الخليفة أبو جعفر المنصور أن يخضع زعماء الثورة بحملة عسكرية على المدينة .

وكان محمد بن عبد الله يشعر بـالأمان المـطلق في المدينـة لأن القبائـل حولها أرسلوا رجالاً مسلحين يساعدون في الدفاع عنها . ويقدر المؤرخون عدد المدافعين فيقولون أنهم بلغوا مليون رجل وهذا الرقم لا يمـاثل الـواقع بـل إنه تعبير، وسيان كم كان حجم القوات فقد مرَّ محمد بن عبد الله بنفس التجربة التي مر بها علي منذ قرن من الزمان : ففي الـوقت الحرج خـذل مقاتلو شيعـة علي زعماءهم وقد نسوا الولاء والتقدير .

وفي يوم الحسم المسلح بين محمد بن عبد الله وبين الخليفة أبي جعفر المنصور سرعان ما تفتت جبهة أهل المدينة فـانهارت المقـاومة . ومـرة أخرى تفشل شيعة علي للحصول على منطقة مستقلة خاصة بها .

كان صعود وسقوط نجم محمد بن عبد الله في عهد الإمام موسى بن جعفر الكاظم .. وقد كان للهزيمة العسكرية لشيعة علي آثارها على الإمـام فقد طلب الخليفة من والي المدينة بإحراق منزل الإمـام . وتروي الأسـاطير الشيعيـة عن وقوع معجزة : لقـد أنقذ المنـزل لأن النيران رفضت أن تضـرم في مادة البنـاء القابلة للإشتعال . فحسـم الخليفة أمره بألا يجعل حياة سليل النبي في المدينة صعبة من خلال هذه المؤامرات ، بل بحمله بأي شكل إلى بلاد الرافدين حتى يستطيع فرض سيطرة أفضل عليه .

فكان رد الإمام على الأمر بمغادرة المدينة هكذا :

« إني أسمـع كيف تلقى ابن عن أبيه عن جـده رسول الله كلمـة حكيمة تقول : **من يترك وطنه ليصل إلى هدفه بأمر الله . أما من يبقى بين أهله فيطول عمره** » .

ويقال إن الخليفة سأل عما إذا كان النبي قد قال هذا الكلام حقاً . فكان رد الإمام عليه : « أقسم بالله أن هذا كلام جدي رسول الله ﷺ . » .

حكمة الأئمة

كان الإمام السابع قد ورث حكمة النبي ﷺ ، وكان أبوه قـد تلقاهـا عن أبيـه . وهكذا كـان قد تكـون لدى الإمـام السابـع حتى هذا الـوقت ثـروة من الحكمة .

وكان الجد هو الذي حدد الفرق بين النبي ﷺ والإمام بقوله : « النبي هو من يسمع الوحي من الملائكة وهو يرى الملاك متجسداً أمامه . أما الإمام فهو يسمع أيضاً صوت الملائكة ولكنه لا يراها » .

ومع أن النبي ﷺ أعلن الحقيقة كلها من القرآن إلا أنه أعطى هذه الأسرار لعلي . وقد وثق علي في الإمامين الأولين ليحملا أمانة حكمة النبي ﷺ .

وكل إمام كان يسلم المعرفة الأخيرة بالله إلى الجيل التالي له . وقد تلقى الإمام السابع عن أبيه هذه الحكمة :

« ومن يرفعه الله من مستنقع الذنب إلى سماء الرحمة ، يكون قد أغناه الله بلا مال ، وسيرفعه مكانة عالية لم تكن له في الدنيا . ومن يتق الله يتقيه الله . ومن لا يخف الله يعيش في خوف » .

وكان هذا الأب أي الإمام السادس جعفر بن محمد قد وضع نظرية خلق الكون ، ما زالت مؤثرة على تصور الشيعة عن نشأة البشرية والكون حتى اليوم وهذه النظرية أوردتها الروايات نصها : « عندما قرر الله البـدء في الخلق جعل

لكل شيء أراد خلقه مضغة صغيرة ، هي مادته الأساسية وقد حدث هذا قبل أن تمد الأرض وتبسط السماء على الدنيا . وكان الله وحده هو الموجود كمشيئة وقوة . فرمى في الكلام شعاع نور ، قبسة من نوره فوقع هذا النور على المضغة على ذرات غير مرئية خلق منها الله أولاً رسولنا وقال له الله المهيمن : « ستكون الذي يملك القدرة ليختار وتكون أيضاً مختاراً لقد منحتك نوري ومن قوتي لتدبر الأمور . ومن أجلك أفتح مجرى للماء وأرفع السماء وكما تشاء أوزع ثوابي وعقابي ولرغبتك أنشأ الجنة والنار للبشر وسيبلغ رجال آل بيتك الناس بمشيئتي . وسوف ألقن نسلك الحكمة وكذلك أسراري ولن أخفي حقيقة عن آل بيتك الرجال البكر منهم . فلا يبقى سر إلا وعرفوه وسيكونون دليلاً على وجودي أمام الناس وسيعلنون للناس عن قوتي » .

أما الجديد في هذه النظرية التي وضعها الإمام السادس فكان فكرة أن النبي محمد ﷺ خلقه الله قبل كل شيء وكل كائن وبعد ذلك ـ ربما بآلاف الأجيال ـ قد استأنف الله عملية الخلق وعندما آن الأوان بسط الله الأرض وأخضعها لقانون الزمن وفجر الماء فأخرج زبداً وبحراً . وكان عرشه يسبح فوق الماء وعلى سطح الماء ترسبت الأرض ومن البحر خلق الله السماء وأمر الأرض والماء بطاعته فخضعا له .

هارون الرشيد ينتصر على الإمام

في عام ٧٨٦م يتولى هارون الرشيد السلطة في بغداد وكان خبيراً بالحكم أكثر من سابقيه . ففي هارون الرشيد انطلقت مظاهر الشخصية الملكية الفارسية من عصر الجاهلية . وإلى هذا يضاف بربرية وضمير ميت واتخاذ المواقف العنيدة في مواجهة الخطر .

أما ما يميز ملامح شخصيته فهو الظلم . ففي عهد هارون الرشيد تم تغيير نظام الضريبة . فتحملت الطبقات الفقيرة العبء الرئيسي للضرائب فحسب مساحة الأرض المزروعة وحسب خصوبتها كان الفلاحون يدفعون على الأقل ثلث محصولهم السنوي إلى جابي الضرائب وكان أعلى حد للضريبة هو نصف قيمة المكتسب .

أما أصحاب الأراضي، الذين كانوا لا يفلحون أرضهم بأنفسهم ، فكانوا لا يسددون إلا عشر محصولهم كضريبة .

وهكذا أنشأت طبقة مميزة مقابل طبقة شعبية غير مميزة . ولما صار كثير من الفلاحين لا يقوون على دفع الضريبة تنازلوا عن أراضيهم لملاك الأراضي .

وهكذا صار المستضعفون يتطلعون ثانية إلى آل النبي ﷺ ، الذي كان قد مر على وفاته مائة وخمسون عاماً .

ومرة ثانية أمل المستضعفون في سماع كلمات ووعود العـزاء من سلالـة محمد وعلي في عودة العدل .

وكان أن استغل الخليفة هارون الرشيد رحلة الحج إلى مكة ليختبر الإمام السابع . فكان هارون يريد معرفة إذا ما كان موسى بـن جعفر الكاظم يقف وراء الساخطين والمحرضين على الثورة .

وتخبرنا الروايات عن مقابلة بين الخليفة والإمام في صحن الجامع الكبير في مكة مباشرة أمام الكعبة . وقد ركع هارون الرشيد أمام البناء المقدس وقال « سلام عليك يا رسول الله ـ يا ابن العم » .

فقـد كان الخليفـة العباسي ينتسب إلى عبـاس عم رسول الله . وتمضي الرواية قائلة بأن الإمام استغل الفرصة ليلقن الخليفة درساً . فعلى النقيض من هارون ، الذي ركع ، بقي موسى بن جعفر الكاظم واقفـاً أمام الكعبـة وقال : « سلام عليك يا رسول الله ، يا أبي الحبيب » وكان الإمـام يقصد إظهـار صلة الدم المباشـرة بينه وبين النبي . فـالإمام يجـيء قبـل الخليفة في المقـام الأول بالنسبة لآل بيت النبي ﷺ .

وسيان أكانت هذه المواجهة أمام الكعبة قد حدثت أم لا فإن الخليفة كان يعاني من أن هناك من يعيش في هذه المدينة المقدسـة ويستطيـع الاستناد إلى صلة قربى وطيدة مع رسول الله وكان له مكانة مرموقة عند هيجان المشاعر في العراق والتي تميل إلى شيعة علي .

ويروي المؤرخون الشيعة أن الخليفة سرعان ما حقق نجاحاً غير عادي ، حتى خصوم الدولة العباسية العنيدين لا يجدون مفراً من أحترامه .

فقد روي أن الخليفة ـ أثناء رحلة صيد ـ دهش عند توقف حصانه فجـأة عن المسير معانداً . وبرغم محاولة الخليفة المتعددة في تحريك الحصان ، إلا أنه ظل في مكانه يرتعش . ولم يكن هناك ما يثير الإنتباه على الأرض ، لم يكن هناك إلا نتوء صغير في الرمل لا يلفت النظر . إلا أن سلوك الحصـان الغريب جعل الخليفة يأمر بإزاحة الرمال على الوضع الذي أبى الحصان أن يعبره . فعثر

على جثة سليمة كان بجمجمتها ثقب في الجبهة فأدرك الخليفة وصحبه في الحال أن هذه الجثة ما هي إلا لعلي . وعلا الهتاف . . أولاً من حاشية هارون الرشيد ثم عم دجلة والفرات كلها .

أما إذا كانت هذه القصة حقيقية أم لا ؟ فلم يكن هذا مهماً فالشيء الوحيد الهام كان هو إذا ما كان المؤمنون سيقررونها أم لا .

ويظهر في الروايات بوضوح أن مكانة الخليفة قد علا شأنها في نفوس شيعة علي ، بعدما اكتشف مقبرة علي . فلما كان هارون الرشيد قد نجح في العثور على جثة علي أهم شخصية بجانب الشهيد الحسين ، كان على الناس أن يؤمنوا ببساطة، بأن هذا الخليفة يتمتع برحمة الله . فكان يقينهم بأن الله لم يكلف ملعوناً بإقامة قبر لائق لهذا المتوفى بالذات .

ويقول المؤرخون الشيعة أن هارون الرشيد قام ببناء ضريح بسيط فوق القبر .

وحول قبر علي ، الذي ظل محمياً طويلاً ببناء لائق سرعان ما نشأت المدينة المعروفة اليوم بالنجف .

والنجف هي أهم قبلة لحجيج الشيعة بجانب كربلاء حيث دفن الحسين ونجف وكربلاء تضمهما اليوم أرض العراق .

أما الخليفة فكان على يقين من أن أهمية مقبرة علي لدى مشاعر الشيعة المرهفة تفوق أهمية منزل الإمام السابع موسى بن جعفر الكاظم ، حتى وإن كان هذا ميتاً وذاك ما زال على قيد الحياة .

فمن كان يريد أن يحج إلى مكان مقدس ، فلن يتجه إلى المدينة ليمجد الإمام ، بل سيذهب إلى النجف يصلي في ضريح علي .

وبعد أن نجح هارون الرشيد في إيجاد هذه الأولوية استطاع أن يفكر في إزاحة منافسه على النفوذ بين المؤمنين ، والذي فقد الآن أهميته إلا أنه ما زال مزعجاً .

فيروى أن هارون الرشيد اعتقل موسى بن جعفر الكاظم أثناء الصلاة في جامع النبي بالمدينة . ثم نقل الإمام من سجن إلى سجن آخر . فبعد أن قضى عدة أشهر في سجون البصرة نقل في النهاية إلى سجن في بغداد حمل اسم زندى بن شهاق . وهناك تركه هارون الرشيد يتجرع السم . وكان موسى بن جعفر الكاظم قد بلغ من العمر الخامسة والخمسين ثم تسلم أبنه علي الرضا ـ كما يقول الشيعة ـ بأمر من الله منصب الخلافة وكان الإمام الثامن في الرابعة والثلاثين عندما تولى مسؤولية مؤمني شيعة علي .

وطيلة عشر أعوام تحت حكم هارون الرشيد عاش علي الرضا خائفاً من ملاقاة نفس مصير أبيه موسى بن جعفر الكاظم إلا أن أثناء السنوات العشر هذه كان لدى الخليفة مخاوف يتضاءل بجانبها إزعاج نشاط شيعة علي .

فكان النزاع قد نشب بين شرق وغرب الدولة الإسلامية . فالأسر الكبيرة والعريقة في بلاد فارس كانت اكتسبت أهمية حتى في بلاط الخليفة في بغداد . ففي هذا الحين كانت الأهمية في مركز السلطة تقتصر في الغالب على الرجال ذوو الأصل العربي .

أما الآن فقد صار هؤلاء يشعرون بالخطر يهددهم . أما الدائرة الفارسية المتناهية القوة فكان يقودها أسرة البرمكي التي تقلد أفرادها أعلى المناصب الرسمية .

وفي النهاية صار نفوذ هذه الأسرة أقوى من نفوذ الخليفة ذاته وكان على هارون أن يدافع عن نفسه ـ أن كان يخشى خطر تسرب سلطته بكاملها ـ إلى أيدي البرامكة . فقام هارون الرشيد باعتقال أصحاب النفوذ السياسي من البرامكة بحجة واهية .

وكان لا بد من موت جعفر البرمكي الذي كان وزيراً لهارون سنوات طويلة وبذا استطاعت الأسر العربية إحراز النصر .

وسرعان ما بدأت العشائر في الولاية الفارسية في الثورة وفي النهاية اضطر

الخليفة لإرسال حملة عسكرية إلى مناطق الإضطراب . ولكن عبور مرتفعات(*) جبال البروز ضعفت قوات الخليفة . ومات هارون الرشيد فجأة دون أن يقمع الثورة في عام ٨٠٩ م .

(*) عبارة عن سلسلة جبال غير مرتفعة تنحدر إلى السهل . (المترجم) .

محاولة علي الرضا في أن يصير خليفة

لم يكد يتم دفن هارون الرشيد ـ الذي مات في ولاية فارس ـ حتى نشب النـزاع بين أبناءه وورثتـه . ومرة ثـانية يُحسّ بـالصراع بين السلطة بين العـرب والفرس .

فكان ابنه الأمين من أم عربية ، أما المأمون فكان من أم فارسية من حريم هارون الرشيد . وكان أن ظهر الولاء لـلأم : فالأمين كـان يفضل العـرب بينما المأمون الفرس .

والجدير بالملاحظة هو أن صراع الشعوبية قد نشب في هذا الوقت بعد أن كان يغطيه الصراع التقليدي بين حزب الخليفة وحزب الشيعة . فالصراع على السلطة ، الذي ميز سنوات ما بعد موت هارون الرشيـد لم يكن يدور حـول : « من هو الخليفة الشرعي للنبي محمد ﷺ ؟ » . وهذه المشكلة هي التي أثرت في التطور التاريخي للدولة الإسلاميـة منذ عـام ٦٣٢ م أي طيلة ١٧٠ عامـاً . فالآن تفجرت المشـاعر المتـأججة لحسم النـزاع بين الفرس والعـرب وكان أن اعتقد الأمام الثامن أن الفرصـة قد واتتـه . فبصراع مهلك بين العـرب والفرس تستطيع شيعة علي ـ بشيء من التوفيق ـ جني ثمار هذا الصراع . وقد كان يقف خلف ابني هارون الرشيد ـ الأمين والمأمون ـ قوات قوية اكتسبا ولاءها بالرشوة والوعود وكان الأمين قد استطاع تنصيب نفسه كخليفة لأبيه إلا أنه لم ينجح قط في أن يحكم في بغداد فى أي وقت بلا منغصات ، فبعد أربع سنوات من موت

هارون أثبت المأمون أنه الأقوى وبمساعدة قوات من فارس قام بحصار الخليفة الأمين في بغداد . وبعد نجاح فرسان الأمير في اقتحام المدينة ، تم إغراق الأمين في دجلة في يوم ٢٦ سبتمبر عام ٨١٨ م .

وأثناء القتال كانت عاصمة الدولة الإسلامية قد دمرت وسقطت القصور الضخمة حطاماً ، تلك القصور التي شيدها هارون الرشيد . ولم يعد الماء ينطلق من النافورات بعدما كانت فخر بغداد وحملت الريح رمل الصحراء إلى بساتين الخليفة التي كانت غناء ولم تستعد بغداد قط أهميتها السابقة . فلقد ثأر الفرس لاضطهاد دام ١٥٠ عاماً .

وعندما فقد العرب نفوذهم كانت شيعة علي ـ التي كان مركز مذهبها في الشرق دائماً ـ قد دفعت إلى الأمام دفعة قوية . لدرجة أن المأمون ـ الذي صار خليفة ـ فكر في أن يفرض مذهب الشيعة على كل المسلمين . إلا أن هذه الفكرة كانت ثورية بالنسبة لخليفة من البيت العباسي ، فآل عم النبي ﷺ كانوا حتى هذه اللحظة يبذلون جهداً هاماً في محاربة زعماء الشيعة الشرعيين وقتلهم والآن يريدون أن يكونوا هم أنفسهم الزعماء . وكانت النتيجة هي حتمية الصلح مع الأئمة ، السلالة المباشرة للنبي وصهره علي . وكان الصلح بين الخليفة ، أي القيادة السياسية ، وبين الإمام أي القيادة الدينية ، يمثل مظاهرة لإعادة الوحدة بين الدين والسياسة ثم بدأت فكرة الخليفة الشورية في التحقق ، فقام الخليفة عظيم بيت آل عباس، بدعوة الإمام الثامن علي الرضا، كرجل حر، بل كضيف في بغداد ليشارك هناك في تحمل المسؤولية .

فبدأ علي الرضا رحلته الطويلة من مكة إلى بلاد الرافدين وكثيراً ما قامت سلالة النبي ﷺ بهذه الرحلة خلال الصحراء آملة في الوصول إلى السلطة في الدولة الإسلامية على ضفاف دجلة والفرات وكانت كل هذه الرحلات تنتهي بالهزيمة بل في معظم الأحيان بمقتل أحفاد النبي ﷺ . ولهذا لم يكن غريباً أن يستنفذ الإمام علي الرضا وقتاً طويلاً في الطريق . فلقد فكر فيما إذا كان من الأفضل لرجل في مثل مكانته أن يبقى مبجلاً ، على أن يفقد طموحه السياسي . وبالرغم من بطء الإمام إلا أن رحلته انتهت أخيراً في بغداد .

وعندما وصل إلى العاصمة كان الخليفة قد سك عملة كتب عليها : المأمون أمير المؤمنين وعلي الرضا إمام كل المؤمنين .

ويتفق علماء الشيعة اليوم على أن الخليفة المأمون لم يكن جاداً لحظة واحدة لتحويل التسوية بين منصب رئيس الدولة ومنصب الإمام إلى حقيقة واقعة .

فلم يكن هذا إلا صلة للقضاء على أساس عداوة شيعة علي للحكام الدنيويين والتي استمرت لأجيال .

وطبقاً لآراء علماء الشيعة فكان ربط الإمام ببلاط الخليفة ليس إلا لجر الزعيم الديني إلى حبائل السياسة اليومية . وذلك بهدف تعرية أحفاد النبي ﷺ من طهارتهم التي احتفظوا بها طويلاً ببعدهم عن القرار السياسي .

والخليفة كان مدركاً تماماً أن أهل الشيعة يعتبرونه هو وبلاطه غير طاهرين وكان الشبه كبيراً للغاية بين زخرف قصر بغداد وفخامة قصور الأكاسرة في فارس والقياصرة في بيزنطة .

وبالرغم من أن بغداد وقصر الخليفة فقدا بريقهما ـ أثناء حرب الأخوين بعد موت هارون الرشيد ـ الذي كان لهما قبل عام ٨٠٩ م . إلا أن معظم الشيعة كانوا لا يزالون يؤمنون بأن المدينة والقصرهما بقعة فساد وكانوا مضطرين إلى أن ينظروا إلى ذهاب الإمام إلى هناك على أنه عمل ضد الدين .

من هذا المنظور تكون نية الخليفة المأمون الحقيقية هي إلحاق العار بالإمام إلا أن التجهيز لتحقيق تقسيم السلطة في بغداد كان يشير إلى جدية القصد . فمنذ عهد عبد الله أبو العباس أول خليفة لدولة العباسيين كانت الرايات السوداءتعتبر رمز السلطة . فأينما كان يقيم الخليفة كانت ترفرف الرايات السوداء على السواري .

والآن كان يجب تغيير هذا التقليد : فصدر مرسوم من الخليفة بمنع رفع راية العباسيين السوداء من ذاك الحين فصاعداً . وصار رمز الخلافة اللون

الأخضر الذي كان ذات يوم يتخذه النبي ﷺ لوناً مميزاً له .

ولشرح ما يخطط له استدعى المأمون كبار رجال أسرته إلى القصر وهناك فاجأ أقاربه بأعلانه بإنه لم يستطع أن يعثر بينهم على رجل يصلح للخلافة من بعده . وانتهى المأمون بإعلانه بأنه لا يجد مفراً من تولية الإمام علي الرضا فيما بعد خليفة .

وكان من الواضح تماماً أن فحوى هذا الإعلان قد اتفق عليه مع الإمام الثامن .

ويؤكد المؤرخون الشيعة صراحة أن حفيد النبي محمد ﷺ رفض عرض الخليفة في بادىء الأمر وأنه بقي على رفضه مدة طويلة . إلا أن الحقيقة هي أن الإمام قبل اقتراع الخليفة عام ٨١٤ م . وقد وقع هذا عام ٢٠٠ هـ بالضبط . وهكذا وقع علي الرضا ضحية الإغواء وألقى كل الأفكار جانباً . فقد صمم على إعادة المجد لآله، سلالة علي من خلال تسلمه السلطة ، بعد أن ظلت عشرات السنين في الظل .

ويروى أن الإمام لم يقم بهذا بدافع المصلحة العائلية ، وإنما لصالح المؤمنين الذين وعدهم بحلف جديد مع الله الذي منحهم الوحدة . وكانت نتيجة هذا العمل هو تضخم جماهيرية الإمام في بلاد الرافدين . فبدا لأنصار شيعة علي أن زمن علي والحسين قد عاد وأن آل بيت النبي ﷺ الذين منحهم الله التفويض لقيادة المؤمنين احتلوا مكانهم ثانية ، الذي هو من حقهم الشرعي . إلا أن تطور الأحداث هذا لم يعجب آل العباس ، فمنذ أكثر من ستين عاما وهم يمسكون بالسلطة والثراء في الدولة الإسلامية . ولم يكن يوجد غير الخليفة من بين هذه الأسرة على استعداد لاقتسام السلطة مع أحد أفراد بيت النبي ﷺ .

فكان البعض يتحين الفرصة في الإطاحة بالخليفة والإمام الثامن وقتلهما .

أما الخليفة المأمون فيعيش في تاريخ العالم الإسلامي كعالم حاول توسيع الأفق الديني .

إلا أن هناك انفصام غريب في شخصية المأمون يمكن ملاحظته : بالرغم من أنه يرتبط برجل ـ يعتبر القرآن ـ كحفيد للنبي ﷺ ـ أعلى مراتب المعرفة ، إلا انه يهتم بكتابات الفلاسفة الإغريق لدرجة كانت تناقش في بلاط الخليفة .

ويروى أن الخليفة نام عصراً . فرأى في حلمه رجلاً يجلس على مقعد ضخم ولم تكن هيئته توحي بالخوف بل بامتلاك الحكمة والخير . وباندهاش بهيئته ـ لون بشرته ـ حيث كان الاثنان يشيران إلى رجل من الغرب ـ مسألة الخليفة عن اسمه ـ وكانت الإجابة : « أرسطو » .

ومع أن هذا الفيلسوف كان قد عاش قبل ١٣ قرناً إلا أن أفكاره كانت لا تزال غير معروفة للعرب والفرس . ويقول المؤرخون بأن لقاء المأمون بهذا الفيلسوف في الحلم كانت فرصة له لمناقشة أفكار أرسطو في الحقيقة .

فاستدعى العلماء إلى بغداد ليشرحوا له فلسفة أرسطو . فعرف إن « الخير » هو ما يعتبره « العقل » خيراً . ولم يكن العقل حتى ذاك الحين هو القاعدة التي يستعملها المسلمون للفصل بين الخير والشر . فالقرآن قد حدد التوجه الأخلاقي . وهكذا اعتبر القرآن كتاب الكتب لا يجوز مقارنته بأي منبع آخر من منابع الحكمة .

وكان الخليفة المأمون أول حاكم يرسل رجاله المخلصين إلى قبرص والقسطنطينية ليشتروا كتباً يكون محتواها جديراً بالقراءة والتفكير .

وكان الخليفة مدفوعاً بفكرة أن القرآن لم يعد يعطي الإجابة على قضايا الزمن المتغير . وهنا ظهر العلماء الذين وضعوا مبدأ « إن الله قد نظم كل أحداث الدنيا مسبقاً » موضع سؤال . ونحوا جانباً مبدأ القضاء والقدر وأشاروا على الناس بأن يفصلوا بأنفسهم بين الخير والشر وبين ما يجب أن يفعلوه أو يدعوه .

فكان أن قام الفقهاء المسلمون الذين أرادوا التوفيق بين الوحي المنزل على محمد ﷺ وبين الفلسفة الإغريقية بصياغة رؤياهم الجديدة هكذا : الله لم يقدر لنا حياتنا . فكيف يعاقبنا أو يثيبنا على أعمالنا إن كان هو قد خلقها .

أما في زمن الإمام السادس والسابع في مكة والمدينة ، أي قبل ذاك الحين بجيلين . فكان شيعة علي قد ناقشت بالفعل هذه القضية : العلاقة بين القضاء والقدر وحرية الإرادة فصارت الآن موضوع مناقشة في بلاط الخليفة في بغداد . وقد أظهر أطراف النقاش ميلاً لدفع الإنسان بمعرفته وإرادته إلى المقدمة . ولا يخفي مؤرخو الشيعة أن الإمام الثامن قد اشترك في هذه المناقشات فيقولون بأن علي الرضا لم ينكر قط مبادىء العقيدة الصحيحة .

وفي زمن التحول العقلي هذا كان الخليفة المأمون مستمراً في خطته لوضع مقادير الدولة الإسلامية في يد الإمام . فرحل مع زعيم شيعة علي إلى بلاد فارس ليقضي تماماً على الثورة التي لم يستطع أبوه هارون الرشيد القضاء عليها . إلا أن الساخطين من آل العباس استغلوا رحلة الخليفة والإمام إلى الشرق للقيام بانتفاضة في بغداد فكانت أسرة الخليفة ذاتها تريد أن تضع مكانه رجلاً يوعدها بحماية مصالح على وجه أفضل .

واضطر الخليفة بقوات فارسية مخلصة لمحاصرة عاصمته وقد نجح أيضاً في إخماد انتفاضة عشيرته إلا أن هذا حدث على حساب فكرة وحدة الفرس والعرب في دولة واحدة . فبأمر الخليفة حارب العرب والفرس فاستمر التنافس بين الشعبين مرة أخرى .

ولا بد أن يكون قد حدث في نفس الوقت أن الخليفة لاحظ جماهيرية الإمام الثامن المتنامية .

وقد أدى الصراع على السلطة داخل العشيرة نفسها إلى الإقلال من شأن آل العباس .

ويمكن أن تكون الغيرة من علي الرضا هي السبب في أن يلعن الخليفة فكرة نقل السلطة إلى الإمام .

وقد استاء الخليفة بوجه خاص من قواد القوات ذات الأغلبية الفارسية وهم يقابلون الإمام بخضوع . ومن رجال البلاط الهامين وهم يحاولون ترك انطباع حسن لدى الإمام وإظهار طاعتهم له في المقام الأول .

فمن الواضح أن القواد والموظفين كانوا ينظرون بترحيب إلى الإمام الثامن على أنه صاحب النفوذ في الدولة الإسلامية .

والآن تحرك طموح الخليفة لأن المأمون لم يشأ أن يدفع به إلى مقام الرجل الثاني في الدولة .

وكان أن أوحى إليه الغضب أخيراً بفكرة استخدام الأداة التقليدية التي استعملت منذ أجيال للتخلص من الإمام الذي صار غير مرغوب فيه . فتم قتل الإمام بالسم كما حدث لسابقيه .

ويعتبر الشيعة علي الرضا من أقدس شهدائهم وإن كان النسيان قد طوى تحالفه مع دولة آل عباس البغيضة إلا أن معجزاته بقيت عالقة في الأذهان : « فكان المطر يسقط لدعاءه . بل كان في استطاعته أن يتنبأ بسقوط مطر سحابة بعينها على منطقة بعينها . وكان علي الرضا يملك القدرة في أنبات الذهب على الصخر إن هو هر عليه بعصا . وكان الإمام الثامن يعرف مكنون السرائر ويعلم ميعاد دنو الأجل . وفي قلب شتاء قارس كان يجعل العشب ينمو والعنب ينضج » .

ويؤمن كثيرون من أهل الشيعة أن زيارة مشهد ـ حيث جثمان الإمام الثامن ـ أهم من الحج إلى الكعبة في مكة . وقد قام الخليفة المأمون ـ الذي يعتبره الشيعة قاتلاً للإمام الثامن ـ ببناء ضريح على قبر حفيد النبي ﷺ هذا في نفس سنة موته .

ومنذ هذا العام ـ ٨١٥ م ـ صارت « مشهد » قدس أقداس الشيعة في بلاد فارس .

وقد تحول البناء المتواضع ـ من زمن بعيد إلى جامع فخم بصحن واسع ودخوله محرم على غير المسلمين ـ وفي حرم هذا الجامع يقوم قبر الإمام الثامن ويستطيع الزائر أن يراه من بين ستار فضي .

ويروي الزوار أنه على جدار الضريح توجد الصحاف التي أكل الإمام منها العنب المسموم .

وبمقتل الإمام الثامن الذي كان الخليفة عينه لوراثة العرش خمدت ثورة آل عباس فالدافع للثورة لم يعد قائماً برقود المرشح للخلافة في قبره بمشهد .

وبعد عودة المأمون من بلاد فارس ودخوله بغداد تم إنزال الرايات الخضراء ووضع رايات العباسيين السوداء مكانها . إلا أن هذا التغيير في السياسة الداخلية لم يعني استمرار ملاحقة سلالة النبي ﷺ . فكان الخليفة يظهر احتراماً لابن الإمام المتوفى . أما تاسع الحلقة المقدسة فلم يكن قد بلغ في ذاك الحين عامه التاسع ، وكان يدعى محمد بن علي النقي . وكان الصبي في المدينة لحظة اغتيال أبيه .

ويروي مؤرخو الشيعة عن أول مواجهة بين الخليفة المأمون وزعيم آل بيت رسول الله ﷺ حديث السن للغاية : « لم يكن قد مضى على الصبي إلا قليل بعد حمله من المدينة إلى بغداد . ويروى إنه كان يلعب مع أترابه في الطريق وكان الخليفة يمضي مسرعاً مع حراسه . فاختفى رفاق الإمام من اللعب في أركان البيوت أما هو فبقي واقفاً . فكان أن خاطبه المأمون مندهشاً للغاية فجاءه هذا الرد : يا أمير المؤمنين . إن الطريق ليست ضيقة عليك وعلى رجالك وعليّ وأنا لم آتي بما يغضبك ولهذا فلست أخشاك ، وأنت لست من يؤذي بريئاً .

الإمام التاسع يتزوج ابنة الخليفة

من رواية مؤرخي الشيعة السابقة نعرف أن عائلة النبي ﷺ أرادت في ذاك الحين تحاشي أي مواجهة مع العائلة الحاكمة . وقد تم التزويج لفكرة التعايش السلمي بين قصر الخليفة وبيت النبي ﷺ .

وقد أهملت قضية مسؤولية الخليفة المأمون عن قتل الإمام الثامن . بل إنه تم قبول سلطته السياسية .

ثم تحول التعايش السلبي مرة أخرى إلى تعايش إيجابي ، فقد زوج الخليفة ابنته زينت للإمام ، وبهذا صارت عائلة الإمام من الطبقة الثرية في بغداد .

فكان أن استمر تطور الأمور على حاله كما بدأ في عهد الإمام الثامن : فما زال أحفاد النبي ﷺ يعيشون في رخاء . أما سنوات الفقر في المدينة فقد نسيت من زمن بعيد ، واستمر الرخاء طيلة حياة الخليفة المأمون .

وكان لربط الإمام بمجتمع العاصمة تبعة أن زعيم شيعة علي فقد في عيون الناس وإحساسهم صفة أنه ظاهرة غير عادية ، فمسلكه يقاس بسلوك الآخرين ، وكانت نتيجة أخرى وهو أن الآخرين نزلوا بالإمام حقاً إلى مستوى الحياة العادية . فلم يعد هناك من يتوقع أن الرجل الذي يجاوره في بغداد يستطيع أن ينشر تعاليم دينه . وسرعان ما صار محمد بن علي التقي ، الإمام التاسع ، موضوع تسلية في بغداد .

وكان الناس في العاصمة يتحدثون بالذات عن الشؤون الشخصية لبيت الإمام . وكان كثيراً ما تكون زوجة الإمام هي سبب هذه الأحاديث .

فقد روي أيضاً أن امرأة طاغية الجمال قد قالت في حضور زينب أنها أيضاً من ضمن الزوجات الشرعيات للإمام . وقيل إن زينب أبلغت أباها بهذا وهي تتأجج غضباً ، فكان أن ثار هو أيضاً ، ولما كان المأمون يحتسي النبيذ في تلك الأثناء فإنه لم يستطع السيطرة على أعصابه . فجرد سيفه وأسرع بين طرقات القصر متجهاً إلى الغرفة التي ظن أن صهره يُقَيّل فيها فاندفع الخليفة إلى الغرفة وصار يضرب السرير بسيفه حتى نزع السلاح من يده . ثم حُمل إلى رواقه .

وتنتهي الرواية بأن أفاق المأمون وسأل متحسراً مهموماً عن حال زوج ابنته ، فدهش لما علم أن محمد بن علي النقي لم يصب قط ، فهو لم يكن يقيّل في سريره .

وكان أن أدرك الإمام في النهاية أنه فقد مكانته الدينية وقد صارت مدينة بغداد تحقر من شأنه ، فكان عليه أن يفر منها . وهكذا طلب محمد بن علي النقي من حميه أن يسمح له بالإنتقال إلى المدينة ، وتذرع الإمام بحجة حتمية وجوده بالقرب من الأماكن المقدسة . فترك المأمون زوج ابنته وابنته زينب يرحلان على مضض ، وكانت زينب وحدها التي رجعت غير مرحبة .

وفي عام ٨٣٣م. يموت الخليفة المأمون وهو على سفر . وكان قد تقبل بعض التمرات من قائد قافلة أكلها بشهية كبيرة وشرب عليها ماءً . بعد ذلك بقليل كانت فرائصه ترتعد من الحمى ، ثم غشي عليه ، وفي النهاية لفظ آخر أنفاسه وكان قد عين من قبل إبنه المعتصم لمنصب الخلافة فكان عليه أن يرث تركة ثقيلة ، فكان جيش الدولة الإسلامية قد بدأ التدخل المباشر في أمور السياسة .

وأثناء المائة سنة الأخيرة كانت بنية الجيش قد تغيرت فلم يعد المقاتلون رجالاً من الصحراء أو أبناء بدو . فقد جلبت المرتزقة الغرباء إلى البلاد : من

مصر والنوبة والمغرب وضم أيضاً عبيداً من سمرقند ومن منطقة بحر قزوين والأرال والبراري المقفرة .

كان هؤلاء المرتزقة الأجانب يقاتلون ببسالة وهمة، إلا أنهم كانوا يفتقدون كل صلة تربطهم بالعائلة الحاكمة في بغداد فالجنود لا يرون أي مبرر للولاء للخليفة . ومع أنه كان يدفع لهم رواتب ضخمة إلا أنه كان شعوره يزداد بأن هؤلاء يريدون فرض آرائهم وجعل الخليفة في النهاية تابعاً لهم . وصارت سلطته تختفي بين القواد والجنود .

ولما لم يعد هناك من يستطيع كبح جماحهم وصاروا يهاجمون أهل المدينة بضراوة وعنف وكان نتيجة لأفعال المرتزقة أن نشأ التذمر بين الرعية .

فحدث ذات يوم عيد أن استجمع رجل قوته ولام الخليفة لوماً لاذعاً في الجامع : «فليعاقبك الله ، فقد أتيت بهؤلاء البرابرة إلى بلادنا وأسكنتهم بين ظهرانينا ، فيتموا أطفالنا وروعوا نساءنا ، فلتترك أنت وهم مدينتنا ، وإلا حاربناك بسلاح لا قبل لك به ، سلاح الصلاة فسنحاربك بالدعاء ليلاً وعينك نائمة ».

وكذلك نشأ اضطراب ديني وانتشر في بغداد في ذاك الحين ، فقد ازدهرت الأفكار التي زرعت في رؤوس العلماء وفي زمن الخليفة المأمون ، والتي زرعت كانت قد انتقلت إليهم من أفكار الفلاسفة الإغريق . فكان النقاش يدور كثيراً حول ما إذا كان القرآن أزلياً ، وإن كان له صفة السمو التي يتميز بها الله ذاته ، أو أن القرآن مخلوقاً مثل كل الأشياء على هذه الأرض فإن كان القرآن مخلوقاً فلا بد وأن تلحق به كل صفات قصور الأشياء على الأرض . فنتج عن هذا أن فقد القرآن صفته بأنه أبدي .

وقد أجبر المعتصم المؤمنين من خلال مرسوم أن يقسموا على ما قد آمنوا به حتى هذا الحين : أن القرآن أزلي . أما الإمام فكان في هذا الوقت في المدينة . وليس من المعروف إن كان الخليفة قد طالب هو الآخر أن يقسم بنفس القسم .

إلا أن مؤرخي الشيعة يروون أن الإمام محمد بن علي النقي مات في العام الثاني لخلافة المعتصم في بغداد ، وأن زوجته زينب ـ ابنة الخليفة الأخير ، فتلته بالسم بأمر من الخليفة المعتصم . ولم تبق بغداد بعد هذا الحادث طويلاً عاصمة للإمبراطورية الإسلامية ولم يطل الحال بالخليفة كتابع للمرتزقة الغرباء ، فسرعان ما شعر أنه صار أسيرهم . وهكذا اختمر القرار بهجر بغداد، ليؤسس في أعالي دجلة مركز جديداً لحكمه ، أما المرتزقة فقد أراد المعتصم تركهم خلفه في بغداد ، إلاَّ أنهم لم يجعلوا التخلص منهم أمراً سهلاً فرحلوا خلف الخليفة إلى المنطقة حيث نشأت مدينة سمراء وهكذا ظل المعتصم أسيراً للمرتزقة .

غالباً ما يموت الخلفاء أسرع من الأئمة

بمجرد الإنتهاء من بناء سمراء على نحوها ـ والتي كان قد بدأ في بنائها عام ٨٣٦م ـ شاء الخليفة أن يهتم بمشكلة عائلة الإمام . وكان قد عرف أنه بعد موت محمد بن علي النقي قد تولى منصب الإمامة بعده ابنه علي بن محمد النقي . وكان الخليفة يريد إحضار الصبي ، البالغ من العمر ثماني سنوات إلى العاصمة سمراء . فأرسل قائد حرسه إلى المدينة لينجز هذه المهمة . وعن مجرى أحداث هذه المهمة وصلنا رواية هذا القائد الذي كان يدعى يحيى بن حرثمة:
« كان عليّ أن أعود بعلي بن محمد إلى سمراء ، حتى يبلغ الخليفة بما يفعله بالمدينة وعندما وصلت انفجر أهل بيته في نحيب وعويل لم أسمع به من قبل طيلة حياتي ، فحاولت أن أهدىء روع المنتحبين مؤكداً لهم بأنني ليس لدي أمر بإيذاء علي بن محمد التقي هذا . وعندما بحثت في بيته لم أعثر إلا على مصحف وكتب دعاء . وأخذت علي بن محمد التقي كما أمرت ، وقد أكبرته كثيراً . وذات يوم بعد أن مر علينا أكثر من أسبوع في الطريق ـ عند شروق الشمس عجبت لارتداء علي هذا لعباته وربطه لذيل حصانه عالياً بالرغم من أن السماء كانت صافية والشمس مشرقة على الصحراء ولكن لم يمض إلاّ قليل حتى تجمعت السحب وهطل المطر علينا عاصفاً . فالتفت علي إليّ وقال : « أعرف أنك تعجبت لهذا ، وربما تعتقد أن علاقة ما بيني وبين انقلاب الجو وقد خاب ظنك فأنا لم أسقط المطر ، ولكن عشت في الصحراء وأعرف الريح الذي يسبق المطر، فأنا أستطيع شم المطر وهكذا تأهبت في الوقت المناسب لانقلاب الجو».

منذ هذا الحين وعلي بن محمد يعيش في سمراء ، ولم يحدث له أي شيء لسنين طويلة . إلا أنه كان يعيش في خوف من القتل بالسم كما حدث لكل الأئمة قبله ، ولكن سليل النبي هذا عاش بعد الحكام الذين لم يؤمنوا ـ مرتابين ـ بوداعته .

فقد كان الإمام قد ولد في حياة الخليفة المأمون ، الذي قتل خليفته المعتصم أباه بالسم ، ويعرف هذا الحاكم في تاريخ الخلفاء باسم المثمن فقد ترك خلفه ثمانية أبناء وثماني بنات وحكم ثمانية أعوام وثمانية شهور وكان في بيت ماله ثمانية ملايين دينار وثمانية ملايين درهم . وبعد المعتصم جاء الواثق ، والذي كان عالماً فذاً إلا أنه سرعان ما انهار أمام الخمر والنساء .

وقد وصلتنا هذه الرواية : « أنا الحاجب ابن الحارث وكنت مكلفاً بتسلية الخليفة في أيام الجمع وكان هذا هو كل عملي . فكنت أشرب مع الخليفة عندما يشاء وذات يوم جمعة دعيت إليه بصورة استثنائية في رواق لم نعتد الجلوس به .

واقتادني الخدم إلى داخل القصر مارين ببساتين وأقنية ثم دخلت ردهة على نوافذها تهف ستائر حريرية . وكان يغطي أرضها سجاد ملون . وعلى العرش جلس الخليفة الواثق مرتدياً عباءة طرزت بالقصب وأمام الخليفة كانت تقبع الجارية خليفة وكان عليها حجاب خفيف يظهر الجزء الأعلى من جسدها . وبتمنع اقتربت من أمير المؤمنين وجاريته ، إلا أن الواثق أصر أن أجلس إليه ، ثم أعطاني قدحاً ضخماً مليئاً بالخمر وطلب مني أن أشرب جرعة كبيرة وفجأة لكن الخليفة الفتاة القابعة في صدرها . فسقطت فريدة على جانبها ونظرت لمولاها بعين فيها فزع . وبمجرد أن تمالكت نفسها فرت من المكان وهي تصرخ . ثم ساد صمت قابض . فظننت أن الواثق غضب مني لأنه اعتقد أني نظرت بشهوة إلى صدر فريدة فلم أجرؤ أن أقول كلمة واحدة .

ثم تحدث أمير المؤمنين في هوادة من ثمل : لقد داهمن فجأة حلم فرأيت

أما الخليفة الجديد فكان يعرف مسبقاً هدية المهيمن على السلطة . فعندما تسلم منصبه أطلق على نفسه المستعين بالله . وقد سمح له بولاية أربع سنوات ثم قطع حراس القصر رأسه . وقد وقع هذا في عام ٨٦٦م. وكان أن منح صراع الحكام للبقاء على قيد الحياة ونزاعهم مع العسكر الأقوياء الإمام وقتاً للراحة . فهو لم يكن أحد عناصر نزاع مراكز القوى في الإمبراطورية الإسلامية ، وبذا بقي متجاهلاً وسالماً . إلا أن هذا الحال تغير بتولي المعتز بالله للخلافة . فقد فقد هذا الخليفة كل سيطرة على شؤون الحكومة وصارت طغمة من قواده تدير الدولة . وهكذا صار لديه وقت يمارس فيه نية العداوة الشخصية - فتذكر المعتز بالله أن سلالة النبي ﷺ منافسون لعشيرته آل عباس . وقد عثر على رجال مستعدين لقتل الإمام العاشر بالسم فتم هذا في عام ٨٦٨م. ولم يعش الخليفة المعتز بالله بعد ذلك إلا عاماً واحداً . فكان لا بد من موته بعد أن طالبه قواده بمال لم يستطع وهو بلا حول أو قوة توفيره. فكان أن قاموا بحبس المعتز بالله في داره وأمروا خدمه بعدم مده بطعام أو شراب . وقد تحمل الخليفة ثلاثة أيام بلا جرعة ماء . وكانت هذه الأيام عذاباً له فقد زادت حرارة الشمس من عطشه . وفي نهاية اليوم الثالث غشي عليه ثم مات. كان هذا الخليفة هو السابع في سلسلة الحكام الذين عاش بعدهم الإمام العاشر . وقد كتب على كليهما - أي الخليفة والإمام - أن يخرجهما الموت من منصبهما . وهذا ما حدث لمن بعدهما من حكام الدولة وسلالة النبي ﷺ . بأمر إلّهي - كما يقول الشيعة - صار ابن علي بن محمد النقي الإمام الحادي عشر للمؤمنين . الذي كان في الثالثة والعشرين من عمره عندما انتقلت إليه زعامة شيعة علي ، أما اسمه فكان حسن بن علي .

والآن بدأت أخطر الأعوام بالنسبة لآل بيت النبي ﷺ ويمكن رؤية سبب تعاظم ضغط مراكز القوى في الزيادة الضخمة لأعداد أنصار الحركة الشيعية أثناء الثلاثين سنة الأخيرة للقرن التاسع الميلادي . فكان قواد الحرس الذين حبسوا الخليفة - لا يخشون إلاَّ نفوذ سلالة النبي ﷺ - فهم فقط الذين يستطيعون تشكيل خطر على سلطتهم . وهم - القواد - سلالة المرتزقة لا يستندون إلى أية

النبي ﷺ ، ويقال إن الخليفة أجبر سليل النبي ﷺ كذلك على مشاهدة الرقص الذي تقوم به نساء تخففن من ملابسهن .

وكان الخليفة يرمي من وراء ذلك وضع زعيم شيعة علي في مواقف تقلل من شأنه في نفوس المؤمنين .

وفي نفس الوقت قام المتوكل بتخفيض دخل عائلة الإمام في المدينة من خلال مصادرة الأراضي التي كانت حتى هذا الحين في آل بيت النبي ﷺ ويروى أن نساء آل النبي ﷺ قد خرجن أحياناً إلى طرقات المدينة بلا حجاب لأنهن لم يكن يملكن مالاً ـ بسبب إجراءات الخليفة ـ ليشترين هذا الحجاب .

إلا أن فقر هذه العائلة لا يكاد يتطابق مع مقدرة علي بن محمد النقي الخاصة التي ذكرها المؤرخون الشيعة ـ في الإيمان بالعجزات : « فقد كان يحول الرمل إلى ذهب » .

وتمدنا الروايات بمعجزات أخرى : كان الإمام العاشر يقدر على إحياء الموتى والتنبؤ بالمستقبل ، وكان كثير من المؤمنين يعتقدون أنه يقع تحت حماية الله المباشرة . أما السبب في ذلك فهو أن الجنود رفضوا تنفيذ أمر الخليفة بقتل الإمام وهذا ما لم يكن يحدث في سمراء أبداً . وقد عاش الإمام العاشر بعد هذا الخليفة أيضاً . فقد تم قتل المتوكل في ليلة ٩/١٠ ديسمبر ٨٦١م على يد حراسه أنفسهم . فقد أجهزوا عليه بخناجرهم أما المبرر الرسمي لموت المتوكل غير المتوقع فكان الولع بالشراب . فقد شرق أثناء شرب الخمر فاختنق .

أما أهل مدينة سمراء فكانوا موقنين حينذاك من أن المتوكل قد قتل بتدبير من ابنه المنتصر الذي لم يستطع البقاء في الحكم طويلاً . فبعد عام من موت المتوكل مات المنتصر أيضاً. فقد قام طبيبه الخاص بحقنه بالسم بعد أن رشاه أحد حراس القصر .

وتدل عملية الاغتيال هذه على أن قواد الجيش ـ الذين كانوا في الغالب أبناء المرتزقة الأجانب ـ هم الذين يتحكمون في الأمور في سمراء .

أما الخليفة الجديد فكان يعرف مسبقاً هدية المهيمن على السلطة . فعندما تسلم منصبه أطلق على نفسه المستعين بالله . وقد سمح له بولاية أربع سنوات ثم قطع حراس القصر رأسه . وقد وقع هذا في عام ٨٦٦م. وكان أن منح صراع الحكام للبقاء على قيد الحياة ونزاعهم مع العسكر الأقوياء الإمام وقتاً للراحة . فهو لم يكن أحد عناصر نزاع مراكز القوى في الإمبراطورية الإسلامية ، وبذا بقي متجاهلاً وسالماً . إلا أن هذا الحال تغير بتولي المعتز بالله للخلافة . فقد فقد هذا الخليفة كل سيطرة على شؤون الحكومة وصارت طغمة من قواده تدير الدولة . وهكذا صار لديه وقت يمارس فيه نية العداوة الشخصية ـ فتذكر المعتز بالله أن سلالة النبي ﷺ منافسون لعشيرته آل عباس . وقد عثر على رجال مستعدين لقتل الإمام العاشر بالسم فتم هذا في عام ٨٦٨م. ولم يعش الخليفة المعتز بالله بعد ذلك إلا عاماً واحداً . فكان لا بد من موته بعد أن طالبه قواده بمال لم يستطع وهو بلا حول أو قوة توفيره. فكان أن قاموا بحبس المعتز بالله في داره وأمروا خدمه بعدم مده بطعام أو شراب . وقد تحمل الخليفة ثلاثة أيام بلا جرعة ماء . وكانت هذه الأيام عذاباً له فقد زادت حرارة الشمس من عطشه . وفي نهاية اليوم الثالث غشي عليه ثم مات . كان هذا الخليفة هو السابع في سلسلة الحكام الذين عاش بعدهم الإمام العاشر . وقد كتب على كليهما ـ أي الخليفة والإمام ـ أن يخرجهما الموت من منصبهما . وهذا ما حدث لمن بعدهما من حكام الدولة وسلالة النبي ﷺ . بأمر إلهي ـ كما يقول الشيعة ـ صار ابن علي بن محمد النقي الإمام الحادي عشر للمؤمنين . الذي كان في الثالثة والعشرين من عمره عندما انتقلت إليه زعامة شيعة علي ، أما اسمه فكان حسن بن علي .

والآن بدأت أخطر الأعوام بالنسبة لآل بيت النبي ﷺ ويمكن رؤية سبب تعاظم ضغط مراكز القوى في الزيادة الضخمة لأعداد أنصار الحركة الشيعية أثناء الثلاثين سنة الأخيرة للقرن التاسع الميلادي . فكان قواد الحرس الذين حبسوا الخليفة ـ لا يخشون إلاّ نفوذ سلالة النبي ﷺ ـ فهم فقط الذين يستطيعون تشكيل خطر على سلطتهم . وهم ـ القواد ـ سلالة المرتزقة لا يستندون إلى أية

شرعية دينية ولهذا كان سندهم السياسي ضعيفاً لدرجة خطرة .

فإن ما أظهر الأئمة طموحاً سياسياً مرة أخرى فسيكون هذا بمثابة انقضاء زمن السلطة المطلقة للعسكر . وكان أصحاب السلطة في سمراء قد أقلقهم نبوءة تقول بأنه سيكون للإمام الحادي عشر ابن هو المهدي الذي سيقود البشرية إلى الطريق الصحيح إلى رحمة الله وجنته .

ابن الإمام الحادي عشر
انتظار المهدي

يقال إن النبي « محمد » نفسه هو الذي تنبأ بمجيء رجل ينقي عقيدة الناس من الضلال ، ويعد هؤلاء لنهاية الدنيا .

وقد تنبأ رسول الله بالأحداث التالية : ففي البداية يتم تشويه اعتقاد المؤمنين بطبيعة الله . وسيكفر الكثيرون بالذات في زمن ما قبل القيامة . فيعلو الباطل لدرجة أن يمسح كلام الله من المصاحف فلا يبقى إلا الورق خالياً . وسوف تختفي الكعبة من الأرض. ولما ينتصر الباطل تماماً فسينسى الناس جميعاً سور القرآن . وسوف تمحى أيضاً من صدور الناس جميعاً تلك التعاليم التي بُشِّر بها ذات يوم باسم الله. وتتنبأ هذه الرؤية بأن قبل القيامة مباشرة يكون الناس منشغلين بأغانٍ وأشعار لا معنى لها ، وهذا يكون علامة على نهاية الدنيا . وسيكون للمهدي وحده المقدرة لإيقاف تطور هذه الأحداث فيعيد النقاء التام للعقيدة ويطالب البشر بهجر الرفاهية والضلال. ويؤمن الشيعة بأن المهدي سينجح في هداية الناس إلى السعادة الحقيقية . وسيأتي اليوم الذي يعيش فيه المجتمع البشري في سلام وكمال ، وهذا لن يتأتى إلا بفعل المهدي فسيكون هو المنقذ الحقيقي المخلص لكل البشر .

وقد تحدث محمد عن هذا المهدي : « سوف يخرج من بين أهلي » . وقد ورد عدد كبير من الروايات تشير إلى قدوم المخلص. فيروى أن الإمام الثامن قد قال : « بعدي سيكون ابني محمد بن علي النقي إمام المؤمنين . وبعده

يـأتي علي بن محمد ويليـه حسن بن علي ويكون ابنـه هو المهـدي المنتظر . وسوف يعيش في الخفاء ، ولما يظهر سوف يعطي أوامر يطيعها الجميع فإن كان قد بقي يوم واحد على نهاية الدنيا فسوف يطيل الله هذا اليوم حتى يظهر المهدي أمام عيون الناس لينشر الحق لأن الله يريد أن يملأ العدل الأرض .

والذي يسأل عن موعد خروج المهدي من مخبئه أقول له : إن أبي سمع عن أبيه وأبوه عن أبيه وهذا عن سـابقيه وهؤلاء سمعـوا عن علي أن النبـي ﷺ سئل : « يا رسول الله متى سيخلّص المهدي هذه الدنيا؟ المهدي الذي سيأتي من أهلك ؟ » فكان رد رسول الله : « **مثل يوم القيامة ، علمه عند ربي** » .

كانت هذه النبوءات التي شاعت بين الشعب ، تـزعج قـواد الحرس في قصر الخليفة بسمراء .

فإذا ما كان أهل بلاد الرافدين مؤمنين بمجيء المهدي والـذي أعطاه الله ـ طبقاً لعقيدتهم ـ سلطة واجبـة على كل النـاس ، فكان على هؤلاء القـواد أن يخشوا أن يتبع الناس هذا الإمام بصورة أكثـر إصراراً عن اتبـاعهم لكل الأئمـة الآخرين في الماضي ولذا جعلت مراكز القوى في العاصمة تراقب بيقظة منزل الإمـام الحادي عشـر ـ حسن بن علي ـ في المدينـة ليـل نهـار . فكـان يجب ملاحظة كل صوت لـه علاقـة بمسلك أحفاد النبي نحـو النساء ، وبـاحتمالات الحمل ، على أن يبلغ هذا إلى سمراء فوراً ، وذات يوم كانت الأخبار تقول إن الإمـام الحادي عشـر تزوج أميـرة بيزنـطية . وقـد أوردت الروايـات قصة هـذا الزواج : كان بشر بن سليمان صديق للإمام العاشر ، الذي حبس ذات يوم في بلاط الخليفة في سمراء، وكان الإمام العاشر قد كلف هذا الصديق بشراء جارية لابن الإمـام . وأعطاه خـطاباً مكتـوباً بلغـة النصـاري وصـرة بهـا ٢٢٠ دينـاراً وبالإضافة لذلك قال الإمام العاشر لبشر بن سليمان : « فلتذهب إلى بغداد إلى ميناء دجلة ، وقف حيث ترسو سفن الشام ، وهناك ينزل العبيد إلى البلاد حيث ينتـظرهم التجار . ولسـوف ترى أن معـظم التجار يشتـرون العبيـد لأجـل بيت الخليفة . فالتجـار الآخرون لا يكـادون يظهـرون هناك . أما أنت فقف حيث السفينـة التى يملكها عمـرو بن يزيـد وارقب إن كان يبيـع فتاة تغـطي جسدهـا

بقطعتين من الحرير . وسوف تتكلم بلغة النصارى وسوف تسمعها تصيح فتلعن كل من يريد حتى لمسها . فإذا ما تعرفت على هذه الجارية فأعطها الخطاب وستستطيع قراءته ». أما سليمان بن بشر فيروي ما حدث في ميناء بغداد : « عندما تعرفت على الفتاة وأعطيتها الخطاب فقرأته في الحال وأثناء قراءتها له لم تكن تستطيع منع نفسها من البكاء . ثم قالت للنخاس : بعني لهذا الرجل وإلا قتلت نفسي . فأتفقا على أن أدفع ٢٢٠ درهماً أي نفس المبلغ الذي أحمله معي . فذهبت الفتاة معي وبدا عليها الرضا التام ، بل انها كانت سعيدة . أما خطاب الإمام العاشر فكانت تقبله وتضعه على قلبها. وأثناء الرحلة الطويلة من بغداد إلى سمراء روت لي حكايتها أما ما روته الفتاة فكان غريباً . وهذا هو ما سمعه بشر بن سليمان : إنني أميرة فأبي هو ابن قيصر بيزنطة . أما أمي فهي تنسب لسيمون أحد حواري عيسى . وكان جدي ، القيصر ، يريد تزويجي لابن أخيه قبل نهاية العام وجعل يجهز لهذا الحفل وكنت أنا قد بلغت بالكاد عامي الثالث عشر . وقد أتى للحفل سبعمائة نبيل من الإمبراطورية وأربعة آلاف فارس ورجال البلاط ،وكان القيصر يجلس على عرش زين بكثير من الماس وكانت أربعون درجة تتقدم هذا العرش . وبجوار القيصر جلس ابن أخيه وأمام الحوائط كلها كانت تقف تماثيل القديسين . وكان أن وقف جدي القيصر وطلب فتح الإنجيل . وفي هذه اللحظة ترافعت أرجل المقعد الذي يجلس عليه ابن أخي القيصر . فكان أن وقع الرجل ـ الذي كان سيصير زوجاً لي ـ على الأرض وكذلك سقطت بعض التماثيل وتحطمت ، فعم الفزع المكان . واعتقد الجميع أن هذا فأل سيىء للزواج أو للمسيحية. أما جدي فلم يشأ أن ينشغل بهذا . فأقيم المقعد مرة أخرى وأزيل حطام التماثيل، وكان يجب أن يبدأ حفل الزواج من جديد . ولم نكد نفتح الإنجيل مرة أخرى حتى حل بنا الفزع مرة أخرى . فقد سقط المقعد وتحطمت التماثيل على الأرض . ولم يستطع ابن أخي القيصر ، الذي كان سيصير زوجاً لي ، أن يعتدل مرة أخرى على كرسيه . فلم ينهض إلا بمشقة . وهنا ركب الخوف السبعمائة نبيل والأربعة آلاف فارس ورجال البلاط ، لدرجة كادت تصل بهم إلى الجنون ، وفي النهاية فروا من المكان . أما القيصر فذهب إلى مخدعه كسيف البال ».

وتروي الأميرة التي صارت الآن جارية ، لبشر بن سليمان الذي اشتراها أنها في تلك الليلة بعد الحادث المريع رأت في حلمها : عيسى وكل حواريه ، يقفون في نفس المكان بالقصر حيث كان المقعد وظهر محمد أمام عيسى وجاء بعده علي وبعد علي جاء أحفاده الأئمة المباركين يحفهم النور ، فعانق عيسى محمداً ﷺ . أما محمد ﷺ فقال له : « **يا روح الله لقد أتيت في طلب حفيدة حواريك سيمون لحفيدي حسن بن علي الإمام الحادي عشر** » فنظر عيسى إلى سيمون وقال : النبل والمجد حلّا هنا ليوحدا بين نسبك الشريف والنسب الشريف لمحمد ﷺ » فوافق الحواري سيمون على زواجي من حسن بن علي ثم صعد الجميع إلى منصة صنعت من نور . ثم قالت الفتاة لمحمد بن بشر رسول الإمام الحادي عشر بأنها بعد حلمها هذا لم تجد الأميرة البيزنطية الشجاعة لتحكي هذا الأمر لأي شخص . ولم تعد تأكل إلا بالكاد ، ولم تقترب بالذات من الخمر . وفي خلال أسابيع قليلة كان قد أصابها الهزال ثم المرض والوهن ، ولم تسترد قليلاً من صحتها إلا عندما انتزعت من القيصر إقراراً بإطلاق سراح الأسرى المسلمين لدى الإمبراطورية المسيحية البيزنطية. ثم تروي الأميرة البيزنطية التي صارت جارية أنها استعادت قوتها تماماً فقد ظهر لها في الحلم فاطمة ابنة النبي محمد ومعها مريم العذراء وقد ألحتا كلتاهما عليها بالدخول في دين الإسلام وأن تشهد : أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وعلياً ولي الله . فلم تتردد لحظة . وشهدت هذه الشهادة التي تلتها عليها فاطمة ومريم .

وبعد هذا الحلم صار وجود الحسن بن علي يملأ لياليها وشعرت بقربه . فكان ابن الإمام يرقد بجوارها بجسده وروحه . وحقق حسن بن علي أمنية محمد بالزواج منها . وقبل نهاية الرحلة من بغداد إلى سمراء كان بشار بن سليمان قد عرف خاتمة حكاية الجارية التي اشتراها بتكليف من الإمام العاشر . « وكزوجة لابن الإمام العاشر لم أستطع البقاء في بيزنطة . وأردت الرحيل إلى بلاد زوجي . ولإنجاز هذا ارتديت ملابس الرجال وانضممت إلى فرقة من الجنود كانت ذاهبة إلى بلاد المسلمين وأثناء هجوم لفرسان المسلمين وقعت في

الأسر . وعندما أبيت أن أتجرد من ملابسي كما فعل الأسرى الآخرون ، اكتشف أمري بأنني إمرأة ولما عرف المسلون ـ الذين أسروني ـ قدري عاملوني باحترام ، ولكن أيضاً كجارية للبيع .

وكان الإمام العاشر راضياً تماماً عن رسوله بشار بن سليمان كما تؤكد الرواية . وفي أول لقاء بمنزله في سمراء سأل الإمام الفتاة الصغيرة التي أعجب بطريقتها ومنظرها : « ماذا تفضلين ألف دينار أم بشرى طيبة ؟ فاختارت الأميرة البيزنطية البشرى . فقال الإمام العاشر كزوجة لابني ستلدين ابناً أيضاً من خلاله يسود العدل الأرض وسيصطفى ابنك ليكون مخلص الدنيا » أما عن صحة مضمون هذه الأسطورة فلا يوجد دليل واضح إلا أنه يبدو مؤكداً أن حسن بن علي قد حصل على جارية مسيحية قبل وفاة أبيه . وقد أعطى تحول هذه الجارية إلى أميرة بيزنطية الفرصة لمؤرخي الشيعة بأن يقولوا أن عيسى نفسه قد أمر بعلو الإسلام وأنه هو بذاته شهد بمجيء مخلص حقيقي .وفي نفس الوقت استطاع مؤرخو الشيعة من خلال مثل هذه الأسطورة التأكيد على نبل سلالة النبي ﷺ . فحسن بن علي زوج ذو نسب شريف والأميرة الزوجة تنتسب إلى أنبل أسرة مسيحية في العالم : فوحد ابنهما الإسلام والمسيحية . وبهذا يصير مخلصاً لأتباع الديانتين وبذلك العالم كله . وليس هنا من شك في أن الأساطير حول النسب وحول القدرة العجيبة في رؤية الأمور الإلهية ، التي وصف بها ابن الإمام الحادي عشر ، قد نشأت في حياة الإمام الحادي عشر . وقد وصلت النبوءات حول شخص هذا الابن وحول مجيء الإمام الثاني عشر « المهدي » إلى أسماع حكام سمراء . وبهذا لا يكون غريباً أن أصحاب السلطة السياسية يراقبون بيقظة منزل حسن بن علي الإمام الحادي عشر في المدينة ليل نهار . حتى في غرفته الخاصة لم يستطع حسن بن علي أن يتخذ خطوة دون أن تسجل عليه . وقد لوحظ أنه عندما يذهب لنساءه ، كانت المرأة المسيحية لوحدها أحياناً في البيت وكان يجب التأكد من حدوث حمل ، وحساب ميعاد الولادة حتى لا يرى الإمام الثاني عشر النور . أما أبو المهدي فلم يروعه أنه يأتي بالمعجزات مثل الإمام العاشر . فإذا ما أتى الإمام بشيء عجيب فكان يفسرها

للشيعة على أنها حدثت بطريقة عادية. وقد روى عنه ـ أي المهدي ـ مؤرخو الشيعة ما يلي : « في الوقت الذي كان الإمام الحادي عشر محبوسا بتدبير الحاكمين كان الجفاف قد حل بضفاف دجلة والفرات شهوراً طويلة ، ونتج عنه مجاعة . وهنا كان يتحدث الناس عن قديس مسيحي : فهو لا يحتاج إلا لرفع يده حتى يهبط مطر من سحابة تكونت بسرعة ، حيث يقف هو . وبدافع من الخوف من أن يقول المسيحي للناس أن دينه ، الذي يأتي بمثل هذه الأعاجيب ، يعلو الإسلام بمنتهى الوضوح ، حث القواد الحاكمين الخليفة ـ الذي كان تحت سيطرتهم تماماً ـ لإرسال مبعوث إلى الإمام الحادي عشر ليسأله عن حكم آل النبي ﷺ على هذه الظاهرة . فجاء وعد الإمام بإبطال القوة السحرية لهذا القديس المسيحي ». وكان أن نظر الإمام حسن بن علي ومعه مئات من الناس هذا المسيحي وهو يظهر سحاباً ممطراً في سماء صافية تماماً . وتقول الرواية : « فأمسك الإمام بذراع المسيحي وقبض كم جلبابه فرأى المجتمعون كلهم أن القس قد أخفى عظمة . فقال الإمام للناس المتعجبين بأن هذه العظمة هي من عظام أحد قديسي الشيعة . وكان من البديهي أن هذه العظمة المقدسة لها المقدرة في إنشاء سحاب وإسقاط مطر ».

وتقول الأسطورة أن الناس منذ هذه اللحظة لم يشاءوا معرفة شيء عن الدين المسيحي . ولم تخبرنا الروايات عما حدث للقديس .

وفي عام ٨٧٢م. يموت الإمام الحادي عشر . وعن نهايته لا يرد ذكر « السم » في روايات الشيعة . إلا أنها تتهم الخليفة العباسي « المعتمد » بالتسبب في موته . ومن الغريب أن هذا الخليفة قد نجح في الحد من قوة سلالة المرتزقة وقد زاد نفوذ الخليفة مرة أخرى في خلال حكمه البالغ ثلاثة وعشرين عاماً .

والفضل في هذه التطورات لا يعود للخليفة فحسب بل إنه يرجع في معظمه لأخيه طلحة . فقد أدرك المعتمد بذكاء وبالمهارة السياسية غير العادية لأخيه : فتنازل بعد توليه الحكم عن جزء من صلاحياته لطلحة . فساعدته حركته النشطة ـ والحظ أيضاً ـ على النجاح. فقد كانت اضطرابات تفجرت في

الولايات الشرقية وانقطعت الموارد الهامة لخزينة الدولة والتي كانت ترد إليها في صورة ضرائب من تلك المنطقة الغنية . وقد اضطر القواد الحاكمون لقيادة الحاميات في الولايات الثائرة . ومن تبقى منهم فلم يكونوا في حنكة ومكر أخي الخليفة . وعندما استعاد الخليفة سلطته من غير نقصان في الإمبراطورية الإسلامية قام المعتمد بنقل العاصمة إلى بغداد بناء على نصيحة أخيه ـ وكان الخلفاء العباسيون قد عاشوا ٥٠ عاماً في منفى اختياري هو سمراء .

وظل المعتمد يحكم ٢٢ عاماً من ٨٧٠ حتى ٨٩٢م منطقة شاسعة تمتد من حدود الهند حتى الساحل الإفريقي للأطلنطي . وفي أثناء هذه السنوات حدث أن تسلم حفيد النبي ﷺ ـ المهدي ـ زعامة شيعة علي بعد موت الإمام الحادي عشر . وقد حدث هذا عام ٨٣٢م ـ ٢٦٠هـ . وقد ولد الإمام قبل سنوات من توليه هذا المنصب بأمر الله كما يقول الشيعة ، أما مكان ولادته المعلن فكان سمراء . وتقول الروايات أن حياته بدأت بالمعجزات : فبعد ولادته مباشرة ركع ثم رفع سبابته اليمنى إلى السماء وقال : سبحان رب العالمين ـ الصلاة على محمد وآله .

الإمام الثاني عشر

المهدي الذي اختاره الله

قبل أن ينتهي أول يوم بعد ولادته ـ يقال ـ إن المهدي قد نطق بهذه الكلمات : « أشهد ألا إله إلا الله وأن جدي ـ الذي سبقني بأجيال عديدة ـ هو رسول الله وأن أبي هو ولي الله . وهو الحادي عشر بين الرجال الكرام الذين خلفوا رسول الله . وأنا الإمام الثاني عشر . يا إلهي أعطني القدرة لأنهض بواجبي . والقوة في سبيلك وارفع شأني بين المؤمنين واملأ الأرض عدلاً » . وكان الشاهد على كلامه هذا هو عمته حليمة . وقد روت أيضاً أن الصبي ولد مختوماً ولم يربط بأمه بحبل سُرى . وعلى الذراع اليمنى للمولود قرأت هذه الكلمات : « ظهر الحق على الأرض وزهق الباطل ، ولم يعد له مكاناً على الأرض » .

وقد سجلت الروايات تعجب تلك العمة حليمة من أمر الطفل : « كانت ترى الطفل كل أربعين يوماً ، وكانت تعجب كل مرة من نموه ونضجه بهذه السرعة . وتورد الروايات أيضاً عن شك العمة حليمة في أن الصبي الذي رأته هو حقاً ابن الجارية المسيحية الذي ولد من وقت قصير . إلا أن أخاها الإمام الحادي عشر أكد لها أن هذا هو ابنه الأصغر الذي سيخلفه في الإمامة . وقريباً سوف يتلقى مهامه ومكانته ـ بأمر الله ـ كإمام ثاني عشر . وحسب الروايات الشيعية يكون المهدي قد أعد إعداداً جيداً ليخلف أباه . فقد تلقى ـ مثل كل الأئمة قبله القرآن وهو في بطن أمه . وقد قامت الملائكة بتعليمه بعد ولادته مباشرة . وقد شهد البعض بأنه منذ الساعة الأولى لميلاد المهدي قد هبطت

طيور كثيرة فوق منزل الوالد . وكانت هذه الطيور تجسيد للملائكة . وقد قال الأب الإمام الحادي عشر : « وبهذه الحال يبلغ الصبي في شهر ما يبلغه الآخرون في عام » .

ولم يكن هناك من شك بعد الولادة في أنه يجب إطلاق اسم محمد على المولود كما كان يدعى النبي ﷺ . فقد كان رسول الله ﷺ نفسه هو الذي أطلق عليه هذا الاسم : « سيكون اسمه كاسمي أما ألقابه فتكون المهدي ، المنتظر ، سيد كل زمان . أيها الناس أنا النبي وعلي وريثي وسيخرج منا من يدعى محمداً ، آخر الأئمة، ليظهر على كل الأديان وينتقم من سدنة الشر . وسيقضي على عشائر عبدة الأصنام ، وسيعاتب قتلة شهداء الله . وسيكون بطل الدين فيحتل الحصون ويدمرها . وسيفجر الماء من نبع الحكمة الإلهية إنه آخر الأئمة الذي اصطفاه الله وما سيفعله هو الحق فالله أمنه على الإسلام » .

وقد وصلت رواية عن نقل القدرة الإلهية من الإمام حسن بن علي إلى الإمام الثاني عشر . المهدي . إلا أن هذه الرواية لا تورد الأمر العجيب لنموه ـ وبهذا يمكن النظر إليها على أنها واقعية بلا ريب . ومن المؤكد أن الإمام الثاني عشر كان في الرابعة من عمره عندما مات أبوه . فالطفل الذي بهذه الرواية كان في هذه المرحلة من العمر . وشاهد العيان على هذا الحديث ـ الذي يتكلم بضمير المخاطب ـ يدعى « إسماعيل » . ولا يوجد شيء يعرفنا بهذه الشخصية وهذا هو كلام إسماعيل : « كنت أجلس على سرير الإمام حسن ، الذي كان يجتهد لشرب الدواء . إلا أن يده كانت ترتعش بصورة جعلت قدح الدواء يصطك بأسنانه ، فوضع الإمام القدح وقال لخادمه : إذهب إلى هذه الغرفة واحمل لي هذا الطفل الذي يدعو . وكما اتفق دخل الخادم الغرفة الأخرى ورأى الطفل الذي كان يصيح بالدعاء ويرفع سبابته إلى السماء . وعندما انتهى الطفل من دعائه ابتسم وظهرت أسنانه. وعندها رآه الإمام المحتضر قال له : سيكون لك البيت وآله قريباً . وقريباً سأكون بين يدي الله . فاعطني أنت الدواء أشربه . وهنا لم يعد الإمام حسن يرتعش . ثم قال المحتضر : جهزني للصلاة . وهنا أخذ الصبي منشفة وقام بالوضوء . ومسح رأس الأب وقدميه

بالطيب ثم قال الإمام الذي تأهب لمغادرة الدنيا : « يا بني أنت سيد كل زمان أنت المهدي الهادي أنت على الأرض دليل وجود الله . أنت آخر الأئمة طاهراً تشملك كل الفضائل ، وقد بشر رسول الله ﷺ بمجيئك وتنبأ باسمك . وهذا العلم أخذته عن آبائي وستأخذه أنت عني » وبعد هذه الكلمات مات الإمام حسن .

وهناك رواية تشير إلى أن انتقال الإمامة من الأب إلى الابن لم يحدث بلا مشاكل ، فلم يقم بصلاة الجنازة في بيت الإمام الحادي عشر المتوفى ابنه محمد ، ولكن عماً له يدعى « جعفر » . وطبقاً للتقاليد يكون منصب الإمامة من نصيب الذي قام بصلاة الجنازة .

ومن الواضح أن العم جعفر لمح فرصة في وضع نفسه على رأس بيت النبي ﷺ فلم يبد اهتماماً بابن الإمام البالغ ٤ سنوات إلا أن هذا الابن أمسك بيد العم وأزاحه جانباً . ثم قام هو بأداء الصلاة ، وبهذا أثبت أنه الإمام .

إلا أن الرواية تقرر أن هذا لم يقضي إطلاقاً على طموح العم . فبعد دفن الإمام الحادي عشر بأيام قليلة ، جاء حجاج من المدينة الإيرانية قم إلى سمراء ليعرفوا من الذي سيصير مستقبلاً إماماً بتكليف من الله . ونعرف من الرواية أن جعفر قدم نفسه على أنه الإمام الشرعي ، أما عن صحة أن التقليد يقضي بانتقال منصب الأب إلى الابن وليس إلى العم فقد رد عليها جعفر بقوله : « إن الله هو الذي يقرر التقليد أو زواله » . إلا أن الحجاج لم يشاءوا تصديق جعفر إلا في حالة إثباته لعلامة واضحة أن الله أراد حقاً تكليفه بزعامة آل بيت النبي . أما العلاقة بالنسبة لهم فكانت تتمثل في أن مقدرة جعفر بإخبارهم بأسماءهم وبمقدار المال الذي حمله كل منهم من أجل رحلتهم . فإذا ما استطاع جعفر الإتيان بالإجابة الصحيحة فسوف يصدقون أن الله منحه قوته لمنصب الإمام وتقول الرواية بأن جعفر غضب لأن مثل هذا الإمتحان لم يخضع له إمام قط . وطالبهم بالخضوع لأنه في النهاية هو وحده الذي تقلد منصب الإمامة ـ بأمر الله ـ كخليفة لأخيه الإمام حسن . أما حجة جعفر فكانت أن الإمام الحسن ـ حفيد النبي ـ خلفه أيضاً أخوه الحسين . إلا أن هذه الحجة لم تفده بشيء . وتحكي

الرواية عن هزيمة الرجل الذي قلد نفسه الزعامة : « لم يقتنع حجاج قم بأي وجه باعتراض جعفر . وقالوا أنهم باحثون عن الإمام الشرعي . وفي هذه اللحظة ـ دخل خادم من الباب ليقول أن سيده كلفه بذكر أسماء بعض الرجال ومقدار المال الذي يحملونه . ودهش الحجاج لأن هذه الأسماء كانت أسماؤهم وكان مقدار المال هو نفسه الذي حملوه معهم لأجل الرحلة من قم إلى سمراء . فأرادوا رؤية هذا السيد الذي كلف خادمه بهذا إلا أن جعفر منع أهل قم عن ذلك وقال : « إنكم أهل الإيمان فهل تخدعون بحيلة شيطان » ولم يكد ينتهي من كلامه حتى رأى الحجاج في جلاء صبياً في الرابعة من عمره يقف أمامهم ويقول : « يا جعفر لماذا تطلب ما هو حق مشروع لي؟ » . ولم يستغرق هذا المشهد إلا برهة اختفى بعدها هذا الطيف . فخرج أهل قم من بيت الإمام الحادي عشر المتوفى وقد انتابتهم الحيرة .

وتنتهي الرواية : إنه بعد خروجهم قام جعفر بالبحث عن الصبي في البيت بلا جدوى فقد اختفى الإمام الثاني عشر الحقيقي منذ ذاك الحين .

الغائب

ينص أحد مبادىء المذهب التشيعي على : « اختفاء الإمام الثاني عشر من أمام عيون العامة فلا يراه إلا خاصة الشيعة » والذي يتتبع الروايات التاريخية لا بد أن يفترض أن أفراد العائلة قاموا بإخفاء الصبي خوفاً من مؤامرات عمه جعفر . فبعد ما حدث أمام أهل قم كان يمكن لجعفر أن يخطط للقضاء على الصبي بالسم . وفي الواقع كان بيت الإمام الحادي عشر في سمراء مبنياً فوق أقبية متشعبة منحت حسن بن علي الفرصة في الاختفاء أثناء ملاحقة عملاء أصحاب السلطة له . وكان المهدي يعرف أيضاً طرق الأنفاق تحت بيته . إلا أن افتراض أن الصبي قد اختفى في هذا المكان لا يبرر اختفاءه لعدة أيام بعد ذهاب أهل قم . فماذا حدث بعد ذلك ؟ « فالغيبة » لا تعني في عقيدة الشيعة بأي حال من الأحوال أن الإمام الثاني عشر قد مات . بل العكس فالشيعة يؤمنون : « أنه ولد ويعيش في الخفاء . وبأمر الله سيرجع في نهاية الزمن » . واختفاء الإمام الثاني عشر الغائب لا يعني أنه صعد للسماء فهو يعيش بين الناس وهو يتصل ببعضهم وكثيرون يوقنون أنه يمكن مخاطبة الإمام الغائب . فالمؤمن يستطيع التوجه إليه من خلال الدعاء أو من خلال رسائل يضعها في الأماكن المقدسة مثل مقبرة الشهيد الحسين . وما تزال غيبة الإمام الثاني عشر باقية حتى اليوم إلا أن علماء الشيعة يؤمنون بظهوره .

وقد قسم الزمن من عام ٨٧٢ م حتى اليوم إلى فترتين أطلق عليهما الغيبة الصغرى والغيبة الكبرى .

وقد عين المهدي في الفترة الأولى للغيبة ممثلين عنه ، يستطيعون الاتصال به ومخاطبته . وكانوا معروفين بالاسم فأولهم كان يدعى عثمان بن سعيد العمري وقد كان من خلفاء الإمام الحادي عشر . ومن خلال هذا الرجل استطاع أنصار شيعة علي تلقي أوامر الإمام في السنوات الأولى بعد اختفاءه . واستطاع عثمان بن سعيد العمري إرسال الأسئلة إلى الإمام وتلقى إجاباته عليها وقد حل مع هذا النائب ابنه محمد بن عثمان العمري وكان النائبان أثناء الجيلين التاليين يدعيان أبو القاسم حسين وعلي بن محمد السمري وقبل أيام قليلة من موت النائب الأخير ـ الذي عين عام ٩٣٩ م ـ أمر الله ـ كما يقول الشيعة ـ بنهاية الغيبة الصغرى وأن الغيبة الكبرى حلت محلها . وبدأ زمن الغيبة الكبرى .

وهذا يعني أن سبعين عاماً تقريباً من ٢٦٠ حتى ٣٢٩ هـ هي المرحلة التي استطاع فيها النواب التحدث إلى الناس باسم المهدي . أما مرحلة الغيبة الكبرى المستمرة للآن ، والتي لا يظهر نائب أثناءها ، فسوف تنتهي بأن يسمح الله للغائب أن يظهر للناس وتظل كلمة رسول الله بأن الله سوف يمد يوم ما قبل القيامة حتى « يظهر واحد من آل بيتي » ليخلص البشرية .

ويربط هذا الإقرار بين عودة الإمام الثاني عشر ونشوب « حرب » الجهاد . ويقسم المذهب الشيعي هذه الحرب إلى درجات مختلفة فقبل ظهور الإمام الثاني عشر للناس ينتظر الشيعة مجيء علي ، أول الأئمة ، وسيحمل علي خاتم سليمان وعصا موسى وبهذا يتم التعرف على زوج ابنة رسول الله ﷺ وسيقوم بجمع جيوشه على ضفة الفرات عند الكوفة . وشيئاً فشيئاً يتجمع حوله كل خلفاءه السابقين ويؤمن أهل الشيعة بانتصار الإمام الأول على الشر الذي لن يستسلم بسهولة . فخصم علي سيكون الشيطان الذي يقود جيشاً قوياً أيضاً . ويذهب أهل الشيعة إلى افتراض أن أتباع الشيطان سيكونون أكثر عدداً من حلفاء علي ففي النهاية سيحارب نداء الشيطان كل من أيده حتى ولو مرة واحدة أثناء التاريخ الطويل منذ آدم .

وسوف يحالف النجاح هذا الجيش الكبير في بادىء الأمر ، وسوف يرى

المؤمنون كيف سيتراجع رجال علي حتى يهدد بعض خلفاء الإمام الأول بالقفز إلى الماء وبالرغم من هذا الموقف الحرج سوف يسود الإيمان بأن الله لن يسمح باندحار الحق . وكما يتصور الشيعة فسوف تنتهي أكبر وأقسى معارك التاريخ بانتصار جيش علي . فبعون السماء سيتمكن علي من الانتصار على الشيطان . فيظهر محمد ﷺ في سحابة ويبث رعباً عظيماً في الشيطان وأتباعه . فيهربون إلى المكان الذي أعد لهم جهنم وهكذا يفقد الشر سلطانه إلى الأبد وهكذا يمكن أن تقوم الساعة . ويملك الشيعة تصوراً دقيقاً لأحداث يوم الحساب : ففي البداية سيخبر محمد ثمان من الناس بجزاؤهما : أفضل الخيرين وأسوء الأشرار وسيكون جزء من عقاب الأشرار أنهم سيرون حسن ثواب المؤمنين والأخيار ثم يبدأ عذابهم الأبدي . وسوف يشارك في الحكم على هؤلاء الإمام الثاني عشر الذي لم يعد غائباً وهو وحده الذي سينادي الموتى من قبورهم ويبدأ بأفضل الأخيار وأسوء الأشرار وسيكون الحسين على رأس هؤلاء الذين لم يتراجعوا والذين لم يعصوا قط أمر الله قولاً أو فعلاً . وعلى رأس الأشرار يكون يزيد بن معاوية . وقد كان يزيد هذا هو الخليفة الذي استشهد الحسين، الإمام الثائر ، في عهده عند كربلاء فيظهر خصماً من الماضي على رأس حلفاءهما يوم القيامة كما حدث عند ظهور شيعة علي . وسيلقى يزيد عذاباً أبدياً وكذلك معه الذين سيطر الشر وحده على إرادتهم .

أما الأموات ، الذين لم يتطرفوا في خيرهم أو شرهم فيظلون راقدين في قبورهم حتى يبدأ عقاب الأشرار وثواب الأخيار أما الباقون فيحاكمون محاكمة جماعية . وأما الذين انضموا للشيعة علي قولاً وفعلاً فلن تمسهم النار . وقد قام أحد الإيرانيين ـ الذي جمع روايات شيعية أثناء العصور الوسطى ـ بإسداء النصح للمؤمنين في كيفية دخولهم لصفوف الخيرين : « فمن يردد ذكراً معيناً لله أربعين فجراً قتالياً يكون من أصحاب الأئمة المشهود لهم . فإن مات واحد منهم بعثه الله من قبره ليجعله في خدمة الإمام الثاني عشر وبكل كلمة من ذكر هذا المؤمن يغفر الله له ألف سيئة » .

وهذا هو جزء من الذكر الذي يعود بالبركة على المؤمنين . (يا الله)

أنت المهيمن على النـور الأكبـر ، أنت سيـد العـرش العـالي ، أنت سيـد النـور والظل . أرسلت إلينـا القرآن العـظيم . وأنت المسيطر على المـلائكـة والـرسـل . يـا الله ملكـوتـك أبـدي . أنت حي قبـل كـل حيـاة وستبقى حياً بعد كل حياة . يا مولاي يا من تحيي الموتى وتميت الأحيـاء . ولا إله إلا أنت . يا الله بارك مولانا الإمام زعيمنا وقائدنا . سلام عليه وعلى سلفه الطاهر . وسلام على المؤمنين رجالاً ونساءً . وشرقـاً وغربـاً وعلى الجبال وفي السهـول وفي الوديان والسواحل . يـا الله في هذا الصبـاح أجدد عهـدي معك مستعينـاً بالإمام ، وأنا لا أبغي نسيانـه أو نكثه يـا الله إجعلني دائماً بين صحـابة ورفـاق الإمام والذين حاربوا معهم واجعلني من هؤلاء الـذين يسرعـون لخدمـة الإمام وينفذون أوامره ويقاومون أعـدائك ويعـرفون قصـدك . إني أبغي أن أكون من هؤلاء الذين يستشهدون في سبيل الإمام . يا الله إذا ما فـرق الموت بيني وبين الإمام فابعثني وأخرجني من قبري في كفني بسيف مشهور ورمح مـرفوع ملبيـاً نداء الإمام . يا الله إجعلني أرى وجه الإمام الصبوح » .

إسماعيل الصفوي
إيران تصير شيعية

خرج الإيمان بالوجود الحقيقي للإمام الثاني عشر من بين صفوف المؤمنين لينتشر بعد ذلك في المناطق حول دجلة والفرات وكذلك في المناطق الجبلية الإيرانية بين خوزستان وخرسان . وعندما بدأت الغيبة الكبرى عام ٩٣٩ م ، لم يطو النسيان هذا الغائب بلا ريب . ومراراً ما كان يعتقد الحكام بأنهم أمناء على السلطة فقط وأنهم يحكمون كوكلاء للإمام الثاني عشر . إلا أن هؤلاء الحكام لم يحظوا قط بإقرار شيعة علي بسلطانهم لأن شيعة علي كانت ترى أن لا تكون السلطة العليا في الدولة إلا في يد إمام من آل النبي .

وبعد بداية الغيبة الكبرى بقليل بدأ انهيار سلطة الخلافة الذي استمر طويلاً ، فقد أخذت الإمبراطورية الإسلامية العربية في التراجع عن كونها قوة عظمى . وقد أخذ الغازون الأسيويون يغيرون على بلاد الرافدين عبر الجبال الفارسية . وبدأت بلاد فارس تستعيد استقلالها شيئاً فشيئاً . هذا الاستقلال الذي فقدته بالفتح العربي بعد موقعة القادسية عام ٦٣٧ . م . وكانت عملية الانفصال هذه قد استمرت خلال قرون عديدة . وشجع هذا الانفصال السياسي خلال عدة أجيال الانفصال الديني . أما السلاطين الذين كانوا يسيطرون من إسطنبول على الإمبراطورية العثمانية المتناهية فكانوا من أهل السنة الذين لا يكترثون بأحقية سلالة النبي ﷺ في السلطة ، ولا يكترثون بفكرة أن الإمام الثاني عشر الغائب هو صاحب السلطان الحقيقي على المؤمنين . وقام السلطان سليمان السني المذهب بفتح بغداد عام ١٥٣٥ م . وصار بهذا حاكماً على

الأماكن المقدسة الشيعية في كربلاء والنجف والتي كانت لا تمثل لديه أية أهمية طبقاً لمفهومه الديني والسلطوي أما بالنسبة للشعب الشيعي في بلاد الرافدين فلم يكن يعني هؤلاء السلاطين إلا حكاماً غير شرعيين ، مضطهدين. وكان السلاطين بدورهم يستشعرون الخطر من جراء الأحداث التي تجري في بلاد فارس . فهناك ، وقبل سنوات قليلة من الفتح السلمي لبغداد ، كان يحكم إسماعيل الصفوي ، الذي كان ذا طموح سياسي ، وكان يريد إعادة مجد الإمبراطورية الفارسية السابق . وتمتد جذور طموحه هذا إلى سلفه الذي كان يدعى صفي الدين إسحاق . الذي أسس جماعة دينية في مدينة أردبيل الواقعة على بعد كيلو مترات قليلة من بحر قزوين . وكان أن جعل هذا الرجل النشط المدينة مستقلة عن كل تبعية لسلطة أعلى . وعندما تأكد الاستقلال مد صفي الدين إسحاق نفوذه إلى مناطق أخرى . فأزعج هذا التوسع الحكام المنغوليين على ضفاف بحر قزوين إلا أن النزاع القائم بينهم لم يترك لهم فسحة من الوقت ليقوموا بإخضاع هذه المناطق . وكان أبناء وأحفاد صفي الدين إسحاق يتسلمون الحكم في الدولة الصغيرة حول أردبيل الواحد تلو الآخر . وقد اشتهرت دولتهم باسم الدولة الصفوية التي اشتق اسمها من مؤسسها . وقد انتزعت العائلة الصفوية خلال ثلاثة أجيال احتراماً كثيراً جعلها مرهوبة الجانب في بلاد فارس وكان قد نما لدى سكان هذه البلاد خلال ثلاثة أجيال أيضاً شعور قومي قوي . وقد كبر بغضهم للأجانب الذين حكموا بلاد فارس تسعة قرون : فقد خضع الفرس لحكم بني أمية ثم بني العباسي والآن يخضعون لحكم العشائر المنغولية . فلم تنقطع سلسلة حكم الأجانب الذين يفرضون إرادتهم على شعب فارس . وكان الصفويون أذكياء ـ بعد اعتلاءهم السلطة ـ عندما أكدوا على أنهم من أصل فارسي وأن لديهم شعوراً قوصياً فارسياً وأنهم يريدون إعادة استقلال بلاد الفرس . وهكذا صارت العشيرة الصفوية ـ أثناء عدة أجيال ـ رمزاً للوعي القومي الفارسي . وصار كبار العشيرة زعماء حركة تحرير ضد السيطرة المنغولية . وقد اتسمت مرحلة حاسمة في الكفاح التحرري بكثير من الهزائم وقليل من الانتصارات. أما مدينة أردبيل التي تأسست فيها الدولة الصفوية، فقد

نهبت كثيراً ، وأحياناً كان المنغوليون يحتلونها لأسابيع وشهور . وفي النهاية انضم لصفوف الأعداء أيضاً قبائل مسيحية من جورجيا ، بقصد إلحاق الضرر بالصفويين . وأحياناً ما كان ولاة الخلفاء العثمانيين في بلاد الرافدين أيضاً يعتقدون بأنهم يستطيعون تمويل حروبهم من خلال نهب المناطق الصفوية . إلا أن أحفاد صفي الدين إسحاق دافعوا بمهارة فائقة عن ممتلكاتهم . فكان تحت تصرفهم قوات ضاربة تتكون من وحدات فرسان صغيرة ، وكانت القلنصوات الحمراء تشير إلى وحدتهم . وكانت هذه القلنصوات منسوجة من اثني عشر نوعاً من القماش ـ تمثل رمزاً للإمام الثاني عشر ، فقد كانت العشيرة الصفوية تعتنق المذهب الشيعي . في عام ١٥٠١ م ينجح أصحاب القلنصوات الحمراء في فتح مدينة تبريز في أزربيجان . وبهذا مكنت العشيرة موطأ لنفسها في المناطق الفارسية ، وكان زعيم الصفويين في هذا الوقت يدعى إسماعيل الصفوي ، الذي كان حديث السن . وبعد احتلاله تبريز مباشرةً قام بتتويج نفسه شاهاً في هذه المدينة . وقد عظمت مكانة إسماعيل الصفوي وعشيرته لدرجة أن الفرس رأوا في الصفويين حماة لمستقبلهم القومي السعيد . وقد مكنت هذه الظروف إسماعيل الصفوي من اكتساب الإقليم الفارسي كله . فصار المحقق للإنفصال الكامل عن العرب وأدرك إسماعيل الصفوي ضرورة دعم منطقة نفوذه بعقيدة تختلف عن عقيدة السلطان. وكان يمكن الوصول إلى أكثر الاختلافات حدة لو أن إسماعيل الصفوي قرر ربط دولته بعقيدته الشخصية أي مذهب الشيعة إلا أنه كان يحول دون ذلك أن أغلبية الناس الواقعين تحت حكمه لم يكونوا من شيعة علي وبذا لم يتكون لديهم قط الإيمان بانتظار انتقال السلطة إلى بيت النبي ﷺ . فقد كانت حدود المنطقة التي يعيش فيها الشيعة تقتصر على بلاد الرافدين ، أما أهل بلاد فارس فكانوا من السنة . ونضرب لذلك مثالاً : ففي تبريز تلك المدينة التي تم تتويج إسماعيل الصفوي فيها ، كان يعيش ٣٠٠ ألف نسمة ، كان أهل الشيعة يمثلون عشرين ألف نسمة فقط منهم . إلا أن رغم هذه الحقائق لم يدع الشاه إسماعيل نفسه لينحرف عن طريقه السياسي . فأجبر إسماعيل الصفوي على رعيته على تغيير معتقداتهم . فصار عليهم أن يضيفوا

إلى الشهادة جملة : « وأشهد أن علياً ولي الله » . وكان من الجديد أيضاً على الرعية اضطرارهم لسب الخلفاء الثلاثة الأول أبو بكر وعمر وعثمان . فأهل السنة يبجلون هؤلاء كخلفاء شرعيين للنبي ﷺ بأمر الله .

وقد خضع رعية الشاه الفارسي للثورة الدينية المملاة عليهم من أعلى . وكان أن صار ضمن عقيدتهم الإيمان بعودة الإمام الثاني عشر الغائب وبأنه سيكون القائد الأعلى لكل البشر . إلا أن إسماعيل الصفوي لم يفكر مطلقاً في الحد من سلطته من خلال المطالبة بالأحقية المشروعة في السلطة للإمام الثاني عشر . فوجد حلاً يجعله شريكاً للإمام الغائب ليضع نفسه على قدم المساواة معه ؛ فأعلن إسماعيل الصفوي للرعية أنه يمت بصلة قرابة ليس للإمام الثاني عشر فحسب بل لكل الأئمة ، فهو أحد أحفاد رسول الله . وهو بذلك واحد من هؤلاء الذين لهم الحق في حكم المؤمنين . وهنا يجب القول بأنه لم ينجح أحد من المؤرخين في إثبات قرابة الصفويين لبيت النبي ﷺ . وبمرسوم من أعلى صارت إيران دولة شيعية . وقد حدث هذا في بداية القرن الثالث عشر الميلادي ، ومن خلال الزعم بقرابته للأئمة وبوجوب طاعته نجح إسماعيل الصفوي في اكتساب أتباع مخلصين ساعدوه في مد نفوذه حتى القوقاز والهند وآسيا الوسطى وصار المذهب الشيعي رباطاً موحداً للفرس .

من المؤكد أن استخدام العنف كان ضرورياً في تغيير المذهب وفوق ذلك كان على إسماعيل الصفوي أن يجعل الناس يقرون بالذات بنسبه الشريف إلى بيت النبي ﷺ الذي فضله الله . ومن لم يصدق هذا كان يفقد حياته لأنه بهذا كان يعلن عداوته لله .

كان انتقال العقيدة الشيعية إلى الدولة الإيرانية المتناهية قد ولد سخطاً ـ انتهى إلى خوف ـ في نفوس الحكام السنيين في بغداد . فكان عليهم أن يحكموا رعية شيعية بكل الحسد إلى بلاد فارس حيث صار مذهب شيعة علي دين الدولة .

وها هم الشيعة في بلاد الرافدين يترقبون التحرير على يد حكام الدولة

الصفوية . ولم يكن لديهم أدنى شك في إمكـانية امتـداد نسب الصفويين إلى الأئمة والنبي ﷺ . وهكذا تم إحياء ذكرى عصر الشهيدين علي والحسين . وقد توافر الاستعداد لتعويض ما حدث في هذا الزمن من خطأ وقع لعدم وجود الدعم الكافي لأحفاد النبي ﷺ . إلا أن أمل الشيعة في بلاد الرافدين قد خاب : فقد انهارت هجمات القوات الإيرانية ، التي شنت بغرض تحرير الأماكن المقدسـة في كـربلاء والنجف ، وقـد دافـع جيش السلطان السني بـإصـرار عن حـدود الإمبراطورية العثمانية . وقد امتد النزاع العسكري بين الشيعة والسنة حتى عام ١٦٣٩ م ، وهو النزاع بين مـراكز القـوى في إيران والعـراق . ثم انتهى النزاع نهاية مؤقتة من خلال إبرام معاهدة . إلا أنه تفجر مرة أخرى في عام ١٧٢٣ م .

فبعد مائتي سنـة من الحكم كانت قـوة الدولـة الصفويـة قد استهلكت ، فجرت دوامة الإنهيار إليها الجيش أيضاً . وقد أدرك الحكام العثمانيون الفرصة وأغاروا على غرب الدولة الفارسية . وقبل أن يقدموا على هذه الإغارة كانوا قد عقـدوا اتفـاقيـة مـع القيصـر الـروسي لتقسيم منـاطق واسعـة من إيـران بين الإمبراطورتين العثمانية والروسية . أما منقذ الدولة الشيعية المهددة بالخطر فكان القائد نادر الذي أعلن نفسه شاهاً بعد نجاحه في الدفاع عن البلاد ، وهو الذي صار بعد ذلك أول الحكام المحدثين في بلاد فارس . وبالرغم من احتفاظ نادر بالمذهب الشيعي كدين للدولة إلا أنه لم يحاول إجبـار رعيته على اعتنـاق هذا المبدأ بالقوة .

وقد برر عدم تطرقـه إلى القوة لسببين : فمن نـاحية اعتقـد نادر شـاه أنه باستطاعته تخفيض حدة التوتر بين إيران والسلطان العثماني من خلال الحد من التناقضات مع السنة ، ومن ناحية أخرى فإنه لم يكن بمقدوره إجبار الرعية على طاعته من خلال الزعم بأنه هو الآخر ينتسب إلى البيت النبوي الشريف ، فهي لـم تصـدق هـذا إلا بالنسبة للعائلة الصفوية . ومنذ هذا الحين صار ملوك إيران رجالاً لا يستطيعون الزعم بالنسب الإسلامي الشريف .

منذ نهاية القرن الثامن عشر الميلادي صارت الدول الأوروبية تهتم بكل

من العراق وإيران وأقيمت العلاقات التجارية بينهما وبين إنجلترا وفرنسا . وصار القياصرة الروس يتدخلون على نحو متزايد في شؤونهما السياسية . وكان الشاه والسلطان يتقبلان الرشوة من حكام إنجلترا وفرنسا وروسيا . فكانا يأخذان مالاً مقابل إعطاء تراخيص استغلال مناجم المواد الخام واستيراد البضائع المصنعة . ثم أن الحكام ورجال البلاط قاموا بتخفيض المبالغ التي كانت تدفع لهم . أما الرعية فقد أبعدوا عن كل حدث وكل تطور فكانت النتيجة اضطرابات وانتفاضات، وكان علماء الدين يقفون أثناء هذه الاضطرابات دائماً بجانب الثائرين . وكان النزاع حول احتكار التبغ ، والذي كان يثير غضب المشاعر في إيران في العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، يمكن أن يعتبر مثالاً لوضع العلاقة المتوترة بين مواليّ الشيعة والشاه .

في عام ١٨٩٠ م يحتاج الحاكم إلى مال فيرى إمكانية توفير هذا المال في منح حقوق استغلال محصول التبغ كله في إيران لشركة امبريال تباكو كومبني الإنجليزية مقابل خمسة عشر ألفاً من الجنيهات . فكان هذا صفقة طيبة للشركة إذ تمكنها من الحصول على سعر مرتفع في العالم الغربي لنوع التبغ الإيراني الجيد . وكان أن فجر الغضب حقيقة أنه من الآن فصاعداً لن يستطيع الإيرانيون أيضاً شراء تبغ إلا عن طريق الشركة البريطانية التي تصنعه وتعبئه . فكاد أن يكون التجار في البازار مستبعدين من تجارة التبغ . واستشعروا خطراً يهدد كيانهم .

وكان معظم العلماء بدورهم تابعين للتجار فقد كانت رواتبهم تحصل عن طريق رسوم وتبرعات من التجار . فدفع الصالح المشترك الموالي ليكونوا لسان حال التجار . وهكذا صار احتكار التبغ موضوع خطب الجمعة ، فاتهم العلماء الشاه نصر الدين ببيعه إيران لإنجلترا أي للكفار وهو يهدم بهذا المسلك قلعة الإسلام . وكان أن كتب سعيد جمال الدين ، أحد علماء هذا الوقت ، كلمات هذا الاحتجاج : « إن الشاه مجرم فهوقد باع أقاليم إيران في مزاد بين القوى العظمى . إنه يبيع ممتلكات الإسلام ، يبيع بلاد محمد وآله إلى الغرباء » وأعلن العلماء في طهران صراحة أن احتكار التبغ هو حرب ضد الإمام الثاني

عشر ، حرب ضد إمام هذا العصر . فرأى الشاه أنه قد شهـر به على أنـه عدوٌّ للإمام الثاني عشر . ورأى أنه لا يملك المقدرة لمواجهة هذا التحدي : فقام في يناير ١٨٩٢ م . بإلغاء امتياز شركة امبريال تباكـو كومبني . وبـذا أظهرت دولـة الشاه ضعفها ، أمـا الموالي فـاعتبروا منتصـرين . وقد شعـروا بمقدرتهم على تحقيق ما تصبوا إليه أنفسهم ، فرنت أنظارهم إلى أهداف أبعد تقربهم من عزل الشاه . ولتحقيق هذه الأهداف كان يجب أن تسود إيران اضطرابات أي أن يسود هناك نوع من المناخ الثوري . وقد نجح العلماء حقاً في خلق التوتر في البلاد . وفي نهاية القرن التاسع عشر يجبر السخط الشاه مظفر الدين على وضع دستور .

في عهد الشاه نصر الدين وخلفاءه وفي قلب جيوشهم الفارسية ، التي كانت في الغالب غير نظامية ، نشأت قوة ، اعتبرت نظامية وشجاعة وذات قوة ضاربة وهي لواء القوقاز وكانت تحت إمرة قواد روس محنكين ، دخلوا في خدمة الفرس وأقسموا على طاعة الشاه ، وقد برّ هؤلاء القواد بقسمهم نظراً لأنهم في البداية لم يكن لديهم أهداف شخصية .

وفي عام ١٩٠٨ لم يعد الشاه محمد علي يطيق وصاية البرلمان ، فأرسل اللواء القوقازي إلى طهران لطرد أعضاء مجلس الشورى من مبنى البرلمان . إلا أن هذه القوة لم تكن على مقدرة لمواجهة الحرب الأهلية التي نجمت من جراء استخدام العنف . ولم تستطع أيضاً أن تحول دون استقالة الشاه محمد علي في عام ١٩٠٩ . وقبل ذلك بعامين كانت أسرة كاجور شاه قد أقرت بعجزها فقد اتفقت إنجلترا وروسيا على تقسيم إيران إلى مناطق نفوذ تابعة لهما . فكانت حكومة موسكو مختصة بشمال الإمبراطورية ، والذي كان يجب أن يبقى متوحداً . وبالنسبة للمناطق الواقعة جنوب خط جغرافي محدد فكانت بريطانيا مسؤولة عنها . وقد نشأت هذه الاتفاقية الإنجليزية ـ الروسية نتيجة خوف إنجلترا من التوسع الروسي . فأرادت أن توقف طمع موسكو في أراض إيران من خلال هذا الاتفاق .

إلا أن هذه الاتفاقية لم تفِ بغرضها : فالضغط الروسي لم يتزحزح .

ففي أعوام ١٩٠٩، ١٩١١، ١٩١٢ م. تقوم قوات روسية باحتلال مدينة تبريز الواقعة في شمال إيران . وفي ٢٩ مارس ١٩١٢ تطلق المدفعية الروسية قذائفها على الأماكن المقدسة للشيعة في مشهد . ونتج عن ذلك تهدم مقبرة الإمام علي الرضا . أما حجة القذف فكانت أن الرعية الروس كانوا مهددين من الانتفاضة الشيعية .

وقد أصاب الاتفاق الإنجليزي ـ الروسي ـ بإبرامه وفشله ـ مفكري إيران السياسيين بخيبة أمل ثقيلة . فقد أبرمت الاتفاقية فقط من أجل كسب روسيا إلى جانب إنجلترا ـ من خلال منحها هذا الامتياز ـ في حالة نشوب حرب في أوروبا . وقد فشلت الاتفاقية لأنه لم يتم أخذ العناد الروسي أثناء إبرام الاتفاق . وقد زاد السخط في طهران على عجز إيران لدرجة أن البرلمان اعتبر نشاطه بلا معنى . ولم يمنع قيام ثورة هناك إلا نشوب الحرب العالمية الأولى . ومع أن إيران كانت محايدة رسمياً ، إلا أن البلاط السلطاني في الإمبراطورية العثمانية المحتضرة أعلن أطماعاً إقليمية . فقامت قوات روسية وإنجليزية باستخدام أراض إيرانية كقاعدة لعملياتها .

وفي نهاية الحرب العالمية الأولى كانت الإمبراطورية قد انتهت إلى الفوضى . فاعتبرت كل من إنجلترا وروسيا ، التي صارت الاتحاد السوفيتي ، إيران ملكية خاصة . وهنا حدث تغير في الحكومة الإيرانية عام ١٩٢١ لم تلتفت إليه لندن أو موسكو . فقد تسلم قائد لواء القوزاق ـ رضا خان ـ سلطة وزير الحربية وكان يؤمن منذ زمن بعيد كضابط بأن إنقاذ إيران لن يتم إلاّ من خلال قوة الجيش . وقوة الجيش هذه كان يراها رضا خان متمثلة في شخصه هو . أما القواد الروس للواءه القوقازي فكان قد استغنى عنهم منذ فترة طويلة . فقد أراد أن يكون ضباطه الإيرانيين صفوة الأمة الإيرانية . وفي فوضى الصلاحيات السياسية من بداية القرن العشرين ازداد يقينه بضرورة أن يصير حاكماً مستبداً فتعود أثناء وجوده مع قواته في المدن أن يلصق على منازلها لافتات تقول : « بأمري أنا رضا ، قائد

لواء قوزاق صاحب الجلالة ، والقائد الأعلى » . ولم يكن هناك من يملك سلطة غيره تقريباً ـ بغض النظر عن علماء الشيعة ـ فقد كان تعيينه وزيراً للحربية نتيجة منطقية لطموحه . وسرعان ما أسماه الناس في طهران : الرجل راكب الفرس . وكانوا يعنون بذلك أن أوامره مطاعة . وقد وصفت الكاتبة البريطانية فيتا سكيفيل روست رضا خان هكذا : « كان منظره يعطي الإنطباع بالرهبة وكان طوله ١٩٠ سم وكان حاد المزاج وكانت أنفه الكبيرة وفكه الضخم يلفتان النظر . وكان له مظهر قائد القوزاق إلا أنه لا يجب إنكار أنه كان يبدو عليه أمارات الملوك » .

ولم يقنع رضا خان بمنصب وزير الحربية طويلاً . ففي عام ١٩٢٥ يصير رئيساً للوزراء . وبعد ذلك باثني عشر شهراً يتوج نفسه شاهاً ، فقد كان العرش خالياً : ففي ٢ نوفمبر ١٩٢٣ كان الشاه أحمد ، آخر حكام الكاجارن ، قد سافر إلى أوروبا ، لكي لا يعود أبداً إلى إيران . فلم يقدر آخر أبناء هذه الأسرة على مواجهة الشاب رضا خان الطموح المشتهر للسلطان . وأصاب القنوط الشاه أحمد ـ ومن لحظة غياب الشاه كان رضا خان قد صار ديكتاتور إيران المطلق. وقد اعتمد في قيادته على ذات الطبقات التي كان لها النفوذ أثناء حكم الكاجارن . فقد كانت الصفوة البيروقراطية الإدارية هامة لاستمرار الدولة . وكانت تتكون من أفراد العائلات الإيرانية العريقة والمثقفين الذين يسرت لهم دراستهم الانضمام إلى الصفوة . وصارت هذه الصفوة بدورها تشعر بالإرتباط بالطبقة الوسطى للتجار في البازار ، والتي لا تضم تجاراً فقط ولكن حرفيين أيضاً . فإذا ما عملت الصفوة على فرض ضرائب عادلة ، كانت الطبقة الوسطى راضية عن الحكم . وكان العلماء ، الموالي ، يمثلون طبقة هامة في الدولة وكانوا يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بالشعب بدرجة أدنى من الطبقة الوسطى . وكانت هذه الطبقة الأفقر لا تثق كثيراً في الصفوة البيروقراطية . فإذا شعر أهلها بغبن الضرائب ذهبوا أولاً إلى المولى ثم إلى مأمورية الضرائب بعد ذلك . وإذا ما أراد واحد من هذه الطبقات الأدنى الحصول على وظيفة ، ذهب إلى المولى يطلب وساطة . ولم يكن هؤلاء العلماء يعيشون في منازل فخمة ـ قارن ذلك ببيوت القسيسين في وسط أوروبا ـ فكانت منازلهم عبارة عن مبانٍ بدائية مضافة

لبيوت قائمة ، أو كانوا يسكنون حجرات ضيقة ، في أركان سلم المنزل ، إلاَّ أنه كانت لهم مكانتهم المرموقة .

وقد حصل الموالي على وضع حدده القانون ، بفضل الشاه رضا . فقد أعفى دارسي الفقه من الخدمة العسكرية إذا ما قرروا اتخاذ الفقه دون غيره مهنة لهم . ولما صدر قانون عام ١٩٢٨ . يجبر الإيرانيين على ارتداء الملابس الغربية « بدلة ورابطة عنق » ، وحدد القانون المظهر الخارجي للعلماء أيضاً : فقد أعفاهم من ارتداء الملابس الغربية وأجاز لهم ارتداء القميص الإيراني التقليدي وقد حدد نص الاعفاء من ارتداء الملابس الغربية هؤلاء هكذا : « يندرج القانون على علماء الشيعة وهؤلاء الذين يشتغلون بقوانين الإسلام » . وقد أدى قانون تحديد الزي عام ١٩٢٨ إلى تعريف علماء الدين : فكان يتم التعرف عليهم ، بأنهم يرتدون الملابس التي كان كل رجال إيران يرتدونها في الماضي . وكان كل ـ من ليس من زمرة العلماء ـ مضطراً لارتداء حلة ـ أوروبية ـ التي كانت من قماش رخيص ، فيشعر بفقر ملابسه ، بينما كان الموالي فخورين بحفاظهم على التقاليد الإيرانية .

وقد ظل الشاه رضا لفترة طويلة يعطي الإنطباع بأنه شيعي قوي الإيمان .

إلا أنه في مارس ١٩٢٨ يظهر رضا خان على الملأ ، أن الطقوس الدينية لا تعنيه وأنه لا يهتم مطلقاً برأي العلماء في مسلكه . فقد رحلت أمه إلى المدينة المقدسة « قم » لتصل هناك وعندما وقفت أمام الضريح حدث أن المرأة أظهرت وجهها للحظة . ولم يعرف إن كان هذا صدفة أم عمداً فعلى كل حال سقط حجابها . وكانت هذه اللحظة كافية لإثارة المؤمنين . فسرت همهمة في الجامع . فحث اللغو أحد الموالي ، والذي كان أيضاً قد رأى الوجه العاري ، على أن يلفت نظر أم الشاه إلى مسلكها غير اللائق . فغادرت المرأة الجامع غاضبة وفي اليوم التالي قدم الشاه إلى « قم » وأحضر معه ٤٠٠ جندي . ودخل الحاكم والجنود إلى الجامع فدفعوا المؤمنين جانباً وجمعوا الموالي بعنف معاً . أما العالم الذي تجرأ ووبخ أم الشاه فقد قام الشاه نفسه بلطمه بقسوة على وجهه وداسه بقدمه . ومنذ هذا اليوم صار الناس يخشون حذاء الشاه رضا القوزاقي .

ولم تكن إهانة العلماء هي مأرب الشاه في حد ذاتها . فقد اختفى خلف ذلك رغبة الشاه في إذلال هذه الطبقة . لأنها كانت لها من القوة خلال قرون عديدة للتأثير على القضاء . فكان القضاة يعتمدون فقط على دراستهم الفقهية ، ومعرفتهم بالقرآن والتقاليد الشيعية . وكان الشاه رضا مؤمناً بعدم إمكانية إنشاءه لدولة إيرانية حديثة بدون قانون علماني موحد . وكان على القانون أن يتخذ من القانون الأوروبي قدوة له . وكان العلماء يقاومون اقتباس الغرب عن القانون والعدل فرأى الفقهاء المختصون بالقضاء الخطر الذي يهدد نظامهم كله . وكان مفهومهم لصلاحيتهم يتضمن إنهم وكلاء للإمام الثاني عشر الغائب الذي سيكون من حقه يوم القيامة أن يصدر حكمه بأدانة أو براءة الناس . وكانت أحكام الفقهاء تعتبر حلاً مؤقتاً لمشكلة القانون ، وكان مفعولها يسري حتى عودة الإمام الثاني عشر .

كان كل قاض شيعي يأمل في أن يعتبر بأحكامه في يوم القيامة . ولهذا كانوا جميعاً يحاولون الحكم بما يرضي الإمام الثاني عشر . ولم يكن هذا ليتم إلا طبقاً لتعاليم القرآن والتقاليد الشيعية فكان إحلال قانون وضعي وفوق ذلك غربي ، يعتبر في عيون العلماء احتقاراً للإمام الثاني عشر ، وبذلك يصير جريمة في حق النظام الذي وضعه الله . ولم ينجح الشاه رضا في تحقيق كل نقاط الإصلاح القانوني . فقد تغير قانون العقوبات طبقاً لروح القانون الأوروبي إلا أن القانون المدني الإيراني ظل على حاله تقريباً . فكان الزواج وانتقال الملكية تتم طبقاً للتقاليد الشيعية أثناء فترة حكم الشاه وكذلك ابنة محمد رضا بهلوي . وقد لاقت احتجاجات رجال الدين نجاحاً رغم الإجراءات التعسفية للشاه .

وفي يوليو ١٩٣٥ رأى علماء مشهد أن عليهم مرة أخرى أن يتحركوا ضد سياسة الحاكم الكافرة والغير إسلامية . وصارت مشهد مركزاً للسخط . وأمام مشهد علي الرضا كانت اللعنات تصب على الشاه رضا. وصار الخطر يتعاظم في تحول هذه الاحتجاجات إلى ثورة ، فقد رحل الآلاف من كل أرجاء البلاد إلى شرق إيران ليتظاهروا ضد سياسية الشاه . ولكي يقاوم الشاه هذه الانتفاضة قام بإرسال قوات إلى مشهد لطرد المتظاهرين من الجامع . إلا أن المتظاهرين

شاءوا البقاء هناك وأبوا الانصياع للقوة . ولكن القوات كان لديها أوامر بإطلاق النار . فقام الجنود بإطلاق نيران رشاشتهم من على أسطح المباني المحيطة بالجامع على صحن الجامع المحاط بالأسوار . فقتل الرصاص مئات الناس . كما تم إعدام ثلاث جنود رفضوا إطلاق النار . وبذا ظهر لرجال الدين أن مقاومتهم ضد تحديث إيران قد انكسرت . وكان على إيران أن تفقد أخيراً صورتها التقليدية : فلم تعد مآذن الجوامع المعالم المحددة للمدن بل مداخن المصانع ، وأجبرت النساء على عدم إخفاء وجوههن خلف النقاب وتم إعلان بطلان أمر النبي محمد ﷺ بتحريم إظهار الأنف والفم أمام الغرباء ورد الشاه رضا على إقناع نساء العائلات المحافظة ، عن خلع الحجاب ، بمحاولة منع تغطية الوجه .

وفي محاولاته إدخال العادات الأوروبية ونقل النجاح الصناعي الأوروبي كان الشاه يحتذي بصورة خاصة حذو الدولة الألمانية فتكشفت العلاقات التجارية بين إيران وألمانيا ، وصار عدد الألمان الذين يرحلون إلى طهران والمدن الإيرانية الأخرى يتزايد دائماً ، منهم ممثلون للصناعة الألمانية ومنهم عملاء للمخابرات الألمانية . وكان الشاه رضا مؤمناً بتفوق الجندي الألماني والأسلحة الألمانية . فلما نشبت الحرب العالمية الثانية كان يؤمن بانتصار الرايخ الثالث وكان أن سارع الشاه بإعلان حياد إيران عند بدء الحرب مباشرة إلا أن هذا لم يطمئن الخلفاء . ففي عام ١٩٤١ تطالب إنجلترا بخروج كل الألمان من الأراضي الألمانية فيما عدا العاملين في مجال الاقتصاد وفي جهاز الدولة ، لكن الشاه رضا لا يرد على هذا المطلب فيأتي طلب شديد اللهجة من لندن بإخلاء البلاد من كل ألماني يمكن أن يمثل بأية صورة خطراً على المصالح البريطانية . ولم يلقَ هذا المطلب أي اهتمام .

ومن خلال موقف الشاه هذا رأى الحلفاء أن أعمالهم العسكرية صارت مهددة . وكان الإتحاد السوفيتي قد صار حليفاً للإنجليز والأمريكان ، ولكنه كان حليفاً يحتاج هو نفسه بشدة إلى تزويده بالسلاح . وكانت الجيوش السوفيتية تحتاج إلى عتاد حربية كثيرة متنوعة . وكان طريق الإمداد الوحيد الآمن هو عبر

الأراضي الإيرانية . فعلى الطرق الجديدة التي أنشأها الشاه وعلى خطوط القطارات التي أنشئت بسرعة كان يمكن أن تصل الأسلحة بسلام إلى الإتحاد السوفيتي . ولكن في حالة أن يغادر العملاء الألمان إيران . وبسبب تأمين طرق المواصلات أصر الحلفاء على ترحيل الألمان فإن كان الشاه قد ظن إنه سيد على بلاده ، فقد أفاق من أحلامه في ٢٦ أغسطس ١٩٤١ : فقد غزت قوات بريطانية سوفيتية إيران لتبني ممراً يسيطر عليه الحلفاء وحدهم . ولم يسأل الشاه أن كان يريد جعل بلاده تستخدم في نقل الأسلحة فقد عومل كخصم . ولم تدم المقاومة الفارسية الضعيفة للغزو إلاّ يومين ، ثم انتصر الجنود البريطانيون والسوفييت، وأطلق استسلام قيادة الجيش الإيراني يد السياسيين والدبلوماسيين الإنجليز في البلاد . فسعوا لعزل الشاه رضا صديق الألمان . ولم يكن هناك من يمد يد العون للشاه . فالجيش المنهزم لم يستطع الدفاع عنه ، والبرلمان كان بلا حول أو قوة من زمن بعيد ، ورجال الدين الذين يؤثرون في الشعب لم يكن لديهم أي ميل لحث الجماهير للتظاهر من أجل الشاه . وهكذا اضطر الشاه ، الذي كان ذات يوم زعيم القوزاق ، إلى التنازل عن العرش لابنه محمد رضا في ١٦ سبتمبر ١٩٤١ .

وقد رأى الحلفاء في هذا الشاب أداة طيعة ليفعلوا ويتركوا ما يحلو لهم في إيران .

وعندما غادر الشاه رضا البلاد ليرحل إلى المنفى أحس كثير من الإيرانيين بشعور غريب فقد تحرروا من الكبت فصاروا يتحدثون بحرية أكثر وصاروا لا يخشون الشرطة . واستطاعوا مرة أخرى أن يرتدوا ما يشاءون فباختفاء الشاه زال اضطرارهم لارتداء البذلة ورابطة العنق . وبدا للنساء اللاتي كن يستحين من مغادرة بيوتهن بوجه سافر ، أن عصر الحرية قد بدأ من جديد . إلا أن الحرب والأحكام العرفية التي فرضها الحلفاء حالت دون تطوير الإيرانيين لحريتهم تطويراً حقيقياً . فلم يكونوا على مقدرة لرؤية يد العون التي مدتها واشنطن إليهم . فقد كتب ممثل الرئيس الأمريكي من الشرق الأوسط ، الجنرال باتريك هارلي ، مبلغاً رئيسه : إن أهل البلاد يعيشون تحت ظروف صعبة خلقها

الإقطاع . وعلى الولايات المتحدة الأمريكية أن تساعد على القضاء على هذا الوضع المسيطر وإحلال محله نظام مجتمع ديمقراطي . وقد أظهر الرئيس روزفلت اهتماماً بهذه الفكرة . فأتى إلى طهران عام ١٩٣٤ ليجتمع بتشرشل وستالين فشاهد المدينة وما حولها من بلاد والناس الذين يعيشون فيها وسرعان ما اكتسب قناعة في جعل إيران نموذجاً لتطوير البلاد المتخلفة ـ أي نوع من مركز أبحاث تجمع فيه التجارب على هيئة بلد ، ظل أسير الماضي حتى ذاك الحين . وكانت نصيحة الرئيس الأمريكي لإيران هي : « حكم وطن واقتصاد حر ». وكان على هذه النصيحة أن تجعل من النظام المفصل على مقاس الشاه رضا شخصياً الديكتاتوري العنيف يتحول إلى نظام به مسحة من الديمقراطية مقتدياً بالغرب .

وكان يقال في واشنطن إن إيران سينظر إليها على أنها حقل تجارب يجرب فيها الدواء على أحياء بغرض إعطائه لشفاء الدولة النامية السقيمة .

إلا أن هذه النصيحة لم يمكن تطبيقها بسهولة لأن إيران ليست « بلداً نامياً سقيماً عادياً ». فقد كانت إيران أثناء الحرب العالمية الثانية من الدول المصدرة للبترول . وكانت تمثل أهمية عليا لدى شركات البترول والبلاد الصناعية . وكانت كلها تريد أن يكون لها نفوذ في إيران وأن تقود التطور الذي في مصلحتها . ففي عام ١٩٤٣ في هذا العام بالذات ، عندما صارت هذه النصيحة حقيقة النظام العقلاني لأول مرة كانت الشركة البريطانية تقدم طلباً للبحث عن البترول في جنوب شرق إيران . وبعد عام كانت هناك عدة طلبات مثل هذا . وكذلك الحكومة السوفيتية أرادت التنقيب عن البترول في الأراضي الإيرانية واختارت منطقة في شمال البلاد ولما كان المسؤولون في إيران يخشون أن يبقى الأجانب لديهم فقد مارسوا ضغطاً مكثفاً على الحكومة الإيرانية فلم يكونوا ليتهاونوا حتى في احتلال عسكري لأذربيجان .

في هذا الوقت من الإضطرابات في إيران انعزل علماء الدين : فلم يذكر أي مولى رأيه عن مشكلة إستغلال حقول البترول الإيرانية في المستقبل . أما مهمة المخدر فقد كفل بها عضو برلماني كان في الستين من عمره. أما اسمه فكان

د. محمد مصدق . وفي ديسمبر ١٩٤٤ أنجز قانوناً يمنع مجلس الوزراء منعاً تاماً من مفاوضة شركات البترول الأجنبية حول امتيازات محتملة . فلا ينبغي الفصل في مستقبل البترول الإيراني إلا بعد انتهاء الحرب .

ولم يكن عضو البرلمان محمد مصدق يؤمن بأفكار الرئيس الأميركي في قيادة إيران إلى التقدم من خلال نصيحة « حكم مستقل واقتصاد حر ». وكان أن تكهن أن هناك عنصراً يأتي في الدرجة الأولى من الأهمية بالنسبة لإيران وهو : البترول .

ففي هذه المادة رأى د. مصدق الأداة التي ستغير المجتمع الإيراني ،وانتهت الحرب العالمية الثانية بانتصار الحلفاء ولم يعد لهم ذريعة في استمرارهم لاحتلال مناطق إيرانية . فقررت الحكومة الإنجليزية والأمريكية سحب قواتها من إيران . أما الإتحاد السوفيتي فقد احتفظ باحتلاله لمحافظة أذربيجان . وفوق ذلك أقامت حكومة منفصلة ومستقلة عن موسكو في هذه المنطقة شمالي إيران . وكانت سياسة ستالين تتبع هدفين : فكان يريد المحافظة على تأثيره في الطريق الذي ستشقه إيران لمستقبلها وكان يشاء أن يشارك الإتحاد السوفيتي في استغلال حقول البترول في الأراضي الإيرانية .

واعتقد الديكتاتور السوفيتي أنه حقق أهدافه عندما قام ممثلوه الدبلوماسيون ودبلوماسيو الشاه بإبرام اتفاقية لتأسيس شركة بترول سوفيتية إيرانية .

وفي ذاك الوقت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية كانت موسكو قد نجحت في إدخال حزب « توده » ذي الإتجاه الماركسي ، تحت النفوذ السوفيتي . فاعتقد ستالين أنه من خلال هذين المؤثرين : اتفاقية البترول وحزب توده ذي الولاء لموسكو ـ قد ضمن مستقبلاً تبعية إيران للقيادة السوفيتية . إلا أن ظنه قد خدعه . ففي أكتوبر ١٩٤٦ يرفض البرلمان الإيراني التوقيع على اتفاق تأسيس شركة البترول السوفيتية الإيرانية . وبعد عام تعقد إيران اتفاقية تعاون مشترك مع الولايات المتحدة الأمريكية . وبدأ ارتباط إيران بالغرب . وانسابت المساعدات

المالية الأمريكية إلى أرصدة الدولة الإيرانية . فقد كانت جزءاً من النصيحة مساعدة دولة العالم الثالث السقيمة من خلال « العلاج » . إلا أن د. مصدق رأى عنصراً مؤثراً : فقد تمكن في ابريل ١٩٥١ من الوصول إلى أن يرغم البرلمان الإيراني على صناعة البترول في الأراضي الإيرانية . فكان على إيران ألا تكون تابعة لإعانات شركة « أنجلو إيرانيان أويل كومباني » وصارت كل الأموال الناتجة عن البترول الإيراني ملكاً للدولة الإيرانية . ومنذ ذاك الحين لم تعد إيران بلداً فقيراً يأخذ الاتجاه الشيوعي مأخذ الجد من فرط فرحتهم لفقدان الشاه لسلطانه . فلم يرَ رجال الدين داع للتحرك .

أما الجيش فلم ينتظر طويلاً فقام في ١٨ أغسطس ١٩٥٣ بتفريق تجمع جماهيري كان الشيوعيون مرة أخرى يقودون شعاراته وفي ١٩ أغسطس كانت قوافل من رجال ونساء تخترق طهران معلنين تبعيتهم للشاه ومطالبين بعودته . ثم شق المتظاهرون طريقهم إلى مبنى مجلس الوزراء د. مصدق الذي اعتبر أقوى رجل في إيران منذ هروب الشاه إلا أنه سقط في خلال دقائق فقد اقتحم المتظاهرون مكتب رئيس الوزراء الذي نجح بالكاد في الهروب من خلال الحديقة ثم الإختفاء . بعد ذلك لم تتكتم المخابرات الأمريكية سر تجميعها للمتظاهرين المؤيدين للشاه من الأحياء الفقيرة في المناطق جنوب طهران مقابل مال دفع نقداً .

وهكذا كان « الأجانب » هم الذين عملوا على إعادة الشاه إلى قصره . وبمرور السنين نما في نفوس الشعب الإيراني أن « الأمريكان » قد اشتروا الثورة حينذاك ، في عام ١٩٥٣ ، وبذلك ولما كانت اعتراضات إنجلترا بلا قوة تسندها، فقد ذهبت أدراج الرياح. فلحق الأذى بمكانة حكومة لندن لدرجة أن مركز إنجلترا القوي - حتى ذاك الحين - في الشرق الأوسط والأدنى بدأ يتزعزع . أما إيران فصارت مناضلاً طبيعياً للبلاد النامية في صراعها من أجل الإستقلال عن الحكومات الأجنبية وعن الشركات الأجنبية الدولية .

وها هو د. مصدق يصير رئيساً للوزراء ويصير خصماً للشاه محمد رضا بهلوي . وفي البداية بدا أن رئيس الوزراء أحرز النصر في النزاع ؛ فقد أجبرت

المظاهرات الشاه على الهرب إلى الخارج في أغسطس ١٩٥٣ . ولم تستطع قيادة الجيش إخماد المظاهرات أو الحيلولة دون سفر رئيس الدولة ، إلا أنها بعد هدوء الاضطرابات شعرت بالقلق حيال الشعارات التي نادت بها المظاهرات والتي كان من الواقع أنها من صياغة حزب تودة ذي الإتجاهات الشيوعية . وفوق ذلك كانت المظاهرات تمتدح موقف السوفييت من إيران .

وكان هذا أيضاً قد لفت أنظار رجال الدين، إلاَّ أنهم لم يأخذوا أو يقضوا عليها . . وكان رجال الدين الشيعة يراقبون الأحداث باندهاش فهم لم يشتركوا في طرد الشاه أو في إعادته ـ وكذلك لم ينظر د. مصدق إلى الموالي على أنهم حلفاء له . فقد كان قومياً إيرانياً ، وإقراره بالطابع الشيعي للدين الإسلامي كان جزءاً من شعوره القومي ، جزءاً مواجهاً للقومية العربية الوحدوية على سبيل المثال . فلم يهتم رئيس الوزراء مصدق قط بمناقشة إعادة مبادىء القانون الشيعي كأساس للقانون الإيراني ، ولم يمكن أن يكون شريكاً للموالي الذين يعتبرون أن الإمام الثاني عشر الغائب ، حفيد النبي محمد ﷺ ، هو الحاكم الحقيقي لإيران .

ولم يكن قد حان الوقت لنشاط سياسي مثمر لرجال الدين الشيعة . ويروي بعض الرجال الذين ثبتوا بجوار مصدق حتى بعد سقوطه ، أن مصدق صدمهم باستسلامه لمصيره كإيراني متدين . فعندما تجمعت جماهير جنوب المدينة لمظاهرة مدفوعة الأجر ليقوموا بالإنقلاب حسب الإتفاق ، كان في استطاعة رئيس الوزراء أن يقوم من خلال الإذاعة بمطالبة الموالي بالمجيء بالجماهير الذين يستطيعون تعبئتها لضرب أنصار الشاه الوهميين ، إلا أنه مصيره ينتهي إلى ما انتهى إليه مصير الشهيد الحسن . وفي ٢٢ أغسطس ١٩٥٣ كان الشاه في قصره مرة أخرى ومع أن الهدوء كان يسود العاصمة ، إلا أن طهران كانت تعطي الإنطباع بأنها مدينة احتلت في لحظات ، وكان الحال يبدو للشعب على أن الشاه والجيش قد تسلما السلطة غير منقوصة . ولكن الحقيقة لا قصر « نيافاران » ولا مقر قيادة الجيش كانا يمثلان مركز القوة في الدولة الإيرانية . فالقرارات كانت تحسم من السفارة الأميريكية . فهناك تم تنظيم عملية عودة

الشاه . وهناك وزعت الأموال التي قدمتها الحكومة الأميريكية كمساعدة فورية . فقد خصص ٤٥ مليوناً من الدولارات لهؤلاء الذين يظهرون ولاءً للشاه .

ومن كان من بين رجال البلاط والضباط ورفض العمل مع رئيس الوزراء د. مصدق ، فقد كوفىء بسخاء ليس بالمال فحسب بل بوظيفة ذات نفوذ فحصل على المناصب والرتب رجال ظلوا خلال الأعوام اللاحقة وحتى نهاية عهد الشاه يقودون الجيش والإدارة والمخابرات . ولم يكن حتى أقرب مستشاري الشاه يعتقدون أن مولاهم قد أخرج د. مصدق من قلوب الإيرانيين .

وإذا ما كان يجب تأمين النصر ، فكان على الشاه أن يعمل على الحصول على جماهيرية عريضة بين أفراد الشعب .

أما الخطوط العريضة للطريق ، الذي كان يجب عليه أن يشقه ، فقد رسمت أيضاً في السفارة الأميريكية . فقد تقرر أن على الشاه أن يكسب تعاطف النساء بالذات ففي النهاية كانت النساء تشكل أكثر من نصف الشعب الإيراني ، فإذا ما حصلن على المساواة فسيكون من المؤكد أنهن سيمنحن ولاءهن للشاه . وسيقفن دائماً ضد الدعاية الشيوعية أو الدينية. وكما كانت الخطوط العريضة لإجراءات رفع جماهيرية الشاه تشمل إقتراحاً بتكثيف اهتمام الشاه بأمور الدين ، فلقد كانت أسرة بهلوي تهمل الدين حتى هذا الحين إهمالاً تاماً، وغالباً ما كان ينشأ إنطباع بأن الشاه خصم للعقيدة الشيعية . وقد نصت مذكرات المستشارين الأمريكيين على نصح الشاه بأن عليه من الآن فصاعداً بالظهور في الجامع كل يوم جمعة ، على أن يذهب كل أسبوع إلى جامع مختلف . وعلى هذا النحو يمكن منع رجال الدين من تقوية نفوذهم على الأهالي .

وقد عمل الشاه بهذه النصيحة ، فكان يصلي كل جمعة في العلن ، يظهر أنه مسلم صادق ، مضافاً إلى ذلك أنه مؤمن أن الإمام الثاني عشر الغائب سيتسلم السلطة ذات يوم إلا أنه لم يشأ قط الإقرار بسريان المادة الدستورية التي تعتبر الشاه ـ منذ عهد القاجارنية ـ فقط نائباً عن الإمام الثاني عشر . فقد كان محمد رضا بهلوي يوقن أن سلطانه ـ بعد زوال الخطر الذي هدده ـ لن

يزول وأن قوته الذاتية هي الضامنة لذلك . . وكان الشاه يؤمن أن سلطان أسرة بهلوي سيسود إيران من الآن وحتى زمن بعيد بدون الإضطرار إلى اقتسام السلطة مع الإمام الثاني عشر .

فلم يعتقد محمد رضا بهلوي قط بحقيقة هذا المهدي الغائب. وإن كان الشاه لا يؤمن بالمهدي فإنه كان عليه أن يأخذ الموالي على محمل الجد في المستقبل . وفي عام ١٩٥٥ نرى كيف أن الشاه شاء احترام رجال الدين : فقد كلف رجال المخابرات بتشجيع جماعات إسلامية على نهب مراكز الدين البهائي في طهران ـ ويروى أنه حتى رئيس أركان الجبيش الإيراني قد شارك بنفسه في هذه العملية ـ ولم يبق شيء أثناء النهب ، فأجزاء كبيرة من المبني الفخم وكذلك أشياء كثيرة من بينها القبة قد تم تدميرها . بعد عملية التدمير مباشرة يتلقى الشاه برقية من آية الله محمد بالشكر والتهنئة على معاقبة البهائيين ، أعداء الإسلام على صلفهم وبأنه يجب الإحتفال كل عام « بيوم تأديب البهائيين » .

وبنشر هذه البرقية كان قد تم تأليب المشاعر ضد البهائيين في أنحاء البلاد ؛ فقد انتشر الإعتقاد بأن الشاه يستحسن القضاء على هذه الفرقة في إيران فاعتدى على كثير من المؤمنين بالبهائية ، ومات بعضهم وظن رجال الدين أن الدولة سوف تحول ثروة البهائيين الضخمة التي صادرتها إلى المؤسسات الدينية الشيعية إلا أن ظنهم خاب . ويتصف عام ١٩٥٥ عموماً بفترة التراجع أمام آراء وحقوق الموالي وقد طالبوا بمد نفوذهم على التعليم في المدارس وحصلوا على ذلك . وكان يتم سؤالهم عن الأفلام التي يجوز عرضها في الأعياد الشيعية . وسمح لهم ببناء جامع داخل حرم الجامعة . وسرعان ما اتضح سبب هذه المصالحة خلال التسعة شهور الأولى لعام ١٩٥٥ : فالشاه يبغي توثيق الإرتباط بالولايات المتحدة من خلال حلف بغداد . فمن خلال التودد لرجال الدين أراد الشاه شراء موافقتهم على هذه الخطوة . وفي أكتوبر عام ١٩٥٥ توقع الحكومة الإيرانية على وثيقة عضويتها لهذا الحلف الذي ضم تركيا والعراق وباكستان . وكان الغرض من حلف بغداد أن تقوم جيوش هذه الدول بمراقبة الحدود الجنوبية للإتحاد السوفيتي . وكان تراجع الشاه أمام الموالي مثمراً حقاً : فلم

يرتفع أي صوت في الجوامع معترضاً على هذا الإرتباط بالولايات المتحدة . إلا أن عمر الحلف كان قصيراً : ففي عام ١٩٥٨ يتم القضاء على الملكية في العراق ، فلم يعتبر رجال حزب البعث ـ الذين حكموا في بغداد بعد ذلك ـ واشنطن حليفاً ، وكانوا لا يرغبون عداوة الإتحاد السوفيتي . إلا أن هذه النهاية المفاجئة لم تلحق الأذى بالشاه : ففي هذا الحين كان قد أقام علاقة مستقلة بالولايات المتحدة .

وقد تميزت بداية الستينات ببرامج إصلاح تطور ونفذ بسرعة ، وكان الشاه نفسه مسؤولاً عنه . وكان أن أعطى محمد رضا بهلوي مثالاً طيباً : فأهدى أراضيه الخاصة إلى الفلاحين وحث كبار الملاك الآخرين على تبرعات سخية من نفس النوع وتم تأسيس مؤسسة بهلوي لتمويل برامج التربية وبناء مراكز صحية للفقراء ، وذلك بأموال الشاه . وقد أظهرت نتيجة استفتاء إيجابية للغاية للشاه أن الشعب يكافئه على ما فعله لصالحه . إلا أن النجاح في الإستفتاء قد أظهر للشاه أيضاً نتيجة لم يتوقعها : وهي أن رجال الدين بدأوا في الإعداد للإنتفاضة . ويعود سبب ذلك إلى رفض الشاه لاستثناء أراضي المؤسسات الدينية من توزيعها على الفلاحين . وكان كثير من كبار رجال الدين يعيشون على الخير الوفير لبعض المؤسسات التي يتولون إدارتها وكانت ذريعتهم أن إفقار المؤسسات من خلال نزع أراضيها هو هجوم على الإسلام . وكان من بين أعلى الأصوات المعارضة لتنفيذ قانون الإصلاح الزراعي رجل يعيش في قم من أوساط رجال الدين الشيعة يدعى : آية الله روح الله خوميني . وكانت هذه أول مواجهة تقع بين الشاه وخوميني . وقد تحكم الصراع بينهما في السياسة الإيرانية للأعوام اللاحقة . وقد كان اعتراض آية الله على الإصلاح الزراعي لا يزال لا يجد له صدى . فقد كان إعادة توزيع الأراضي الزراعية بأخذها من الأغنياء وإعطاءها للفقراء إجراء جماهيرياً لدرجة أنه لم يؤخذ المعترضين عليه في الإعتبار . إلا أنه كان هناك ما قد تقبله أهل الشيعة بصورة أكثر إيجابية وهو اعتراض آية الله على القانون الذي منح النساء حق التصويت . ولم يكن الشاه قد أخفى أنه من أنصار مساواة النساء بالرجال فكان من حقهن ممارسة العمل بلا

أية حدود ، وكن يقفن على قدم المساواة مع الرجال أمام القضـاة ، وقد رفض رجال الدين الشيعة هذه المساواة على أنها غير إسلاميـة وكان أن نفض رجـال الدين عن أنفسهم كل تخاذل عندما حصلت النساء فعلاً على حق الإنتخاب في المجالس المحلية . وفي ذلك الحين طرح الخوميني في خطبه سؤال ماذا كان هذا القانون الذي يفتح للنساء الطريق أمام صناديق الإنتخاب ، قد صاغه أنصار البهائيين فنص القانون يلاءم « فكر الصهاينة » بصورة تجعله يـومن بأن مؤامـرة البهائيين ضد الإسلام قد بدأت . وكان الخوميني يخطب بأن البهائيين يريدون كخطوة قادمة السيطرة على الـدولة والإقتصـاد . أما المـدى الـذي وصـل إليـه نفوذهم فيكمن من خلال أن الممثلين المنتخبين طبقاً للقانون الجديد يؤدون قسم تولي المنصب ، ليس على القرآن ، بل ـ حسب الصيغة الجديدة ـ على الكتاب « المقدس » . وبهذا يكون لكل مذهب ديني كتاب مقدس ، فيستطيع البهائيون القسم على كتاب بهاء الله .

وقد وجد اعتراض خوميني على « التحقير من شأن القرآن » لصالح كتب أخرى مشبوهة ، موافقة عامة . فاضطرت الحكومة إلى إلغاء هذا القانون على أن يعتبر القرآن الكتاب المقدس الوحيد الساري مرة أخرى في إيران .

وهكذا أحرز رجال الدين نصراً، سيكون له آثاره فيما بعد. فقد خرج من صفوف رجال الدين رجل يمثل موقف الشيعة في القضايـا السياسيـة ، وهو في هذا لم يأت إلا بما كان يفعله أئمة العصور الـلاحقة لمـوت رسول الله . وقـد عايشوا في معظم الأحيان الإرتباط الوثيق بين الدين والسياسة وكيفية تطبيقه في الواقع . مـرجعين ذلك إلى حكم النبي محمـد ﷺ للدولة الإسـلامية . وكـان الخوميني مؤمناً بأنه لا يجوز ترك السيـاسة للسيـاسيين ولا لحاكم مثـل الشاه . فالإسلام يشمل كل عناصر الحياة . وحياة محمد ومسلكه دليل على ذلك . وبذا يكون واجب رجال الدين الإسلامي هو متابعة أعمال السياسيين ومراقبة خططهم وأفعالهم إلا أن التقاليد الشيعية تتيح لرجـال الدين الشيعـة فرصـة التخلي عن واجبهم في اتخاذ موقف من القضايا السياسية فإن كان قوة أعداد الدين كبيرة ،

فيجوز لرجل الدين السكوت ويعود للإنشغال بقضـايا الـدين البحت . وتسمى هذه الحالة « بالتقية ». وكانت قد استمرت في إيران منذ أغســطس ١٩٥٣ أي منـذ عودة الشـاه من منفاه الـذي لم يستمـر إلا قليـلاً . أمـا الآن ، في صيف ١٩٦٣ ، فيعلن الخوميني أن زمن التقية قـد انتهى ، وعلى رجال الـدين إتخاذ مـوقف ضـد الكفـار ، ولم يـدع مجـالاً للشـك بـأن الشـاه على رأس هؤلاء المحسوبين من الكفار .

حفيد النبي يكافح ضد الشاه

كانت سنوات قد مضت على النهاية المفجعة للثورة التي كان د . مصدق رمزاً لها . فتذكر خوميني أن ضحايا من صفوف الثوار قد سقطوا حينذاك وأن هناك من اعتقل وقتل فقرر أن يهتم بشأن هؤلاء الضحايا . وكتب خطابات إلى كل حكام الدول الإسلامية يرجوهم التبرع لأهالي القتلى والمفقودين. ولم يتلقَ خوميني الذي كان حينذاك غير معروف بالمرةحتى في العالم الإسلامي رداً إلا من الرئيس المصري جمال عبد الناصر والذي يحكم دمشق أيضاً ـ بعد إتحاد مصر وسوريا من الجمهورية العربية المتحدة حينذاك . وبأمر من ناصر سافر أحد اللبنانيين ، الذي كان في الحقيقة أحد رجال المخابرات المصرية السورية ، إلى طهران ليقابل الخوميني وكان يحمل في حقيبته مائة وخمسين ألف دولار نقداً .

إلاَّ أنه تم القبض على هذا اللبناني فوراً بمجرد وصوله مطار طهران. وقام احتمال حينذاك أن المخابرات الإسرائيلية «الموساد» قد عرفت سر رحلة المبعوث اللبناني وأبلغت خبر وصوله للمخابرات الإيرانية « سافاك » ولم يعرف الخوميني شيئاً عن إرسال ناصر للمال وبهذا لم يستطع الاحتجاج على مصادرة المائة وخمسين ألف دولار . ولم يعرف بعملية السافاك إلا من خلال الإذاعة الإيرانية : فقد سأل الشاه زعماء الشيعة في بلاده عن رأيهم في واحد منهم يتلقى أموالاً من غير الشيعة لينفقها على نفسه. وكان الخوميني مضطراً للإجابة وقد استغل لذلك إحدى محاضراته التي ألقاها في المدينة المقدسة « قم » فقال الزعيم الديني : « يجب علينا من الآن فصاعداً أن ندافع عما نعتقد بصحته

والصحيح أنني لا أحتاج أموالا من الخارج . فتلاميذي يعطونني ما أحتاجه لحياتي . أما المال الذي أرسله الرئيس ناصر فكان للأرامل واليتامى والنساء والأطفال الذين رملهم ويتمهم الشاه . وقد سرق عملاء الشاه هذا المال من هؤلاء النساء والأطفال . وأنا أقبل هذا التحدي » وبهذا كان كفاح الخميني ضد الشاه قد بدأ . أو على الأصح كان الكفاح قد تجدد في النزاع بين أسرة النبي ﷺ وبين هؤلاء « الذين اغتصبوا السلطة بالباطل » . وقد ولد في خومين رجل الدين الشجاع في تلك المدينة النائية في الصحراء والتي تقوم في وسطها سوق فقيرة يذهب إليها فلاحون لا يكادون يملكون مالاً ، وكانت شوارع خومين وبيوتها من طين كان يسكنها عند نشأة الخميني حوالي ثلاثة آلاف نسمة ويذكر الخوميني بلده قائلاً: « لا أحد يتوقف عندها » . وقد رفض بعد عودته من منفاه في فرنسا أن يزور مسقط رأسه ويمكن تبرير الرفض على إنه كان يرى الإرتباط بأي بقعة في الأرض إثماً ، فحب الوطن قد يلهي عن حب الله وهو الحب الوحيد الذي يجب رعايته والمداومة عليه. وقد وُلِدَ الخوميني في ٩ نوفمبر عام ١٩٠٢ . وما زال البيت الذي ولد فيه قائماً ، وهو بيت متواضع من طابق واحد وأغلب حجراته الأحد عشر بلا نوافذ وليست به كماليات إلا مداخن أو ملاقف هواء تساعد على ترطيب الجو في الداخل وكان والد الخوميني يدعى سعيد مصطفى .

ويميز هذا اللقب « سعيد » حامله بأنه من أهل البيت فكل من يدعى « سعيد » ينسب نفسه للسلالة المباشرة للنبي محمد ﷺ . وينضم بهذا إلى الأسرة المفضلة التي خصها الله بالسلطة في الدولة الإسلامية بعد وفاة محمد ﷺ عام ٦٣٢ م . وكان آل « سعيد » يميزون أنفسهم عن الآخرين بارتداء وشاح أخضر، وقد ألغي هذا الوشاح من خلال قانون الملابس الذي أصدره رضا خان، أول شاه بهلوي إلاَّ أن الفرصة واتت واحداً من هؤلاء «السعداء» والذي قرر أن يصير رجل دين لكي يميز نفسه : فقد سُمّح له أن يرتدي عمامة سوداء ومازالت هذه العمامة سارية حتى اليوم ، أما رجل الدين الذي لا ينتسب إلى آل « سعيد » فلا يسمح له إلا بارتداء عمامة بيضاء أو على الأكثر ذات لون الكريم . وكان من

حق خوميني ارتداء العمامة السوداء فهو ذو نسب « سعيد » من خلال أبيه ، الذي اكتسب هذا اللقب بدوره عن أبيه . ولا يقول حتى أعدى أعداءه إن الخوميني أو آباءه قد اكتسب لقب « السعيد » والعمامة السوداء بطريق غير شرعي . لأن لم يجرؤ أحد في الحاضر قط أن ينسب نفسه إلى آل النبي ﷺ . على النقيض مما يحدث في أوروبا من قيام بعض الناس بنسب أنفسهم بدون وجه حق إلى الأسر النبيلة الهامة . أما من يتلقب « بسعيد » دون أن يكون لابيه أو جده الحق في هذا النسب يكون قد أقدم على مغامرة مميتة . فإذا ما ضبط شخص أحد رجال الدين يرتدي العمامة السوداء دون وجه حق يكون من واجب هذا الشخص قتل رجل الدين . فمن يرتدي عمامة سوداء بدون الانتساب «لسعيد» حقاً ، « يهدر دمه » . فكان هذا رادعاً للمغامرين وبذا يمكن أن يكون من يتلقب اليوم « بسعيد » هو سعيد حقاً . أما اسم العشيرة التي ينتمي الخوميني إليها فتلقب بـ « موسوي » . وقد أخذت العشيرة اسمها عن موسى بن جعفر الكاظم ، الإمام السابع . فيكون موسى بن جعفر الكاظم جد العشيرة . وهذا الانتساب يتضمن بداهة الأنتساب إلى علي ولي رسول الله ﷺ . ويروى عن الإمام السابع أنه رحل إلى بلاد فارس وأثناء توقفه بالمدينة الإيرانية تزوج زيجات شرعية حسب المفهوم الإسلامي الشيعي . فمن حق المسلم الزواج من أربع ويجوز له زيادة هذا العدد إن كان يستطيع الإنفاق على زوجات آخريات . ويمكن لهذه الزيجات أن تستمر يوماً أو عدة سنوات ويكون من حق أبناء الإمام السابع « الناتجين » عن « زواج المتعة » أن ينسبوا إلى بيت آل النبي . ويكون من حق أبناءهم بدورهم أن يتسموا « سعيد » ومن بين هؤلاء آية الله روح الله خوميني .

وقد أضاف خوميني لقب « خوميني » إلى اسمه ليدلل على انتسابه لبلدته « خومين » . أما اسمه الحقيقي فهو سعيد روح الله موسوي . وقد مات أبوه « مصطفى » عام ١٩٠٣ ولم يكن الخوميني قد بلغ الستة أشهر من عمره . ويروى أن مصطفى قتل بتكليف من كبار ملاك الأراضي لأنه تمسك بتطبيق مبدء شيعي أثناء نزاع حول قطعة أرض من الممكن أن يكون النزاع قد دار حول نصيبه

من المحصول والذي يحق له حسب التقاليد الشيعية . أما الرأي السائد بين الشيعة اليوم هو أن أبا الخوميني كان ضحية ملاحقة القوى التي كانت تكافح العدل .

وقد أرجعت المدينة الصغيرة خومين مقتل الأب إلى الرضيع روح الله . فكان الناس يعتقدون من خلال تجاربهم أن الطفل الذي يتبع ولادته أذى يجلب الكوارث على عائلته كلها . وكان جيران أم روح الله يؤمنون بهذا . ولأن الأب قتل خلال ٦ طعنات فقد حسبت هذه الطعنات الشهور الستة التي هي عمر الطفل . وقد اشتد هذا الاعتقاد الخاطىء حتى إن الأم شعرت بالخطر يقترب من ابنها فأخرجت روح الله من البيت ليكون في رعاية إحدى خالاته . وقد رزقت الأم طفلاً آخر كان جنيناً عند وفاة أبيه .

وقد استولى هذا الابن الأخير لمصطفى وقد سمي « محمد » على مشاعر أمه لدرجة أنها لم تعد تهتم بشأن روح الله .

والشيعة اليوم يعلقون أهمية خاصة على قصة الطفولة هذه فهم يرون فيها توازياً مع حياة النبي محمد الذي مات أبوه أيضاً وتربى في كنف عمه وزوجته فمن الجلي أن الله أعطى علامة ومن واجب المؤمنين فهم هذه العلامة .

أما أقاربه الذين يتذكرون طفولة روح الله فيقولون إنه كان سريع الغضب وعنيداً مثل أبيه . إلا أن خالته استطاعت السيطرة عليه ولقد عملت أيضاً على أن يبدأ الطفل حفظ القرآن وهو في الرابعة من عمره . فأرسل روح الله إلى أحد الكتاتيب الصغيرة الفقيرة والتي كان يقوم عليها الموالي ففي هذا الحين ـ بداية هذا القرن ـ لم يكن هناك مدارس حكومية في المدن الإيرانية الصغيرة فلم يكن قد تكون نظام للتعليم إلا في عهد الشاه رضا ولم يكن هناك قوانين في نظام التعليم تحدد فتح « كتاتيب » كما لم يكن هناك رقابة من خلال جهة إشرافيه أو إدارة تعليمية . وكانت مصاريف المدرسة يدفعها الآباء أو المؤسسات الدينية القائمة وكانت المادة التعليمية تقتصر عموماً على القرآن . ويقال إن روح الله قد حفظ كل سور القرآن وهو في السادسة من عمره فدفع هذا الإنجاز خالته على أن

تخصص له معاشاً سهل له طريقه إلى أن يصير عالماً . وفي السابعة عشرة يترك روح الله موطنه خومين بنصيحة من مدرسه الذي أقر إنه لا يستطيع تعليم الشباب أكثر من ذلك . فاختار روح الله المدرسة العالية في أراك ليكمل تعليمه بها . أما السبب الذي شده إلى أراك ـ هذه المنطقة التي ليست لها أهمية ـ فقد ظلَّ مجهولاً . ومن المحتمل أن يكون السبب هو أن قاتلي والده مثلاً أمام المحكمة في هذا المكان قبل ١٧ عاماً وتم تبرءتهما . وكان السجن ما زال على عهده منذ هذه المحاكمة . وكان طريقه إلى المدرسة يمر بهذا المكان . وسرعان ما أدرك روح الله أن عليه اختيار مكاناً مشهوراً للدراسة إن أراد ارتقاء سلم علماء الدين فقرر الرحيل إلى مدينة « قم » . وتقع هذه المدينة في جنوب شرق طهران على بعد مائة وخمسين كيلو متراً ، عند سفح طرف سهل وسط إيران . وترجع شهرة المدينة إلى كونها تحوي قبر فاطمة . وهي ليست ابنة النبي ﷺ ولكنها أخت علي الرضا والذي يعتبر حفيد حفيد النبي ﷺ والذي يعتبره الشيعة خاصة الإيرانيون زعيماً لهم . أما الإمام علي الرضا فقد دفن في مشهد أي في الشرق . وفي بداية القرن السادس عشر الميلادي عندما رفع حكام الدولة الصفوية مذهب الشيعة إلى مرتبة الدين الرسمي في إيران ، كانت أهمية هاتين المدينتين الإيرانيتين قد تعاظمت ، فصارت مشهد وقم مكان حج كاد أن يقضي على مكة تماماً في نفوس الشيعة . وقد حرص الحكام على أن يقدموا للمصلين ما يسر ناظرهم فقام الشاه عباس بزخرفة قبر فاطمة ، اخت علي الرضا ، بزخرف فخم ثمين . وحول هذا الضريح ، نشأت مدارس للشباب ، والذين يبغون الدراسة في سبيل الاشتغال بالدين . وهكذا صارت قم مركزاً لعلم الشيعة . وسرعان ما نشأ التقليد بالإسراع في الحصول على مقبرة في قم . فمن كان يريد ضمان الراحة الأبدية والطريق إلى الفردوس كان يوصي بدفنه بجوار ضريح فاطمة ، أما المدينة نفسها فكانت تختلف عندما وصلها سعيد روح الله ، اختلافاً تاماً عن الفردوس ، فكانت المدينة قذرة ولا يوجد بها نظام للصرف ، فكان الصرف يتم مباشرة من المنازل إلى الشوارع والحواري . وتتفق الروايات عن هذا الزمن في أن الرائحة كانت مقززة للغاية وكان هواءها يمتلىء بأسراب ذباب له أزيز ، يسقط على الناس ليمص دماءهم . ولم يتغير هذا

الوضع حتى اليوم إلا قليلاً ، حتى حرارة الشمس في الصيف ما زالت تجعل الحياة في قم جحيماً . وكان إنطباع الزائر لقم حينذاك يتأثر بالعدد المهول لذوي العاهات والعميان الذين أتوا ضريح فاطمة للحصول على الشفاء ويبقون في قم بأمل حدوث المعجزة . وبالرغم من كل هذه الأسباب التي لا تطاق يشعر الشيعة بقدسية خاصة لهذا المكان وبلا ريب كان سيصير روح الله معجباً بهذا المكان عندما أتاه في صيف عام ١٩٢٠ باحثاً عن معلم يجعل منه « مولى » . وهذا اللقب « مولى » يبعث على التبجيل لماله من دلالة في اللغة العربية أما الخوميني فكان يطلب أقصى تبجيل لمنزلة « المولى » عندما قال « من يخاصم المولى فهو يخاصم الإسلام ، فإذا ما ذهب المولى ذهب الإسلام كله فالموالي فقط يملكون القوة والسلطان ليعدوا الناس للموت في سبيل الله » .

أما النبي محمد ﷺ فلم يفكر أن يجعل للإسلام كهنة وأهل السنة ـ الذين يؤمنون بأفضلية آل بيت النبي ﷺ ـ فقد حافظوا على إستقلالية المسلم في عبادته وحياته خارج الجامع ولكن الشيعة أنشأوا تقليداً يرتكز على أن الإنسان يحتاج لقيادة للتمييز بين الخير والشر وللابتعاد عن الشيطان وأتباعه، والموالي مكلفون من الله بقيادة الناس وللاضطلاع بهذه المهمة يضع الدارس الذي يريد أن يصير مولى ، تحت رعلية معلم في مدرسة ، والتلميذ الذي تخرج من الكتاب ويكون قادراً على تلاوة القرآن بلا خطأ فيتم تعليمه هكذا : يقوم المعلم بطرح موضوع من تعاليم الأئمة فيتم مناقشته . فلا ينبغي أثناء ذلك أن يطور الدارس أفكاراً ثورية بل عليه أن يلتزم برأي المعلم ، وألذي يرتكز بدوره على تراث وأحاديث الرسول ﷺ أو الأئمة . وهذه الأحاديث تمثل في نهاية كل مناقشة بالمدرسة حقائق أبدية لا تمس . ولا ينبغي أن تغير المناقشة المفهوم عن الله أو الكون أو تطوير المعرفة بقوة الله . فالمدرسة هي مكان للتمسك بالتراث ولا يشاء المعلمون الإقرار بتغيرات الكون . فالتقدم يعني خطر الوقوع في شرك الشيطان ، ومن يقتصر على التراث لا يحيد أبداً عن طريق الله .

والخوميني نفسه يعرض كم هو سهل أن يقع الإنسان في الضلال « تبدأ اللعنة بخطوة صغيرة ، بعمل صغير لا يظن المرء أبداً إنه هام على الإطلاق ، ويمضي الطريق إلى النار بلا توقف . فالإنسان لا يصير فجأة شريراً أو فاسداً .

فشيئاً فشيئاً يسقط الإنسان من طريق الرحمة إلى طريق اللعنة . ففي كل منا شيطان إن لم نكافحة أفسدنا خطوة خطوة » . وكان الناس في قم لا يعترفون بأن شيئاً في العالم يتغير . وكان قد تم إزاحة القيصر في روسيا ليحل محله نظام شيوعي . وتم للثورة القضاء على الإمبراطورية . فإذا ما دار الحديث في المدارس عن التحولات في روسيا فكان لا يعدو الكلام باشمئزار عن « إنحلال الأخلاق » . وكان علماء الدين في قم ينظرون إلى الثورة على إنها ليس إلا مؤامرة يهودية تستهدف في النهاية القضاء على الإسلام . وكان هذا التصور الذي انطبع في ذهن الخوميني أثناء دراسته هو الذي حدد موقفه طيلة حياته تجاه الإتحاد السوفيتي وكان التخوف هو رد فعل المعلمين والتلاميذ في قم تجاه الأفكار الثورية في بلادهم ذاتها . فكان الشاه رضا يحاول في القرن العشرين أن يحدث حساً قومياً في وعي الإيرانيين، كان يريده بلا شك أن يفض التضامن الشيعي ويحل محله . وساد الرأي في قم بأن قوى الغرب هي التي أوحت للشاه رضا بالأفكار القومية. هذه القوى التي رأت في الحس القومي الجديد فرصة لفصل البلاد كلها عن العالم الإسلامي وبهذا النحو تضعف الإسلام كله . وكان علماء الدين في قم يرون من ارتكاز الشاه على « الأمة الإيرانية العظمى » وليس على الإسلام ، علامة سيئة وسيكون نتيجة الإقلال من شأن الإسلام ، هو ضياع مكانة الموالي المفضلة بين الشعب . وكانت رغبة الشاه أن يجل العصر الحديث في النهاية على المدينة المقدسة « قم » فقرر في مرسوم قيام التلاميذ في « المدارس » بأداء الخدمة العسكرية إلا أن التجنيد الإجباري كان يستثني من يلوذ بقبر فاطمة ولهذا السبب استأجر روح الله مسكناً يقع مباشرة بجوار الضريح ، فهنا يستطيع أن يكون آمناً ، فقد أعطى الشاه أوامره لجنوده وموظفي التجنيد بعدم الاقتراب من الضريح والمنطقة حوله . أثناء مدة اللجوء في قم كان المولى يعتبر نفسه أسيراً للشاه وكانت المرأة التي اختارها رجل الدين الشاب للزواج ، قد انتقيت بعناية : فقد كانت هي أيضاً تستطيع أن ترجع بنسبها إلى آل النبي ﷺ ، فكانت تدعى « سعيدة » فقد كان المولى روح الله مهتماً بألاّ يدخل دم غريب إلى العائلة . وفي عام ١٩٣٢ يصدق الشاه على قانون يلزم الرعية الإيرانيين على أن يقتدوا بالغرب في حمل لقب العائلة ، حتى المولى روح الله

كـان مجبراً على إطـاعة إرادة الشـاه . فسمى نفسـه من ذاك الحين بمـوسـوي الخوميني واسم موسـوي يشير إلى أن حـامله ينتمي إلى الإمام مـوسى الكاظم وبهذا إلى أسرة النبي ﷺ . واسم موسوي هذا إشارة لأفضلية من يتسمى به . فحامل هذا الاسم يحسب بداهةً إلى خاصة القدم أما الخوميني فقد اتخذه روح الله لقبـاً نسبـة إلى مسقط رأسـه . ولم يكن ارتقـاء سلم علمـاء الـدين سهـلاً للخوميني ـ الذي اشتهر في العالم بهذا الاسم فقط ـ كما كـان متوقعـاً بالنسبـة لطموحه . فقد منعه كبار العلماء أحياناً من إلقاء الدرس ، وربما اعتبر القائمون على هذا الأمر آية الله خوميني متكبراً . وعندما حصل على تـرخيص التدريس كان يخاطب في النصف الأول من الثلاثينات بلقب حجة الإسلام ، وحامل هذا اللقب يأتي ترتيبه بعد آية الله مباشـرة . وفي عام ١٩٣٥ عنـدما أمـر شاه رضـا بإطلاق النار على الضريح في قم لم يكن الخوميني ضمن هؤلاء الذين تآمـروا ضد الشاه . وبالرغم من أن مؤرخي الشيعة المحدثين يقولون باشتراكه النشط في الإنتفاضة إلّا أنه لا يوجد شهود على ذلك .

وحينذاك كان الشاه ورجل الدين يفكران في موضوع واحد بنفس الطريقة . فكلاهما كان معجباً بأدولف هتلر . فيروى عن الخـوميني إنه كـان يستمع كـل مساء إلى القسم الإيراني بإذاعة برلين التي كان لها حينذاك جمـاهير كبيـرة في المدن والقوى الإيرانية وكانوا يرون في زعيم الـرايخ الثـالث مناضـلاً يساعـد الإسـلام عمداً ، لأنـه يستأصـل شأن اليهـود ويقضي على الإتحـاد السـوفيتي الملحد ، بل أكثر من هذا ، فقد كان النـاس هناك يؤمنـون بأن هتلر هـو تابـع للإمام علي ، مؤسس الشيعـة . وبالـرغم من هذا التـوافق النادر كـان خوميني لا يشعر بأي تعاطف مع الشاه رضا عندما عزله الانجليز عام ١٩٤١ ، وبالذات من أجل صداقته للألمان . ففي عزله رأى الخوميني فرصة للتخلص من أسـرة بهلوي كلها . وظن الخوميني أن الوقت قد حان لإقامـة حكومـة يقودهـا رجال الدين . فكان يرى أن الشعب الشيعي في إيران يـريد أن يحكمـه هؤلاء الذين لهم الحق في ممارسة السلطة طبقاً للتقاليـد الشيعية . إلا أن خـطب وصلوات خوميني لـم تقف دون أن يصير ولي العهد محمد رضا بهلوي ذو الواحد وعشرين

عاماً حينذاك حاكماً لإيران . والآن يقف الخصمان في الساحة السياسية مواجهة بعضهما البعض . وهما أيضاً اللذان سيحسمان النزاع في النهاية بين رجال الدين والعائلة الحاكمة . إلا إنهما كانا في بعض الأحيان يسعيان لهدف واحد فكان كلاهما الشاه ورجل الدين ، يخشيان أن يكتسب أنصاراً كثيرين . وكان هذا الحزب يماثل البلاشفة السوفيتية فالكلمة الإيرانية تودة تحمل معنى هذا . ولذلك كان الإتحاد السوفيتي يدعمه بصورة غير عادية . وكان برنامج حزب توده يتضمن مطلب إلغاء امتيازات رجال الدين وخفض نفوذ العلماء في التشريع والقضاء وكان حزب تودة يريد إنشاء مجتمع ملحد في إيران . وكان يجب القضاء على ذكرى الإمام الثاني عشر الغائب .

ومن أجل الدعاية لبرنامجه ، دعا الحزب الماركسي إلى مظاهرة جماهيرية عند أطراف قم ، فكان من النيات المعلنة أيضاً لقيادة الحزب هو ترويع رجال الدين .

أما الشاه محمد رضا بهلوي والذي كان في السنة الثالثة من حكمه ، فقد أدرك الخطر الذي يهدد مملكته . فحزب تقوده موسكو لا يمكن أن يكتفي فقط بإنهاء نفوذ الدين ، فلا بد أن يكون معادياً للملكية . وإذا فكر الشاه في القوى التي يمكن لها أن تساعد في الدفاع عن المملكة . فإنه يدرك أنه لا يوجد غير رجال الدين الإسلامي ، وكان أن تقدم هذا الشريك بالعرض ، فالموالي أيضاً انزعجوا من التهديد الذي أظهرته المظاهرات الجماهيرية عند « قم » ، فقد رأى كلاهما ، الشاه وأتباعه ، ورجال الدين ، أن إنقاذهما يكمن في تقوية الإسلام . والآن صار محمد رضا بهلوي نفسه يروي أن « علي » الإمام الأول، ظهر له في الحلم وبدأ يقدر أهمية المركز الديني في « قم » ، وبذا أيضاً رجال الدين الذين يدرسون هناك . وبعد عام حدث أن استقبل الشاه الخوميني في استراحة ، في قصر المرمر جنوب طهران . وكان الخوميني مكلفاً من رجال الدين الآخرين بطلب تخفيض الحكم على أحد المسلمين المنتمي لمنظمة « فدائيو الإسلام » ، والتي كانت تحاول الانقضاض على الشيوعيين من خلال حرب عصابات معهم . وقد أعلن الشاه عن استعداده حقاً للقاء مبعوث « قم »

إلا أنه اتخذ نحوه أيضاً مسلك تركه ينتظر كطالب للعون . فقد قال أحد رجال البلاط لرجل الدين بأن عليه انتظار الشاه واقفاً . إلا أن الخوميني جلس ولم يقف حتى بعد دخول الشاه . وكان بلا ريب يتبع بهذا تقليد إنه : منذ أجيال عديدة ، الموالي كانوا يبقون في حضرة الشاه مظهرين بذلك أن حاكمهم الفعلي هو الإمام الثاني عشر الغائب ، ومنذ زمن بعيد والحكام أيضاً يحترمون هذا التقليد إلا أن محمد رضا بهلوي لم يشأ أن يرى مسلك الخوميني بمنظور الماضي فاعتقد أنه رجل دين يريد إظهار احتقاره له . فافترق الرجلان على بغض . ولم ينسَ الشاه اسم خوميني قط . وبعد عام آخر كان اللقاء الثاني قد تم ، فقد كان على الخوميني طلب مساعدة مالية من الشاه لترميم ضريح فاطمة في « قم » وفي هذه المرة تصرف رجل الدين كما يشاء الشاه والعرف وبالرغم من أن الشاه لم يظهر أية علامة ود ، فقد كان لا يزال يذكر ما حدث في الزيارة الأخيرة ، إلا إنه أظهر كرماً كبيراً . فقد أمر بمبلغ كبير يغطي كل تكاليف الترميم . وغطيت قبة ضريح فاطمة بالذهب . وفي عام ١٩٥١ سنحت الفرصة ليقف الشاه ورجال الدين صفاً واحداً ، فكان د . محمد مصدق ، محرك تأميم كل مناطق صناعة البترول وكل ممتلكات شركات البترول يرى وضع إيران على طريق الديمقراطية من خلال تقوية البرلمان . ولم يكن هذا السياسي يرى أعداءه في الشاه ورجال بلاطه فحسب بل أيضاً في الموالي الذين لا يودون أن تكون الديمقراطية هي منهج الدولة . فكانوا يتمسكون باعتقاد أن أساس السلطة في الدولة هو الإمام الثاني عشر الغائب الذي يمثل سلطة الله . وطالما ظل الإمام الثاني عشر مختفياً فإنه يجب على الموالي الحرص على أن لا تحيد مبادىء الحكم في إيران عن مبادىء المهدي . وكان الشاه محمد رضا بهلوي ورجال الدين يستطيعون أن يصيروا حلفاء في الكفاح ضد محاولات الديمقراطية التي يقوم بها د . مصدق . فكلاهما لا يريد الديمقراطية وكان حجة الإسلام الخوميني وحده الذي حذر من التحالف مع الشاه : « فإن رضا خان لا بد أن يكون شيطاناً مثلما كان أبوه شيطاناً » . ولأنه لم ينضم إلى التيار العام ، فكان أن رفضه القادة الآخرون من رجال الدين ، الذين رأوا فيه متلفاً للعلاقات الطيبة بين القصر والجامع . وفي ذاك الحين كان مثل هذا الرفض يمثل خطراً على

الخوميني ، فقد كان حينذاك يجتهد للحصول على أعلى درجات سلم العلماء . فقد كان يريد أن يصير « آية الله » . وهذا اللقب يحمله الموالي الذين يحق لهم الفتوى في الأمور الدينية الملزمة للمؤمنين . وقد نجح في هذا عام ١٩٥٨ . ومنذ هذا الحين صار للخوميني الحق في حمل لقب آية الله . وقد منحه إياه زعماء رجال الدين في قم . وكان يحتم أن يقتصر حمله هذا الشرف على اثني عشر . ومع ذلك لم يكونوا قمة السلم ، ففوق الاثني عشر آية الله كان يوجد « ثلاث آيات الله » كبار والوصول إلى هذه الدرجة كان يقتضي موافقة الحاكم . والتي لم يكن الخوميني يتوقعها قط ، وكان يأملها . فظل يوماً فيوماً يتخلص من أقواله السيئة عن البيت الحاكم وصار لا يذكر حتى رضا خان البغيض بأي كلمة يمكن أخذها على محمل سيىء وكان المبدأ الذي يحكم مسلكه هو « الغاية تبرر الوسيلة » وهو مبدأ لا يحتقره أهل الشيعة في عمومهم . فمن أجل غرض ، حسي أو مقدس كان مسموحاً على الإطلاق استخدام عنصر المؤامرة .

ويقال إن الخوميني أرسل خطابات إلى الشاه تتضمن كلمات مداهنة بغية ضمان الشاه في صفه . وفي عام ١٩٦٢ وعندما مات واحد من آيات الله الكبار اعتقد خوميني أن فرصته الكبرى قد حانت . إلا أنه انتظر خبراً ساراً من طهران بلا جدوى واعتبر آية الله عدم ترشيح الشاه له للمنصب الكبير إهانة له . وهكذا انفصمت عرى الصلات بين الشاه وآية الله وظهرت علائم تفجر العداء الصريح .

وانطلق شعار كفاح الخوميني ضد الشاه عام ١٩٦٣ : « الشاه يجعل من نساء المسلمين عاهرات ». وطالب بتنازل الشاه عن إجبار النساء على خلع الحجاب . وسب تشويه التقاليد الذي جعل الرجال والنساء يلتقون في المحلات العامة. وفي مساء اليوم السابق على بداية السنة الإيرانية الجديدة ، بدأ هجوم آية الله بهذه الكلمات : « إن الشاه يقف ضدنا ، وقد ظهر لينفذ مؤامرة . إنه يدوس تعاليم القرآن بقدميه ولذلك لن تكون أيام الإحتفال بالسنة الجديدة أياماً سعيدة وإنما أيام حزينة . وبهذا الإعلان يا الله قد أديت واجبي تجاهك . فإن أطلت عمري فسوف ألتزم أيضاً بهذا الواجب ». لم يكن

الخـوميني ليجذب الإنتباه لولا لم يكن رد فعـل الحكومـة عليه ملفتـاً للنظر : فقامت بإرسال متظاهرين مأجـورين من طهران إلى « قم »، وكـان الكثير منهم يرتدي زي الموالي فالتف الرجال حول الضريح هناك وصاحوا « عـاش الشاه » وعندما دمرت غرف نوم دارسي الفقه بـدأ أنصار الخـوميني في تنظيم حمـلات مضادة . نتج عن ذلك أعمال عنف جرح اثناءها متظاهرون من الجانبين . وفي النهاية تم إطلاق النار وكان الجيش يتحين أعمال العنف هذه . فقامت قوة هجوم احتياطية ، كانت تتمركز عند « قـم » بغـزو المدينـة وأطلقت نيرانهـا بلا تمييـز على الجماهير المشاغبة فمات اثنان من الطلاب بالرصاص . وكـان أن استغل الخوميني الفرصة لأول مرة مستفيداً من مشاعر أنصاره والتي فجرها عملية القتل ـ في النشاط السياسي فقام آية الله بإلقاء أول خطبة العامة ـ التي تبعها بمئات بعد ذلك ، وقال : « لقد حفرت سلطة الطغاة نهايتها عندما قامت بجريمتها وأطلقت النار على الطلاب . وسوف تنتهي الملكية وسـوف ننتصر . فمنـذ زمن طويـل ونحن ندعو الله أن يكشف النظام عن وجهه الحقيقي ويلطخ نفسه بالعار فسمع الله دعانا » .

وأثناء الليلة ذاتها كانت كلمات الخوميني قد طبعت ووزعت كمنشورات ولم تقم قوات الأمن التابعة للشاه بمنع المنشورات ، فسبب هذا حيرة كبيرة لآية الله الذي توقع أن يكون العنف هـو الرد على شعـاراته . فقـد كان نـظام الشاه حينذاك يشعر بالثقة لدرجة أن المسؤولين عن الأمن لم يشعروا بالتحدي من خلال الشتائم القادمـة من قم . وكان هـدوء الشاه ووزراءه يستنـد إلى نتيجة استفتـاء أشارت إلى ازدياد جماهيرية البرامج السياسية لنظام الحكم .

أما خوميني فقد خرج بنتيجة : إنه يحتاج إلى أساس في طهران فقد أثار غضبه أن يقتصر تأثيره في قم . وسرعان ما أدرك أن إقرار رجال الدين وطلاب الفقه بآراءه لا يكفي لتغيير الأوضاع السياسية في إيران وكان على الخوميني أن يكسب الطبقة الوسطىٰ التي تتكون من التجار في الأسواق والبازارات والـطبقة الوسطى لرجال الأعمال والطبقة المتنامية من المهندسين والمدراء ، إلا أن هذه الطبقة كـانت تعمل في هـذا الحين على تطبيق الأسلوب الغـربي في الحياة .

وبذا لم يحالفه النجاح لدى هذه الطبقة إن ظل يردد على أهل هذه الطبقة عداوة الغرب وخاصة الأمريكان . . فكان خصمه البديل هو اسرائيل « وحلفاءها » من أتباع البهائية . فكان أن ردد في خطبه مزاعم طبع قرآن مزيف في إسرائيل ليقوم أتباع البهائيين بإهداء النصوص المضللة عمداً إلى المؤمنين . وكان الغرض من هذا هو إثارة البلبلة لدى المؤمنين . وكان أن أعلن الخوميني : « فلترسخوا في أذهان الناس الخطر القادم إليهم من اليهود وعملاءهم . فعلاقة حكومتنا الخائنة قوية بكليهما والشاه يفكر في تعيين الجنرال البهائي أسد الله سميع رئيساً للوزارة ». فكان أن أخذ الشاه هذا التحدي على محمل الجد مرة أخرى . فقام بالرد على ذلك . إلا أنه أثناء ذلك وقع في أخطاء حاسمة مكنت الخوميني لأول مرة من أن يصبح الزعيم الجماهيري لمقاومة نظام الحكم . ففي ابريل ١٩٦٣ يقوم الشاه بزيارة المدينة المقدسة قم . وكان يبغي الوقوف أمام الموالي . وكان أن عملت الشرطة وكذلك الجيش على حماية الشاه : فارتدى ٧٠٠ شرطي وجندي زي الموالي ، ثم أرسلوا إلى ضريح فاطمة . وكان عليهم استقبال الشاه بحفاوة عندما يدخل صحن الجامع بالزي الفاخر القائد الأعلى للجيش ، وكان أن أهان الموالي في خطبه بوصفه لهم أنهم رجعيون جاهلون يحاربون التقدم وأن هدفه هو إدخال إيران عصر الذرة بينما الموالي يهدفون الإبقاء على عصر الحمير إلى الأبد .

ثم صاح بأن الموالي شاذون جنسياً في عمومهم ، فلا يظنون أن تكون النساء كائناً بشرياً له حقوقه وواجباته . فكان أن هتف الجالسون في الجامع لهذا الكلام . فجعل هذا المسلك الموالي يوقنون أن معظمهم قد قبض مالاً لقاء هتافه .

ومنذ هذا الحين رأى الموالي أن محمد رضا بهلوي أسوأ من أبيه رضا خان فهو لم يستخدم مثل هذا العنصر « فرضا كان شجاعاً ، أما محمد رضا فقليل الأدب وجبان ».

وتطورت أحداث عام ١٩٦٣ لتصل إلى قمة حدتها : ففي يوم عاشوراء

وهو ذكرى الشهيد الحسين، خرجت أمواج المؤمنين من طهران بغية التظاهر ضد التهديدات التي أعلنها الشاه في قم . وحدث لأول مرة في العاصمة أن رأى الناس الرأس ذات العمامة السوداء مرسومة على لافتات على جدران المنازل ولأول مرة يسمع أمام مباني الحكومة هتاف : « عاش الخوميني ». وفي يوم عاشوراء لعام ١٩٦٧ يجتاح شباب الشيعة المنشآت العامة في ميدان البرلمان وهم يرددون هذا الهتاف . وعندما وصلت أنباء اضطرابات العاصمة إلى قم كان الفزع قد حل بمعظم رجال الدين ولما كانت الحكومة تعرف خوف الموالي من اندفاع أنصارهم فقد أرسلت ضباط من السافاك إلى زعماء الشيعة يحذروهم من استمرار تدبير الإضطرابات . وقد قاموا أيضاً بزيارة الخوميني . فكان أحد رجال السافاك مكلف بتوصيل رسالة إليه من صاحب الجلالة . ولم تكن الرسالة تتضمن إلاّ إنذاراً بتحطيم عظام الخوميني بأن حرض الاضطرابات بشعاراته وأن الشاه قد أعطى أوامره اللازمة لذلك .

ويقال أن الخوميني قد رد على ذلك بأنه لديه هو أيضاً أوامر ولكن من قوة تعلو أيضاً قوة صاحب الجلالة . وفي عصر يوم عاشوراء ، يوم الإضطرابات في طهران ، كان الخوميني يخطب في قم . وكان موضوع الخطبة هو حرب الشياطين ضد العائلة المقدسة للنبي محمد ﷺ . وقد بدأ الحرب ببني أمية التي انتزعت الخلافة بعد موت رسول الله بغرض الحيلولة دون إقامة الحكم الشرعي لسلالة النبي ﷺ . وقد ارتكب الخليفة يزيد الإثم العظيم لما أمر بقتل الإمام الحسين. والشاه هو الخليفة يزيد عصرنا هذا . فالشيطان محمد رضا بهلوي يريد القضاء على آل سعيد أحفاد النبي ﷺ لهذا العصر ، إلا أن قتل آل سعيد لن يتم لأن الشاه مخلوق ضعيف . ولم يحدث منذ استيلاء رضا خان ، والد الشاه على السلطة في إيران أن تجرأ أحد على مهاجمة الحاكم بمثل هذا العداء ومنذ قرار الشاه وعودته عام ١٩٥٣ لم يجرؤ أحد على الحديث عن إمكانية الإطاحة بالشاه . وكانت نفس الفكرة تسيطر على الخوميني فكان يتكلم وكان الشاه يسمعه مباشرة : في اليوم الذي يقيض النصر للقضايا العادلة ، عندما تبدأ صفحة جديدة لشعب ، سينكرك الجميع ولن يبقى بجوارك صديقك فليس من

بين هؤلاء ، الذين يظهرون ولاءهم لك الآن صديق حقيقي لك . فهم كل منهم هو الدولارات التي توزعها وأنت لا تستطيع الإعتماد على إخلاص هؤلاء وسيأتي اليوم الذي يلقي فيه أصدقاؤك بكل جـرائمهم على كاهلك » وكـان أن تحققت هذه النبوءة بعد ستة عشرة عاماً . وفي اليوم التالي لخطبة الخوميني كـان الشاه يمسك بنصها في يده فقال الشاه والغضب يزلزله عن الخوميني أنه « تيس بائس » وطلب من رجال بلاطه رداً قاسياً . وبالرغم أنه كـان يسمع في القصـر أصوات محذرة بأن الإهمـال هو الأسلوب الأفضـل وكان يسمـع أيضاً أن رجـال الدين مأسورين بفكرتهم عن الشهيد عليّ والشهيد الحسين لدرجة أنهم لا يستطيعـون التفكيـر إلا وضع أنفسهم أيضـاً في عداد الشهـداء . ويقودهم تمسكهم بهـذه الفكـرة إلى أملهم في أن يكونـوا هم شهداء العصـر الحالي . فلن يؤدي الـرد القاسي إلا إلى صنع شهـداء وبهذا تـزيد حـدة الصـراع ، وبـالـرغم من هـذه التحذيرات أصر الشاه على موقفه . فأغارت الشرطة ليلاً على منزل الخـوميني واعتقلت آية الله . وأحضر إلى طهران . وكان أن تناسب الاعتقال مـع تخطيط خوميني للمستقبل : فمن الآن أعتبر هو الزعيم الوحيد للمؤمنين في إيران فرفع الإعتقال مكانته في عيون الشيعة أكثر من كل رجال الدين الآخرين وسرعان ما ظهر أن اتباع النصيحة بعدم الرد كان أفضل للشاه فبمجرد أن ذاع خبر اعتقـال الخـوميني في طهران حتى انفجـرت هناك مـظاهرات ضخمـة عنيفة . وكـانت شعارات الرجال والنساء الذين يطوفون بالشوارع هي : « المـوت للشيـطـان ، الموت للشاه » وانضم عشرات الألوف إلى مواكب المظاهرات ، التي التقت في النهـاية في وسط المـدينة لاجتيـاح محطة إذاعـة طهران ، فقـام رجال الجيش والشرطة بالدفاع عن المبنى . ثم أجبروا في النهاية على إطلاق النار .

وقد قدرت الحكومة عدد الذين ماتوا أثناء المظاهرة بمائة أما رجال الدين فأذاعوا أن ١٥,٠٠٠ ماتوا من جراء إصابتهم أما الشيء المذهل الذي حدث في هذه الأيام : ففي الأيام السابقـة على يوم عـاشوراء لعـام ١٩٦٣ ، كان الشـاه يعتمد بلا ريب على دعم جماهير الشعب لـه لأن برنامجه الإصلاحي جعل له جماهيرية . ولـم يكد الليل يمر حتى كـانت صورة الشـاه قد تغيـرت في عيون

الناس : فلم يعد يعتبر بإصلاحاته التي استفادت منها الطبقات الفقيرة . وصار محمد رضا منذ هذا الحين عدواً للإسـلام في المقام الأول وهـا هو الخـوميني يحصل على هذا التغيير في الرأي العام .

الشاه يمنع إعدام الخوميني

كان من رأي الجنرال نصيري ، القائد العسكري في طهران والمسؤول عن الأمن في العاصمة ، أن يقدم الخوميني لمحاكمة عاجلة والذي كان هو قد أعد الحكم لها ، والذي لم يكن إلا الحكم بالإعدام . وكان نصيري يرى أنه لا يوجد من بين رجال الدين الآخرين في البلاد من هو في خطر آية الله هذا ولو من بعيد . وبالرغم من أن ذلك كان سيؤدي إلى تصعيد حدة الصراع من جديد وإلى عدم تحاشي إشعال حماس الجماهير إلا أن موت الخميني سيؤدي أيضاً إلى أن تفقد الحركة الدينية الشخصية القائدة. وبعد اشتعال قصير لنشاط المتظاهرين تعود الحالة العادية إلى البلاد . ثم أضاف قائد الجيش في طهران نقطة سياسية أخرى تقضي حسب رأيه بضرورة إعدام الخوميني فلقد أبلغته المخابرات الإسرائيلية بأن الخوميني عميل للرئيس المصري جمال عبد الناصر، والذي كان خصماً لدوداً لشاه إيران . وقد حاول ناصر حقاً دفع حركة إنقلاب في إيران عدة مرات . كما فعل هو نفسه وأطاح بالملك فاروق . كان ينبغي أن تقوم حركة قومية إيرانية بطرد محمد رضا بهلوي من قصره . ومثل هذه الثورة القومية الإيرانية كان لا يمكن أن تنشأ ـ منذ فشل د. مصدق عام ١٩٥٣ ـ إلا على يد دوائر دينية شيعية وكانت هذه الرؤية مسيطرة على جمال عبد الناصر عندما أرسل مبعوثين إلى الخوميني . وكانت المعلومات التي وصلت جنرال نصيري من المخابرات الإسرائيلية صحيحة ، إذ ذكرته هذه أيضاً بأن ناصر قد أرسل قبل ذلك أموالاً إلى الخوميني. وقد خرج نصيري من المعلومات الإسرائيلية بنتيجة

أن إعدام الخوميني سيقلل من خطر إنقلاب تحرض عليه مصر . ومع أنه لم يكن نصيري وحده صاحب هذا الرأي المتشدد ولكن كان هناك من بين رجال البلاط من يؤيد موقفاً أكثر منه اعتدالاً إلا أن موقف هؤلاء إزداد صعوبة عندما وقعت عمليات إرهابية في أنحاء البلاد بعد أيام قليلة من اعتقال الخوميني سقط ضحيتها أنصار للشاه ، وكان أغلب القائمين بتلك الأعمال تلاميذ من حلقة آية الله في قم . وكان من الواضح أن لآية الله منظمة مسلحة تتولى تصفية الخصوم . وبمرور الوقت كان اتساع حركة الإرهاب قد دعمت موقف المدافعين عن سياسة المهادنة فلما كانت المنظمة التي تقوم بهذه الأعمال صعبة المنال فإنه كان يجب نزع دافع عدوانيتها ولم يكن هذا ممكناً الآن خلال المهادنة . وفي النهاية نجحت القوى السياسية في البلاط التي كانت تناصر الإعتدال : فاقتنع الشاه بأن موت الخوميني لن يحل المشاكل وبأنه يجب القيام بمحاولة التفاهم مع الشاه . وكان أن أخبر المقربين من الشاه والذين زاروا الخوميني في سجنه بأن الخوميني قد أكد أنه لن يهتم لشؤون السياسة في المستقبل وأكد أيضاً أنه لن يتفوه بمثل : إن أصدقاء الشاه المزعومين يعودون إلى الفساد .

وفي أبريل عام ١٩٦٤ يعود الخوميني إلى المدينة المقدسة قم ولم يصدق أنصاره على الإطلاق أنه قد وعد الشاه بعدم الإشتغال بالسياسة . فقد كان الخوميني قد تحمس كثيراً في الماضي لربط السياسة بالدين . وكان من الواضح الجليّ أن الخوميني يعتبر آل سعيد كلهم ملتزمين بتقديم القيادة السياسية للناس وكانت حقيقة أن آية الله كان على شفا الموت قد دعمت سحر وجاذبية شخصيته. وها هو الذي كان مهدداً بالإعدام يقف الآن كبطل في جامع « قم ». ولم يمر هذا بدون أن يجلب الخوميني نتائج إيجابية . فقد قام كبيرا آيات الله الباقيان في منصبهما ـ إذ كان ثالثهما قد توفي ـ بتعيين الخوميني خليفة للمتوفى . وبهذا وصل إلى هدفه بتزعم علماء الدين الشيعة . وعرف الخوميني أنه أبتعد بهذا عن قبضة الشرطة والمخابرات .

فلم يكن بمقدور السافاك قتل آية الله الكبير حتى ولو كان هذا ـ كما جرت

العادة ـ من خلال حادث مدبر . فقد ضمن المنصب الكبير على الأقل حماية الحياة وبتأمين الظهر هذا بما ـ بعد الإفراج بقليل ـ في استئناف نشاطه السياسي وكانت فرصة في ذلك هو خطبة الجمعة في المسجد . ومن الجدير بالملاحظة أن الخوميني تحاشى الشاه ولم يهاجمه على نحو مباشر . فكان خصمه في هذه المرحلة هو الحكومة الأمريكية : « إن منبع مشاكل بلادنا هو أمريكا . وزراؤنا اشترتهم أمريكا، كل شيء اشترته أمريكا، فالمسؤولون صاروا عرضة للبيع . وكذلك تم شراء الجيش فالأوامر تصدر إليه من المستشارين الأمريكيين ، وصف الضباط الأميركي له نفوذ أكبر من جنرالاتنا ذوي الأربعة نجوم ولو كنت ضابطاً لكنت استقلت . فلم أكن لأحتمل هذا الإذلال وعلى الشاه أن يعترف أن الأمريكان احتلوا بلادنا ولن تكون النتيجة سوى أن يخرجوا من البلاد ».

إلا أن الخطبة ضد أمريكا لم تستدع أي رد فعل لدى الشعب ، فلم يكن هناك أحد تقريباً رأى أمريكياً ذات مرة ، ناهيك من المرور بتجربة سيئة معه ، أما الإنجليز والروس السوفييت فكانوا بالنسبة للإيراني العادي أجانب أشرار وكانت انجلترا مكروهة لأنها أحكمت قبضتها على البلاد والحاكم أثناء الحرب العالمية الثانية ، والإتحاد السوفييتي لأنه حاول الحصول على نفوذ في إيران بعد الحرب العالمية الثانية . وهكذا لم يكن الهجوم غير المبرر على الأمريكان ليجد اهتماماً من الشعب أو حتى لدى الموالي .

وكان أن رأى جنرال نصيري والذي طالب قبل عام بإعدام الخوميني ، أنه كان على حق ، وهكذا تحسن موقفه . فقد صار رئيساً للسافاك وبذا صار مسؤولاً عن الأمن في البلاد كلها . فطالب نصيري من جديد بقتل الخوميني سيان بأي طريقة يحدث هذا . إلا أن رئيس الوزراء منصور قرر نفي الخوميني إلى الخارج ، فرفضت الهند وباكستان استقبال آية الله الكبير وقبلته تركيا . وفي ٤ نوفمبر سنة ١٩٦٤ تحمل طائرة عسكرية رجل الدين صاحب المقام الرفيع إلى خارج الحدود وهبطت الطائرة في أنقرة . ولم يشعر خوميني بالارتياح في تركيا يوماً واحداً . فالشيعة هناك عبارة عن أقلية ولهذا افتقد آية الله الكبير مستمعيه

الذين يكادون يصلون معه من أجل مكانته العالية . ولم تكن تركيا لتحوز إعجابه مطلقاً كدولة تنهج النظام العلماني . ولهذا كان يستعد للرحيل مرة أخـرى ولم تكن الحكومة العراقية لديها أي اعتراض على إقامة الخوميني في النجف .

الخوميني لا يلفت الإنتباه في النجف

« فهناك الكثير من الموالي ورجال الـدين من كل مـرتبة فلن يضيـر شيئاً زيادة أو نقصان واحداً آخر ». كان هذا هو الموقف الرسمي للحكومة العراقيـة عام ١٩٦٤ .

ومدينة نجف تقع على بعد حوالي ١٥٠ ك. م جنوب بغداد ومركز المدينة هو ضريح الإمام علي ، أول الأئمة الراشدين الذين خلفوا النبي محمد ﷺ .

وعلى القرب مباشرة من الضريح استأجر آية الله الخوميني الكبير مسكنـاً واسعاً فقد بيّت النية أن يكون مركز العقيدة الشيعية كلها ، يزور كل رجال الدين ليعرفهم الطريق الصحيح . إلاَّ أنه أصيب في أول أيام إقامته في النجف بخيبة أمل ثقيلة من قبل آيات الله الكبرى في العراق فقد رفضت زيارة القادم الجديد، وبذا لم يعترفوا به كمركز للعقيدة إلا أن الخـوميني كان على اتصـال بالأحـداث في إيران فقد كانت تصـله زيارات من طهـران . فبعد وصـوله النجف بقليـل جاءه رجل دين كبير استطاع بالتنكر أن ينجو من أيدي المخابرات الإيرانية والعراقيـة وسأله إن كان يؤيد اغتيال رئيس الوزراء الإيراني حسن علي منصور ، وقد كان منصور هو الذي صدق على مرسوم نفي الخوميني ، ولا بد أن الخوميني قد قال رأيه على نحو جعل زائره يعود لطهران وهو متأكد أن آية الله الكبير قد أيد قتـل رئيس الوزراء . وكان أن تم إطلاق النار بـالفعل على حسن علي منصـور أمام مبنى البرلمان في طهران ، وكانت جراحه بالغة لـدرجة أن رئيس الـوزراء مات

بعد أسبوع وقد كان حسن علي منصور حينذاك مكروهاً من قبل الشعب في طهران : فكان قد قام قبل أيام قليلة برفع أسعار البنزين بنسبة عالية مما أثار حنق كل أصحاب السيارات وبالذات قائدي سيارات الأجرة ، وهكذا لقي اغتياله ـ الذي عرف أنه من تدبير رجال الدين ـ ترحيباً على أنه عمل من أجل صالح الشعب . واعتبر الخوميني هو المدبر لهذا العمل من أجل الشعب وأدى نجاحه في تصفية أحد خصومه إلى كراهية آية الله الكبير لدى حكام العاصمة العراقية . فقد كانوا يرون أن رجال الدين لا يشتغلون إلا بالمسائل الدينية ، أما السياسة فهي من اختصاصهم هم . أما رجال الدين الذين يخلقون مشاكل سياسة خارجية مع الحكومة الإسرانية مثلاً فيجب مهما كان إعادتهم إلى رشدهم. وبالرغم من أن الصراع مع شاه إيران لم يكن يمثل شيئاً غير عادي لحكام العراق، إلا أنهم كانوا يريدون أن يكونوا هم وحدهم الذين يقررون وقت هذا الصراع . فهم لا يستحسنون أن يكونوا طرف نزاع بسبب رجال الدين . وقد رأوا إمكانية تحجيم آية الله الكبير الذي يعيش منفياً في النجف ، فعملوا على أن لا يصل إليه مال من إيران . وكان الخوميني الذي لم يكن لـه مكانـة في مدينـة عليّ المقدسة بحتاج إلى جمهور كالذي له في قم ، فقد كان يحتاج إلى تلاميذ . ولما كان غير مشهور في نجف فقد كان ما يجذب إليه الطلاب هو استطاعته لدفع المنح وفي هذا الشأن بالذات كان ينقصه المال . ولما كـان يفقتد إلى مستمعين فـإنه أراد التوجه إلى القرار . فبدأ في كتابة أفكاره حول نظام الكون وكانت كتاباته تطبع وتصل على نحو غير قانوني إلى أنصاره في إيران .

ويمكن إيجاز نظرة الخوميني عن النظام الإلّهي للكون حينذاك هكـذا : الله هو مصدر السلطة على الأرض . ولهذا يجب على كل الحكومات التمسك بتعاليم الله الموجزة في القرآن . ولتحقيق هذا وجد الأئمة الذين خلقوا من النور الإلّهي العلي ولا يمكن أبداً أن يصل حكام الدنيا إلى هذه الدرجة العـالية من الإدراك والمعرفة التي عليها الأئمة . وأثناء غيبة الإمام الثاني عشـر تقع مهمـة الإمامة على عاتق رجال الدين ، الذين يقدم عليهم آل « سعيد » وآل سعيـد ، الذين درسوا كلام الله ، هم أيضاً مفسرون ومنفذون لأحكام الله ولهذا يجب ترك

كل المسؤولية لهم فلا يفيد بشيء أن ينص القانون على قطع يد السارق . إذا لم يكن لـرجل الـدين السلطة في تنفيذ هـذا القانـون . ولا يضيـر أيضـاً أن ينص القانون على رجم الزانية إذا منـع الموالي من القتـل بالـرجم . والخميني يرى القانون الإلهي وحدة واحدة ولا يجوز تطبيق بعض الأحكام فقط والتي تتناسب مع الشعور الشخصي أو الحالة الراهنة والحاكم الذي يتبع هذا الملك يسير في طريق الضلال وتحل عليه اللعنة الأبدية ، وكل حاكم دنيوي ، شاه إيران مثلاً ، يختار الأحكام التي تناسبه وبذا فإن مصيره إلى النار حتماً . أما منصب الرعاة في المجتمع الإنساني فهو من حق آل سعيد » .

ولكي يبـرر أنه يكتب ولا يعظ قـام آية الله الكبيـر حينذاك بصيـاغة هـذا القـانـون : « إن جـدريشـه آل « سعيـد » مقـدس مثـل دم « الشهيـد » . ولكن الخوميني لم يستطع خداع نفسه بأن أنصاره في إيران يقرأون كتاباته ، فبحيازتها فقط تمثل خطراً عليهم . وكان على آية الله الكبيـر أن يعترف أنـه في الحقيقة معزول . وهكذا أحرز الشاه نصـراً ، فـالثـورة الشيـعية التي كانت ستأتي من قم صارت ميتة . فلم يكن هناك من يأخذ دور الخوميني كمحرك للثورة . ولم يعد الشاه يشعر أنه مهدد من قبل الخوميني . أما قتل رئيس وزرائـه فقـد بقي حـالة فردية . وكان من الجلي تماماً أن يشعر الشاه بصعود نجمـه . فالـظروف كانت مواتية له ، فكان محمد رضا بهلوي يستفيد منذ منتصف الستينات ـ من أحداث لم يملك حيالها شيئاً . فقد انهزم خصمه جمال عبد الناصر في يونية ١٩٦٧ ولم يعـد المحرض لأعمـال معاديـة في طهـران . وفي نفس الـوقت ارتفعت قيمـة البترول المستخرج من الخليـج الفارسي(*) لـدى الدول الصنـاعية . وانسـاب المال إلى خزانة الدولة الإيرانية بفعل الإرتفـاع المتزايـد دائماً لأسعـار البترول واستطاع الشاه نفسـه أن يمتلك قدراً كبيـراً منه . وفي يـوم ٢٦ أكتوبـر ١٩٦٧ صرف مبالغ طائلة للإحتفال بتتويجه الذي كان قد أجّله حتى تلك اللحظة .

وقد قال الشاه حينذاك « إنه يتم تتويجي الآن لأنني كنت وعدت نفسي من

(*) الخليج العربي . (المترجم) .

زمن بعيد أنني لا أريد أن أكون شاهاً على شعب من الشحاذين والمقهورين ، أما الآن فكل رجل وامرأة في إيران يتمتع بالسعادة ولهذا فإني أسمح بإتمام تتويجي » . ثم وضع محمد رضا بهلوي التاج المرصع بالأحجار الكريمة على رأسه . وكانت مؤسسة « كارتييه » هي التي صنعت هذا التاج النفيس .

بعد خمس سنوات من التتويج وصلت احتفالات الشاه المسرفة إلى أوجها فأقام احتفالاً تحت شعار : « مرور خمسة وعشرين قرناً على الإمبراطورية الإيرانية » . وبدأ الحفل في عام ١٩٧٢ لأنه طبقاً للحساب التاريخي يكون قد مر خمسة وعشرون قرناً منذ تأسيس قورش للإمبراطورية والتي امتدت من البحر الأسود حتى وسط آسيا ومن الهند إلى ليبيا وطبقاً لرأي الشاه تكون هذه هي أول إمبراطورية في العالم تحكم من خلال رجل واحد . ويرى محمد رضا بهلوي في نفسه خليفة لقورش مؤسس الإمبراطورية الكونية والذي قال عنه الشاه « إن قورش يستحق بالفعل اسم (الكبير) لأنه كان حاكماً متسامحاً وعادلاً ويجب أعتباره ـ كفاتح ـ مؤسساً لحقوق الإنسان لأنه كان أول ملك يصدر مراسيم تنص على التسامح » .

فقد استطاع كل من دارا وكسرى المحافظة على إمبراطورية قورش . وكان أن تسلم الإسكندر في النهاية الحضارة الفارسية ، وهكذا يرى الشاه نفسه على رأس أقدم مملكة في العالم . وقد رسخت سلسلة من الملوك الفرس تطور حضارة العالم . وبالرغم من أشتهاء الروم للسيطرة على العالم نشأت المملكة الساسانية التي امتدت من الهند حتى الضفة الجنوبية للخليج الفارسي . ويرى الشاه الواجب التاريخي للإمبراطورية هكذا « إيران هي المركز المتقدم للآريين ، لأن معنى كلمة إيران هو بلاد الآريين فنحن بنينا أول حاجز ضد اجتياح البرابرة الرحل الذين خرجوا من البراري في الشرق . ونحن الذين منعنا

قبائل الهون والسلاجقة وشعوب الترك الآسيوية عن أوروبا طيلة القرون الماضية وقد تحملنا في سبيل ذلك الكثير . أما أخواتنا الأندأوربيين في بيزنطة فلم يشكروننا قط ، وقد حاربتنا بيزنطة عندما كنا نمنع تقدم البدو البرابرة نحو الغرب . وعندما انهار الحاجز الفارسي استطاع العرب البدو التوسع وتلاهم المغول الآسيويون الذين أغاروا علينا في القرن الثالث عشر » .

كانت سلسلة الحكام الفرس قد انقطعت بعد انتصار العرب في القادسية عام ٦٣٧م . وصار الخلفاء في دمشق ثم في بغداد حكاماً على المنطقة التي كان يحكمها قورش . ثم أبى جنكيزخان وهولاكو وبعدهما بقرن تيمورلنك أن يقيموا حكاماً مستقلين في إيران . فيقول الشاه : « بدت إيران حينذاك أنها ستختفي للأبد وأن التاريخ قد طواها . إلا أن حلقة الملوك اتصلت مرة أخرى في القرن السادس عشر الميلادي : فقامت دولة الصفويين بتوحيد البلاد وجعلت منها قوة عسكرية تدافع من جديد عن العالم المتحضر ضد الأزابكة في الشرق.

حينذاك صار المذهب الشيعي الدين الرسمي للدولة الإيرانية . وبين نصر وهزيمة حافظت المملكة على وجودها حتى دولة **القجارنة** ، والتي قادت البلاد إلى الفوضى . وكان أن قضي رجل عظيم على هذه الفوضى : كان هو أبي ، الشاه رضا الكبير » . هكذا كان يرى محمد رضا بهلوي استمرارية المملكة الإيرانية - التي كانت تستحق هذا الإحتفال . وقد اختار الشاه أطلال برس بوليس مكاناً للإحتفال ، وكانت برس بوليس عاصمة قورش الأخنيني . وتقع هذه الأطلال في منطقة جبلية صحراوية شمال شيراز . وهناك تم توفير كل الظروف - بعيداً عن المدينة - لاستقبال ٨٦ ملكاً ورئيساً ومرافقيهم ، حيث تم الاحتفال . أما قائمة الضيوف ، الذين لبوا دعوة الشاه ، فكانت مثيرة : فقد أتى ملوك من السويد والنرويج والدانمارك وبلجيكا واليونان وتلايلاند . أما الإمبراطور الأثيوبي الطاعن في السن هيلاسلاسي فلم يدع الفرصة تفوته لتهنئة الشاه لمرور ٢٥٠٠ سنة على قيام الإمبراطورية . أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد مثلها نائب رئيسها « أجنيو » . وكذلك شاء الإتحاد السوفييتي أن يظهر احترامه للملكية فى إيران : فلبى الرئيس بودجورني الدعوة . أما معظم الدول الأوروبية

فقد مثلها رؤساء الوزارات فيها ، وبالطبع لم يغب الحكام العرب . وقد أحضر بعض الضيوف طباخيهم ليطهوا لهم أشهى المأكولات على حساب الشاه ، وقام طهاة فرنسيون متخصصون بإعداد الطعام على الطريقة الإيرانية لمعظم الملوك والرؤساء . أما الكافيار بالذات فكان هناك منه جبال. وبينما كان الشاه يحتفل كان قد استبعد الشعب الإيراني من هذا . فقد سمح للصحف أن تكتب عن التكريم الذي لاقاه الشاه من أهم رجال العالم ، بينما لم يسمح لها بالكتابة عن التكاليف الحقيقية للاحتفال الذي استمر ثلاثة أيام . وكان على الصحف أن تكتب أن أربعين مليون دولار ليست تكلفة كبيرة للبلاد باعتبار الأهمية السياسية لحفل لم يكد يتخلف عنه رئيس دولة في العالم . ولم يعرف أحد أن التكاليف الحقيقية بلغت مائة وأربعين مليوناً من الدولارات ـ بينما بلغت ديون الدولة ثلاثة مليارات دولار .

وكان الشاه يرى أن مسارعة الضيوف بالحضور دليل على كثرة أصدقاء الإمبراطورية الفارسة ـ وبهذا يثبت ضآلة عدد الأعداء . وكان على احتفالات بريس بولس أن تعطي دولة البهلوي طابع الشرعية .

أما الخوميني في منفاه العراقي فقد صرح قبل يوم من الإحتفال برأي المؤمنين في حفل بريس بولس : « هل على أهل إيران أن يحتفلوا برجل خان الإسلام ويحارب المسلمين ويمد إسرائيل بالبترول؟ والإسلام على النقيض تماماً من الأفكار الملوكية . فإن لم ينته شطط الملوك فسوف نتعرض لكارثة كبيرة ، وأحداث أليمة . وأقول للمرة الأولى والأخيرة إن الله يبغض الملوك ».

فصارت أهم جملة قالها الخوميني للمؤمنين في النجف شعار يرفعه هؤلاء الذين استهجنوا الإحتفال بمرور ٢٥٠٠ سنة على تأسيس الإمبراطورية الإيرانية : « الله يبغض الملوك ».

وكان هناك جملة أقل دعائية بينما كانت موجهة للموالي وهي : « الإسلام على النقيض تماماً من الأفكار الملوكية ». فبها تحدد الإتجاه في الصراع . كان البلاط الملكي وحده هو الذي لا يشعر بالخطر القادم . فقد أعجب رجال البلاط

بالحفل أيما أعجاب . وساعدوا الشاه منذ ذاك الحين أن يتصرف في إيران على أنها ملكه الخاص . فقد كان يأخذ منها الكثير ليوزعه ، ولكنه كـان يمنح أهله النصيب الأعظم .

أما أخو الشاه ، الأمير محمد رضا فكـان يحرص على أن يحصـل لنفسه على حصص كبيرة من الأسهم من كل الفروع الصناعية التي تشتغل بـاستغلال الثروة الطبيعية في إيران . وأما أخته ـ الأميرة أشرف ـ وهي أقـوى الشخصيات في عائلة بهلوي ، فكانت تهتم بالبنوك العاملة في البلاد . وأما زوج الابنة فكان يتحكم في أجزاء من صناعة السيارات . وقد كان الشاه حسن النية بالتأكيد عندما قام في عام ١٩٥٨ بتأسيس مؤسسة بهلوي . وكان الغرض منها في البداية بناء مستشفيات وأندية للشباب والصرف على الدارسين الشباب في الخارج وذلـك من خلال الفوائد الناتجة عن بيع الأراضي الخاصة بعائلة بهلوي ولكن سرعان ماصارت مؤسسة بهلوي إمبراطورية مالية عملاقة لها مساحات متشعبة وبالذات في عمليات البناء والفنادق . ولا غرو في أن يكـون وزير المـالية في الحكـومة الإيرانية أيضاً المدير الحالي لأعمـال الشـاه الخاصـة لسنوات طـويلة ، وذلك بسبب الإرتباط الوثيق من المصالح الخاصة للشاه بالاقتصاد القومي في فـروعه الهامة من صناعة وسياحة . وعلى نفس مستوى هذه التطورات كان تمجيد الشاه يزداد من قبل حاشيته فتم إعادة طقوس ملوك إيران في العصور السحيقة : فعلى كل زائر أن يغادر حضرة الشاه راجعاً بظهره وعليه أن ينحني بشدة لدى أي مناسبة ممكنة . وكان النظام هو الذي يحكم أسلوب عمل رجال البلاط والعـاملين في الحكومة وكان أن شاع قول في طهران حينذاك يصف الحال في القصر بدقة : « لم يجرؤ أحد على أن يكـذب على أبيه الشـاه رضا ، أمـا هو ـ محمـد رضا بهلوي ـ فلا يجرؤ أحد على أن يقول له الحقيقة » .

أما هو فكان يعتقد أنه عليه أن يقول الحقيقة للآخرين . ففي ٢٣ ديسمبر ١٩٧٣ ، أي في أعياد الميلاد ، عقد الشاه مؤتمراً صحفياً في طهران . فقد كان يريد أن يلقن الناس في الغرب درساً « إن الدول الصناعية الغربية والتي تتحكم في مصير العالم صارت غير متأكدة إن كانت ستبقى قويـة في المستقبل. ويجب

على الناس هناك أن يتعلموا كيف يعيشون في المستقبل على ما تبقى لهم ، ولست أدري إن كان بمقدورهم إخراج جماعات هيبز أو شباب يرغي ويزبد عن نظريات يسارية ».

وتباهى الشاه أمام رجال بلاطه قائلاً : الآن نحن سادة العالم ، وسادتنا في الماضي صاروا عبيداً لنا . وكل يوم يدق الإنجليز والأمريكان على بابنا ، يسألوننا إن كنا بحاجة إلى شيء وإن كانوا يستطيعون خدمتنا . ويسألوننا إن كنا بحاجة إلى سلاح أو مفاعل نووي فنصفر فيلبون هم ما نتمنى . وقد قال الشاه هذا الكلام بعد أن قفز دخل الدولة من البترول فجأة من خمسة مليارات دولار إلى تسعة عشرة ملياراً من الدولارات سنوياً وفي نهاية عام ١٩٧٣ كانت إيران قد سددت ديونها وصار لديها منذ هذا الوقت عاماً فعاماً أرصدة ضخمة من الدولارات . وكان الشاه ، أخلص حلفاء الدول الصناعية الغربية ، قد عمل بنفسه على رفع الواردات . فقد كان سعر البرميل الذي طالب به أعلى بكثير مما طالب به وزراء البترول العرب . وقد أدت أسعار الطاقة المرتفعة في أنحاء العالم ، والتي حققها الشاه ، إلى إلحاق الضرر بالبلاد الصناعية الأوروبية على وجه الخصوص التي لا تملك احتياطي بترول خاص بها . وهكذا قلت قدرة الأوروبيين على المنافسة وقد أعجبت هذه الأحداث رجال الإقتصاد الأمريكان ، الذين لا يحتاجون إلى البترول العربي ، فالولايات المتحدة كانت تستطيع استخراج البترول من أراضيها. وقد صادف انهيار المنافسة هوى في نفوس رجال الصناعة الأمريكيين : فقد كانوا يتابعون بقلق نمو المقدرة الصناعية في أوروبا ، فقد تم الآن إيقاف نمو الإقتصاد الفرنسي والإنجليزي وكذلك الألماني على وجه الخصوص . وكان بمقدور الشاه أن يتوقع أن تشكره الحكومة الأمريكية لتحريكه لهذه الأحداث .

أما رعية الشاه فكانت فرصتهم ضئيلة لمعرفة نشاط الحكام ـ وليس لديهم أية فرصة للتدخل في السياسة على وجه الخصوص . وفي البرلمان كان الممثل الوحيد هو حزب رستاميز ، حزب نهضة إيران ، الذي كان يتزعمه عملاء للشاه ، فلم تثار مناقشة حقيقية في البرلمان خلال السبعينات ولم يسمح في أي

وقت أثناء حكم الشاه محمد رضا بهلوي بنقد قرارات قيادة الدولة . وكانت إيران تبدو تجاه الخارج جزيرة الإستقرار ، إلا أن في عام ١٩٧٥ يتم إطلاق النار على اثنين من المهندسين الأمريكيين ، اللذين كانا في إيران بتكليف من الحكومة الأمريكية لصيانة طائرات السلاح الجوي للشاه . ومن استطاع تفسير هذا الإغتيال أدرك أن روح الثورة نهضت من جديد في إيران ، أما السؤال فكان : « من الذي بدأ في إذكاء نار الثورة ؟ »

فقد كان هناك رجل يتنقل مراراً بين المدينة العراقية النجف ـ المكان المقدس الذي اختاره آية الله الخوميني كمنفى له، وبين العاصمة الإيرانية ـ وكان يحمل دائماً رسائل تتضمن أخباراً لرجال الدين في إيران ، للموالي الذين يترقبون أخبار وأفكار الخوميني . وكانت المخابرات الأمريكية السافاك تعلم أن هذا المبعوث هو مصطفى ابن الخوميني . إلا أنه لم ينجح عملاء المخابرات في القبض عليه لشهور طويلة . وفي سبتمبر ١٩٧٧ تم استدراج ابن الخوميني إلى كمين وتم اغتياله . وكان في طريقه إلى طهران حاملاً معه كل رسائل أبيه . وقد تم الإستدلال على أسماء مستقبلي الرسائل فكانت النتيجة اعتقال بعض الموالي في طهران .

وكان هذا الإبن ، مصطفى ، أهم مساعدي آية الله ، فهو لم يقم فقط بنقل الرسائل من المنفى إلى الوطن ولكنه كان يخطط لأبيه في النجف ذاتها . فكان هناك تلاميذ يجب رعايتها ، ونصوص خطب يجب نسخها ، وزوار يجب استقبالهم وخطابات يجب كتابتها . ولا بد أن مصطفى كان رجلاً نشطاً جداً ويتفجر طاقة . وقد فجع آية الله لفقدانه هذا المعاون . أما ما أثار رغبته الشديدة في الثورة فكان أن السافاك كانت مسؤولة عن قتل ابنه . ولما كانت السافاك أداة في يد الشاه ـ فقد حمّل خوميني الشاه بالتبعية ذنب قتل ابنه الكبير ، الذي كان سيرثه يوماً ما . وأقسم الخوميني على الثأر ! .

عندما علم الموالي في طهران بمقتل ابن الخوميني ، ألقوا خطب تـأبين وتحـدثوا عن انتصـار الشيطان ، الـذي سرعـان ما يعقبـه نصر الله . وفي يـوم الجمعـة التالي كـانت الجوامـع في طهران وقم وتبـريز وأصفهـان قـد اكتـظت بـالجماهيـر . وفي ذكرى الأربعين ، المتـأصلة في المذهب الشيعي ، حـاول الآلاف الوصول إلى نجف في العراق وقد تم إيقـاف معظمهم بـواسطة قـوات الحدود الإيرانية والعراقية . إلا أن بضعة مئات من المؤمنين وصلوا إلى هدفهم الخوميني الحزين .

وفي يـوم الأربعين أعلن الخوميني : « لقـد سكبنا الآن دمـوعاً بمـا فيـه الكفاية » . ومن الآن لن أتقبل عزاءً . وما نحتاجه الآن هو العمل . وقد أعطى آية الله المؤمنين العائدين إلى طهران أربعة توجيهات :

١ ـ يجب مقاطعة الحكومة ، فهذه الحكومة لا تستطيـع بأي وجـه الاستناد إلى الإسلام .

٢ ـ ومن كان يعمل بأي شكل بتكليف من الحكومة أو لصالحها فعليـه أن يدع هذا العمل مستقبلاً .

٣ ـ ويحرم ـ أيضاً ـ الأعمال التي يمكن أن تفيد الحكومة على نحو غير مباشر ويجب تمحيص كـل عمل بـدقة إذا مـا كان لصـالح الحكـومة المعـادية للإسلام .

٤ ـ ويجب البدء في أنشطة إسلامية والمثابرة عليها في كل مجال لتحارب أعمال تنظيمات الحكومة . كما يجب التفكير في مبادرات في المجال الاقتصادي والمالي والقضائي » .

ومهما كانت هذه التعليمات غير محددة إلّا أنهـا أعطت المـوالين لخوميني الإطار الأول الذي يستطيعون العمل من خلاله على الثورة . وكان برنامـج آية الله ذو الأربع نقاط قد فسر على أنه فتوى ، أي صدر باسم الله . وكانت هذه الفتوى علامة ملزمة لكل من لا يبغي السقوط في اللعنة الأبدية .

وفي ديسمبر ١٩٧٧ يتلقى الموالي في إيران من نجف بطريق سري لوائح تنفيذ برنامج النقاط الأربع ، وكانت هذه اللوائـح أيضاً تعتبـر فتوى : فقـد أمر المؤمنين بعدم دفع الضرائب ، وعدم الاعتبار بقوانين صـدرت في عهد الشاه محمـد رضا بهلوي ، والتي تم إمـلاؤها بـلا ريب بواسـطة مستشارين غـربيين منحطين وفاسقين أما الشاه فقد أعلن الخوميني عزله، فهو « طاغوت » يمثل قوى الشيطان وقد اعتبر الشاه هذه التعليمات للمؤمنين إعلان الحرب علناً . وأشار، هـويدا ، واحد من خدام الشاه المخلصين ، أن الموالي في البلاد لم يأخـذوا رسائل الشاه على محمل الجد لأنها كانت تطفح بالأخطاء الإملائية ، مما يدل على أنها هزل رجل مسن . إلا أن محمد رضا بهلوي لم يهدد : فقـد رأى أن كثيراً من المؤمنين سيعتبرون « بعزله » الذي نادى به آية الله . وطلب الشاه بـأن يختفي الحشرة خوميني أخيراً أما التذرع بأن مشاعر الشيعة قد جرحت حقاً في السنوات الماضية فلم يقبله الشاه . وكان أكبر جـرح لحق بمشاعـر الشيعة قـد حدث عام ١٩٧٦ ، فطبقاً للتقويم الإسلامي والذي بدأ بعد التقويم الميـلادي بـ ٦٢٢ عاماً ، والذي يحسب طبقاً لدورة القمر ، كان العام المذكور يوافق عام ١٣٥٥ الهجري . ولكن بمرسوم من الشاه تغير هذا العام ـ بين عشية وضحاها ـ إلى ٢٥٣٥ ، مضافاً إليه عبارة من عهد « الشاهنشاه » . وكان وقت تأسيس دولة قورش هو الذي حدد التقويم الجديد . وبهذا أراد الشاه أن يظهـر أنه يقـر قيم ماضي إيران ، الذي سبق ظهور الإسلام . أما الخوميني ومعظم المؤمنين فقـد رأوا في ذلك دليلاً واضحاً على محاربة الشاه « الطاغوت » للدين الحق . وقد

أعطى تغيير التقويم الفرصة لرجال الدين طيلة الفترة الباقية من حكم الشاه ليسبوه كافراً وعدواً للمؤمنين .

وفي شتاء ١٩٧٧ /٧٨ صارت الخطب في أرجاء البلاد أكثر عدوانية وكانت نداءات الموالي تجد موافقة عند الجماهير ، وأيضاً لدى التجار في البازار وعند الطلاب بصفة خاصة . وكانت الموافقة تؤدي بدورها إلى مظاهرات من أجل هذه النداءات . وبأمر من آية الله ، الذي كان لا يزال يعيش في النجف ، كون الموالي لجنة تنظيمية ، تنسق مسيرة الجماهير ، وكان الهدف هو تشتيت قوة الشرطة والجيش .

وفي ٧ يناير ١٩٧٨ نشرت جريدة **إطلاعات** الصادرة في إيران رسالة قارىء مزعوم أهان الموالي إهانة بالغة . وقد جاء بهذا الخطاب « إن الموالي مخلوقات طفيلية ، وهم يعيشون على أموال البسطاء من الناس . ويقضون أيامهم ولياليهم في علاقات جنسية شاذة » وقد أيقن الموالي على الفور أن كلمات الإثارة هذه لم يكتبها قارىء عادي ولكنها كتبت بواسطة أحد رجال المخابرات وبتكليف منها . وما كادت تظهر جريدة اطلاعات في طهران حتى دفع رجال الدين في قم مئات من تلاميذهم إلى الشوارع وعلت الصيحات « الموت للشاه » « عاش الخميني » . وأغلقت المحلات في البازار ، لأن التجار أيضاً شادوا الأسنة لباب المظاهرات وكان عدد المشاركين في المظاهرات يبلغ ٥٠٠٠ شخص في أول الأمر ارتفع بعد ساعات إلى ١٢٠ ألفاً . وتم تخريب كل المباني التي تحمل علم نظام حكم الشاه ، أي المصالح والبنوك والمدارس الحكومية . وعندما اقتحمت مديرية الأمن ، ثم إطلاق النار وقتل سبعة متظاهرين وكلهم من الطلاب بالرصاص . فأصبح لدى الحركة المضادة للشاه شهداؤها التي تحتاجهم لتستطيع تأجيج حماسها .

الأربعين سلاح الثورة

سنحت فرصة تأجيج الحماس بعد أربعين يوماً من الاضطرابات وكان هذا هو اليوم الذي تم فيه تـأبين القتلى وسط انفجار المشـاعر الحمـاسية . وصـار « الأربعين » أهم سلاح في يد الخوميني . فإذا ما سقط شهداء ، كان باستطاعة آية الله بعد أربعين يوماً مطالبة الجماهير بالخروج إلى الشـوارع في مظاهـرات حزن ضخمة . وكان يتوقع أثناء ذلك أن الجيش سيضطر لإطـلاق النار حمـاية للمرافق العامة من هجوم المتـظاهرين فيكـون من المتوقـع سقوط شهـداء مرة أخرى ، لتخرج المظاهرات مرة أخرى تبكيهم بعد أربعين يومـاً . وكان رجـال الدين ـ حيث يقيمون ـ ينظمون مظاهرات الأربعين . وهذا ما حـدث أيضاً في ١٨ فبراير ١٩٧٨ ، عندما كان يتم تأبين قتلى من قم وفي تبريز وشيراز وأصفهان والأهـواز رفع رجـال الدين شعـارات الانتفاضـة فكان خلع الشـاه هـو مـطلب المتظاهرين الآن في كل مكان . وفي هذه المرة خربوا ولـطخوا كـل شيء في مدينتهم يكون له علاقة ولو من بعيد بالحكومة الملكية : مبنى منظمـة النساء ، كبائن التليفون ، مكاتب المالية . وأيضاً المحلات التي تبيع مشروبات روحية . وكان الهدف المفضل لنقمـة الجماهير هو دور السينما والمطاعم التي يلتقي فيها الـرجال والنسـاء . وفي مساء يـوم ١٨ ينايـر ١٩٧٨ كانت تبـريز تبـدو كمدينـة شوارعها يوماً من معارك شوارع مدمرة في حرب أهلية . ولم يكن محمـد رضا بهلوي قد أدرك الخطر بعد . فهو لم يستطع تصديق أن للموالي الذين يحتقرهم مثل هذا التأثير على الجماهير فيطلبون منهم الاستشهاد فيلبوا ذلك برضا . وكان

الشاه يعتقد أن هناك قوى أجنبية ، تريد إزاحته عن العرش . وكان يـظن بصفة خاصة في أتباع الاتحاد السوفيتي . وفي بداية عام ١٩٧٨ كان رجال البلاط في طهران يحلمون بأنه ليس لمحمد رضا بهلوي إلا أصـدقاء في العـام كله . أما مستشـارو الشاه فلم يصيروا يثقون في القوى العظمى . وكـان بعضهم يرى أن الحكومة الأمريكية تريد إحلال نظام جمهوري محل الملكية . بينما ظن البعض الآخر أن حكام موسكو يريدون القضاء على الشاه ليتسلموا السلطة في الدولـة من خلال حزب تودة اليساري . والذي كان يعتقـد أن حكام الكـرملين يبغـون القضاء على الشاه كان يظن أن منظمة التحرير الفلسطينية تشترك بصورة أساسية في تحـريض الجماهيـر لأنها تقـدم كوادر التنـظيم للمظاهـرات فقد كـان ينظر لمنظمة التحرير الفلسطينية تحت قيادة ياسر عرفات على أنها تابعة لموسكو بلا شك . فعرفـات يسدد ديـونه النـاتجة عـن شـراء أسلحة سـوفيتية ، من خـلال المشاركة العملية لمقاتليه في المظاهرات ضد الشاه .

ولو كان الشاه قد أدرك أن منـاورة حكمه تـابعة من حـركة قـومية إيـرانية شيعيـة ، لاستطاع في ربيـع عـام ١٩٧٨ بقليـل من الجهـد أن يهـدىء غضب الإيـرانيين المتأجـج ولم يعد تقـديم المنح للجماهير ، من خـلال دعم المواد الاستهلاكية الهامة مثلاً ممكناً لأن خزانة الدولة لم يعد بها فائض لأي حال من الأحوال .

وقد أخطأ خبراء الماليـة في حسابـاتهم : فازديـاد استهلاك البتـرول في العالم لم يتم كما كان متوقعاً . فتراجـع الدخـل من البترول وفي المقـابل زاد التضخم من خلال تدهور سوق البترول وكانت النسبة السنوية لارتفاع الأسعـار قد صارت تتضاعف . ولم يعد هناك أمل في الحد من هذا الارتفاع في الأسعار وكان المتوقع هو انتشار الفقر في إيران ، والذي زاد من نسبة هجرة الفـلاحين إلى المدن ، فقد أدي تقسيم الأراضي الزراعية إلى وحدات صغيرة على إطار الإصلاح الزراعي إلى أن معدات الري للمساحات الـواسعة لم تعـد تنظف أو تصان ، فتلفت وسرعان ما توقف ضخ الماء إلى الوحدات الصغيرة . ولـم يعد الفلاحون ـ الذين تملكوا الأراضي ، يرون إمـكانية مـد الميـاه إلى حقولهم ولما

جدبت الأراض ولم تعد تنتج محصولاً هجر الفلاحون ، وخاصة الشباب منهم ، الأراضي التي منحت لهم ليبحثوا عن عمل في المدينة وقد حملوا الشاه سبب فشلهم . وقد صار هؤلاء الذين رحلوا إلى الأحياء الفقيرة ، خاصة في طهران يصدقون بسهولة كلام الموالي الذين كانوا يحملون الشاه في خطبهم أيام الجمعة مسؤولية كل ما حل بالبلاد من بؤس .

وآمنوا بوعود الموالي في أن الانقاذ يكمن في الإسلام وحده وهكذا صار تحت يد الموالي احتياطي كبير من المصابين بخيبة الأمل . وكان سكان طهران يمثلون ١٥٪ تقريباً من مجموع الشعب الإيراني وكان معظمهم من الفقراء، ولما كانوا مؤمنين قبل إعلان آية الله الخوميني على الشاه ، فقد قوي إيمانهم على نحو أعظم ، من خلال دعاية رجال الدين للإيمان بالإسلام والذي تمثل في شخص الخوميني . وكان الموالي يقومون بإبلاغ الجماهير اليائسة بما يقوله آية الله في النجف بالعراق ، ولم تعد المنشورات هي الوسيلة الأمثل ، فالجماهير المؤمنة ، التي لا تجيد القراءة على نحو كاف ، شاءت أن تسمع صوت زعيم الثورة ولم يكن يمثل تلبية هذه الرغبة أية مشكلة : فصارت خطب آية الله في النجف تسجل على شرائط تسجيل . وسرعان ما صارت أجهزة التسجيل من أساسيات كل جامع هام في إيران . ولم يعد الموالي بحاجة إلى إلقاء الخطب بأنفسهم . فقد صاروا يدعون المؤمنين يسمعون ما يقوله الخوميني . فصار في جوامع طهران وتبريز وأصفهان وشيراز يسمع الصوت الهادىء المؤثر الذي يطالب بخلع أسرة بهلوي والذي يوضح أن الشاه مدعوم من أمريكا وإسرائيل وأن اليهود وعبدة الصليب تآمروا للقضاء على الإسلام قضاءً مبرماً .

ولم يتزحزح الخوميني عن رأيه بأن عبدة الصليب دعامة حكم الشيطان محمد رضا بهلوي ، حتى بعد أن علم أن محطة إذاعة BBC الإنجليزية المسيحية تبث خطبة من النجف إلى طهران . وعلى هذا النحو ساعدت محطة الإذاعة البريطانية في نشر شعار أن الشعب يحتاج إلى دم الشهداء حتى يستطيع أن ينمو . وكانت بريطانيا أول دولة غربية تدفع وسائل الإعلام فيها إلى الالتزام بنشر أخبار كل أحداث العالم ومنها آراء الخوميني وفوق كل ذلك أوامره

للإيرانيين . وسرعان ما سنحت الفرصة للخوميني للاستخدام الواسع لـوسائـل الإعـلام التليفزيـون والإذاعة والصحف وقـد عرف كيف يستغلهـا . وقـد كـان الشاه ، بلا قصد ، هو الذي قدم هـذه الفرصـة للخوميني ففي سبتمبـر ١٩٧٨ طلب الشاه من المخابرات العراقية أن تعمل على طرد الخوميني المحرض من النجف وكان محمد رضا بهلوي يرى أن ضريح علي ـ والذي كان يخطب أمامـه الخوميني بانتظام ـ هو الذي يعطي هـذا الأثر لكـلام آية الله . فـإذا ما انفصـل الخوميني عن الضريح فلن يسمع له إلا نفر قليل من الناس . وكان هذا الرأي أكبر خطأ في حسابات الشاه . فقامت المخابرات العراقية بتلبية رغبة الشاه. أما سبب هذا التفهم فيمكن تبريره بأن العراق أغلبية سكانه من الشيعـة، إلاّ أن أهل السنة هم الذين يحكمونه. وكان أتباع المـذهب السني قد نجحـوا في الإستيلاء على السلطة في العراق تحت إشراف المستعمر البريطاني بعد الحرب العالمية الأولى . وكانت الطبقة الحاكمة هذه تهتم بأن تلتزم الأغلبية الشيعية الهدوء ولا تتطرق إلى الشغب . وكان تحريض الخوميني ضد الشاه يمكن أن يؤدي إلى أن تدرك الشيعة في العراق عدم أهلية حكامها . فكانت مهمة المخابرات العراقية هي منع هذا التأثير المضاد على شعب العراق . ولذلك أمرت بترحيل الخوميني وقد رضخ الخوميني ، ولكن بقي السؤال ، وهو أي بلد سيكـون على استعداد لقبوله . وفي بادىء الأمر بحث الخوميني عن بلاد مقربة إلا أن إمارة الكويت ، التي لها حدود مع العراق ، رفضت منحـه تأشيـرة دخول . فكـان الأمير يـريد الابتعاد عن المتاعب التي يمكن أن تنشأ عن اضطرابات يثيرها الأقلية الشيعيـة في بلدة الصغير . وأثناء هـذا الموقف المحـرج تعلن الحكومـة الفرنسيـة عدم ممـانعتها في استقبـال الخوميني وأفـراد أسرتـه . وفي ٦ أكتوبـر ١٩٧٨ يـطيـر الخوميني إلى باريس . وسكن منزلاً في ضاحية نوفل لا شاتو على بعد ٣٠ كم من العاصمة الفرنسية . ولما لم تفرض عليـه الحكومـة الفرنسيـة حداً لنشـاطه السياسي، صار الخوميني بنفسه يقود من نوفل لا شاتو مباشرة الكفاح في إيران . فقد اكتشف إمكانية الاتصال الالكتروني ، وهو الـذي كان يـرفض مجرد لمس التليفون : فاستطاع أن يطلب مباشرة من يـريد محـادثته . أمـا في النجف فكان الاتصال هاتفياً صعباً . وقد مكنه الخط المبـاشر لـطهران من سـرعة الاتصـال

بـالموالي مـوضع ثقتـه . وهكذا استـطاع آية الله إصـدار تعليماتـه ومن خـلال التليفون صار منزله في نوفل لاشاتو غرفة عمليات الانتفاضة .

أما في إيران فكانت حلقة أيام الشهداء لم تنقطع فإذا ما مات أحد ، فكان يتم تأبينه وبعد ٤٠ يوماً يحدث ذلك مرة أخـرى واستطاع الخـوميني ، دون أن تستطيع السافاك منعه، شتم الشاه وسبه بالكلب الأجـرب. . واستطاع دون خوف من عقاب ومن خلال وكالات الأنباء وشبكات التليفزيـون أن يسمع كـلامه في العـالم كله ، بمطالبـة الشيطان رضـا بهلوي التخلي عن العـرش ، وكـان من اللافت للنظر هو أن الخوميني كان يهاجم الشـاه مباشـرة ولم يتفوه بكلمـة عن تعطشه للتغيير التام لنظام المجتمع في إيران . كما أنه أكد للطبقة البرجوازية أن الأمور الاقتصادية سوف تستمر على ما هي عليه . فمن كان صـاحب امتيازات فيحق له الاحتفاظ بها . فإذا ما تم طرد الشاه ، سوف يتم نسيـان ما جـرى في المـاضي . بهذا التحفظ أعـطى الخوميني الحكـومات ومشـاهدي التليفـزيون الانطباع بأنه رجل دين فقط، ولا يرغب إلاَّ في نصرة الدين في بلاده. ولم يذكر الخوميني قط أنه يـرغب في الوصـول إلى السلطة . وقد تـولد لـدى الحكومـة المضيفة في فرنسا الانطباع أيضاً ، أنها تستطيع الحديث عن المستقبل مع رجل الدين هذا الذي كان يتحدث دائماً عن حرية اقتصاد البترول. وقد اعتقد رئيس الوزراء نفسه ، فاليري جيسكار ديستان ، أن استقبال آية الله في فـرنسا سيعـود بالنفع على الاقتصاد الفرنسي بعد رحيل الشـاه . وقد أوضـح جيسكار ديستـان لـرؤساء الحكـومات الأوروبيـة الآخـرين أنـه لا ينبغي إثقـال عـاتق المستقبـل بالمحافظة الغير مجدية على نظام حكم الشاه . وقد تولد الانطبـاع أيضاً لـدى حكومة الولايات المتحدة بأنه لا يمكن المحافظة على نظام الشاه . وقد بحثت قيادة المخابرات الأمريكية إن كان تنازل الشاه لابنه سيؤدي إلى تهدئة الجماهير أو أنه من الأفضل خلع الشاه عن طريق إنقلاب عسكري على أن يتولى السلطة في إيران جنرال معروف بأنه شيعي مؤمن . إلا أن سفير الولايات المتحـدة في طهران رفض كلا الحلين، وفي ٢٨ سبتمبر ١٩٧٨ أرسل إلى وزارة الخارجية في واشنطن يخبرها بأنه ليس هناك ما يخشى الشاه منه طيلة العشر سنوات القادمة ،

فليس هناك من يشكل خطراً على سلطته فالجيش على ولاء له . وفي تقريره يخرج السفير سوليان بنتيجة : أن الارتباط القوي ـ والذي يكاد يكون أخوياً ـ بين الجيش الإيراني وجيش الولايات المتحدة ـ والذي يرجع الفضل فيه إلى المدربين الأمريكيين والتسليح الأمريكي ـ قد أثبت فعاليته خلال الأزمة ورضا صفوة طبقة الضباط هو الضمان لأمن الإمبراطورية في المستقبل القريب . ولسوف يبقي قدرة الشاه السياسية حتى في ظل حكومة إيرانية ذات اتجاهات إسلامية قوية . ومن المؤكد أن الشاه سيضطر لأخذ التيارات الدينية في البلاد في الاعتبار ـ ولكنه سيبقى على عرشه بمساعدة الجيش . كان هذا التقرير النادر والذي يرتكز على تطورات واقعية ، لم يكتب بلا مبرر . فكان أحد كبار رجال الدين قد قام بزيارة هذا الدبلوماسي في مقره بطهران ، مكلفاً من قبل الخوميني بإبلاغ سفير الولايات المتحدة ، بأن الحكومة الإسلامية ـ القادمة ـ في إيران لديها اهتمام غير عادي بوجود علاقات طيبة مع المسؤولين في واشنطن ومع الجيش الأمريكي . وقد تكلم رجل الدين عن حكومة إسلامية فقط ، وليس جمهورية إسلامية ، فكانت النتيجة أن رأى سوليناني بالفعل أنه بالرغم أن الشاه يمثل الآن الخصم الحقيقي لزعماء الشيعة إلا أن هذا الوضع سيتغير عندما يصير لرجال الدين تأثير على تشكيل الحكومة في إطار نظام حكم ملكي . وكما قال رجل الدين للسفير ، فإن هذا التأثير ليس رغبة شخصية للموالي ولكنهم يطالبون به بناءً على إلحاح الشعب .

وفي خريف ١٩٧٨ يدرك كثير من الإيرانيين والذين يملكون بعد نظر ، قد أدركوا بأن ليس لهم مستقبل في البلاد ، وكان يمكن ملاحظة هذا من خلال أن الطائرات المتجهة من إيران إلى أوروبا ، كانت مكتظة في أغلب الأحيان بالمسافرين ، وأن الطلبات قد انهالت على البنوك بتحويل الأموال إلى أوروبا وأمريكا . فصار نظام الدولة وكذلك الاقتصاد غير مستقرين وفي هذا الحين بدأت الاضطرابات والعصيان المدني في إيران وكان توقف استخراج البترول بسبب الإضراب هو الذي زعزع الثقة في قوة إيران الاقتصادية . أما إنتاج الصناعة التي شلها انقطاع الكهرباء ، فقد تدهور بسرعة . ولم يكن الموالي

القوى المحركة لهذه الإضـرابات ، بـل كانت تيـارات حزب تـودة ذي الميول اليسارية ، والذي أعلن تضامنه مع رجال الدين . وكان أن ساهم الشاه في بث روح الهزيمة لدى أنصاره من خلال تصريحه : « كشاه لإيران وكمواطن في هذه الدولة فإني أتفهم هذا الشعب ولا يمكنني إلا التـرحيب بهذه الثـورة » . فبهذا اعترف الشاه بقيام ثورة ضده لها مبررها . وفوق ذلك اعترف محمد رضا بهلوي بحدوث فظائع أثناء السنوات الأخيرة يتحمل هو مسؤوليتهـا ، ويطلب الصفـح عنه . ولم ينشأ مطلقاً من هذا التصريح توقف المظاهرات أو حتى التقليـل من حدتها . وبطلبه الصفح كشف الشاه ضعفه ، فقد أظهر أنه جريح . أما الموالي فقد أدركوا أن وقت الضربة القاضية ضد نظام الحكم قد حان ، فكانوا ينـادون بمسيرات الاحتجاج فيخرج كل مـرة مئات الألـوف من الناس إلى الشـوارع ، وصارت مقاومة الجيش تضعف مرة بعد مرة . فرفض الجنود إطـلاق النار على الناس العزل الـذين كانـوا يعملون بتعليمات الخـوميني « تكلموا مـع الجنود ، حاولوا الحوار معهم ، أظهروا لهم أنكم عـزل من السلاح ، ولا تـرموهـم حتى بحجر » وسرعان ما أخذت الدولة في إيران تنهار .

ففي نوفمبر ١٩٧٨ يتم اعتقال كبار رجال الإمبراطورية ، الـذين خدمـوا الشاه بالإخلاص الذي يفهمه هو . وقد صدق الشاه بنفسه على أوامر الاعتقال . وقد ألقى في السجن أيضاً بأمير عباس هويـدا وزير الـدولة والـذي ظل رئيسـاً للوزراء لأطول مدة في عهد الشاه . فقد اتهم هويدا بعدم الولاء والرشوى وكان المقصود من وراء ذلك هـو تقديم كبش فـداء للشعب على أن يكون شخصيـة رفيعة . أما رد فعل الخوميني فكان : « الآن يأكل نظام الشيطان نفسه ، ولكن يجب التحقيق مع الشاه نفسه ، فأحضروه أمام قضاته » . وفي ديسمبـر ١٩٧٨ كانت المرحلة الأخيرة لحكم أسرة بهلوي قد بدأت فقد حل شهر محرم ، الشهر الذي يقدسـه الشيعة ، وبه ذكرى الشهيـد الحسين ، حفيد النبي ﷺ . وكـان متوقعاً حدوث مظاهرات ضخمة . ولذا أمر الجيش بعـدم السماح لأي شخص في العاصمة بمغادرة منزلـه أو مسكنه خـلال الأول والثاني من ديسمبـر . ومن باريس كان الخوميني ينادي : « لا تلتزموا بحظر التجوال رغم أمر الشيطان » .

وكان أن نفذ حوالي عشرة آلاف شخص أمر آية الله . وفي هذه المرة أرادت قيادة الجيش أن تظهر أنها جادة في أمر حظر التجوال وصدرت الأوامر للجنود بإطلاق النار على المتظاهرين . وحتى لا يقع الجنود في تأنيب الضمير كان يتم إحضار وحدات من المحافظات إلى طهران ، وكان مفترضاً أنه ليس لجنود هذه الوحدات أقارب بين المتظاهرين في العاصمة . وكان أن أطلق الجنود النار على المتظاهرين وقتلوا ستة عشرة رجلاً وامرأة . واعتقد قواد الجيش أنهم بهذا يكونوا قد لقنوا الجماهير درساً لن ينسى حتى بعد نهاية شهر محرم . وقد أكدوا للسفير الأمريكي أن الخطر قد زال . وفزعت قيادة الجيش لما اندفع في اليوم التالي حوالي ٤٠٠ ألف متظاهر إلى الشوارع . ومع أنه قد تم إبلاغ الشاه بأمر المظاهرة إلا أن رجال البلاط أخفوا حجمها والعدد الضخم للمتظاهرين . ولذا تسرع في حكمه وأخطأ فيه : « إن كل هؤلاء شيوعيون وعملاء ، ليس هؤلاء مسلمين على الإطلاق » وبين الحين والآخر كان يدس واحداً من أقرب خدامه ليبلغه عن الحالة في المدينة . وكل من ذهب كان يرى الحقيقة ، يرى الحجم الضخم للمظاهرات ويدرك أيضاً كراهية المتظاهرين لنظام الحكم ـ إلا أن الجميع كانوا يهونون من شأن الخطر أمام الشاه . وكانوا في معظم الأحوال يقرون ما قاله الشاه : « إنهم حقاً مجموعة من الشيوعيين » . وعندما تطرق الشك أخيراً إلى نفس الشاه فيما إذا كان رجال بلاطه يقولون الحقيقة فعلاً ، قام بالتحليق بطائرة هليوكوبتر فوق شوارع وميادين العاصمة ، وفي ذلك اليوم قدرت قيادة الجيش عدد المتظاهرين بنحو مليون . ونظر الشاه باندهاش وهلع إلى جماهير النساء والرجال المتشحين بالسواد. ولم يستطع أن يعقل أن له كل هؤلاء الأعداء وهو الذي فعل من أجلهم الكثير ـ كما كان الشاه يعتقد ـ ومنذ هذا اليوم عرف محمد رضا بهلوي أن وزراءه ومستشاريه قد خدعوه، ومن هذا الحين صار يفكر فقط في الرحيل إلى الخارج لينقذ نفسه بأسرع ما يمكن . والآن صار الأمر لديه سيان من يكون رئيس وزراء إيران . وفقد الشاه الاتصال بالموظفين وبقيادة الجيش وهو قد عاش شهوراً طويلة حتى يوم الحقيقة القاسية في قصره الفخم كالأسير تقريباً . والآن ركبه الخوف من الجماهير في الخارج .

منـذ عدة شهـور والشاه يشعـر أن الرئيس الأمـريكي جيمي كارتـر يعتبره عبئاً . فكان يسمع تلميحات من واشنطن بأن حاجة الحكـومة الإيـرانية لشـراء أسلحة أمر مبالغ فيه فقد كانت ترسانة الأسلحة الضخمة للجيش في إيران تمثل مشكلة بالنسبة للولايات المتحدة : فمن المؤكد أن يحدث في النهاية أن يخرج حزب تودة الحاركسي فائزاً من الحركة الثورية ، وهو الحزب الذي سيتعاون مع موسكو بشكل وثيق، وبعد انتصاره يقوم بداهة بفتح ترسانة الأسلحة أمام الخبراء السوفيت. وبالـرغم من هذه التصـريحات للمسؤولين في واشنـطن والتي عرفهـا الشاه من خلال السفير سوليفان ، كان محمد رضا بهلوي لا يزال يؤمن بصدق الرئيس الأمريكي الذي وعد بوضوح بحماية الولايات المتحدة لشاه إيـران ولم يعرف الشاه التحول التام في الرأي الأمريكي ، إلا في أوائل ينايـر ١٩٧٩ وهو يتـذكر هـذا في منفاه هكـذا : « صاحب الجـلالة ، وصلني خبـر مفاجىء . إن الجنرال هـويسر في طهران منذ عدة أيـام . وبالـرغم من أن أحداث الأسـابيع الأخيرة قد علمتني الحياة مع المفاجآت ، إلَّا أن جنرال هويسر لم يكن شخصية غير هامة . فنائب قائد القوات المسلحة الأمريكية في أوروبا كان يطلب لقائي في كل مرة كان يزور فيها طهران ولم يحدث قط أنها كانت زيارات ودية بسيطة بل كانت دائمـاً تتعلق بمشاورات هـامة . وفي النهـاية كنت أنـا القائـد الأعلى للجيش الإيراني وبلادي عضوة بحلف الدفاع المشترك (سنتو) وكانت زيارات

الجنرال هويسر يعلن عنها مسبقاً دائماً ولكن هذه المرة لم يبلغ عنها إشارة واحدة إذن كانت الزيارة سرية للغاية » .

فكان رجال الجيش الأميريكيون يطيرون بطائراتهم الخاصة ذهاباً وعودة ، وبالطبع كانوا لا يخضعون للقواعد الرسمية العادية ، لأنهم كانوا يهبطون في المطارات العسكرية . فقمت بسؤال قوادي إن كانوا يعرفون شيئاً عن زيارة نائب قائد القوات المسلحة الأمريكية في أوروبا . وهم أيضاً لم يكن لديهم علم بذلك . فماذا يا ترى يريد هذا الجنرال الأمريكي في إيران ؟ فوجوده في الواقع شيئاً غير عادي ، فضابط بمثل مسؤوليته لا يلعب « الاستغماية » بدون سبب وجيه ، وبمجرد ملاحظة وجوده كانت الصحافة السوفيتية كذلك تورد ذلك ، فقرأنا في الصحف الصادرة في موسكو « الجنرال هويسر يتواجد في العاصمة الإيرانية للتجهيز لانقلاب عسكري » . وكان الكرملين يريد تحذيري من الأمريكان من خلال هذا الخبر . ولقد أوردت الصحف السوفيتية الحقيقة . فقد جاء جنرال روبرت هويسر إلى طهران ليحث قيادة الجيش على التخلي عن الولاء للشاه فكان على الضباط أن ينسوا قسمهم لمليكهم ، وذلك من أجل دعم الرجل السياسي ، الذي سيقوم ـ طبقاً لرغبة الحكومة الأمريكية ـ بإعداد نظام حكم برجوازي لا يتحكم فيه رجال الدين . أما هذا السياسي فكان يدعى « شاهبور بختيار » وهو الرجل الذي كان يظهر عدم الميل للشاه طيلة حياته السياسية . فقد كان باستطاعته ، بفضل حزمه ونزاهته ، أن يحاول بشيء من التوفيق ، أن يعيد الجماهير الثائرة من الشارع . ولم يفكر شاهبور بختيار في الاحتفاظ بأي نوع من الولاء تجاه الشاه . فكان يلح بقوة على أن يغادر الشاه البلاد بسرعة ، بذريعة أن حالة الشاه الصحية تضطره إلى رحلة إجازة طويلة . وفي الحقيقة لم يكن بختيار يفكر لي تمكين الشاه أبداً من دخول إيران مرة أخرى . فقد كان يريد بالفعل إجراء انتخابات ديموقراطية بأسرع ما يمكن . كان شاهبور بختيار هو السياسي الذي اختاره كارتر لينقذ إيران من الموالي . ولهذا جاء الجنرال هويسر إلى طهران فكان مكلفاً بتنظيم الإنقلاب الذي كان يعني انتقال السيطرة من الشاه إلى بختيار . وكانت أكبر المصاعب التي واجهته هي

إقناع الضباط باستيلاءهم على أعلى سلطة في إيران وكان الجنرال هويسر يرى الجيش الإيراني ما زال أهم عناصر السلطة والذي يتوقف عليه مستقبل البلاد . وكان الرئيس الأمريكي يتوقع في حالة استعداد قيادة الجيش لدعم بختيار ، فلن يكون للخوميني ـ عند عودته من باريس ـ أية إمكانية في أن يكون هو القوة السياسية الحاسمة . أما السفير سوليفان والذي كان يؤمن حتى هذا الحين أن الجيش الإيراني مستقر ، فقد غير رأيه تماماً . فهو يقول الآن : « إذا وطأت قدم الخوميني أرض إيران ، فسوف يتصدع الجيش » وكان أن أدان الخوميني فوراً تشكيل الحكومة الذي بدأ شاهبور بختيار المحاولة فيه : « وراء هذا يقف الشاه ولذا تكون حكومة بختيار غير شرعية ، إنه دمية للجنرالات والأمريكان » . أثناء الأيام الأولى من يناير ١٩٧٩ كانت أسرة الشاه تحاول الحصول على مال سائل بالقدر الذي يسمح به الوقت الضيق فقام بنك أومران ، الذي كانت تمتلكه مؤسسة بهلوي ، في خلال أيام قليلة بدفع ٧٠٠ مليون دولار إلى أفراد عائلة بهلوي . وصدرت الأوامر لفرقة هجوم من الحرس الخاص بإحضار مجوهرات التاج من قبو البنك المركزي . إلا أن الجنود لم ينجحوا في ذلك لأن الخزائن كانت مؤمنة بصورة لا يفلح معها أية محاولة لفتح القبو بالعنف . وكانت إجراءات الأمن هذه ، قد أمر بها الشاه ذاته . فصار هو الآن ضحية خوفه من أن تستطيع عصابة سرقة مجوهرات عالمية ذات خبرة في الإستيلاء على التيجان التي تكلفت الملايين . أما الطريقة العادية وهي أن يطلب من مدراء البنوك فتح القبو بالمفاتيح المخصصة لذلك ، فلم تعد تجدي : فالمسؤولون من البنك كانوا قد غادروا طهران ومعهم المفاتيح . يظهر هذا الحادث أن الشاه وأفراد عائلته كانوا مصممين لآخر لحظة لحكمهم في طهران على اعتبار ثروات إيران ملكية خاصة لهم. فقد كانوا يرون أن لهم الحق في نهب ما يملكون. وقد سجل السفير الأمريكي باحتقار محاولات عائلة بهلوي كلها في جمع المال والأشياء الثمينة . وفي ١٠ يناير أراد أن يضع حداً لهذه العملية الشيطانية : فألح على الشاه في الرحيل ، وكان الموضوع الوحيد الذي اهتم السفير سوليفان به أثناء محادثته التليفونية مع الشاه هو : موعد إقلاع الطائرة التي تقف على استعداد لحمل عائلة الشاه . فلم يكن بإمكان الشاه والسفير الأمريكي الحديث إلا من

خلال التليفون . فقد سدت الشوارع بين مبنى السفارة والقصر بالجماهير التي كانت تنتظر إقلاع الطائرة « بالشيطان » .

وكان الجنرال هويسر ، نائب قائد القوات الأمريكية في أوروبا ، لا يزال موجوداً في طهران . فمهمته السرية لم تكن قد انتهت بعد . فقد صار هويسر الآن مكلفاً من قبل الرئيس الأمريكي بالإتصال بهذا السياسي الذي يريد الخوميني ، حب كل التوقعات تكليفية بالسلطة التنفيذية . ولكن هذا السياسي هو مهدي بازرجان . الذي كان أستاذاً لهندسة الماكينات في الجامعة . وكان قد لفت الأنظار وهو ما زال طالباً في باريس ، بأنه كان يحافظ تماماً على مواعيد الصلاة المفروضة حتى أثناء المحاضرات ولم يكن لديه أي شك في مسألة من يحكم إيران حقاً . فهو يؤمن بأن كل السلطات من حق الإمام الثاني عشر الغائب ، ويحق لآية الله الخوميني كنائب عنه وكسعيد من أهل بيت النبي ﷺ أن ينظم أمور الحياة في الحاضر . ومع ذلك لم يكن مهدي بازرجان مهووساً دينياً ينظر إلى العالم الحديث بعين الريبة ، وفوق ذلك كان رجل تقنية بوصفه مهندس ماكينات . وفي الخمسينات كان مهدي بازرجان قد مارس العمل السياسي . وقد كان يود أن يصير وزيراً للتربية في حكومة د . مصدق . رجل القومية الإيرانية ولكنه كان يريد إعادة كتابة الكتب المدرسية على نحو إسلامي ، وهذا بالذات ما كان يخشاه مصدُق . وبعد عودة الشاه من منفاه القصير ، كان مهدي بازرجان يعد من أعداء الحكومة . وكان في استطاعته تحسين موقفه من خلال إقراره بالخطأ ، لكنه لم يفكر أن ينافق الشاه . وكان تدينه ورفضه لنظام بهلوي قد جعلاه في عين الخوميني المرشح المناسب لمنصب رئيس الدولة الذي يتبع بداهة تعليماته « الرجل صاحب الحق في الحديث باسم الإمام الثاني عشر » . وطبقاً لتعليمات رئيسه كان على جنرال هويسر الاتصال بمهدي بازرجان . وكان أن عرف الشاه بأن مبعوث الرئيس الأمريكي يريد الحديث إلى الرجل الذي أعلن عداوته للمملكة . وطلب هويسر من جنرال غاران باغي رئيس الأركان الإيراني ، أن يجمعه ببازرجان . لكن قبل أن يتم اللقاء كان الشاه قد أجبر على مغادرة طهران وبعده بقليل كان الجنرال الأمريكي يغادر العاصمة

الإيرانية ، التي صارت الآن بالكامل في يد أنصار الخوميني . فانتهت مملكة آل بهلوي في ١٦ يناير ١٩٧٩ . ولم تكن قد استمرت إلاَّ جيلين فقط وكانت نهاية لا يعتز بها ! .

« لقد قذف جنرال هويسر بالشاه كفأر ميّت خارج البلاد » كانت هذه هي النتيجة التي خرج بها جنرال غلام رضا ربيع القائد الأعلى للقوات الجوية الإيرانية في أقواله بعد أقل من شهر ، أمام محكمة الثورة التي شكلها الخوميني وقد تم إعدام جنرال ربيع بعد استجوابه مباشرة رمياً بالرصاص .

« إن الجمهورية الإسلامية ، التي نعلن قيامها ، لا تماثل النظام في ليبيا أو في السعودية ، بل هي تماثل تماماً الحكومة الإسلامية التي اعتبرها علي ذات يوم صحيحة وعادلة » .

كان هذا التصريح هو ما أدلى به مهدي بازرجان في ٢٤ يناير ١٩٧٩ في طهران . وفي هذا الحين كان شاهبور بختيار لا يزال يعتقد أنه رئيس حكومة إيران وأنه سيبقى كذلك . فقد تقلد منصب رئيس الوزراء بموافقة البرلمان ، إلا أن خوميني لم يدع مجالاً للشك ، أن البرلمان ، الذي كان الشاه موافقاً على قيامه ، لا يمثل لديه أية قيمة على الإطلاق . فآية الله ، الذي كان لا يزال في نوفل لا شاتو بالقرب من باريس لحظة تصريح بازرجان ، كان قد صار الحاكم الفعلي في إمبراطورية الشاه الغابرة . فأصدر تعليماته بمواصلة الكفاح ، الذي بدأ ضد الشاه ، ضد شاهبور بختيار، فرئيس الوزراء هوالآن « الشيطان » الذي يجب مطاردته وعند قيام الرئيس الأمريكي ـ الذي صار الآن لا يعلق أهمية على بازرجان بل على بختيار ـ بتوجيه النصح إلى الشعب الإيراني بقبول بختيار كان لدى الخوميني رد جاهز في الحال : « إن ما يحدث في السياسة الداخلية الإيرانية ، ليس من الأمور التي يتدخل فيها كارتر ». وقد أراد جيمي كارتر ـ الذي لم يستطع الحفاظ على الشاه في السلطة ـ أن ينقذ نظام بختيار البرجوازي من « الفيضان الإسلامي » ومن خلال وساطة فرنسية أبلغ الرئيس آية الله بطلبه أن يبقى في نوفل لاشاتو ، على الأقل

لإشعار آخر ، لأن العودة إلى طهران سوف تعني هناك إثارة معارك في الشوارع مع الجيش وفي النهاية ستؤدي إلى إهراق الدم على نحو لا يمكن التكهن بمداه .

وقام شهبور بختيار بإرسال رسالة مشابهة إلى الخوميني ، وطالب رئيس الوزراء بمنحة مهلة ثلاثة شهور قبل عودة آية الله وهو سوف يستغل الثلاثة شهور هذه لكي يحقق البرنامج الذي يهمهما هما الإثنين . وقد كان الهم الأكبر لمستشاري آية الله في منفاه الباريسي هو أن تتحقق هذه الأحداث المشتركة بالفعل بدونهم . وكان الهدف الأول قد تحقق فعلاً : فالشاه غادر البلاد وانتهت الإمبراطورية في إيران . وكانت نقاط أخرى بالبرنامج على وشك التنفيذ : وقف تصدير البترول إلى إسرائيل بأسعار متميزة ، والتي كان الشاه نفسه هو المسؤول عن الإتفاق عليها . وتجميد العلاقات مع الدولة اليهودية . والنية في الإنسحاب من عضوية حلف السنتو . فقد كان شهبور بختيار يريد جعل إيران بلداً محايداً . وكلما تم تنفيذ نقطة من برنامج مستشاري الخوميني بواسطة بختيار كلما ازداد الرجال حول الخوميني في المنفى الباريسي عصبية . فقد نشأ خطر أن تنتفي الحاجة إليهم قريباً ، فقد بدأ بختيار في جني ثمار الثورة .

كان الشاه يريد أثناء خروجه من طهران في ١٦ يناير ، أن يترك الانطباع بأنه يقوم فقط بإجازة ، ليعطي بختيار الفرصة لتنفيذ إصلاحات لها ضرورتها المؤكدة . وفي أسوان أول مكان يتوقف به في رحلته كان محمد رضا بهلوي يتصرف كما لو كان ما زال ملكاً بالفعل يقوم بإحدى رحلاته : وكان مضيفه السادات يكمل معه هذه اللعبة . وكان المهم بالنسبة لهذا الحاكم بدون شعب أن يبقى على اتصال مع غارات باغني رئيس الأركان في طهران والذي تحت أمرته كتيبتا دبابات من حرس الشاه كانتا لا تزالان على ولاءهما . وكانتا كذلك على حالة جيدة . وكانت حسابات الشاه اللاجيء هكذا : إذا ما هبط الخوميني في مطار العاصمة طهران تقوم كتيبتا الدبابات بمنعه من الدخول إلى المدينة ، وكان محمد رضا بهلوي يعتقد أن الخوميني سيقتل بعد الهبوط مباشرة . فإذا لم يجرؤ الخوميني على الطيران إلى طهران فإنه سيفقد هيبته أمام المؤمنين في إيران مما

يجعلهم يتحولون عنه . كان الشاه يرى أنه لا يزال يستطيع إحراز انتصارات إلا أن تفاؤله ترسبت عليه حالات من اليأس فبدأ يشكو بمرارة من الأمريكان الذين كانوا دائماً يقولون له بأنه يستطيع الإعتماد عليهم كلية ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً آخر غير التشاور مع خصومه من وراء ظهره ، وكان يشكو الحالة المهينة التي أوصله إليها الرئيس كارتر : « لقد عرض على ملك المغرب إرسال قوات تردع الثورة أما جيمي كارتر فلم يعرض علي مثل هذا العرض قط ». ومن الواقع أن الشاه قد نسي أنه كان تحت أمرته هو نفسه جيش كبير ومدرب بما فيه الكفاية ، ولم يستطع هذا الجيش أن يساعده .

وكان أن أدى الخطر المزدوج لعودة الشاه واحتمال نجاح إجراءات شهبور بختيار إلى إجبار الخوميني على الحركة ، إلا أن عودته تأجلت لأن الجيش أغلق مطار مهرباد للحيلولة دون هبوط آية الله . ولم يكن لهذا الإجراء أن يستمر دون الإضرار بالحياة الإقتصادية للعاصمة . أما مستشارو آية الله فكانوا قد استعدوا للإقدام على الطيران إلى طهران في أواخر يناير أو نهاية فبراير . وبعد التغلب على مصاعب كبيرة ـ فلم تكن هناك شركة طيران تريد تقديم طائرة للاستخدام ـ تم النجاح في توفير الظروف لعودة آية الله : ففي النهاية أعلن أحد رجال ، الأعمال الشيعة عن استعداده لدفع تأمين الإدارة «إيروفرانس» قدره ثلاثة مليون دولار وبذا صارت هذه الشركة مستعدة لإرسال طائرة جامبو إلى مرحلة خطرة لعبور الحدود الإيرانية .

وقد كان لهذا الحذر مبرره : فقد عرف في نوفل لاشاتو أن جنرال غلام رضا ربيع أراد قصف الطائرة التي ستحمل آية الله داخل الحدود الإيرانية . وقد طلب باللاسلكي من الشاه ـ الذي كان قد غادر البلاد ـ إذناً صريحاً بهذه العملية إلا أن محمد رضا بهلوي ترك الجنرال بلا إجابة .

وقد استطاع آية الله أن يهبط في مطار بطهران بلا مشاكل ـ ومن اليوم السابق أي منذ ٣٠ يناير ١٩٧٩ ومسلحو لجنة العمل الإسلامية يحتلون مبنى المطار وبرج المراقبة . وكان أعضاء لجنة العمل هذه هم أول من استطاعوا الترحيب بآية الله بعد غياب عن الوطن دام أربعة عشر عاماً . وإن كانوا قد

نجحوا في إبعاد الجماهير عن أرض المطار ، إلا أن الجماهير تلقفت هذا العائد منذ أن ظهر عند طرف العاصمة. ولو كان الإمام الثاني عشر « الغائب » هو الذي رجع لما كان الاحتفاء به يتجاوز هذا المدى . « روح الشهيد الحسين عادت »، « أبواب الجنة فتحت » كانت هذه هي هتافات الرجال والنساء ، الذين كانوا على استعداد لردع هجوم محتمل تقوم به وحدات الجيش . إلا أنه لم يعد هناك قوات تستطيع منع الخوميني من دخول طهران .

وكان أمل رئيس الأركان غارا ـ باغي هو أن يقتل إزدحام الجماهير المتحمسة آية الله ، العجوز الواهن .

وكان من الممكن أيضاً أن يصاب آية الله بالسكتة ، ففي النهاية كان لا بد أن يكون العبء على مشاعر العائد للوطن أقوى من تحمله وهو ينظر إلى اثنين مليون إنسان على الأقل ، يريدون الترحيب به . إلا أن أعضاء لجنة العمل عرفوا كيف ينقذون الموقف : فقد جهزوا طائرة هليوكبتر طارت بالمحتفى به فوق رؤوس المحتفين متجهة إلى المدينة .

وكان شهبور بختيار يعتقد أنه لا يزال يحكم في إيران . فعند وصول الخوميني أعلن رئيس الوزراء حظر تجوال تام ، متوقعاً ـ مخطئاً في حساباته للموقف خطأ مطلقاً ـ أن الشعب في طهران سيذعن لأوامره . إلا أنه لم يعد لديه قوات جيش أو شرطة لكي يحاول على الأقل عزل الخوميني عن الجماهير . وكان أن أفاق من وهمه سريعاً . ففي النهاية اتصل جنرال غارا ـ باغي ببختيار تليفونياً وأبلغه أن الخوميني عين مهدي بازرجان رئيساً للوزراء . بعد ذلك مباشرة غادر رئيس الوزراء مكتبه ولم يره أحد بعد في طهران ، حتى ظهر في النهاية بعد عدة أشهر في باريس ، في المنفى ، ولم يعرف إلا بعد ذلك المكان الذي اختبىء فيه في طهران والذي لم يكن ليختار أفضل منه : فقد قام مهدي بارزجان ، موضع ثقة الخوميني ، باستضافة طريد الخوميني ومنحه حمايته . وبلا شك كان سيتم إدانة شهبور بختيار من محاكم الثورة التي تشكل سريعاً ، ثم يعدم رمياً بالرصاص . فلم يكن يوجد محاكمات متأنية مدققة تمحص الإدانة والبراءة . فكانت الأحكام جاهزة قبل بدء جلسات المحكمة .

وكان جنرال نصيري ، الرئيس السابق للمخابرات « سفاك »، قد تقدم كشاهد ضد الشاه في محاكمة صورية ، ولم ينفعه هذا النفاق ، فتم إعدام نصيري أيضاً رمياً بالرصاص . وقد بكى جنرال ربيع عندما سمع بالحكم عليه . وكان الجنرال رحيمي ، الحاكم العسكري لطهران هو وحده الذي استقبل حمم بنادق فرقة الإعدام وهو يهتف « عاش الشاه ».

وبدأ عهد جمهورية إيران الإسلامية بإهراق الدم ، أما الذي كان ينتظر من الخوميني برنامجه لحل مشاكل الشعب ، فقد أصيب بخيبة أمل . فقد كان يقدم وعوداً غير مكترث : سيخصص للفقراء مساكن بلا مقابل في المستقبل ، ولن يحتاجون لدفع رسوم الكهرباء والماء بعد ذلك . أما أول خطبة للخوميني في طهران فكان يغلب عليها الجمل القوية ، استنتج منها الشعب أن شخصية عظيمة ستحكم البلاد مرة أخرى : فقد أدرك أن الرجال والنساء في إيران يسحرون بالزعماء ذوي الموقف الصلب ، حتى ولو كانوا يتظاهرون بأنهم يعرفون ما يريدون . وكان أن اهتم الخوميني أثناء الأيام الأولى بعد وصوله مباشرة بصورته أمام الجماهير . ومنذ هذا الحين كان لا يجوز نشر صور له إلا بعد رؤيته لها والسماح بنشرها . ففي فرنسا كان الخوميني قد تعلم تقدير قيمة النشر المعتنى به . وأراد أيضاً أن يستمر في السيطرة على خيال الناس فقد كان يريد الإحتفاظ بالتأثير على وعيهم .

وقد أدرك الخوميني أنه صار الآن أقوى من الشاه في أي وقت مضى . وكان هذا ما يسعى للوصول إليه . فاستطاع إعادة صياغة البلاد وشعبها . وعندما انتهى شتاء ١٩٧٩ كان لا يوجد معارضة ضد حكم رجل الدين . ففي أول فبراير كان الجيش قد حل نفسه بنفسه ، وكان الشاه قد فقد كل ثقة بالشعب ، وكان الشيوعيون تحت تأثير نشوة النصر مسحورين بشخصية رجل الدين. إلاَّ أنه كانت هناك مشكلة واحدة وهي أن كل أصحاب المناصب القيادية في الدولة وفي مجال الاقتصاد كانوا يريدون أن يعرفوا من السلطة الوحيدة في البلاد الاتجاه السياسي الذي سيسير فيه الإيرانيون مستقبلاً . ولم يكن واضحاً إن كان خوميني يملك تصوراً عن هذا الطريق. ولم يكن أحد من المقربين للخوميني بالذات

يملك خبـرة كافيـة بقيادة الشعب ليحـول التصـور إلى حقيقـة ومن المؤكـد أن الأجهزة البيروقراطية ، التي كانت تعمل تحت حكم الشاه ، كانت تـود العمل تحت حكم الثورة الإسلامية ، وذلك فقط بـدافع عملي للغـاية وهـو البقاء في مناصبها على هذا النحو . إلا أن هذا كان سيعني أن إدارة الدولة كانت ستعمل بمبـادىء نظام الحكم السـابق . فكان يجب دفـع رجـال جـدد إلى المنـاصب القيادية في الوزارات . وكان السؤال فقط هو أين يمكن العثور على هؤلاء ؟ ولم يصدق الخوميني أن مهدي بازرجان وضع معايير قاسية للترشيح .

أما بازرجان فقد تصور أن السلطة التنفيذيـة صارت من اختصـاصه وأمـا خوميني فقد انسحب إلى قم ليعلن من المكـان المقدس هنـاك شعارات قيـادة الدولة .

وهكذا صدم بازرجان : فآية الله يعتبر نفسه رئيسـاً للسلطة التنفيذيـة فهو يراقب ويقود رئيس وزرائه . ولو كان اعتبر بازرجان بتصريحات آية الله الخوميني السابقة عن مبادئه لما ارتكب هذا الخطأ في التقدير .

احتلال السفارة الأمريكية تغطي المصاعب

كان الخوميني لا يعتد بالقانون الدولي أو المعاهدات الدولية ، وعن سؤال في هذا المجال كان رده : « ماذا حقق القانون الدولي هذا »؟ هل استطاع منع الشاه من بيع بلادنا للأمريكان ؟ وأن يفعل الأمريكان عندنا ما يحلو لهم ؟ وأنا لا أرى سبباً يجعلنا نشعر بالإلتزام بالمعاهدات الدولية ؟ كان الخوميني قد أعلن رأيه هذا في شتاء ١٩٧٩ عندما كان إيرانيون يحتلون السفارة الأمريكية الواقعة في شارع روزفلت في طهران . وفي هذا الحين تجاهل الزعيم الروحي والسياسي شخصيات لها مقامها ومكانتها في العالم الغربي . فقد أجاب على البابا ـ الذي طلب منه بالمعاملة الإنسانية للرهائن ـ برد قاسٍ في خطبة له ذات يوم جمعة في جامع قم : لا ينبغي أن تنشغل بما يحدث في إيران ، بل يجب أن تنظر إلى أمريكا لترى ما يحدث هناك . لماذا لم تغضب عندما اغتصب اليهود القدس ، فالوقت كان قد حان لتفتح فمك ، وعندما أعلن اليهود عداوتهم لكل الأديان أغلقت روما فمها ، وسكت البابا لأن الأمريكان أرادوا ذلك . إن أمريكا أفسدتكم جميعاً، فحكام العالم عبيد لأمريكا والبابا أيضاً كذلك » .

وكان قد سبق هذا الهجوم هذه الأحداث : ففي ٤ نوفمبر ١٩٧٩ ، أي بعد ثمانية أشهر من انتصار الثورة قام إيرانيون، معظمهم من الشباب، باحتلال السفارة الأمريكية في طهران . وفي هذا اليوم كانت المظاهرات قد شلت حركة المرور في قلب طهران . وكانت الظاهرة موجهة ضد « الشيطان الأمريكي » وكان سبب تفجر المشاعر ضد أمريكا هو وصول الشاه إلى نيويورك .

وفي البداية كانت وزارة الخارجية قد رفضت السماح بوصول الشاه السابق إلى الولايات المتحدة . فقد كانت تخشى أن تقوم القيادة الشيعية في طهران بتجميد العلاقات مع الحكومة الأمريكية مرة أخرى ، بعد أن كانت قد تحسنت بعض الشيء بعد انتصار الثورة . وكان الخوميني بلا ريب قد لاحظ هذا أيضاً كيف أن نجاح الثورة قد عجل به مسلك الرئيسي جيمي كارتر : فكارتر لم يفعل شيئاً لكي يدعم الشاه ـ بل إن الرئيس عمل على إسقاط الشاه بسرعة . وكان الخوميني على استعداد لمكافأة هذا الموقف المؤيد . فعندما حاولت السفارة السوفيتية في طهران أن تحصل على قائمة بأسماء عملاء المخابرات الأمريكية العاملين في طهران ـ وكانت القائمة قد عثر عليها لدى رئيس وكالة المخابرات الأمريكية في العاصمة الإيرانية ـ قام آية الله بإعلان أن تلك الوثيقة من الوثائق السرية .

فقد كان الإتحاد السوفيتي قد صار عدو الخوميني رقم ١ ، لأن حكام موسكو كانوا قد أصدروا أوامرهم بدخول الجيش إلى أفغانستان البلد الإسلامي . الذي كان قد أوشك أن يتحول إلى جمهورية إسلامية وكان غالباً ما تصدر التعليمات للصحف الإيرانية خلال الشهور الماضية بالإشارة إلى الوضع المؤسف للمسلمين في الإتحاد السوفييتي ، والذين يضطرون للعيش حياة العبيد كأسرى للنظام الملحد .

وقد تكون لدى الديبلوماسيين الأمريكيين ، المكلفين بتحليل سياسة الخوميني في خريف ١٩٧٩ الرأي القاطع أن مستوى العلاقات سيصل قريباً إلى الحد الذي كانت عليه قبل عام من نهاية نظام الشاه فقد كان الشاه وحده تقريباً هو هدف شتائم الخوميني والموالي . أما الإتهامات الموجهة لسياسة أمريكا فكانت « . . . الشيطان مرتدياً زياً ، ويريد القضاء على الإسلام » .

وكان رجال الدين يقرأون بانشراح تقارير عن عدم قبول أي بلد لهذا الشيطان ، حتى دولة ملك المغرب رفضت هذا . أما تعليق خوميني على هذا فكان « إن الشيطان يجري في العالم على غير هدى وبلا وطن ، تطارده نوبة » .

وفجأة سمح للشاه أن يدخل نيويورك . وقد نشـرت الصحـف صـوراً لاستقبـال الشاه لوزرائه السابقين وهو يتحدث مع هنري كيسنجر ودافيد روكفلر وكانت هذه الصور بالذات قد أدت إلى الخوف من تدبير مؤامرة في نيويورك لإعادة الشاه إلى طهران بالقوة . أما كونه مريضاً ويجب إجراء عملية جراحية له ، فلم يصدق هذا إلا نفر قليل من زعماء رجال الدين ، ولم يكن الخوميني من هؤلاء النفر . فكان يرى أن خبر المـرض المهدد لحيـاته جـزء من مخطط المخـابرات الأمـريكية لإعادة الملكية مرة أخرى إلى إيران والقضاء على الجمهورية الإسلامية. وعادت ذكرى أحداث ١٩٥٣ تطل من جديد . حينذاك نجحت المخـابرات الأمـريكية في إعادة محمد رضا بهلوي إلى العرش ـ وفيما يبدو أن إعـادة هذا الإنقـلاب تقف على الأبواب مباشرة فكان رد فعل رجال الدين فورياً . ففي خطاب المساء كانوا يسبـون « الآن تظهـر الولايـات المتحدة وجههـا الحقيقي فالشيـطان يقف بجوار الشيطان . فجيمي كارتر ورضا بهلوي يريدان إعادة حكم الشيطان لإيران مرة أخرى ». وطالبوا الجماهير بنزع قناع الشيطان . فعلى كل مسلم فريضة أن يمنع عودة الشيطان إلى أرض المؤمنين . فقد كان الخوف حقيقياً ومتأصلاً بشدة من محاولة عملاء الولايات المتحدة لتكرار نجاح عام ١٩٥٣ .

فقد ترك حدث هروب الشاه وعودتـه آثاره في النفـوس وكان النـاس في إيران يشعرون بأنهم صاروا حينذاك أسرى للولايات المتحدة . أما شباب الشيعة الـذي لم يعش معظمهم أحـداث ١٩٥٣ فقد تم إخبـارهم بما وقـع في ذلـك العام ، فكان الجميع يعرفون على الأقل أن : الأمريكان فتحوا للشيطان قصره مرة أخرى . فالأمريكان هم الخصم الوحيد الذي يجب محاربته حتى لا تتكرر أحداث عام١٩٥٣ . كان قد مر ١٥ عامـاً على نفي الخوميني من إيـران عندمـا تعاظم الخوف من أعمال المخابرات الأمريكية في طهران فقـرر بعض الشباب احتلال مواقع أمام السفارة الأمريكية « لكي يراقبوا نشاط المخابرات » وعنـدما قاموا بضرب الأبواب فوجئوا بأن الدخول إلى السفارة ممكناً وسهلاً . وكـان أن ازداد حجم المجموعة الصغيرة بسرعة وذاع بسرعة في المدينة أنه تم « اجتياح السـفارة الأمـريكيـة » إلا أن « الاجتيـاح » حـدث شيئـاً فشيئـاً . فقـد كـان

« المحتلون » يتحركون بحياء داخل « أراضٍ إقليمية خارجية » ـ كما يسميها القانون الدولي . لكن زيادة العدد اججت شجاعة هؤلاء الذين كانوا بالداخل ، وهكذا صاروا في النهاية يسيطرون على المبنى كله ، وتم اتخاذ كل أمريكي موجود بالسفارة كرهينة . ومنذ ٤ فبراير ١٩٧٩ صار ٥٣ إمرأة ورجل تحت سيطرة الإيرانيين المحتلين للسفارة وكان أن وضع المنتصرون لحركتهم هذه برنامجاً : إنهم لن يفرجوا عن الرهائن حتى تسلم الحكومة الأمريكية الشاه ليحاكم أمام محكمة شيعية. وبعد قليل طالبت لجنة من المحتلين بإعادة كل الثروة التي هربتها أسرة الشاه إلى الخارج. ومن المؤكد أن هذا العمل لم يكن مخططاً له من قبل فقد تطور بالصدفة . وكلما تيسر الإندفاع داخل السفارة كلما إزدادت النشوة بالقدرة على إذلال الولايات المتحدة الأمريكية . ولم يدافع العاملون في السفارة عن أنفسهم لوقوعهم في الحيرة أو لعدم خبرتهم بالتعامل مع جماهير شيعية . وقد نشأ من كلا العنصرين خوف شل كل قدرة على إتخاذ القرار إلا أنه كان لدى الدبلوماسيين والموظفين ومشاة البحرية الأمل في نهاية سريعة للعمل الجنوبي ، فلم يكن أحد يفكر في استمرار الإحتلال ، حتى المحتلين أنفسهم لم يفكروا في ذلك في بادىء الأمر . حتى عندما تقدموا بمطالبهم لم يكونوا يظنون في استمرار هذا العمل لمدة طويلة . ولكن استحسان الجماهير في طهران جعل الإنسحاب من السفارة الأمريكية مستحيلاً تقريباً . فقد أعلنوا المحتلين أبطالاً ـ والأبطال لا يعودون ببساطة إلى منازلهم .

وعندما هبطت فرق من التليفزيون من كل أنحاء العالم في مطار طهران بعد الحدث بساعات قليلة لكي يراقبوا الأحداث في السفارة الأمريكية ، لم يعد بإستطاعته الخوميني نفسه إعطاء الأمر بالإنسحاب ولما كان العالم يتوقع مسرحية درامية قرر هو أن يقدم للعالم ما لعله يحتاجه . ففي لحظة إحتلال السفارة كان موجوداً في قم ـ كالغالب ـ وكان يحتاج بدءاً معلومات حول أشخاص ودوافع الإحتلال فمده ابنه أحمد بالمعلومات الضرورية لاتخاذ القرار . وقد طلب المحتلون من الإبن أن يرجو الأب بإرسال شخصية دينية قيادية إليهم ، تستطيع قيادتهم للطريق الصحيح ، فكلف آية الله رجل الدين محمد موسوي خوينية

بهذه المهمة . وكان خوينية كذلك ينتسب إلى عشيرة موسوي وبذا يكون من آل بيت النبي ﷺ .

فقد اختار خوميني للمحتلين كزعيم روحي رجلاً ذا مكانة دينية رفيعة له الحق طبقاً للمذهب الشيعي في القيادة السياسية . وكان محمد موسوي خوينية يكره الولايات المتحدة الأمريكية لأنها تدعم إسرائيل بلا حدود . أما أصدقاؤه فكان يمكن العثور عليهم في صفوف حركة التحرير الفلسطينينية . أما بالنسبة للشعب الأمريكي فكان احتجاز ثلاثة وخمسين من أعضاء السفارة كرهائن في طهران ـ قد صار إذلالاً نفسياً وقد فشل جيمي كارتر في محاولته لتحرير الرهائن .

وبعد احتلال السفارة مباشرة حلت حكومة مهدي بازرجان نفسها . فمن خلال عمل المتظاهرين هذا كان قد ثبت أمام العالم أن الحكومة فقدت كل سلطة لها . فقد كان واجب السياسيين في حكومة مسؤولة أن يحموا من العنف مباني سفارات الدول ، حسب الإتفاقات الدولية . ولكن هذا لم يتوافر لدى بازرجان . وقد فتحت استقالته الطريق إلى السلطة أمام رجل الدين محمد حسين بهشتي ، والذي لم يستطع أيضاً حل قضية الرهائن ، إلا أنه جعل واشنطن تعرف أنه لا وجود لأمل في الإفراج عن الرهائن إلاَّ من خلال التعاون مع رجال الدين . فهم القوة الحاكمة الآن في إيران . ولكن الرئيس كارتر أبى مرة أخرى أن يقبل مفاوضة الموالي . وهكذا صارت « قضية الرهائن » التي لم يكن لها أهمية سياسية عالمية ، صراعاً بين كارتر وخوميني . فكان آية الله ينشر البغض ضد رئيس أمريكا من خلال خطبه . أما رد فعل كارتر فكان ناشئاً عن عجزه . فأمر الرئيس بتحرير الهائن بعملية عسكرية إلا أن طيران مشاة البحرية تجاه طهران انتهى بكارثة في الصحراء . بسبب عطل في المحركات وعدم كفاءة الطاقم ، تحطمت الطائرات ومات الأمريكان . وتحمل جيمي كارتر مسؤوليته في التقصير في التخطيط والإهمال في الإعداد لهذه العملية. وأضرت الفضيحة بمكانته السياسية في العالم وبالذات في بلاده نفسها. وكان الأمريكيون في مجموعهم لا يطيقون فكرة أن مواطني الدولة القوية والغنية يبقون أسرى رجل

دين شيعي ، يريد بكـل وضوح أن يـدفع البشـرية إلى فـوضى التطرف . وقـد شعرت أغلبية الشعب في الولايات المتحدة بالمهانة.. ويوماً بيوم كانت الفضيحة القومية تعرض على الملأ من خلال تقارير التليفزيون في طهران . وقد حرصت فرق التصوير أن يبقى نظر الأمريكان مشخصاً تجاه طهران . ومنذ بداية ١٩٨٠ صار خوميني ومستشاروه لا يخشون عودة الشاه . فقـد اضطر الشـاه السابق أن يغادر نيويورك والولايات المتحدة بسرعة بعد إجراء العملية . واستقبل الـرئيس المصري أنور السـادات اللاجىء في بـلاده . إلا أن هذه التـطورات لم تدفـع الخوميني بحال من الأحوال للإفراج عن الرهائن بل انـه لم يفعل هـذا أيضاً ، حتى عندما مات الشاه في مصر في ٢٧ يوليو ١٩٨٠ .

ولإظهار أن التردد في الإفراج عن الرهائن كان موجهاً مباشرة ضد مكانة جيمي كارتر أعلن الخوميني في ٢٠ يناير ١٩٨١ أن إرادة الله تقضي الآن بعدم الإحتفاظ بالأمريكان كرهائن . وفي لحظة الإعلان عن الإفراج عن الأمريكان كان رونالد ريجان قد انتهى من القسم كرئيس جديد لأمريكا . فلم يشأ خوميني أن يجعل كارتر يعلن للشعب الأمريكي نهاية قضية الرهائن .

No East, No West, Islam is the best

قوي الشعور بالإعتزاز بالنفس على نحو عـظيم لدى هؤلاء الـذين طردوا الشاه من البلاد ، بعد فشل القوة العسكرية الأمريكية العظيمة في تحرير الرهائن من أيدي محتجزيهم الشيعة . فقد أثبتت الولايات المتحدة الأمريكية عجزها ، ولم يعد يُنظر بجـدية إلى المسؤولين السيـاسيين في واشنطن كخصم يستـطيع إلحاق الأذى بالثورة الإسلامية . وعندما كان الرهائن لا يـزالون محتجـزين في السفارة الأمريكيـة كانت فكـرة قد نضجت بين المقـربين للخوميني ، وهـو أن ضعف الولايات المتحدة يسير عملية نشر الثورة . فيجب تصديـرها إلى البـلاد الإسلامية الأخرى . ويجب اختفاء كـل الملوك والأمراء والسـلاطين من العالم الإسلامي ، ويجب أن يكون القرآن الكريم أساساً لتشريع الدولة في كل مكان في الشرقين الأوسط والأدنى ، ولا يوجـد كلمة واحـدة في القرآن يحبـذ بها الله الملكية كأسلوب للحكم . كذلك نفس الشـأن بالنسبـة للديموقـراطية . وقبـل

عشـرة أعوام بـالضبط من انتصار الثـورة الإسلاميـة كـان المفكـر الشيعي علي شريعتي يلقي على رجال الدين في طهران محاضرة بعنـوان «أمة وإمامة» حسمت الحساب مع الديموقراطية وأدانتها . فقد زعم علي شريعتي أن الديموقراطية لا تضارع الإسلام كأساس للدولة الحديثة .

وكان شريعتي قد رأى في فرنسا مثالاً مفزعاً للتبعيات الإجتماعية الناجمة عن الإحتفاظ بالديمقراطية كنظام للدولة .

إننا نرى في بـاريس أناسـاً كثيرين ينـامون حتى في دورات الحيـاة وفي الشوارع وينتشر المتشردون في كل مكان فتراهم في كل الشوارع وهنـاك أيضاً حيث يوجد الأجانب وهم يسيئون إلى وضع الشعب الفرنسي على أسوأ نحو . ومسلك المتشردين في العلن فاحش ومنفر. فهم يتسكعون بوجوه وملابس قذرة حاملين عادة زجاجة خمر يشربون منها ويمسكون بخناق المارة ويشتمون الناس ويقولون نكات خارجة ويمارسـون أعمال جنسيـة شاذة ، كمـا تنتشر المـلاهي الليلية وأعمال الدعارة في كل مكان . والخوف قائم من أن فرنسا تشـرف على نهايتها .

وفي شارع واحد وهو الذي يربط سانت ميشيل بسانت جرمان تم ارتكاب ١٧٠٠ جريمة تقريباً فهناك طعن بالمدى ، ضرب ، سرقات ، اغتصاب ، لماذا يحدث هذا كله ؟ » .

ويرى علي شريعتي أن الذنب يقع على حرية الديموقراطية : « فالاعتقاد بأن كل واحد يستطيع ممارسة حياته على النحو الذي يراه صحيحـاً ، أدى إلى السماح بكل أنواع الرذائل وخرق الفضائل الأخلاقية والإجتماعية » .

ولم يكن علي شريعتي رجل دين منعزلاً عن العالم لم يخـرج عن حدود الأماكن الشريفة . فقد درس في باريس فرأى فعلاً ما كان يتحدث عنه . ودرس أيضاً كيفية ممارسة الديموقـراطية الفـرنسية واعتبـرهـا أسـلوبـاً إجراميـاً لإدارة الدولة . فبالرغم من عدم تزوير بطاقات الانتخاب كما هي العادة في بلاد العالم الثالث ، إلا أن التزييف يتم قبل هذه المرحلة بكثير : « فالتزوير يتم ليل نهـار

علناً ويستخدم في ذلك كثير من العلم والمقدرة . فالتزوير يحدث في قلب ورأس الشعب بدون أن يلاحظ أصحاب الشأن ما حدث لهم على الإطلاق . فكل مواطن حر في إعطاء صوته لمن ينال إعجابه وهكذا يحصل على مقاعد البرلمان من احتل مكاناً من قبل في رؤوس وقلوب الناس . وهذا هو التزوير ففي أيام الانتخابات يسيل على الناخبين في البلاد الديموقراطية مئات المقالات والكتب والأفلام والمسرحيات وآلاف الإعلانات وتوضع شعارات الانتخابات على سيقان وصدور وأجزاء أخرى هامة من أجساد عارضات الأزياء والراقصات والممثلات المشهورات والمحبوبات ، وهكذا يتم التنافس على أصوات الناخبين . فالمال والسلطة هي العامل الحاسم في الفوز في الانتخابات ، فالفقير لا يستطيع تمويل حملة انتخابية .

ويقول علي شريعتي بأن الديموقراطية لن تستطيع أن تكون مثالاً لشكل الحكم في العالم الإسلامي . فالدول ذات الحكم الديموقراطي قضي عليها بالزوال . وسينتهي الحال بالولايات المتحدة وأوروبا إلى الوضع الذي كانت عليه يثرب التي انتشر بها البغاء قبل وصول النبي محمد ﷺ . فحول محمد ﷺ يثرب إلى المدينة واستطاع محمد ﷺ أن يجعل الأمن وسمو الأخلاق يسودان المدينة : « فرسول الله ﷺ يطالب كل حكومات العالم بالإستسلام أو بعدم الوقوف في طريق تبليغه الرسالة إلى البشر . ومن يمتنع حق عليه القتال». فالنبي ﷺ مسلح وقائد محنك . فلا يستطيع ترك الناس لأنفسهم . فإنه مصلح يريد تغيير الناس والمجتمع . فإذا كان هناك رأي فاسد فيبطله حتى في المجتمعات الأخرى فعقيدته تفرض عليه إبطال الأمراء الضالة . وهذا هو معنى روح الرسالة . فإذا ما استولت جماعة دينية ملتزمة سياسياً قيادة بلد ما ، يعاني من الانحطاط وظروف حياة غير أخلاقية ، وينتشر فيه الظلم والفساد ، فإنه لا يجوز لهذه الجماعة أن تسمح بتزييف ثورتها من خلال مسرحية الانتخاب في الديموقراطية . فالثورة لا تحتاج أصوات الأغلبية لأن هذه الأصوات قد زيفت من خلال التأثير النفس . وواجب الثورة الإسلامية هو تحقيق أفكارها عن تعبير العلاقات الإجتماعية وذلك على أساس عقيدتها هي ، غير مهتمة في ذلك بهراء

الديموقراطية. وعندما يصير من الممكن وجود ديموقراطية خالية من التأثير على الآراء الشخصية فيمكن القول إن أسلوب الحكم هذا يساهم في تطوير البشرية على الطريق الصحيح .

بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران حاول بعض الملوك ـ كل على حدة ـ أن يعرف من طهران وقم الأهداف التي حددها خوميني وخلفاؤه المحتملون فقد رأت عائلة الصباح ، التي تحكم في الكويت منذ منتصف القرن ١٨ الميلادي، أنها مضطرة بسبب مجاورتها المباشرة لإيران ، أن تتخذ الخطوة الأولى ، فأقدم الشيخ صباح الأحمد الصباح ، وزير خارجية الكويت بالسفر إلى طهران ، ولما كان يعتمد على أن الخوميني يمثل السلطة العليا في إيران ، طلب مقابلته ، التي سمح له بها . وكانت دهشته عظيمة عندما جلس مع الخوميني بينما بقي رجال كثيرون بالمكان كانوا موجودين هناك قبل وصول الشيخ من الكويت . ولم يكن هناك فرصة للشيخ صباح يوجه حتى كلمة ود للخوميني ، ناهيك عن السؤال الذي كان يؤرقه وهو عن كيفية تفكير الثورة الإسلامية في مستقبل منطقة الخليج العربي (الفارسي) . وبعد تبادل عبارات المجاملة بين الخوميني وبينه انتظر وزير الخارجية الكويتي عدة دقائق ، فربما تصدر من آية الله إشارة يأمر بها المستمعين المزعجين بالابتعاد عن المكان ، ولكن الخوميني جعل وكأنه يستأنس بهذه الجماعة الكبيرة ، وبعد أقل من عشرة دقائق في حضرة الخوميني كان الشيخ صباح يطلب من رجل الدين الكبير الاذن في الانصراف فكان أن أومأ الخوميني برأسه وغادر وزير الخارجية الكويت إيران وهو يشعر بعدم إمكانية قيام حوار بين حكام الخليج وبين آية الله . أما الخوميني فكان قد تعمد عدم الحديث مع الحاكم السني للإمارة المجاورة . وأما الشيخ الصباح فلم يرَ في هذا المسلك إلاّ العداء فحسب وكان قد عرف خطر عداء الخوميني. فقد أظهر الخوميني أن باستطاعته القضاء على أعداءه . أما منطلقه في إلحاق الأذى بأسرة الصباح ، فكان خطراً للغاية على هذه العائلة الحاكمة : فثلث مجموع شعب إمارة الكويت يتبع المذهب الشيعي . وطبقاً لبيان الحكومة يبلغ مجموع شعب الإمارة حوالي مليون نسمة بينهم ٣٠٠ ألف شيعي أما الشيعة

أنفسهم فيقدرون عددهم بحوالي ٤٠٠ ألف . فإذا حث الخوميني هؤلاء الشيعة على خلق مشاكل للعائلة الحاكمة من خلال قيامهم باضطرابات ، فإن طلبه سيجاب بالطبع وكان أن أصيب آل صباح بالخوف من المستقبل . وفي كل مكان على الساحل الغربي للخليج كان الحكام هناك ينظرون بقلق إلى الشرق منذ انتصار الثورة الإسلامية .

ففي البحرين ، الجزيرة الواقعة أمام ساحل السعودية ، يحكم آل خليفة منذ عام ١٧٨٣ . أما الحكام السابقون لهذه العائلة فكانوا ولاة إيرانيين ، فقد كانت الجزيرة منذ ١٦٠٢ وحتى ١٧٨٣ تحت السيادة الفارسية ولم يتنازل أي من الحكام الإيرانيين رسمياً عن البحرين حتى الشاه محمد رضا بهلوي كان قد أعلن مجدداً أن البحرين أرض إيرانية وفي مايو ١٩٧٠ كانت لجنة من الأمم المتحدة تبحث فيما إذا كان سكان البحرين يريدون العيش على جزيرتهم في دولة مستقلة أو تحت العلم الإيراني . وقد خرجت اللجنة بنتيجة إن رعية آل خليفة كانوا يودون الخلاص من حاكمهم ، ليستطيعوا الانضمام إلى إيران إلا إنه لم يتم العمل بهذه النتيجة حينذاك . وفوق ذلك أعلن الشاه عام ١٩٧٥ أن مشكلة البحرين لا تهمه الآن . ولكن الآن في عام ١٩٧٢ تطالب محطات الإذاعة الإيرانية الشيعة في البحرين بالثورة ضد حكم العائلة السنية . وعن عدد الشيعة في البحرين أيضاً يوجد بيانات مختلفة فالإحصاءات الرسمية تقول إن الشيعة تمثل نصف رعية آل خليفة البالغة ٢٥٠٠٠٠ نسمة بينما السنة تمثل النصف الآخر . أما رجال الدين الشيعة فيزعمون أن ٧٠٪ من سكان الجزيرة من الشيعة ، الذين يعانون من حكم السنة . وكان رجال الدين يشكون بالذات من احتفاظ آل خليفة بعلاقات وثيقة مع الولايات المتحدة الأمريكية ، وقد استعملوا في ذلك العبارة التي رسخها خوميني في الأذهان : أمريكا الشيطان والملك هو خليفة الشيطان . وكان حاكم البحرين يدافع عن نفسه بحجة أن تفتح البحرين على الأمريكان أفضل من انفتاحها على السوفيت الشيوعيين . وقد ثار غضب رجال الدين أيضاً لبيع الخمور في الجزيرةولكن الحكام هناك كان لديهم أسباب قوية لعدم منع الويسكي والبيرة : بما أن زمن استخراج البترول قد ولى

فلا بد من البحث عن موارد أخرى . فموقع الجزيرة مثالي كمركز للتجارة والمالية . ولا يمكن أجبار البنوك العاملة في أنحاء العالم على فتح فروع لها في مكان يحرم فيه شرب الخمر والذي صار استخدامه في البنوك مألوفاً من أجل تسهيل الأمور بين العملاء والبنك . وفي عام ١٩٧٩ و ١٩٨٠ لم يعد مثل هذه المبررات مقبولة لدى الذين أحرزوا النصر للثورة الإسلامية في إيران كونها « مسلكاً غير إسلامي » . وقد قامت محاولات تقودها طهران للإطاحة بحكم آل خليفة . فقام متظاهرون من الشباب الشيعة بإعاقة المرور في المدينة الوحيدة بالإمارة ، إلا أن الشرطة التي تتكون من السنة نجحت في تفريق المتظاهرين قبل أن تهيج المشاعر وقبل أن تنهب المباني العامة وتحرق . وقد قام المستشارون الأمريكان الذين استقدمهم الأمير إلى الجزيرة سراً بمساعدة الشرطة البحرينية وكان المستشارون قد تعلموا من أحداث طهران . أما نظام الحكم في البحرين فكان يقاوم المحاولات الإيرانية لتصدير الثورة الإسلامية إلى الجزيرة التي كانت ذات يوم إيرانية ولكن تصدير الثورة كان يمثل صعوبة للخوميني طالما ظلت الدولة السعودية الغنية في يد العائلة الحاكمة السنية آل سعود . ثم اضطلعت الدعاية الخومينية بمهمة زعزعة نظام الحكم في السعودية كذلك وسرعان ما تبع الهجوم الشفوي للإذاعة الإيرانية هجمات فعلية على نظام آل سعود . وكان أن وجدت شعارات الدعاية الشيعية ـ بوجوب قيام الثورة الإسلامية في كل مكان ـ صدى لها لدى العرب السنيين بالسعودية . والذين يحرصون بشدة على رعاية دينهم . وفي عام ١٩٧٩ كان هؤلاء ينتظرون حدثاً هاماً للغاية . فبعام ١٩٧٩ بدأ القرن الرابع عشر الهجري . فطبقاً لحديث عن النبي محمد ﷺ فإن مع بداية كل قرن يظهر رجل بين الناس كلفه الله بتصحيح ما حدث من ضلالات بين جماعة المسلمين خلال القرن الماضي . ويجب أن يحمل هذا الرجل ، الذي أرسله الله نفس اسم النبي ﷺ . بالإضافة لذلك يدعى المهدي أيضاً . وتقول الروايات إنه يتم التعرف على هذا الرجل والاعتراف به في الجامع « الكبير » في الكعبة بمكة . وعندما اقترب بدء العام الجديد كان الانتظار يسود العالم الإسلامي كله . وفي الليل عند بدأ القرن الهجري ، لم يفاجأ المصلون في الجامع الكبير بمكة عندما أمسك شاب يرتدي

جلباباً أبيض بميكروفون الخطب وصاح فيهم : « أيها المسلمون ، أيها المؤمنون ، الله أكبر ، جاء المهدي ، ظهر بيننا إنه ليقف أمامكم . أتذكرون حديث النبي ﷺ ، لقد حان وقت ظهور المهدي فالحمد لله الرحمن الرحيم » . ثم أشار الرجل الممسك بالميكروفون إلى شاب آخر يرتدي أيضاً جلباباً أبيض . وإن كان قد ظن أن جموع المؤمنين سترحب بالمهدي وتتبع تعاليمه على الفور فقد أخطأ في ظنه . فكان أن تراجع الناس بفزع . وهرب بعضهم من الباب خارجاً إلى المدينة . إلا أن كثيرين بقوا تحت قبة المسجد يرقبون في فضول . فقد أرادوا رؤية ما سيحدث . وبدأ الرجل الذي تقدم كمهدي ، في اتهام عائلة آل سعود بالفسق وتشابه بعض ما قاله هذا الشاب مع شعارات حكام طهران : « إن الحكام الشياطين يجلبون إلى البلاد أمراض الغرب وفساد الأوروبيين » . وطالب الشاب الناس في السعودية بأن يفعلوا ما يفعله المؤمنون في إيران : « فهم قد طردوا الشاه صديق الغرب ، ويجب أن نفعل نفس الشيء هنا » . وأمر مستمعيه بالقضاء على حكم آل سعود .

بعد عشر دقائق تقريباً من بدء هذه الخطبة اقتحمت الشرطة السعودية باب الجامع ، إلا إنها تراجعت بعد إطلاق النار عليها ، وفي هذه اللحظة لوحظ لأول مرة أن الخطيب والمهدي ليسا وحدهما : فحولهما كان تجمع حوالي ٤٠٠ رجل وإمرأة ، والذين كانوا يريدون بجلابيبهم البيضاء أن يقولوا إنهم على استعداد للموت . وقد أطلق نفر من هذه المجموعة النار على على الشرطة ، فقد كانوا مسلحين . بعد ذلك تسلم بعضهم مسدسات ورشاشات ، جلبت من ممرات وخزائن تحت أرض الجامع . فقد كان قد تم التجهيز للعملية على أفضل نحو . ثم احتل المسلمون المآذن وبذا سيطروا برشاشاتهم على المناطق والشوارع أمام الحرم ثم أغلقت الأبواب بالمزاليج . وصار المؤمنون الموجودون في صحن الجامع رهائن في يد المسلحين المجهولين ، الذين فيما يبدو ، قد استعدوا لحصار طويل . وفي أقبية الجامع كان قد تم تخزين صناديق بها طعام وصفائح بها ماء خلافَ الأسلحة . وبذا استطاعوا تزويد الرهائن والمسلحين بالمؤن ، وفي اليوم التالي مباشرة أدرك المحاصرون إستحالة حراسة الرهائن

والدفاع عن منطقة الجامع كلها لمدة طويلة . فأطلقوا سراح المؤمنين . وأثناء الأيام التالية كانت الشرطة السعودية تحتل أجزاء من الجامع شيئاً فشيئاً . ولما انقضى أسبوع على الحصار اضطر المعتصمون بالجامع للإنسحاب إلى أقبية الجامع فقد اعتقدوا أنهم يستطيعون هناك المقاومة لمدة أطول .

أثناء أيام القتال حول الحرم في مكة كانت مكانة العائلة الحاكمة قد اهتزت في العالم العربي كله . فهي لم تستطع منع إطلاق النار في حرم الكعبة في المبنى المقدس لدى جميع مسلمي العالم ـ والرسول قد حرم صراحة كل أنواع القتال في الكعبة . وبكل يوم ، لا ينتهي فيه القتال ، كانت مكانة آل سعود تتدهور وكان من غير المتوقع أن ينتهي القتال طالما كانت الشرطة السعودية وحدها في الميدان . فالقوات المشاركة في القتال لم تكن معدة لهذه المهمة . وكانت قيادتها سيئة للغاية . وقد أدى الارتباك إلى عدم قبول أية مساعدة من الخارج . وطبقاً لاتفاق كان قد عقد منذ أمد بعيد ، أراد حسين ملك الأردن عند بدء احتلال الجامع إرسال وحدة متخصصة من قوات الأمن الأردنية . ولكن المسؤول في العاصمة الأردنية عمان لم يتلق أي إجابة من جهاز اللاسلكي ، الذي يؤمن الاتصال وقت الأزمات . وفي النهاية وقعت العائلة الحاكمة في السعودية تحت ضغط حكومات عربية أخرى ، بالحث على إنهاء هذه الأحداث . فاضطرت إلى طلب المساعدة من بلد غير إسلامي ، من فرنسا . وقد قامت قوة مكافحة الإرهاب التابعة لحكومة فرنسا ، كان الرئيس حينذاك هو جيسكارديستان ، باعتقال المهدي وأنصاره الأربعمائة، وذلك في اليوم الخامس عشر من القتال وبعد أيام قليلة تم إعدامهم . فلم يسمح لأحدهم بالبقاء على قيد الحياة .

ولم يكن أحد من آل سعود مهتماً بدراسة جدية للأحداث حتى لا يطول عمرها . فكان لا بد أن يطويها النسيان بأسرع ما يمكن وكان ما يؤلم المسؤولين السعوديين أنهم أدركوا مع كل يوم قتال أن الثائرين يكتسبون تعاطفاً أكثر من جانب سكان المدن ، وأكثر من جانب البدو سكان الصحارى . ولذا لم تذع في المملكة نتيجة الاستجواب القصير « للمهدي » . للرجل الذي أخذ على نفسه

مهمة تقديم « المهدي » في الجامع الكبير في مكة .

كان المدبر للأحداث يدعى جهيمان العتيبي ويشير اسمه إلى انتسابه لقبيلة عتيبة المرموقة . وقد سمع جهيمان العتيبي بتوقع المؤمنين إنه في ليلة بدر القرن الهجري الجديد سيقوم مسؤول عن البحث عن الرجل الذي يستطيع الاضطلاع بهذه المهمة الإلّهية واتفقت تصوراته عن المهدي في الغالب مع صديق يدعى قحطاوي ولكن النبوءة كانت تقول إن مهدي هذا القرن يجب أن يكون على اسم النبي ﷺ ، أي محمد . إلاّ أن جهيمان العتيبي تغلب على هذه المشكلة : فقال إن عبد الله هو اسم أبي النبي ﷺ ، ولذا يتناسب هذا الاسم مع النبوءة فاسم النبي ﷺ بالكامل كان محمد بن عبد الله ، وقام جهيمان العتيبي أولاً بتقديم صديقه ، الذي أعلنه « مهدياً » إلى قبيلتي عتيبة وقريش ، وكان أن صدق الرجل في خيام الصحارى الذين كانوا على كل حال مستعدين لقدوم المهدي، زعم أن عبد الله هو الذي اختاره الله كقائد لزمننا . فكان أن سمحوا أن ينضم له ٤٠٠ رجل وامرأة . وسرعان ما كسب المهدي أنصاراً في مكة وخاصة من العاملين في إدارة الجامع . فتحت حمايتهم استطاع جهيمان العتيبي إدخال صناديق أسلحة وذخائر ومؤن إلى الممرات والأقبية تحت الجامع . وكان لا بد أن يرى رؤوس السياسة بين آل سعود مؤشراً سيئاً في هذه المساعدة التطوعية التي قدمت على هذا النحو لأنصار المهدي . ولم يكن المهدي أو جهيمان العتيبي وأنصارهما العديدون من الشيعة بأي حال ، إلا أنهم استخدموا شعارات الخوميني من خطر « الأمراض الغربية » وإذا كان الأغلبية السنية لشعب المملكة العربية السعودية على هذا الاستعداد لقبول شعارات أعدت في طهران ، فكم يكون مدى استعداد الشيعة في السعودية التي تؤمن بقيادة آية الله لها . وطبقاً لتعبير العائلة المالكة فإن الشيعة تمثل ٧٪ من الشعب في السعودية . إلا أن بيان الموالي عن عدد نفس الشيعة فكان مغايراً ، فهو يذكر أن نسبة الشيعة تبلغ ١٥٪ أي أكثر من ضعف النسبة الأخرى ويمكن أن نرى صعوبة التقديرات في بلد لا تعمل بأي نظام لتعداد السكان إذا ما عرفت أن بيان التعداد الصادر عن العائلة الحاكمة يقدر مجموع الشعب بما يتراوح بين ٤ و ٨ مليونات نسمة وكان

على عائلة آل سعود أن تأخذ حذرها على كل حال من التواجد الشيعي في البلاد : ففي الوقت الحرج سيكون من المحتم وضع الشيعة الذين يتعدون ١/٦ مجموع الشعب في الحسبان نظراً لتبعيتهم للخوميني . وهناك حقيقة زادت من تعقيد الموقف وهو كل الشيعة يسكنون شرق شبه الجزيرة العربية ، أي في مواجهة الساحل الإيراني ، هناك بالذات ، حيث يتم شحن البترول ، الذي يعتمد عليه الاقتصاد العالمي ، يعيش الشيعة السعوديين .

هز احتلال الجامع الكبير بمكة في خريف ١٩٧٩ المملكة لدرجة نشرت معها الفزع . فبدأ البحث عن حلفاء أقوياء لكي يساعدوا في إبعاد الثورة التي تصدرها إيران ، عن المملكة العربية السعودية على أن لا يتم البحث عن المساعدة صراحة من واشنطن لأن آية الله ناصب العداء لأمريكا القوية . فكان تدعيم الوجود العسكري الأمريكي في أراضي المملكة سيؤدي إلى أن يصب الخوميني جام غضبه على عائلة آل سعود .

وكان الأمريكان الموجودون في البلاد فعلاً ـ متمركزين في قاعدة الظهران على الضفة الغربية للخليج العربي الفارسي ـ قد أدوا براديو طهران أن يقول بأن الأمريكان المعادين للإسلام يهددون حرم الإسلام في مكة قاصدين القضاء على دين الله . فلما كانت الولايات المتحدة لا تستطيع أن تكون حليفاً في العلن وكذلك الحكومة الملحدة في الإتحاد السوفيتي ، كان يجب البحث عن حليف قوي في المنطقة نفسها . وبتردد نظرت عائلة آل سعود إلى الشمال ، تجاه العراق . وكان العراق يحكمهم بنظام قيل عنه إنه يطبق سياسة السيطرة على الخليج العربي الفارسي فهو يريد الوصول إلى الزعامة في المنطقة حول نقطة تلاقي العرب مع الفرس ، وذلك بعد أن سقط حكم الشاه . وكانت عائلة الصباح بالذات الحاكمة في الكويت تخشى القوة المتنامية للعراق ، وكذلك كان آل سعود . إلا إنه كان يجب التخلص من الخوف فالعراق وحده هو الذي يستطيع المساعدة على الخروج من هذا المأزق .

كان من المعروف ، صعوبة تقدير نسبة الشيعة إلى السنة في المنطقة حول دجلة والفرات . ولا يوجد في مكان آخر تفاوت في التقديرات كما هو الحال في العراق . فالحكومة في بغداد تقول بأن ٣٦٪ من سكان العراق يتبعون مذهب السنة ، أما رجال الدين الشيعة فمؤمنون بأن عدد الشيعة يبلغ ٧٥٪ . فإذا كان الصواب على جانب الموالي ـ وهذا محتمل جداً ـ فإنه يجب اعتبار العراق بلداً شيعياً تماماً مثل إيران . إلا أن التناقض قائم في أن البلد الشيعي إيران يحكمه أهل الشيعة ، أما العراق ـ البلد الذي يحتمل أن يكون شيعياً ـ فيحكمه أهل السنة . أما أن يحكم بغداد أهل السنة ، فكان هذا هو رغبة المستعمر البريطاني بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ، والحاكمون في لندن كانوا يعتبرون العراق بلداً أغلب سكانها من الشيعة. واعتبروا أنه من الذكاء تسليم السلطة للأقلية السنية ـ وقد أثبتت هذه الأقلية السنية عرفانها بجميل المستعمر ، فحرضت على أن يطيع الشيعة تعليمات الانجليز وعندما انتهت سلطة الانجليز على بلاد الرافدين عام ١٩٥٨ حرص الإتحاد السوفيتي على أن تبقى السلطة في يد السنة لأن القيادة في موسكو عرفت مدى نجاح تجربة مساعدة الأقلية في حكم الأغلبية ، وكما كان للانجليز في الماضي استطاع الإتحاد السوفيتي أيضاً الاعتماد وعلى أعتراف السنة العراقيين بالجميل ، والذين تحكم دولتهم منظمة شمر أيضاً : حزب البعث العربي الإشتراكي ، وإن كانت عائلة آل سعود تنظر بقلق إلى نظام بغداد المشتهي للسلطة ، إلا أنها لا يجوز لها أن تتمنى أن تتنازل

السنة في العراق عن الحكم ، لأن هـذا التغيير سـوف يعني أن إيران والعـراق سيكونان كتلة سياسية تمثل فقط بشعبها البالغ ٧٠ مليـوناً عنصـر سلطان عظيم يضاف إلى هذا الشأن اعتبار آخر يجب مراعاته : إنه منذ انقلاب الجنرال حافظ الأسد في دمشق ـ عام ١٩٧٠ ـ صارت سوريا دولة أغلبيـة شعبها من السنـة ، ولكن القلة الشيعية هي التي تحكمها . وقد اعتبرت العائلة السنية الحاكمة في السعودية أنه من حسن الحظ أن الحكومـة العراقيـة سنية ، فهي تمثـل حاجـزاً للشيعة الأقوياء في دمشق وطهران ، فإذا ما حكم الشيعة في بغداد فسوف يتبع جـزء ضخم من العالم الإسـلامي ، بين حدود أفغـانستان والبحـر المتـوسط ، المـذهب الشيعي . وسوف يقـوم عملاق لا تقـوى أنظمـة الحكم السنيـة على مواجهته على مر الزمن ، من خلال هذا الموقف الديني ـ الجغرافي ـ السياسي يكون مدى دعم العراق في حرب مع إيران ، مفهوماً . وعلى وجـه الخصوص كانت قيادة المملكة العربيـة السعوديـة تشعر بمسؤوليتهـا تمويـل من العمليات الحربية للعراق .

وكانت أسباب سياسية داخلية تحدد هذه السياسة، والتي لم ينظر إليها محللو السياسة الخارجية في الشـرق والغرب . ولـم تكن هـذه الأسباب متعلقـة كثيراً باحتلال الجامع الكبير في مكة ، بل على نحو أعمق بوراثة الملوك الأوائل في تاريخ هذه الدولة . فقد كان لهم أبناء كثيـرون يتمتعون جميعـاً بنفس الدرجـة والمرتبة . وللخارج كانت قيادة الدولة تعطي انطباعاً بالتـرابط الوثيق . وكـانت العائلة تقدم نفسها على أنها كتلة واحدة ينتظم فيها كل أدوات السلطة . لكن في الحقيقة كان كثيراً من الأمراء، أبناء لنفس الأب ـ الملك السابق عبد العزيز ـ ومن أمهات مختلفات ، ينتظرون فرصتهم ليحكموا . أما طريقة اعتلاء العرش حسب السن ، فلم يمكن تنفيذها تقريباً ، حيث كان كل الأبنـاء قد ولـدوا من أمهات مختلفات في فترات زمنية قريبة للغاية . ومن كان يريد أن يحكم ، لم يكن ينفذ مطلبه إلا من خلال الاتفاق مع أخوته الأشقـاء وغير الأشقاء . ومن خـلال هذا كان تآلف الأمراء ضروريـاً . فمن كان قديراً كان يقف على عتبة السلطة إلا إنه كـان لا يجوز لـه أن يرتكب خـطأ . ولكن الحريص كـان يخشى التغيير . أمـا

التغيير الخطير فكان انتصار إيران وانهيار النظام السني في بغداد . وأدى الحرص على عدم ارتكاب خطأ ينتقده الأخوة الأشقاء وغير الأشقاء ، إلى دعم العراق مادياً لسنوات طويلة من خلال الملك القائم على الحكم في السعودية ، وقد مكن هذا التأييد الرئيس العراقي من التجهيز للحرب دون مراعاة للمعاهدات الدولية القائمة . ونشبت الحرب ، بالرغم من عدم وجود سبب مباشر . فأعطى الرئيس صدام حسين الأمر بالهجوم دون التزام بالاتفاقية ، التي وقعها هو نفسه لتسوية كل قضايا النزاع مع إيران ، ففي عام ١٩٧٥ قام صدام حسين ـ وكان حينذاك نائباً للرئيس إلا إنه كان الرجل الأقوى ـ بقرار إلغاء وضع الحدود القائمة بين إيران والعراق في شط العرب عند ملتقى دجلة والفرات . وكان مؤتمر مضائق البحار المنعقد في مونترو ، كانت الحدود قد نظمت عام ١٩٣٧ لصالح العراق . ومنذ هذا الحين صارت المساحة المائية كلها تعد جزءاً من أراضي العراق . وكانت الحكومة البريطانية المسؤولة عن مصالح الرأي في ذاك الوقت ، هي التي نفذت هذا التنظيم عام ١٩٢٧ . أما إيران فاضطرت للسكوت حينذاك . وفي عهد الشاه محمد رضا بهلوي صارت السياسة الإيرانية أكثر وعياً ، وفي بداية السبعينات كان حاكم طهران قد صمم على إجبار الحكومة العراقية في بغداد على تقسيم شط العرب ، فيجب أن تكون الحدود مستقبلاً في منتصف المركز المائي . وكان الشاه يملك أداة ضغط ممتازة لتنفيذ رغبة . فمنذ سنوات وهو يدعم تمرد الأكراد في شمال العراق ، في مناطق الحدود مع سوريا وإيران وتركيا . ويمثل الشعب الكردي ربع سكان العراق تقريباً وهو لا يريد أن ينضوي تحت راية الدولة العربية التي تحكمها بغداد ، لأنه بالرغم من كونه شعباً مسلحاً إلا أنه يتكلم لغة قريبة للفارسية ، ولا تمت بصلة للغة العربية . أما مطالب الأكراد فلم تقبلها الحكومة العراقية لأن حقول البترول في كركوك تقع في المنطقة الكردية . وكان شعار زعيم الأكراد هو : « أموال البترول من كركوك يجب أن تصب في خزانة الأكراد » . ولكن الحكومة العراقية كانت تحتاج إلى موارده التي كانت تنتج عن استغلال حقول البترول في كركوك . وكانت الحرب ضد الأكراد قد استنزفت قوة الجيش العراقي . « ففي كردستان الوعرة » يضل الضباط العرب فيستدرجهم مقاتلو برزاني إلى الكمائن دائما . وكانت الحملة

ضد الأكراد مكلفة من الناحية البشرية والمادية : وفي ربيع ١٩٧٥ اضطر صدام حسين للاعتراف أمام مجلس الثورة في اجتماع سري - إن السلاح الجوي للبلاد لم يعد يملك إلا خمس قنابل ثقيلة وإن المدفعية تملك بالكاد ألف طلقة . وفي هذا الاجتماع لم يستطع إعطاء بيان عن المورد الذي سيعوض هذه المؤن . وكانت النتيجة هي : إما إيقاف القوات العراقية للقتال ضد الثوار الأكراد أو قبول عرض الشاه برفع يده عن دعم الأكراد، وإذا ما تم تقسيم مياه شط العرب: وكان أن فوَّض مجلس الثورة صدام حسين في ربيع ١٩٧٥ لتوقيع الاتفاق مع إيران حول الإدارة المشتركة مستقبلاً لشط العرب. ولم يكن وقف إمداد الأكراد بالسلاح والمال هو الإقرار الوحيد الذي اضطر إليه شاه إيران : فقد تم الإتفاق على تنازل الحكومة الإيرانية للعراق عن منطقة تقدر مساحتها بحوالي ٢٠٠ كم٢ - وبذا يمكن تصفية كل المنازعات على الحدود ، وأثناء إبرام المعاهدة تم الإتفاق على تشكيل لجنة تتكفل بتسوية كل الأمور لتسليم هذه المنطقة . وبعد شهور بل سنين ، ارتابت الحكومة العراقية في أن أعضاء اللجنة الذين عينهم الشاه يحرصون على تأجيل العمل . وعندما وصلت الثورة الإسلامية إلى ذروتها ، امتنع الإيرانيون عن الإجتماعات . أما الخوميني فقد رفض بعد انتصار الثورة أن يرسل أعضاء جدداً إلى لجنة الحدود الإيرانية العراقية . وكان أن شعر صدام حسين أنه قد خدع : فشط العرب تم تقسيمه وقد نفذت العراق ما أقرت به في معاهدة الجزائر ، أما إيران فقد أخذت دون أن تعطي . وأدرك صدام حسين السني أن رفض الخوميني تعيين وفد إلى اللجنة المشتركة هو جزء من سياسة مقصود تماماً ضد نظام حكمه . وكان قد أرسل إلى آية الله برقية على الفوز في استفتاء شعبي وقد تلقى أيضاً رداً عبارة عن برقية تنتهي كلماتها : « السلام على من اتبع الهدى » وقد أدرك صدام حسين ، المسلم الحق - وإن كان غير شيعي - ، أن صيغة هذه البرقية كان النبي محمد ﷺ يضعها في نهاية رسائله الموجهه إلى القبائل والشعوب غير المسلمة . وكان على العراق ، الذي صار أثناء هذا رئيساً لبلاده ، أن يستنبط من ذلك أن آية الله الخوميني يعده من غير المؤمنين الذين يجب القضاء عليهم . فأدرك صدام حسين أنه في خطر يتمثل في عزله بواسطة الأغلبية الشيعية في

بلاده ، والذين يعتبرون الخوميني ـ الزعيم الأكبر للشيعة ، إماماً لهم عليهم إطاعة أوامره . فأراد صدام حسين أن يفلت من الخطر بضربة سريعة وقوية ضد إيران ـ وكان سيكسب تعاطف الشيعة العراقيين أيضاً ـ إذا ماربط حرب الحاضر بحرب وقعت في الماضي . ففي عام ٦٣٧ م ، أي بعد خمس سنوات من وفاة النبي ﷺ كان الجيش الإسلامي العربي قد أحرز النصر على الفرس في موقعة القادسية ، وبذا أظهر الإسلام تفوقه على الدين الفارسي التقليدي لزرادشت . وتم حينذاك تعريب الفرس . وبعد مرور ثلاثة قرون على الدولة العربية الإيرانية ظهرت الشعوبية مرة أخرى فانفصمت الوحدة . وكانت النتيجة أن دولتين ، عربية وإيرانية ، أخذت كل منهما طريقها التاريخي فقام صدام حسين في دعاية بالربط بين الحرب ضد إيران وبين موقعة القادسية عام ٦٣٧ . وقد أعلن لشعبة ، ذي الأغلبية الشيعية ، أنه حينذاك تم إنقاذ العرب وكذلك الإسلام من الهجوم الفارسي والآن ظهر الخطر مرة أخرى . فخوميني هو ممثل القومية الفارسية العدوانية التوسعية . وأثناء إحدى خطبه حول هذا الموضوع قام الرئيس العراقي في ١٧ سبتمبر ١٩٨٠ وأمام كاميرات التليفزيون بتمزيق وثيقة المعاهدة ، التي وقعها بنفسه قبل خمس سنوات في الجزائر ، وبعد خمسة أيام من حادثة التليفزيون المدوية هذه بدأ الهجوم العراقي ، فعبر ٦٠٠٠٠ جندي شط العرب واحتلوا أراضٍ إيرانية واحتفلت بالانتصارات الأولى للجيش العراقي على إنها « قادسية صدام حسين » . وفي ٢٣ سبتمبر ١٩٨٠ كانت نية القيادة العراقية ، توجيه الهجوم الرئيسي إلى المدينة الإيرانية خورامشار ، والتي يطلق عليها العراقيون محمدة . ثم يحاصر ميناء البترول عبدان ويعد لاحتلاله . فإذا ما تم احتلال محمدة ، توقع صدام حسين أن أهل محافظتي خورستان ولوريستان الإيرانيتين سوف يطلبون ضم بلديهما إلى العراق ـ فأهل هذه المنطقة يتكلمون العربية وينتسبون إلى الأصول العربية . ولهذا لا يذكر الرئيس العراقي خوزستان ولوريستان في حديثه ، وإنما يطلق عليهما اسم عربستان. وتم إصدار الأمر إلى جهاز الإدارة في بغداد بالإعداد لضم عربستان إلى الدولة العراقية . إلا أن صدام حسين لم يضع في حسبانه حرباً طويلة المدى ، فقد رأى الضباط الإيرانيون ـ الذين فروا من أعوان الخوميني وطلبوا اللجوء إلى بغداد ـ إن البقية

الواهنة من جيش الشاه لن تنجح في بناء جبهة دفاع صامدة . ولما كـان صدام حسين يقدر رؤية هؤلاء اللاجئين ، رأى أن حملته ستنتهي في أول أكتوبر أي في خلال أسبوع واحد .

قام صدام حسين أيضاً بإخبار مستشار الأمن القومي للرئيس الأمريكي بأنه يفكر في نهاية سريعة منتصرة للحرب . . وكان اسبجنيو بـرزسفسكي في خريف ١٩٨٠ هو المحرك للسياسة الخارجية الأمريكية وقد تقابل العراقي مع الأمريكي على نقطة حدود بين العراق والأردن . وبطلب من صدام حسين جرت مباحثات حول مستقبل منطقة الخليج العربي (الفارسي) وكان اسبجنيو بـررزسفسكي قد قبل الدعوة مرحباً . لأنه كانت هناك مشكلة تلح عليـه ويجب العثور على حـل لها : فقد كان دبلوماسيون وموظفـون بالسفـارة الأمريكيـة لا يزالـون رهائن في قبضة الإيرانيين . وكانت معاناة الشعب الأمريكي من هذه المهانة تزداد باستمرار وتهدد الوجود السياسي لجيمي كارتر . وكان مستشار الأمن القومي أيضاً خـائفاً على منصبـه : فإذا لم يتم تحـرير الـرهائن فـإنه سيكـون قد فشـل في مهمتـه وسيعتبـره الأمريكيـون فاشـلاً حقيـراً . فكـان مضـطراً لقبـول أي وسيلة تؤدي إلى النجاح . فإذا ما كسب صدام حسين الحرب فيمكن توقع خلع آية الله فيتم الإفراج عن الرهائن في السفارة الأمريكية بطهران قريباً بالتأكيد . ولذلـك وعد اسبجنيـو بـرزسفسكي الـرئيس العراقي بـالتزام الحكـومة الأمـريكيـة بـالحيـاد الإيجابي تجاه العراق في الحرب القادمة عند شط العرب .

عندما أعطى مستشار الأمن القومي لجيمي كارتر هذا الوعد ، كان يومن بنظرية الإنتصار العراقي السريع ، أفلم يطلق الخوميني الـرصاص على القـواد

المرموقين للجيش الإيراني . ولما تم تعيين قـواد جدد مخلصين للعقيـدة ، لم يكن من المؤكد الإعتماد على ولاء الجنود تجاه أنصار الخوميني المخلصين ، أفلم يقسم هؤلاء الجنود على الولاء للشاه . ولم يعتقد المراقبون الأجـانب أن الهجوم العراقي سوف يحر تضامن كل الإيرانيين حتى من أعداء الخوميني وكانوا مؤمنين أن حكم آية الله والموالي لا يقـوم على أساس شعبي وأنـه سوف ينهـار وحقيقة استطاعت قيادة الجيش العراقي الإعلان عن انتصارات لها : ففي اليوم العاشر للقتال تم احتلال ١٠,٠٠٠ كم٢ من الأراضي الإيرانية ولم يلق الفاتحون مقاومة جادة .

وفيما يبدو فإن القيادة السياسية الإيرانية لم تأخذ الإشارة ، التي أعطاهـا صدام حسين من خلال تمزيقه لمعاهدة الجزائر علناً على محمل الجـد ، ولم تصدر أية تحذيرات إلى القواد على الحدود من هجوم عراقي . وقد قابل الشعب أيضاً ضربة العراقيين بدهشة بالغة . فهرب بدافع البحث عن الأمان ، إلى داخل البلاد ولكن لم يظهر تحالف الناطقين بالعربية في لورستان وخوزستان مع الجنود العراقيين والذي كان صدام حسين يأمل فيه. أما خوميني والذي لم يتكتم أبداً أنه لا يفهم شيئاً في قيادة الجيش وفي الضرورات العسكرية ، فقد أدرك أن إنقاذ الجمهورية الإسلامية لن يتم إلا من خلال تعبئة الجماهير . فاستخدم من دعايته العنصر الديني الذي يؤثر على الشيعـة على أكمل نحـو : استشهاد الحسين ، الإمام الثالث، ففي أول خطبة له بعد بداية الحرب قال الخوميني : « الآن تعود كربلاء ، الصراع بين الخير والشر وهذه المرة سوف ينتصر الخير » .

وبهذا ناشدت السلطة الحاسمـة لكل شيء في الـدولة ، ضمـائر رجـال الشيعـة بالإقتـداء بكفاح الشهيد الحسين . فقدم مئات الآلاف أنفسهم إلى رجال الدين في الجوامع ليقاتلوا في سبيل الإمام الثالث ، وكانت قلة قليلة منهم مدربة عسكرياً ، ولكن الجميع كانوا مدفوعين بالإستعداد للموت وبـالرغبـة في القتل قبل أن يموتوا . وعند أول معركة هامة عند عند خـوارمشار أمكن معرفة مـا إذا كـان الشباب المؤمنين غيـر المدربين والمسلحين تسليحـاً سيئـاً ، يستـطيعـون ضمـان بقاء الثـورة الإسلاميـة على قيد الحيـاة . وقد قـامت القوات النـظامية

الإيرانية قليلة العدد بإخلاء المدينة على شط العرب لتفادي خطر الفناء . إلا أن طلائع المتقدمين قد وصلت من الأهواز وكانت هي المدينة التالية التي يريد صدام حسين الإستيلاء عليها . ودافع مقاتلو الأهواز عن أنفسهم مؤمنين بحتمية الدفاع عن الوطن ضد الغزاة . وكانت خسائرهم جسيمة إلا أن الجيش العراقي فقد الآلاف من جنوده . وكان من أهم النتائج هو خذل ثقة العراقيين بتفوقهم على العصابة الشيعية . . .

ومنذ منتصف اكتوبر ١٩٨٠ لم تنجح قيادة الجيش العراقي في تطوير الهجوم وأتت تعبئة الخوميني للجماهير ثمارها. ويضاف إلى ذلك أن العراقيين أدركوا أن النصر حليف الجنود الذين هم على استعداد للموت حقاً . فتفوق التسليح كعنصر حربي لا يعادل الإستعداد للإستشهاد . فالموالي وعدوا المقاتلين الذين ينتظرون الشهادة بالجنة والشهيد الحسين الإمام الثالث ، الذي كافح ضد حكم الظالم يزيد ينتظر شهداء الحاضر فاتحاً الذراعين . ومن يقاتل في سبيل الثورة الإسلامية فهو يدافع بروحه عن قضية أهل بيت النبي ﷺ ، لأن الخوميني في النهاية « كسعيد » هو أحد أفراد الجماعة المفضلة من البشر . التي لها الحق في طلب الطاعة من المؤمنين . ويدفع الموالي بأن رجل العراق القوي هو الخليفة يزيد المسؤول أمام الله عن موت الإمام الثالث .

على هذا النحو من الدعاية كانت محاولة محطات الإذاعة الإيرانية عند الحدود بلبلة أفكار الجنود العراقيين الشيعة بقصد حثهم على ترك وحداتهم ، إلا أن عدد العراقيين الهاربين من الخدمة العسكرية ظل ضئيلاً .

وها هو أثر الصراع القائم من عدة قرون بين الفرس والعرب يرجح كفة نظام حكم صدام حسين . فبالرغم من أن الشيعة العراقيين يبجلون بالتأكيد آية الله روح الله خوميني كزعيم ديني سياسي إلا أنهم لا يستطيعون تصور الحياة مع الإيرانيين في ظل دولة شيعية واحدة . وإذا ما كان الخوميني قد أمل في قيام الشيعة العراقيين بإزاحة صدام حسين ، فإنه يكون ضمن هؤلاء الذين أخطأوا تقديرات الحرب بين إيران والعراق. إلا أن الخوميني تمسك طويلاً بوهمه هذا ، بل إنه تضخم عندما استطاع المقاتلون الإيرانيون إحراز

انتصارات ، عندما استطاعوا مثلاً ـ تحرير مدينة خورامشان . وقد وقع هذا بعد خمسة عشر شهراً من الحرب . ومنذ وقوع هذا الحدث والإيرانيون يندفعون إلى أرض العراق . وقد أحرزوا انتصارات إلا أنهم كان يضطرون مراراً لتحمل مراحل حروب الاستنزاف . فكل هجوم جديد كان يكلفهم عشرات الآلاف من الضحايا وكانت قيادة الجيش قد قامت قبل أحد الهجمات بتخزين ٥٠ ألف نعش خشبي ـ مصنوعة بطريقة بدائية ـ خلف الجبهة مباشرة وكان أن استخدم معظمها بالفعل . وكان معظم القتلى من أسر الطبقة الفقيرة في إيران وذلك لأن شبابها هو الذي بدأ بالتقدم إلى القتال على الجبهة . ويرجع هذا لأن هؤلاء الشباب ظلوا المناضلين في سبيل الخوميني أثناء الثورة ، وعندما تم إحراز النصر ، لم يكن لديهم ميل كبير لتعليم مهنة فقد شعروا أنهم « حراس الثورة » وكانوا يريدون القتال في الجبهة بهذه الصفة . أما ابناء العائلات الأرستقراطية فقد شاركوا بنحو أقل في أحداث الثورة، وبعد نشوب الحرب كانوا غالباً ما يستغلون فرصة سنحت لهم عن طريق ثراء عائلاتهم : سافروا خارج البلاد مترقبين نتيجة التطورات في الداخل .

المعارضة من بين أنصار الخوميني

أحضر الخوميني معه من منفاه الباريسي شاباً كان يعاونه في صياغة إعلان مبادىء السياسة المقبلة للجمهورية الإسلامية وكان هذا الرجل يدعى أبو الحسن بني صدر . وطبقاً لرغبة آية الله انتخب أغلبية الإيرانيين بني صدر رئيساً للدولة . وكان تأييد الخوميني قد حث ٧٥٪ من الناخبين لإعطاء أصواتهم لحسيب آية الله هذا . وبذا تغلب بني صدر على مرشح آية الله بهشتي . وكان العالم الكبير هذا يرى أنه طبقاً لمرتبته سيكون خليفة للخوميني. فكانت هزيمة مرشحه درساً قاسياً له . وصار بني صدر في ٤ فبراير ١٩٨٠ أول رئيس للجمهورية الإسلامية ، وفي نفس الوقت القائد الأعلى للجيش الإيراني إلا أنه لم يكن للقائد الأعلى للجيش خبرة بإدارة الحرب، تماماً مثل الخوميني، فلم يستطع الحكم على استراتيجية وتكتيك ضباطه ، وكانت نتائج أوامره تخفى عليه . وهكذا صار بني صدر لا ينظر إلى جيش يقترب عدده من النصف مليون رجل على أنه أداة لإحراز النصر في الحرب ، بل كعنصر قوي لنجاحه الشخصي . وكانت الطبقة الغنية ، التي ترغب في نهاية قريبة للحرب، كان أملهم في بني صدر يزداد دائماً باعتباره مخلصاً لهم من قبضة الموالي المحكمة . وكان الخوميني قد تنبأ بهذه التطورات ، فقد نصح نصيره. عند تسلمه منصب الرئاسة بألا يقع في حبائل « عرش الدنيا ». وكان الخوميني يرى أنه من الجائز أن يكون البغض غير مناسب في منصبه الكبير في الدولة الإسلامية ، إلا أنه عندما يكون هذا الرجل أكثر تمسكاً بالإسلام من الرجل المناسب ، فإنه يتم تفضيله . أطاحت مثل هذه

التصريحات بوهم بني صدر بأن الخوميني هو الزعيم الصالح لقيادة الدولة الإسلامية في المستقبل . وكلما كان الخوميني يسقط في يد بني صدر ، كلما قل اعتبار هذا الحسيب رئيساً حقيقياً للدولة ، والذي صار الآن لا يحكم بأي حال من الأحوال كرئيس للدولة ـ فسلطة الخوميني كانت تعلوه بكثير . كان أساس الحسابات الطموحة لرئيس الدولة يقوم على أن الحرب لا يمكن أن تقوم بدون الجيش ـ وكان هو في نفس الوقت القائد الأعلى للجيش . وكان لا بد وأن تتعاظم تلقائياً أهمية الجيش وقيادته أثناء الحرب ، وكذلك الخوميني كان مضطراً إلى أن يرى أنه بلا دعم حليف مسلح ، الجيش ، يكون قد وقع صاغراً تحت رحمة خصومه ولكي يتخلص تدريجياً من نفوذ الخوميني ، صار القائد الأعلى للجيش لا يقيم غالباً في العاصمة ، وإنما على الجبهة . ومن هناك كان يرسل لصحيفة في طهران كل يوم تقريباً بتقارير يعبر فيها عن رأيه في مسيرة الحرب والسياسة ومن تقرير لآخر صار ذكر الزعامة السياسية لآية الله الخوميني يتضاءل بينما يتزايد ذكر القيادة التي منحها هو ـ بني صدر ـ إلى الثورة الإسلامية وبهذا فتح الرئيس والقائد الأعلى للجيش الباب لنقده من قبل آية الله بهشتي ، الذي لم يوجه اللوم إلى المحسوب فقط بل إلى حسيبه أيضاً . وسرعان ما كان بني صدر نفسه يهاجم خوميني . ففي مقالاته صار يكتب بصراحة أن الثورة الإسلامية والجمهورية الإسلامية تابعتان لشخص الخوميني على نحو خطر إلا أن هذا سيكون له أثره السيىء عندما يكون على الجمهورية أن تستمر بدون خوميني . واعتقدت دوائر كثيرة من البرجوازية أنها تستطيع رؤية بوادر إنقلاب قيادة الجيش على الموالي ومثل هذه الثورة كانت ستعم من قبل حزب تودة ذي الإتجاه اليساري : ولم تظل الإشاعات في البازار خفية على آية الله . وعندما ظهر الخوف من أن يقوم التجار بإضراب لدعم بني صدر هدد الخوميني بأنه سوف يتحرك كما تحرك ضد الشاه ذات يوم . وتم اعتقال رجال اشتبه في أنهم يريدون عزل خوميني سياسياً ثم انتهى خوميني إلى قرار بعزل القائد الأعلى للجيش . وهنا ظهر لبني صدر أن القوات المسلحة ستقف إلى جانبه الآن بصراحة ، إلاّ أنه لم يحدث شيء من هذا القبيل . ولم يبق أمام المتمرد إلا الهرب إلى باريس . ومن أجل هذا قام أقرب المخلصين له باختطاف طائرة

مدنية إيرانية من مطار مهرباد بطهران .

كانت الحرب بين إيران والعراق تخفي الصراعات في طهران عن عين المراقبين ولكن في ٢٠ يونيو ١٩٨٠ تتفجر عبوة ناسفة ضخمة في المقر الرئيسي للحزب الجمهوري الإسلامي والذي يمثل حق رجال الدين في القيادة السياسية . ومات منافس الخوميني بهشتي ، ومات معه سبعون رجلاً لهم أهميتهم في الدولة الإسلامية . ونجا هاشمي رفسنجاني رئيس البرلمان ، ومحمد علي رجاوي رئيس الوزراء ، لأنهما كانا قد غادرا المقر الرئيسي ـ الواقع في جنوب طهران ـ قبل الإنفجار بقليل .

وبهذا يكون قد بقي على قيد الحياة اثنان على الأقل من الشخصيات الهامة وهكذا استطاعت الدولة أن تبقى قادرة على العمل . فقد حرص مرتكبو هذا العمل على القضاء على القيادة العليا للدولة الإسلامية بكاملها ولو كان قد مات بالإضافة إلى بهشتي ، كذلك رئيس البرلمان ورئيس الوزراء ما كان سيبقى لدى خوميني أحد ليحول معنى وروح تعاليمه إلى حقيقة سياسية . وهكذا تم إنقاذ ثورة خوميني بأعجوبة مرة أخرى . وعرف آية الله كيف يستغل هذا الإنقاذ : لم يشأ الله أن تقع الدولة القائمة في سبيله ، ضحية للعدو والشيطان ولكي يتم الإنقاذ كان لا بد أن يضحي بعض أغلى الرجال بأنفسهم ، منهم العظيم آية الله محمد حسين بهشتي ، الذي مات شهيداً . مات محمد حسين بهشتي شهيداً مثل الشهيد الحسين ورفاقه في كربلاء . وباسم هؤلاء الشهداء سوف نواصل الكفاح وواجبنا هوالانتقام للشهداء. واتجهت نزوة الإنتقام ضد أعضاء المنظمات ذات الإتجاهات اليسارية التي كانت جميعاً حلفاء للموالي في مرحلة الثورة وقبل خلع الشاه وقد اشتبه الخوميني في « مجاهدي خلق إيران » بالذات . وكان قد أحس في بداية الثورة أن « مجاهدي خلق إيران » هؤلاء لا يريدون الإقرار بسلطته على أية حال . فالمجاهدون كانوا يريدون دولة لا يكون الموالي هم أصحاب القرار فيها . وكانت نفس الفكرة لدى الـ « فدائيين » الذين يعتقدون بإمكانية الجمع بين الماركسية والمذهب الشيعي . وكانت منظمة « فدائيين » متعاطفة تماماً مع حزب تودة المخلص

لموسكو ، والذي قدم خدمات قيمة بسبب تنظيمهم القوي لثورة آية الله . أما الآن فكان النسيان قد طوى الماضي ، فحلفاء الماضي صاروا « أمراء الله » يجب استئصال شأنهم . فتم اعتقال وتعذيب وقتل قيادات « حزب تودة » المعروفة. إلا أن موجة الإرهاب لم يحد منها إرهاب الدولة المضاد : ففي ٣٠ أغسطس ١٩٨١ أي في نفس الصيف . تطيح عبوة ناسفة بالمقر الرسمي لرئيس الوزراء محمد علي رجاوي . وفي هذه المرة يقتل رجاوي الذي اختير قبل ذلك مباشرة لمنصب رئيس الدولة. وقتل معه خليفته في منصب رئاسة الوزارة. فأعلن الخوميني بألا يرحم أحد تحوم عليه شبهة « عداء الله » ولو من بعيد . وكانت النتيجة فيضان من عمليات الإعدام . تمت في سجن ايفين بطهران ـ تم معظمها بعد تحقيقات سريعة ، لا يمكن أن تكون حتى جزء من محاكمة . وطلب من الشعب أن يكون واعياً ، وأن يكشف كل « أعداء الله ». ولأول مرة منذ بداية الثورة الإسلامية يموت أيضاً الموالي والذين يتقدموا خط المظاهرات حتى سقوط الشاه ، فكان مكان حركتهم هو الجامع . والآن صاروا يقتلون ويجرجرون في الجوامع .

وكان « مجاهدين » هم الرجال الذين اعتبروا أن الخوميني لم يقطع شوطاً كافياً في طريق الإشتراكية . وكانوا شيعة مؤمنين وكانوا موقنين ـ على الأقل معظمهم ـ بأن الإمام الثاني عشر ـ الغائب ـ سيقيم حكومة العدل . إلا أنهم لم يعودوا يثقون في الموالي . ولكن عندما اكتسب الموالي أتباع خوميني قوة داهمة أثناء شهور نشاط الكفاح ضد الشاه ، كان الـ « مجاهدين » مضطرين للإقرار بقيادة الموالي للثورة . وعندما تم القضاء على الملكية . كان الـ « مجاهدين » سيعتبرون أنهم قد جنوا ثمار كفاحهم ، لو أن إعلان « جمهورية إيران » قد تم بدون إضافة « إسلامية » إليه . لكن الخوميني والموالي لم يشاءوا العودة إلى الجوامع والكتاتيب . فقد أرادوا الحكم السياسي « تماماً مثلما قاد محمد الإمام الثالث الشريف المؤمنين في الماضي ».

وهكذا لم يعتبر « مجاهدي خلق إيران » الثابتين على موقفهم ، أن ثورة فبراير ١٩٧٩ قد انتهت بالنسبة لهم . فقد شاءوا انتصار الإشتراكية وليس صعود

نجم حكم الدين ولهذا بدأوا في قتل رجال الدين . وقام « حراس الثورة » بالرد بلا رحمة . فتطور الأمر إلى حرب أهلية يقتل فيها الآلاف بينما الرأي العام يحصي قتلى « الحرب الكبيرة » التي كانت تجري على شط العرب بلا انقطاع . ولكن الإيرانيين أنفسهم كانوا يرقبون الصراع الداخلي باهتمام أكبر فنتيجته كانت ستحكم في شكل الدولة التي يعيشون فيها . فإذا انتصر الـ « مجاهدين » كان الموالي سيتركون البرلمان والحكومة وسيعيش الإيرانيون في جمهورية ، وعدت بإقامة العدل طبقاً لمبادىء اشتراكية شيعية . أما البورجوازية التي دعمت الخوميني ضد الشاه في الماضي ، كانت ستسعد بانتصار « مجاهدي خلق إيران » ، لكنها رأت أن « حراس الثورة » التابعين لخوميني ـ بمرور الوقت ـ يتفوقون على الـ « مجاهدين » .

الشياطين « أمريكا - إسرائيل » يُساعد الجمهورية الإسلامية

ظهر أثر تورط « حراس » الخوميني في الصراع مع الـ « مجاهدين » على الحرب مع العراق . فلما كانت هناك حاجة لقيادات « حراس الثورة » في طهران والمناطق الهامة الأخرى - في القتال ضد اليساريين لم يبق لديها - لدى القيادات - وقت أو قوة تقاتل بها العدو الخارجي . فاضطرت لترك الجبهة للضباط النظاميين .

وبعد النجاح في المعارك الدفاعية الأولى بعد بداية الحرب مباشرة تعاظمت أهمية المقاتلين - الشبان غير المدربين - في نفوس الموالي والعائلات الكثيرة للطبقة الفقيرة في جنوب طهران . وصار جيش الثورة هو الطفل المدلل لدى الموالي . وكانت هناك مناقشات تدور بالفعل حول ما إذا كان من الأفضل إلغاء الجيش النظامي الذي أنشأه الشاه ، بسبب عدم الثقة في الضباط. وكان محمد رضاوي قائد « الحراس » يعتبر نفسه بالفعل قائداً لكل الوحدات المسلحة في الجمهورية الإسلامية .

ومن خلال إعجاب رجاله الشبان به ، اعتقد أنه سيكون قريباً محرر مدينة القدس ، أما احتراق الجبهة العراقية فلن يمثل مشكلة إن تم الهجوم على مواقع العدو بمليون رجل وإمرأة مستعدين للإستشهاد . أما الضباط فكانوا ينتظرون مرتقبين عودة محسن رضاوي إلى طهران فنسي الجبهة وكان سعيداً لأن الجيش كان لا يزال يحتفظ بقوة الضباط .

وكان الجيش من قبل يعمل بلا خطة بل طبقاً لمجريات الأمور يوماً بيوم . أما الآن فقد صار هناك هيئة أركان حرب ـ تكونت حديثاً . قامت بوضع استراتيجية في التخطيط لها لتكون صالحة على المدى البعيد .

وعادت روح الحماس مرة أخرى إلى الجنود الذين كانوا يشعرون أن « الحراس » يراقبونهم بل ويرتابون فيهم . وكانت النتيجة أن تغير الموقف على الجبهة : فبالرغم من أن الجماهير غير المدربة قد أوقفت تقدم العراقيين إلا أنه صعب عليها استعادة المناطق المختلفة أما الجنود النظاميون فكانوا واثقين من أنهم سيحققون باحدهم هذا الهدف بالذات . وكان هناك مبرر لثقتهم هذه : فقد كانوا يعرفون أن ضباطهم سينجحون في وضع برنامج للتسليح يسدون به الثغرة الموجودة في الترسانة الإيرانية . أما أساس هذه الثقة فكان قائماً على الاتصال الممتاز المستمر بين الضباط ـ المدربين في عهد الشاه ـ وبين زملاءهم الإسرائيليين . وقد نشأ هذا التعاون من خلال إدراك أن كلتا الدولتين غير العربيتين إسرائيل وإيران لا بد أن يتبادلا التجارب والمعارف من أجل مصالحهما الخاصة المشتركة . وبهروب الشاه كان التعاون الرسمي بين قيادة الجيش الإسرائيلي والإيراني قد انتهى ، إلا أن الاتصال ظل مستمراً ، ولم يمنعه الخوميني . بل إن الظروف أجبرته أن يطلق يد الضباط تماماً في التعامل مع زملاءهم الإسرائيليين ، وبالرغم من أن الخوميني استمر في إعلان عداءه الأبدي « للشيطان الإسرائيلي » أن أضطر للإعتراف أن جيش الجمهورية الإسلامية لا يستطيع القتال بنجاح دون المساعدة الإسرائيلية .

أما الذي ظل متكتماً لمدة طويلة فكان وجود مستشارين إسرائيليين في القواعد العسكرية الإيرانية مباشرة . سراً ـ ولكن رسمياً للغاية ـ كانت إسرائيل منذ هذا الحين تساعد جيشاً ، كان واجب في النهاية وضع القدس تحت السيطرة الإسلامية ، أما مناحيم بيغن رئيس الوزراء الإسرائيلي أثناء المرحلة الأولى للصراع الإسرائيلي ـ الإيراني ، فكان لا يأخذ هذا الهدف النهائي للقيادة الإيرانية على محمل الجد وكان لا يفكر إلا في أن الجيش الإيراني وُضع في

موقف لتقييد الجيش العـراقي ـ الذي يمكن أن يحـارب إسرائيـل في زمن ما ـ وشل حركته والقضاء عليه إن أمكن .

كـان هـذا التحـديـد للمبـدأ السيـاسي هـو الـذي مكن رئيس الـوزراء الإسـرائيلي من إصـدار أوامـره بـإستمـرار عمـل المستشـارين العسكـريين الإسرائيليين بالرغم من احتجاز مواطنين أمريكيين كرهائن في سفارة الولايـات المتحدة لطهران . ولم تعترض حكومة الولايات المتحدة على ذلك فبمسـاعدة الإسرائيليين ظل الباب مفتوحاً أمامها لإجراء محادثات مع الشخصيات المؤثـرة في الجمهورية الإسـلامية ، فكـان المسؤولون في وزارة الخـارجية والبنتاجون يعـرفون أن مـوقف الولايـات المتحـدة تجـاه السلوك العـدواني الإيـراني ليس بالضعف الذي يبدو للعيان . فكان الخوميني يريد أن ينهي الحرب بانتصـار أو على الأقل الإطاحة بالـرئيس صدام حسين وكـان لا يمكن تحقيق هذه الأمنيـة بدون سلاح ، وكان الجيش تابعاً لأمريكا تماماً في مجال التسليح . وقد حـدد جنرال موردخاي غور القائد السابق للسلاح الجـوي الإسرائيلي ، هـذه التبعية هكـذا ! « في عهد الشـاه قامت شـركات مكـدونال دوجـلاس وبل وجريمـان وسيكورسكي بناءً على نداء الحكومـة الأمريكيـة بتقديم الفنيين لكي يحـافظوا على مقدرة السلاح الجوي الإيراني على الطيران . وعندما اضطر الشاه للرحيل رحل هؤلاء الفنيين أيضاً . وكانوا هم الذين يطلبون قطع الغيار الضرورية حتى ذاك الحين ، أما الآن فلا يوجد أحد لديه هذه المقدرة . وإذا ما انقطع التزويد بقطع الغيار وإذا توقفت الصيانة صارت الطائرات المقاتلة من طراز أف ـ ١٤ غير قادرة على الطيران بعد فترة قصيرة » .

أما المعيار الزمني للصيانة فكان ، إن هذا النوع من الطائرات يحتاج إلى حوالي ٢٥ ساعة اختبار وصيانة من أجل الطيران لمدة ساعة واحدة فقط . وهذا يعني بالنسبة للسلاح الجوي الأمريكي أن ثلث الطائـرات فقط هو الـذي لديـه استعداد للطيران ، أما الثلثان الآخران من الطائـرات فيكون مـوجوداً في عنـابر الصيانة ، ولما كان سلاح الجو الإيراني مرتبـطاً بالمعيـار الأمريكي فـلا بد أن يكون بديهياً أن الطائـرات التي لا تقدم لهـا الصيانـة على الإطلاق تكـون غير

صالحة للإستخدام في القتال بعد أقل من ثلاثين يوماً . إلا أنه ثبت أن الطيارين الإيرانيين قد قاموا بواجباتهم بعد أسبوعين من بدء المعارك على شط العرب . وكان الذي مكنهم من هذا هو المساعدة الإسرائيلية التي سمحت بها الحكومة الأمريكية .

ولم يقتصر دعم الجيش الإيراني بواسطة إسرائيل ـ التي كانت أداة لأمريكا في هذا المجال ـ فقط على السلاح الجوي بأية حال من الأحوال . بل شمل أيضاً القوات البرية بالذات . ففي عام ١٩٨٣ يتم بيع ١٥٠ دبابة من طراز (M. 48A5) من المخزون الإسرائيلي لإيران ، وأكملت صفقة الدبابات بتوريد صواريخ كانت قديمة ـ طبقاً لتقديرات الحلف الأطلنطي ـ إلاّ أن الجنود الإيرانيين رحبوا بوصولها . ولما كان لا يجوز للحكومة الإسرائيلية والإدارة الأمريكية في واشنطن أن يتورطا رسمياً في صفقات سلاح لصالح بلد يعتبر طبقاً لتصور الحكومتين قاعدة للإرهاب الدولي ، كان لا بد من توسط أفراد من تجار السلاح . وكان رجال الأعمال الفرنسيون بالذات هم الأفضل بالنسبة لإيران . فقد كان لديهم قائمة طلبات العملاء الإيرانيين وكانوا يعرفون كيفية تلبية هذه الطلبات : فقد عملوا مثلاً على توفير إطارات للطائرات الإيرانية المقاتلة طراز فانتوم (اف ٤) من مخازن احتياطي إسرائيل ووصلت بالفعل في أكتوبر ١٩٨٠ . وقد تمكن وزير الدفاع الإيراني جنرال أمير فويد من خلال وساطة فردية عام ١٩٨١ من الحصول على ذخيرة للمدفعية والرشاشات وكذلك صواريخ مختلفة النوع والعيار من المخازن الإسرائيلية بمقدار ١٣٥ مليون دولار تقريباً. وتم تسليمها للمشترين الإيرانيين في روتردام . ولم يحاول أرييل شارون إخفاء (خط التسليح الإسرائيلي ـ الإيراني). فقد قال في أبريل ١٩٨٤ « من المؤكد أن خوميني واحد من أعدى أعداء إسرائيل حقيقة : إنه يريد القضاء علينا ولكن بما أن هناك حزباً قائمة على شط العرب فإنه ليس بوسعنا أن نريد أن ينتصر العراق ، فالعراق أيضاً عدو لدود لدولة إسرائيل ، والعراق أقرب لأراضينا من إيران . فإذا انتصر العراق فسوف يحدث شيء آخر ليس في صالحنا ؛ فسوف يقوم السوفييت بمساعدة الإيرانيين . وهذا ما تخشاه الولايات المتحدة ، لأن

هـذا سوف يعني أن مـوسكو ستعـود مرة أخـرى إلى منـطقـة الخليـج العـربي (الفارسي) ». كان لهذا التصريح ، من فم أرييل شارون ، وزنه وظل ذا أهمية حتى بعد ترك شارون لمنصب وزير الدفاع في دولة إسرائيل . فكان أن اتخـذ زملاء الجنرال من كلامه إذناً لإبرام صفقـات شخصية مـع إيران . فصـار هناك طابور من الجنرالات لديه مسحة من الوقت للتوسط في صفقات بيع السلاح .
وكان من بينهم جنرالات تجاوزوا سن الخمسين. فمن تقاليد الجيش الإسرائيلي أن يحوِّل الضباط الكبار في هذا السن ـ أو أقل ـ إلى المعاش وكانت لديهم ميزة يتفـوقون بهـا على تجار السـلاح الآخـرين : فهم يفهمـون في البضـاعـة التي يتوسطون في بيعها أو شرائها . بالإضافة إلى ذلك كان الجنرالات المتقاعدون على علاقة بزملائهم العاملين في كل من إسرائيل والولايات المتحـدة وكذلـك في إيران . وهم يعرفون أيضاً أي سلاح قد تم الاستغناء عنه وأي سلاح جديد حل محله . وأي سلاح صار قديماً بالمعنى الفني ولكن ما زال صالحاً كبضاعة ضمن « المبيعات الفائضة » وكان الجنرالات يستندون على نحو خاص جداً من صلتهم بالأجهزة الأمريكية المختصة بمنح ترخيصات تصدير الأسلحة الأمريكية وكـان المسؤولون في تلك الأجهـزة هم الذين يصـرخون بشحن الأسلحـة إلى إسرائيل ، وكـان هم الذين يـوافقون على مـا إذا كانت الـدبابـات والصواريـخ الأمريكية ستخرج منها إلى بلد آخر . وإذا تم احترام كـل القواعـد التي سنتها لجان البرلمان الأمريكي فإن هذا السلاح لا يخرج عن الحدود المرسومة لـه .
إلا أن الجنرالات المتقاعدين كانوا على خبرة بالأمور في أروقة الأجهزة الرسمية في واشنطن . وهكذا حدث أن تم توريد أكثر من ١٠٠ دبابة طراز (M.48) من المخزون الإسرائيلي إلى الجيش الإيـرانى ، بدون كلمـة اعتراض واحـدة من جانب الحكومة الإيرانية . وفي هذا الوقت بالـذات كانت الحكـومة الأمـريكية تبذل مجهودها لحث دول العالم المنتجة للسلاح على مقاطعة إيـران . فقد تم إدانة نظام خوميني بأنه يحمي ويدعم الإرهاب ولهذا يجب تحريم التعامل معه وكانت حكومة ريجان تأمل الا يشتري أي بلد من العالم بترولاً من إيران ، وألا يقبل أي بدل أن يساعد النظام الإرهـابي في إيران على الخروج من مأزقه ، وتم تكليف رتشارد فيربـانكس مبعوث خـاص بمهمـة الوصـول إلى تضامن البـلاد

الصناعية في هذه المسألة . أما الدوافع لمهمة فيربانكس فكان : إن الجمهورية الإسلامية قامت في عام ١٩٨٥ بتأسيس مكاتب في المدن الهامة بأوروبا وأمريكا الجنوبية وكذلك في واشنطن وسنغافورة وطوكيو ، يتم فيها الاتصال بعملاء إيران لشراء الأسلحة. وكانت عناوين هذه المكاتب معروضة . وقد ثبت أيضاً أنها كانت أيضاً مزاداً للتجار ذوي النشاط العالمي في تجارة الأسلحة . وقد صدرت الأوامر لفيربانكس بالإشتراك مع الوزراء المختصين في البلاد المعنية في وضع خطوات قانونية لإغلاق مكاتب شراء الأسلحة هذه ، إلا أن تحقيق مهمته هذه قد صار صعباً لأن الحكومات التي كان يريد اشراكها في هذه الخطوات ، كانت قد أبلغت بواسطة رجال مخابراتها بالإشاعات حول وصول الدبابات الأمريكية إلى ايران عن طريق إسرائيل . وكان المبعوث الأمريكي الخاص يقابل بكثير من الشك حين يزعم أن حكومته لا تعرف شيئاً عن بيع دبابات طراز (M.48) إلى إيران . اتبع مستشارو البيت الأبيض في سياستهم تجاه إيران طريقين متوازيين عن قصد وعمد : فرسمياً كان ينادون بضرورة تنفيذ مقاطعة صارمة . وعلى الصعيد غير الرسمي لتجارة السلاح العالمية كانوا يتيحون الفرص لتزويد إيران بالأسلحة وكان يسيطر على منهجهم فكرة أن آية الله العجوز لن يعيش طويلاً . فقد تخلفه قوى معتدلة . وكان من المهم للغاية أن يتم الاتصال بهؤلاء الحلفاء . ولن يشجع الموقف المتشدد من مسألة التزويد بالسلاح هؤلاء المعتدلين لكي يسقطوا شعار « لا محاورات مع الشيطان أمريكا » وقال مستشارو ريجان لرئيسهم بأنه يجب اعتبار مبيعات الأسلحة إجراءً يبعث الثقة بشأن تطبيع العلاقات مع إيران في المستقبل ـ وعلى المسؤولين الأمريكيين أن يفكروا في عهد ما بعد الخوميني . وكذلك تحمل آية الله أن يتبع مستشاروه سياسة ذات محورين فالدعاية الموجهة للشعب الإيراني توهم الولايات المتحدة بأنها « الشيطان الأكبر » الذي يسبب شقاق الولايات المتحدة بأنها « الشيطان الأكبر » الذي يسبب شقاقاً في العالم ، أما أثناء المحادثات مع ممثلي الحكومة الأمريكية ـ وكان معظمها يجري في جنيف أو باريس أو لندن ـ كان مبعوثو طهران يشيرون إلى أن التراجع السريع في الموقف تجاه الولايات المتحدة سيضعف فهمه على الشعب في إيران وكان المهم فقط في ذاك الحين ، هو ما

يقـرره المجلس الأعلى للدفاع في الـدولة الإسـلاميـة . وكـان هـذا المجلس مستعداً لتقديم تنازلات كبيرة للولايات المتحدة إذا أمكن الإستمرار في تزويـد إيران بالأسلحة رسمياً وغير رسمياً وكان من بين التنازلات المحتملة الوعد بقطع كل الإرتباطات بالمنظمات والأشخاص الذين لهم علاقة بالإرهاب . وفي النهاية تم قبول الإقرار كتابة لقسم التنازل عن كل نوع من استخدام الإرهاب أو دعمه . وقد استطلب مثل هذه التنازلات في واشنطن بالإرتياب ، إلا أن الميل لمساعدة الجيش الإيراني صار يزداد قوة أما المبرر لهذا فكان لدى المخابرات الأمريكية التي أشارت إلى أنه ليست الولايات المتحدة فقط هي المورد الوحيد للسلاح بل هناك أيضاً الصين والاتحاد السوفييتي فكلا البلدين عرضا تقديم طائرات مقاتلة من طراز ميج ٢١ . وكان قواد « حرس الثورة » مستعدين تماماً لشراء طائرات من الطراز السوفييتي ، لتجهيز وحداتها الجويـة الخاصـة بها . ولكن المحـاولات الأولى للطيران بهذه الطائرات أظهرت عيوبهـا ، فاستهـلاكها للكيـروسين كان ضخماً ، وكان ملفتاً للنظر هـذا العدد المـرتفع لسـاعات الصيـانة مقابـل عـدد سـاعـات الـطيـران ـ كـان هـذا العـدد يفـوق العــدد الأمـريكي بكثيـر ـ وكـان مستشـارو الـرئيس الأمـريكي قـد تكهنـوا بخيبـة أمـل الخبـراء الإيــرانيـين ، إلاَّ أنهم انـزعجـوا لفكـرة أن « حـراس الثـورة » الخـومينيـين يستـطيعـون التسليـح بسـلاح سوفيتي ، وربمـا أيضاً الإعتمـاد على مـوسكـو سيـاسيـاً ، وقـد عمـل الجنـرالات الإسرائيليـون على زيادة هـذه المخاوف وقـد وجـدوا في زمـلائهم الأمريكيين آذاناً صاغية وفي خريف ١٩٨٥ كان التقارب بين الوفـود الأمريكيـة والإيرانية يزداد بسرعة في ظل هذه الظروف النفسية . فتم إبرام إتفاقات توريد ١٠٠٠٠ صاروخ مضاد للدبابات طراز (Tow) و٤٠ طائرة مقاتلة طراز أف ٤ ، إلاَّ أن تنفـيـذ الصفقـة حـال دونه أجهـزة جمرك نيـويورك في ربيـع ١٩٨٦ ، والتي لم تعتقد أن تصدير الأسلحة إلى إيران عن طريق إسرائيل يخدم مصالح السياسة الخارجية الأمريكية ، وبجهد واضح نجح بعض الأعضاءفي الحفـاظ على سرية الموضوع ، وتوقف تصدير السلاح هـذه المرة . إلا أنـه سرعـان ما انفتحت طرق جديدة . ففي منتصف سبتمبر ١٩٨٥ كانت هناك إشاعات تـدور في عواصم الدول الأوروبية عن قيام طائرة مجهولة بنقل أسلحة من إسرائيل إلى

مطارات إيران . وبعد قليل صار معروفاً أن اثنين من هذه الطائرات كانت ناقلات من طراز (DC8) وبوينج ٧٠٧ وفيما يبدو كانت ملكيتهم قد تغيرت عدة مرات أثناء الأسابيع الأخيرة . وقد لوحظ أن الطائرة (D C 8) على الأقل قد قامت برحلات مكوكية بين تبريز وتل أبيب ولم يكن من المستطاع إخفاء عملية الشحن تماماً في تل أبيب : كانت شحنة الطائرة عبارة عن صواريخ (TOW) المضادة للدبابات ، وكشفت « لجنة تاور » التي كلفها الكونجرس الأمريكي فيما بعد باستقصاء حقيقة هذا الأمر ، أن توريد الصواريخ المضادة للدبابات وعدد كبير من الصواريخ المضادة للطائرات « هوك » - والتي لم يشعر أحد بشحنها . قد تم الإتفاق عليها بين مستشار الأمن القومي للرئيس الأمريكي روبرت مكفرلين وبين وزير الدولة الإسرائيلي دافيد كيمش . وكان من القوى المؤثرة الكولونيل الشاب أوليفرنورث والذي كان أحد معاوني مستشار الأمن القومي مكفرلين . وقد اعتقد أوليفرنورث أنه بالالتفاف حول مقاطعة تزويد إيران بالسلاح يكون قد صنع جميلاً لرئيسه رونالد ريجان ، أما ريجان فكان يرى أنه يجب أن يفعل هو شخصياً كل شيء لتحرير الرهائن الأمريكيين من قبضة الشيعة، فغامر بقبول صفقة مبادلة الأسرى بالسلاح. أثناء ذلك نسي ريجان تماماً أنه ألحَّ مع كل الحكومات الغربية بعدم التورط في أية مفاوضات أو صفقات مع الإرهابيين . وكان نورث قد صرح أمام مكفرلين وكيمش بأن الرئيس الأمريكي قد وافق على توريد الصواريخ المضادة للدبابات والصواريخ المضادة للطائرات . إلا أن وزير الخارجية الأمريكي جورج شولتز ناقض هذا التصريح بمجرد أن أخبر به ، إلا أنه لم يكن يعارض سياسة التزويد بالسلاح ولكنه كان يرى أنه يجب إخراج الرئيس من هذه الورطة - أما هو شخصياً فلم يعد يهتم بهذا منذ ذلك الحين . أثناء ذلك كانت الحكومة العراقية قد عرفت بالإمدادات العسكرية التي تمت بالفعل . وكان جهاز مخابراتها يقول بأن الجيش الإيراني حصل على أسلحة من إسرائيل تبلغ قيمتها ٨٠٠ مليون دولار ولم يأت الرد من إسرائيل بل من طهران : « لسنا بحاجة لإسرائيل فالأمريكان يتشوقون لفتح ترساناتهم أمامنا وهم يمدوننا مباشرة بأحدث الأسلحة ». ولم يخجل أعضاء المجلس الأعلى للدفاع قط لشراء أسلحة من الولايات المتحدة . ولكنهم

اعتبروا أن الموقف المخجل هو وصول الأسلحة عن طريق إسرائيل . وقد تردد الرأي حينذاك في المجلس الأعلى للدفاع بأنه بدون مساعدة الولايات المتحدة تستطيع إيران الصمود في الحرب لمدة ثلاثة أشهر على الأكثر . وأثناء ما كان وكلاء قيادة الجيش الإيراني يتقابلون في جنيف وباريس ولندن ونيويورك مع مفاوضين سمح لهم بالحديث باسم الحكومة الأمريكية ، كان الخوميني يستأنف هجومه على الولايات المتحدة : « امريكا شيء قذر ، والقذر لا ينتج إلا قذارة ، أمريكا واقعة في براثن قوى الشيطان فإذا هاجمتنا امريكا باسم الشيطان فسوف نكسر أسنانه » وكانت أمريكا التي شتمت على هذا النحو قد عملت على أن يبلغ عدد طائرات السلاح الجوي الإيراني القادرة على القتال إلى ضعفه تقريباً فيما بين ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ ، بالرغم من تكبده خسائر جسيمة .

أما الخصم العراقي فكان قد تخلص من هذه الضغوط قبل بدء الحرب مع إيران أي من التقيد بأنظمة السلاح السوفيتية وبشروط التسليح السوفييتي فقط ، فقد اكتشف العراق القدرة العالية للطائرات الفرنسية وقد أعلنت فرنسا استعدادها وضع تكنولوجيتها في خدمة قيادة الجيش العراقي وقد كانت بداية التعاون العراقي الفرنسي غير ناضجة ، فالطيارون العراقيون ، الذين اعتادوا على الطائرات السوفيتية وعلى طريقة التشغيل السوفييتية ، لم يستطيعوا في البداية الإنتقال إلى نوع آخر إلا بصعوبة . أما الغريب بالنسبة لهم فكان أن المستشارين العسكريين الفرنسيين كانوا يعطوهم حرية اتخاذ القرار في المواقف الحرجة ، أما السوفيت فكانوا يصرون دائماً على اتباع كتب التعليمات حرفياً . وعندما اعتاد الطيارون العراقيون على قيادتهم بمفردهم للطائرات الفرنسية كانوا قد وصلوا إلى مستوى عال من الكفاءة القتالية جعلهم يكبدون الخصم الإيراني خسائر فادحة . وهكذا مضى زمن تفوق سلاح الجو الإيراني في الخليج . ففي هذا الحين كانت القوات الجوية الإيرانية قد ساهمت مساهمة جوهرية في الحد من حجم انتصارات القوات البرية العراقية : فكان الطيارون الإيرانيون يوقفون بضرباتهم الجريئة زحف العراقيين إلى هجوم جديد . والآن تعلم العراقيون كيف يدافعون عن أنفسهم في الجو . وتحولوا إلى الهجوم فاختاروا طريق الناقلات بين نقطة الشحن الإيرانية في جزيرة الخرج ومضيق هرمز هدفاً لهم .

وكانت نية الرئيس العراقي صدام حسين هي تدمير تجارة البترول الإيرانية . فمشترو السلاح للخوميني لا يستطيعون عقد صفقات ناجحة، إذا لم يكن لديهم مال سائل بالدولار . وهذا المال لا يمكن الحصول عليه إلا من خلال تجارة البترول . إلا أن آمال رئيس العراق تحطمت : فالمساعدة الأمريكية أنقذت خوميني . وقد كان لإمدادات السلاح الأمريكي لعامي ١٩٨٠ ، ١٩٨٦ - والتي تحمل مسؤوليتها مستشار الأمن القومي نائب أدميرال جون بونيت دكسر ومعاونه ملازم أول أوليفرنورث - نتائج مؤثرة :

١ - إن من بين الإمدادات كان هناك صواريخ أرض - جو طراز هوك . وهي تقدم حماية فعالة ضد الهجمات الجوية . فقد تمكن سلاح الدفاع الجوي الإيراني بمساعدة هذه الصواريخ من حماية جزيرة « شحن البترول » الخرج من هجمات للطيارين العراقيين . ومنذ هذا العهد صارت جزيرة الخرج غير مهددة تقريباً . وتم تأمين مجال جوي محدد حول الجزيرة . إلا أن ناقلات البترول ظلت بلا حماية في طريقها الطويل خلال الخليج الفارسي (العربي) .

٢ - أما إمدادات الصواريخ المضادة للدبابات من طراز (Tow) فقد منحت قوات المشاة الإيرانية عام ١٩٨٧ كفاءة قتالية في دفع الهجوم على البصرة إلى داخل الأراضي العراقية ومن خلال الاستخدام الماهر للصواريخ المضادة للدبابات تم دحر التكتيك الذي كانت تمارسه الوحدات العراقية حتى هذا الحين، باختراق صفوف المهاجمين الإيرانيين بنار الدبابات .

٣ - إنتعاش سوق السلاح في مجمله من جديد بعد تزويد الولايات المتحدة لإيران بالأسلحة . فقد كان التحفظ النسبي هو السائد حتى هذه اللحظة فإذا لم تكن الولايات المتحدة قد شاركت في صفقات أسلحة لإيران فإن الآخرين كانوا يفضلون التعامل بحذر في هذه المسألة بالذات . وعندما صارت جهات رسمية في واشنطن تتكفل بطلبات إيران من سوق السلاح الدولي ، تضاءلت للغاية حدة الحذر من المشاركة في تلك الصفقات . وفي خلال فترة قصيرة كان ممثلو المجلس الأعلى للدفاع قد أبرموا إتفاقات مع وكلاء ٣٨ دولة مصدرة للسلاح .

٤ ـ الشك في مصداقية الولايات المتحدة في منطقة الشرق الأوسط فقد ألح رونالد ريجان على حكومات الغرب بألا تتورط في صفقات مع الدول المشتبه في أنها لا تتخذ موقفاً حازماً في رفض الإرهابات والآن لا يلتزم أقرب معاوني الرئيس نفسه بهذا المبدأ السياسي المعلن .

أما الذي كان أسوأ من هذه السياسة ذات الوجهين فكان عدم مراعاة الولايات المتحدة لأحد حلفاءها ، فالأسرة الحاكمة في السعودية تعد من أقرب أصدقاء حكام الولايات المتحدة الأمريكية ، وكان على هذه الأسرة بالذات أن تدرك أن المسؤولين في واشنطن زودوا العدو المعلن للأسرة بعتاد حربي حديث . والذي يمكن أيضاً أن يستخدمه الخوميني في طرد الملوك ـ ومن بينهم آل سعود ـ من العالم الإسلامي . وبعد صفقات السلاح هذه تردد في القصر الملكي في الرياض كلمات غاضبة : « الإتحاد السوفيتي عدو أثيم أما الولايات المتحدة فصديق أكثر إثماً » .

وقد حاول الرئيس ريجان أن يجعل من تجارة السلاح مع إيران عملاً إنسانياً له مبرراته : « يجب خلق الظروف لتحرير الرهائن المحتجزين لدى الشيعة في لبنان . والواقع أن قيادة الشيعة في بيروت تلبي تعليمات طهران ، فإذا أراد زعماء طهران الإفراج عن الرهائن فسوف يطيعهم رجال الدين في بيروت .

ولكن هذه النظرية لم تكن الدافع الحقيقي على الإطلاق لمسلك الرئيس الأمريكي ، فقد سيطر على ريجان فكرة مساعدة « الكونترا » مالياً في نيكاراجوا حتى يستطيعوا أن ينهوا قتالهم ـ الذي امتد لسنوات ـ بإحراز النصر على جماعة « الساندينية » اليسارية الحاكمة للبلاد . وكان مجلس النواب الأمريكي قد دأب على قطع المساعدة المالية الضرورية . ووجد ريجان نفسه في موقف حرج : ـ فقد أعطى « الكونترا » وعداً لا يستطيع الآن الوفاء به . ولكن الملازم أول أوليفرنورث مساعد مستشار الأمن القومي للرئيس الأمريكي وجد الحل : فلكي يجنب رئيسه ـ الذي كان يضعه في أعلى مكانة ـ الحرج من نكوث عهد قطعه على نفسه ، جاءته فكرة : تكثيف الطريقة المتبعة ـ حتى ذاك الوقت ـ لبيع

« فائض السلاح » . وكان مستشار الرئيس للأمن القومي مخولاً له بالتصرف في هذه المبيعات . والحقيقة أن الرئيس ريجان قد أصدر توجيهاته في ١٧ يناير ١٩٨٦ ببيع أسلحة لإيران ، إلا أن هذا التوجيه ظل خافياً على أعضاد الكونجرس ، ولا يوجد من هذه الأوراق إلا نسخة أودعت في خزانة مستشار الأمن القومي نائب أدميرال بونيت دكسر . وبخلاف بونيت دكسر كان يحق أيضاً للملازم أول فتح الخزانة . وكانت هذه الوثيقة تأميناً لكليهما : فقد كانت تعطيهما مطلق الحرية في التصرف . فكانا يستطيعان التصرف في مخزون السلاح الأمريكي . وتم اختيار إيران عميلاً لأنها كانت في هذا الوقت أكثر دول العالم على الإطلاق احتياجاً للسلاح . وقد حددوا سعراً للسلاح الذي يبيعاه : فكان يجب على إيران أن تدفع أولاً ١٥ مليون دولار ويجب إقناع إسرائيل بلعب دور الوسيط . وتم زيادات واردات إسرائيل من صواريخ « هوك » المضادة للطائرات وصواريخ (Tow) المضادة للدبابات . وكان لدى قيادة جيش الدولة اليهودية ما يكفيها من نفس هذا السلاح . فكان يمكنها بلا تفكير أو أسف أن تعيد تصدير الفائض لديها إلى القوات الإيرانية، وطلب من الإسرائيليين الاضطلاع بتنفيذ عملية البيع وبوضع السعر في قائمة الحساب ، والعمل على تحويل الأموال المدفوعة ، التي ستقدم فيما بعد إلى « الكونترا » في نيكاراجوا . وكان احتمال كشف العملية ضئيلاً لأن شحن السلاح إلى إسرائيل ـ والذي يبلغ قيمته تقريباً مليارين من الدولارات سنوياً ـ كان نادراً ما يوضع تحت الإختبار . أما الصعوبة فقد كمنت فقط في المرحلة الثانية للتصدير إلى إيران . وبفضل استعداد شركات الطيران الخاصة ـ ذات الرحلات غير الدورية ـ تمَّ التغلب على هذه المشكلة أيضاً .

لن نرتضي دور المحرومين بعد ذلك

كانت الحركة السياسية للشيعة في جبال جنوب لبنان خامدة تماماً . وكان دخول هذه المنطقة صعباً ، ولم يكن بمقدور الحكومة المركزية في بيروت ـ والتي كانت تسيطر على خزانة الدولة حتى نشوب الحرب الأهلية عام ١٩٧٥ ـ القيام بأي إجراء لتطوير الشوارع المؤدية إلى منطقة الطرق المؤدية لمنطقة الشيعة ـ حتى تستطيع السيارات المرور فيها ـ دون الخوف من الوقوع في الأغوار .

وكان الشيعة يعتبرون دائماً أن حكام بيروت يظنون أن الفقراء في جنوب البلاد يستخدمون « عربات الكارو » . على كل حال ، فهم لم يعرفوا السيارات بعد . وهكذا لم يتم اتخاذ أي شيء كتشجيع تطوير منطقة الشيعة . ولم يكن لسكان الجبال أحد يتحدث بلسانهم . وبالرغم من نص اتفاقية عام ١٩٤٣ على حق الشيعة في التمثيل في البرلمان ، إلا أنهم سرعان ما لحظوا أنه بالرغم من إمكانية دخول أحدهم البرلمان ، إلا أنه لا يكون له تأثير سياسي ، فدور البرلمان محصور فقط في إعطاء الإنطباع بأن لبنان جمهورية ديموقراطية تحكم بواسطة الشعب .

وفي الحقيقة كانت دولة لبنان ـ منذ تأسيسها أبان الحرب العالمية الثانية ـ في يد عائلات كبيرة ، كانت بينها عائلات مسيحية ـ مارونية كبيرة بيدها السلطة والنفوذ . وكانت اتفاقية ١٩٤٣ ـ التي شكلت أساساً ممكناً لتعايش سكان لبنان

ـ قد حددت توزيع المقاعد في البرلمان بنسبة ٦ إلى ٥ أي مقابل ستة مسيحيين يكون لخمسة مسلمين الحق في مقعد بالبرلمان . وطبقاً لنفس النسبة تم توزيع المناصب الكبرى للإدارة العامة للمصالح والوزارات ، فيما عدا أجهزة الأمن وهيئة أركان الجيش . فقد كانت في يد الموارنة . ولم يؤخذ في الاعتبار إلاَّ أهل السنة المعروفين باعتدالهم ، أما الشيعة فقد استبعدوا من المناصب التي لها علاقة بأمن الدولة ـ ولم يستطع الشيعة قط الدفاع عن أنفسهم .

وقد كان الشيعة أقلية غير ذي أهمية في لبنان وكان المسيحيون والسنة يميلون بشدة لإبعاد هذه الأقلية عن مؤسسات الدولة وعن تفكير الأغلبية . ومن يريد جمع معلومات عن هذه الأقلية كان لا يجد وثائق عنها في وزارة الاستعلامات . ولم يبحث أحد عن كيفية نشأة هذه الجالية الشيعية على هذا البعد من الأماكن الشريفة في كربلاء والنجف .

ويروى أنه في حوالي القرن الحادي عشر الميلادي هربت عشيرة شيعية خوفاً من الاضطرابات في بلاد الرافدين إلى جبال لبنان التي طالما منحت بأوديتها المرتفعة الوعرة الحماية للأقليات المهددة في الشرق الأدنى ، ومن بينها أيضاً الموارنة سادة جبال لبنان . أما الشيعة فكانوا يشعرون بأنهم ليس لهم حقوق . وكان الموارنة والسنة يطلقون على الشيعة « المتولية » قاصدين إهانتهم . ولكن في نهاية الستينات يحدث انقلاب . فقد أتى إلى لبنان رجل إيراني طويل القامة ، كان رجل دين يرتدي العمامة السوداء وزعم أنه ينتسب إلى أسرة النبي محمد ﷺ . وقد أعطته العمامة السوداء والعباءة السوداء واللحية السوداء هيبة غير عادية وكانت عيناه تأخذ بالإعجاب وهي تشع خضرة نادرة بين الوجه المكلل بالسواد . وكان اسم الرجل الإمام موسى الصدر ، واسم موسى يشير إلى انتسابه للإمام الثامن موسى الكاظم . وكان الإمام موسى الصدر قريباً للإمام الخوميني من خلال انتسابه إلى الإمام الثامن ، وكانت الهيئة العليا لرجال الدين في قم قد قررت إرسال زعيم ذي كفاءة عالية إلى الجالية الشيعية اللبنانية النائية . وتم اختيار الإمام موسى الصدر كرجل مناسب ـ فبالرغم من أنه ولد في إيران إلا أنه كان يمت بصلة قرابة إلى عائلات لبنان ، وهذا ما برر إجادته

العربية . وبالرغم من أنه لم يفقد لكنة الفارسية قط إلا أن الشيعة اللبنانيين قبلوا طريقته في الكلام . وربما كانت هذه الخاصية بالذات، في ترتيل هـذا العالم للقرآن ـ كما يرتله آيات الله في المـدينة المقـدسة «قم» ـ جزءاً من جاذبيتـه . وسرعان ما أثبت الإمام موسى الصدر أنه خطيب مؤثر : « منذ أن وجدت شيعة علي والشيعيين كنا دائماً ضحايا جماعة وأفـراداً . كنا المحـرومين ، ولكننا لن نرتضي أن نبقى محرومين . لقد لاحقنا سحب الظلم منذ نشأتنا ولكننا الآن لن نبكي وننوح . فإن كنـا نشتم « متوليـة » فلنقل الآن إن أسمينـا أنفسنا « رجـال الانتقام » . سندافع عن أنفسنا ضد كل أنواع الظلم كما دافع الشهيـد الحسين عن نفسه . فقد دافع بسبعين من رجاله في كربلاء بدون أن يفكر في الاستسلام ولم يعرف الحسين إلا نوعاً واحداً من الحلى كان يزدان به، هو سيفه. والسلاح عندنا أيضاً هو زينة الرجال » .

غيرت هذه الكلمات للإمام موسى الصدر من وعي الشيعة في لبنان الذين لم يفعلوا شيئاً قبل هـذا ليكسبوا بـه احترام المـوارنة والسنـة ـ اللهم إلاّ البكاء والنحيب ـ ففي يوم عاشوراء من كل عام كان الرجال يفعلون بأنفسهم جروحاً قاسية دامية . لكي يجربوا عذاب الشهيد الحسين بأجسادهم . إلا أن الموارنة والسنة لم يروا في هذا أي احتجاج للأقلية المعذبة على ظلم الأغلبية، وإنما كانوا ينظرون إلى ذلك على أنه نوع من الفولكلور تتميز بـه الأقلية. أمـا الإمام مـوسى الصدر فكان يريد أن تتحول فكرة الاستشهـاد عند شيعـة لبنان إلى حقيقـة واقعة. وهكذا كان لا بد من تشكيل منظمة سياسية وفيما بعد عسكرية من صفوف حركة الشيعة المؤمنين . واستطاع الإمام أن يحوز إعجاب الجماهير فدفع الشباب من مستمعية إلى الحصول على السلاح والتدريب . وفي بداية تكوين منظمة الشيعة المقـاتلة كـانت منظمـة التحريـر الفلسطينيـة تقدم المسـاعدة : فقـام خبراؤها بالتدريب على حرب العصابات . إلا أنه بعد شهور قليلة تنشأ احتكاكـات بين الفلسطينيين والشيعة. فكانت قيادات منظمة التحرير ـ معظمها من السنة وأقلية مسيحية ـ تتعالى على الشيعة ومما زاد من تعقيد العلاقات أن منـظمة التحـرير كانت تنطلق من معسكرات منطقة الشيعة لتوجه ضربات ضـد القرى وشبكـات

الإمداد في إسـرائيـل ، فتـدفع إسرائيل للقيام بهجمات انتقاميـة مكثفة كـانت تصيب في معظمها المدن الشيعية . فتدمر المنازل ويقتل الشيعـة . وانتشر في مدن جنوب لبنان اليقين بأن انتقام إسرائيل يصيب دائماً الشيعي المسكين وليس الفلسطينيين . فكلف الإمام موسى الصدر ميليشياته التي كانت في طور التكوين بمنع قوات منظمة التحرير من اجتياز الحدود إلى إسرائيل فنتج عن ذلك شكوك لحقها حرب محدودة بين الشيعة والفلسطينيين . وبالـرغم من أن كليهما كـان عدواً لإسرائيل إلا أنهما تقاتلا وكان أن حصل الشيعة بهذه الخبرة التي ساعدتهم فيما بعد على بناء ميليشيا قوية حقاً .

وعندما كان الشيعة يحتفلون بانتصارهم من خلال تولي الخوميني للسلطة في ربيع ١٩٧٩ لم يكن الإمام موسى الصدر يستـطيع مشـاركتهم فقبل شهـور قليلة في ٢٨ أغسطس ١٩٧٨ كان العالم المهيب ومرافقوه ـ ثلاثة لبنانيون ـ قد اختطفوا في العاصمة الليبية طرابلس وقد كان يريد طلب مساعدة مالية من معمر القذافي لدعم الميليشيا الشيعية ولم يسأل أحد القذافي عن تبرير ما حـدث . فقيادة الشيعة في لبنان لم تتهمه بقتل الإمام موسى الصدر . فقد آمن الشيعة أن الإمام حي وقد غاب وسيعود للظهور ، ليكمل نصر شيعة علي في لبنان . ومراراً ما كان الناس في بيروت يتحدثون من أن زمن غيبة هذا الإمام قد أشـرف على نهايته . وسوف يظهر قبل رجعة الإمام الثاني عشر بفترة طويلة .

جعل انتصار الثورة من خوميني زعيمـاً أيضاً لشيعـة لبنان إلا أنهم كـانوا يلصقون دائماً بجوار صورته صورة الإمام موسى الصدر. ففي النهاية كان هو قريباً للرجل الذي ساعد شيعة علي في إحراز النصر بعد قرون عديـدة من الكفاح . ورحل شباب لبنانيون ليحاربوا في سبيل العدالة باسم الإمام موسى الصدر ضد الشيطان العراقي . وقد خاض هؤلاء الشباب مراحل مختلفة من الحرب الأهلية اللبنـانية ، وهـا هم الآن يستخدمـون خبرتهم في الحـرب المدمـرة . وكان أن تعلمـوا في خنادق مـواضع الإيـرانيين أمام البصـرة تضامن الشيعـة مع بعضهم البعض . وكان الخوميني قد حدد هذا الاتجاه بقوله : « إنه حق أن هناك اختلافاً قائماً بين الفـرس والعرب ، والشهيـد الحسين يساعـدنا لتخـطي هذه الهـوة ،

فالتشيع لعلي ، أي الإيمان بآل النبي ﷺ وبالشهيد الحسين قد صهرنا معاً. أما المفكرون السياسيون للحركة الشيعية في لبنان فقد ترددوا في البداية في الإنطواء تحت راية الجمهورية الإسلامية . وكان نبيه بري رئيس منظمة أمل يرى: «إننا ندعم الثورة الإسلامية في إيران بكل قوتنا ، إلا أننا لا نريد نقلها حرفياً إلى لبنان» أما سبب هذا التحفظ الحذر فكان أن نبيه بري قد عقد صلات قوية بدمشق، وحافظ الأسد الرئيس السوري كان يدعم أيضاً الثورة الإسلامية الإيرانية، بدون أن يرى فيها مثلاً يقتدى. وكان نبيه بري المحامي السابق البرجوازي المعتدل ، يريد وما زال يريد فقط الوصول لتوسيع مستوى معيشة الشيعة اللبنانية وإن كان شيعياً مؤمناً، إلاَّ أنه أيضاً لبناني يرى في دولة لبنان وطناً له. وبهذه الرؤيا العلمانية خلق له أعداء بين رفاقه المؤمنين، الذين يرون في شيعة علي إطاراً لخلق دولة دينية. وكان عدم توقف نبيه بري عن الاتصال بالسفارة الأمريكية، يلقى استياء هؤلاء الذين يرون في الولايات المتحدة تجسيداً للشيطان . وكان أن انشق الساخطين في عام ١٩٧٢ وقام قريب آخر لآية الله روح الله خوميني من عائلة موسوي ، ويدعى حسين موسوي ، بتأسيس منظمة متشددة تنافس أمل وأطلق عليها اسم « أمل الإسلامية » . وظل نبيه بري المستعد لقبول حل وسط يعلن عن رغبته أيضاً في التعاون مع الموارنة المسيحيين إن كان هذا سيجعل لبنان للبنانيين . وكان المحامي ـ نبيه بري ـ معادياً للعنف والقتل . أما حسين موسوي فكان يقول لأنصاره ، الذي يشكل الشبان معظمهم : « إن مستقبل الشعب الشيعي يحسمه الدم المراق . والدم السائل هنا هو دم شهداء ، أما دم العدو فيجب إراقته في الوسخ ، فهو دم بخس عفن . وفي كل يوم نعيش يجب أن نبحث عن النصر أو الشهادة » .

الحرب ضد الولايات المتحدة في لبنان أيضاً

كان الشاهد الوحيد الذي رأى الكارثة قادمة ، وعاش بعد وقوعها عـريفاً بالجيش الأمريكي كان يقف في مكان انتظار السيارات أمام مبنى مشاة البحرية في بيروت . وهو يروي الذي رآه « دخلت عربية مـرسيدس صفـراء اللون إلى مكان الانتظار بسرعة كبيرة . ثم دارت وأسرعت مرة أخرى ولعدة لحظات رأيت وجـه قائـد السيارة كـان يبتسم وهو يقـود السيارة إلى المـدخل الـواسع للمقـر الرئيسي ، ثم وقع الإنفجار العظيم » . حدث هذا في صباح ٢٣ أكتوبر ١٩٨٣ الساعة السادسة وعشـرين دقيقة . مـزق الإنفجار المبنى ذي الأربعة طوابق من الخرسانة المسلحة وكان ملكاً لإدارة شـركة الـطيران اللبنـانية « طيـران الشرق الأوسط » . وكان يقع بجوار صالة المطار مباشرة أما أن تسير سيارة نقل بمكان الانتظار في الصباح المبكـر فلم يثر هـذا دهشة العـريف الأمريكي الـذي كان موجوداً بالقرب من مطار لبنان الدولي مباشرة . إلا أن سيارة النقـل هذه كـانت محملة بحوالي ستة آلاف كيلو جرام من العبوات الناسفة ، طبقاً لتقدير الشرطة الأمريكية (FBI) فيما بعد . وقد رأت لجنة التحقيق أن انفجار هذه « الكتلة » النـاسفة هـو أكبر انفجـار وقع منـذ الحرب العـالمية الثـانية مستثنيـة من ذلـك الانفجارات النووية . وفي هذا الصباح فقد ٢٤١ أمريكياً حياتهم في بيروت .
أما رونالد ريجان فقد عاهد الشعب الأمريكي على الانتقام وأصدر أوامره لرئيس الهيئة المشتركة لرؤساء أركان حرب جميع أفراد القوات المسلحة بوضـع خطة لمعاقبة هؤلاء المسؤولين عن قتـل الأمريكيين . والـذين لم يكونـوا يبغون إلا

إعادة الهدوء والسلام إلى لبنان البلد الذي مزقته الحرب الأهلية . وكانت بحرية الولايات المتحدة موجودة بالفعل بعد انسحاب الجيش الإسرائيلي بعد غزو بيروت في صيف ١٩٨٢ لكي تعمل على تأمين العاصمة للرئيس جميل ـ ولم تفكر هذه القوات أن هناك في لبنان غير الموارنة الذين يمثلهم جميل ، طائفة أخرى من الشعب ذات اتجاه ديني لا ترى في نظام جميل الشرعية الوحيدة في الدولة .

وكانت قيادات المشاة البحرية تدعم القوات الخاصة لجميل فقط ضد المليشيات الشيعية والدرزية والتي كانت تقاتل حكم الموارنة في حرب أهلية مستمرة منذ ١٩٧٥ ، وهكذا وقع الأمريكان في خطأ التدخل لصالح طرف في حرب أهلية ، معتقدين أنهم يدعمون الشرعية . وكانت النتيجة أن صار الشيعة ـ الذين شعروا أنهم هدف الهجوم ـ أعداءً للأمريكان في لبنان أيضاً . ولم يكن من الصعوبة بمكان أن يتوصل الشيعة إلى هذه الحقيقة ، فالخوميني يوحي لهم منذ سنوات أن أمريكا هي « الشيطان » الذي يريد القضاء على الشيعة . إلا أنه لم يكن الأمريكان وحدهم أعداءً للشيعة فبعد ثوان من تدمير المقر الرئيسي للمشاة البحرية الأمريكية في ذاك اليوم ٢٣ أكتوبر ١٩٨٣ كانت عربة نقل تخترق المبنى الذي تقيم فيه وحده فرنسية من القوات الدولية لحفظ السلام في لبنان . أما العبوة الناسفة التي حملتها العربة ، فكانت كافية للإطاحة بالمبنى وأما ضحايا هذا الهجوم فكان ٥٨ جندياً من جنود المظلات الفرنسيين .

وقد عرفت الحكومة الفرنسية السبب الذي جعل جنودها هدفاً للاغتيال : فلا بد أن يكون هذا الهجوم مرتبطاً بالمساعدة الفرنسية لنظام الحكم السني لصدام حسين أثناء الصراع بين إيران والعراق . وقد تم إبلاغ الفرنسيين في بيروت عدة مرات أنهم عليهم أن يتعرضوا للاغتيال بسبب هذه المساعدة وكانت النتيجة واضحة ، حتى في حالة الهجوم على البحرية الأمريكية أن الشيعة هم المسؤولون عن هذه العمليات القاتلة . ولكن السؤال كان : كيف التوصل إليهم ؟ وكان أن حدث اتصال هاتفي بوكالة أنباء في بيروت . وزعم المتصلون أنهم أعضاء منظمة « الجهاد الإسلامي » . وهددوا بمواصلة الكفاح والضرب

بشدة أكثر . ولم يستفد رجال المخابرات الأمريكية والفرنسية من هذه المكالمات ، ولم يكونوا متأكدين إلا من شيء واحد هو أن هذه العمليات أعدت على نحو ممتاز فكلا السائقين استطاع بمهارة أن يتفاديا الحواجز التي وضعها الجيش والقيادة المارونية في كل مكان . وذلك دون أن يلحظهما أحد ، وكانا قد عرفا أن الحراس بمقر البحرية الأمريكية ينامون على نحو أعمق في الساعات المبكرة من يوم الأحد .

وبعد التحري خرج رجال المخابرات الأمريكية بنتيجة أن مدبري هذه العمليات هم أنصار حسين موسوي الذي انشق عن ميليشيا أمل ليؤسس « أمل الإسلامية » وكان حسين موسوي يقيم في بعلبك ، تلك المنطقة التي تضم أطلال المعبد الإغريقي والواقعة في شرق جبال لبنان .

وكان متوقعاً أن تستمر ضربات الشيعة وفي حالة من الخوف قرر الأمريكان أن يتركوا لبنان لمصيره على أن لا يتم هذا الانسحاب إلا من خلال قصف مكثف تشترك فيه بصفة أساسية المدافع الضخمة للبارجة « نيوجرسي » . ونتج عن هذا إشعال جديد للحرب الأهلية . ولأول مرة تقدم الميلشيات الشيعية على حرب شوارع معلنة ضد الجيش اللبناني الذي لم يكن بدوره قادراً على تحمل هذا العبء : فالجنود الشيعة لم يشاءوا الانصياع لأوامر الضباط الموارنة ففروا وانضموا إلى ميلشيا أمل التابعة لنبيه بري وفي النهاية انقسم الجيش اللبناني إلى فرق مارونية وشيعية .

وبالرغم من انسحاب مشاة البحرية الأمريكية من المنطقة الإسلامية في بيروت . إلا أن موظفي السفارة الأمريكية في بيروت رأوا أنهم لا زالوا معرضين لملاحقة عنيدة . فتم نقل السفارة الأمريكية إلى المنطقة الشرقية المسيحية من بيروت لأسباب أمنية . إلا أن الاعتقاد بأمان نسبي في ظل الحماية المارونية هناك تم الإطاحة به في ٢٠ سبتمبر ١٩٨٤ . ففي الساعة الحادية عشر وأربعين دقيقة من هذا اليوم كانت سيارة نقل تتجه نحو مبنى السفارة الأمريكية . وكان قد تم تأمين الطريق بأسلاك شائكة وحواجز خرسانية على نحو يضطر

السائق إلى اتخاذ طريق ضيق متعرج ومن المدهش أن هذا السائق أظهر مهارة عالية للغاية فالعوائق لم تجبره على خفض سرعة العربة ، وفيما يبدو أنه لم يوقفه إلا إصابته بأعيرة نارية من رشاش أحد مراكز الحراسة ومن الغريب أن هذه الطلقات لم تصدر أحد رجال أمن السفارة الأمريكية بل عن حارس بريطاني كان يصحب سفيره في زيارة لنظيره الأمريكي . وأدت طلقات هذا البريطاني إلى أن السائق أخطأ الهدف واخترق جراج تحت الأرض تابعاً للسفارة الأمريكية . ولو كانت العبوة الناسفة قد انفجرت في الهدف المرسوم لها لكانت سببت خسائر جسيمة . وهكذا لم يؤد الانفجار الذي حدث في الخارج إلا إلى خسائر كبيرة في المبنى ، ومع ذلك مات نتيجة ذلك أربعة وعشرون شخصاً : منهم دبلوماسيون وزوار لبنانيون وضباط من البعثة العسكرية الأمريكية ، وكانت المخابرات الأمريكية قد قامت منذ الهجوم على المقر الرئيسي للبحرية الأمريكية بتكثيف مراقبتها للمنطقة بين بيروت وجبل لبنان وسهل البقاع الواقع شرق الجبل ، وذلك من خلال أقمار صناعية استطلاعية وقد أظهر الإطلاع على الصور التي التقطت في الأيام السابقة ليوم ٢ سبتمبر ١٩٨٤ أن هناك سيارة نقل شبيهة بتلك التي استخدمت فعلاً في العملية تتمرن في سهل البقاع على التخطي السريع لحواجز شبيهة لتلك الحواجز الموجودة أمام السفارة الأمريكية في شرق بيروت ولما كانت هذه المنطقة تضم قاعدة لمنظمة « أمل الإسلامية » فقد شكل هذا أساساً قوياً لاحتمال أن منظمة حسين موسوي هي التي قامت بهذه الهجمات ضد المراكز الأمريكية . ففي اليوم الذي وقع فيه الهجوم كانت معلومات قد وصلت المخابرات اللبنانية ، كان من شأنها أن أوضحت السبب السيكولوجي وراء هذه الهجمات ، فقد صدمت سيارة نقل سيارة طراز «أوبل كادت » ونشأ عن هذا الصدام تلفيات بسيطة فحاول قائد السيارة « أوبل كادت » أن يتناقش مع سائق السيارة النقل في أمر هذه التلفيات ، إلا أن الأخير بدا غير حاضر الذهن ، فقد كان مخدراً ولم يرد على الكلام أو حتى الشتائم الغاضبة الموجهة إليه ، وقبل أن يمسك قائد السيارة « أوبل » سائق السيارة النقل من سترته ويجذبه خارج السيارة ، خرج رجلان بزي الشرطة اللبنانية من سيارة طراز (B M W) وأخرجا مائتي ليرة لبنانية لم تكن قيمتها حينذاك تبلغ مائة جنيه

ـ ودسا هذه النقود في يد الرجل الثائر ولما رأى أن المبلغ يكفي إصلاح التلفيات ركب الرجل سيارته « أوبل » ومضى في طريقه وكان هناك أيضاً رجل لبناني على صلة بالمخابرات اللبنانية ، قد شاهد الواقعة وأبلغ بما حدث . وكان أن قام رجال المخابرات اللبنانيون الذين ظلوا في الخدمة رغم عدم وجود دولة لبنانية مترابطة منذ زمن بعيد ، بإبلاغ هذا لزملاءهم الأمريكيين وكان عليهم أن يفعلوا هذا لأن المال الذي يبقي على وجود جهاز المخابرات اللبنانية في بيروت كان يأتي من ميزانية المخابرات المركزية الأمريكية . وقد اعتبر رجال كلا الجهازين ـ المخابرات الأمريكية واللبنانية ـ تقرير شاهد العيان هذا صادقاً . وقد استنتجوا من هذا أن كل سائقي السيارات الناسفة يقعون تحت تأثير المخدرات وهم يتحكمون في قدرتهم على القيادة أمام الهدف مباشرة لأنهم تدربوا تدريباً مكثفاً على اجتياز عوائق أنشئت بنفس مقاسات العوائق الموجودة أمام الهدف . وكان تعاطي المخدرات الدليل الذي أوضح الابتسامة المرسومة على وجه السائق الذي اخترق بعبوة ستة آلاف كيلو جرام متفجرات المقر الرئيسي للبحرية الأمريكية ، ومهما كانت استنتاجات رجال المخابرات شيقة إلا أنها كانت بلا فائدة فقد تم التوصل إليها بعد تنفيذ هذه العمليات ولهذا لم تستطع منعها إلا أنها كانت ستستخدم في المستقبل في منع العمليات الإنتحارية التي يقوم بها سائقو عربات نقل واقعين تحت تأثير المخدرات . إلا أنه كان يلزم لهذا التوصل لهذه المنظمة التي كانت على استعداد لتوفير التدريب والمخدرات للقائمين بالأعمال الانتحارية وكان من المؤكد ـ في حالة التقييم الصحيح لصور الأقمار الاصطناعية الاستطلاعية ـ أن واحداً على الأقل من قائدي سيارات الموت قد تلقى تدريبه في سهل البقاع على مقربة من مدينة بعلبك . وفي هذه المدينة الأثرية كانت هناك قاعدة لحسين موسوي زعيم منظمة « أمل الإسلامية » وكانت هذه المنظمة تتكون في أغلبها من اللبنانيين ، إلا أن تقارير المخابرات أشارت إلى وجود إيرانيين أيضاً في بعلبك حوالي ألف رجل ، كان أرسلهم الخوميني إلى لبنان في صيف عام ١٩٨٢ ، عندما اندفع مقاتلو منظمة التحرير الفلسطينية تجاه بيروت بعد الاقتحام السريع للقوات الإسرائيلية . وكان على حراس الثورة « باس داران » أن يمنعوا الوحدات الإسرائيلية من اكتساح المواقع الدفاعية

لعرفات ، أما غرض الخوميني من وراء إرسال « باس داران » هو رد الجميل : فوجود حراس الثورة في لبنان كان تحية شكر لمساعدة منظمة التحرير الفلسطينية أثناء المرحلة الحرجة للثورة في إيران . إلا أنه من الغريب أن مقاتلي الخوميني الشبان لم يحاولوا قط الوصول إلى مدينة الحرب بيروت ، وكانوا قد وصلوا دمشق قادمين من طهران وهناك غادروا الطائرة ليمروا من الأراضي السورية عابرين لبنان إلى سهل البقاع .

أي أن الرئيس السوري حافظ الأسد قد سمح بوجود الإيرانيين في لبنان المتنازع عليه . ولكن بشرط ألا يهاجم الـ « باس داران » القوات الإسرائيلية بطريقة مباشرة . وقد عرف حافظ الأسد أن الإسرائيليين سيلقون عليه مسؤولية الهجمات عليهم وهو لم يشأ حينذاك ـ أي في صيف عام ١٩٨٢ ـ أن يستفز الأعداء ليقوموا بضربات انتقامية ضد الجيش السوري . وكانت نتيجة هذا أن ألف رجل من آل « باس داران » أقاموا في سهل البقاع دون مهمة حقيقية . فبدأوا في جعل المدينة جزءاً من جمهورية إسلامية جوري تأسيسها قاصدين بذلك لبنان . وكان يشد أزرهم في خطتهم هذه حسين موسوي زعيم أمل الإسلامية ، والذي بدأ على الفور في استغلال ضيوفه في تحقيق أغراضه ولم يكن بحاجة كبيرة إلى إقناعهم فالإيرانيون كانوا مؤمنين أن إيران ولبنان مناطق شيعية يجب أن تكوّنا معاً وحدة ، كياناً سياسياً تحت زعامة الخوميني . وكان حسين موسوي يتمتع بثقة الـ « باس داران » لأنه قام أيضاً بعد إعلان الجمهورية الإسلامية بالإلتحاق بمدرسة القيادات في طهران والتي تم تأسيسها بغرض إعداد رجال لكل الدول الإسلامية يكونون موضع ثقة آيات الله ، لكي يقود هؤلاء الثورات المؤيدة لخط الخوميني . وكان مدير مدرسة القيادات هو مصطفى خمران ، الذي كان معاوناً للإمام موسى الصدر في لبنان ، والذي ظل مستشاراً ذا نفوذ لمنظمة أمل وقد أعاده خوميني إلى طهران ليعين رئيساً للمجلس الأعلى للدفاع ووزيراً للدفاع . وتوضح هذه الحالة الارتباط الوثيق بين المنظمات الشيعية في إيران بالشيعة في لبنان وقد وفر هذا الارتباط الظروف المثالية لتصدير الثورة الإسلامية إلى لبنان ، أما حسين موسوي فيرى موقفه من إيران

والجمهورية الإسلامية هكذا : « إن العلاقة قوية بين الأم والابن ، ونحن الأبناء في لبنان فنحن نتعلم ونتلقى التوجيه في بناء المجتمع الإسلامي والذي يجب أن يؤدي بالضرورة إلى الدولة الإسلامية ، قدوتنا في هذا الطريق هو إيران » .

حزب الله

كان ارتباط الشيعة اللبنانية برفقاءهم في العقيدة بإيران محسوساً أيضاً في تأسيس المنظمة التي نفذ باسمها شتى العمليات فقد نشأ « حزب الله » طبقاً للمثال الإيراني ولم يكن هناك مطلقاً فكرة أن يكون مجموعة منتقاة من المتسابقين للموت ولكن أن يكون حركة منظمة مفتوحة أمام الشيعة المستعدين للكفاح في سبيل الله . وكان منطق التأسيس في إيران كلمات للنبي ﷺ أن الفوز بالفردوس من نصيب حزب الله . وكان المتصور هو كل من يبدأ صلاته بهذه الشهادة « الله أكبر ولا إله إلا الله » . وكان حسين موسوي قائد أمل الشيعية واحداً من مؤسسي حزب الله في لبنان . وهو يصف عضوية هذا الحزب هكذا : « كل من يسلم لله ، ويناضل في سبيله فعلاً ، يستطيع أن يكون عضواً . وفي هذا يتساوى من انضم للكفاح ضد الإسرائيليين في جنوب لبنان ، ومن يكافح ضد الموارنة حلفاء إسرائيل في بيروت ، ومن يدافع عن المواقع هنا في سهل البقاع . والشيء المهم أيضاً لعضوية حزب الله هو النية الخالصة في مساعدة الثورة الإسلامية لإحراز النصر وكذلك حركة « أمل الإسلامية » جزء من حزب الله ، على وجه الخصوص لأننا نعمل من أجل الثورة الإسلامية » .

وتكهن حسين موسوي بأن « أمل الإسلامية » سوف تذوب تماماً في حزب الله عندما تكون الحركة الشيعية الإسلامية قد حققت هدفها كقوى منتظمة في دولة يمثل لبنان جزءاً منها . وحسين موسوي لا يشك في الجمهورية الإسلامية ستضم المنطقة كلها الواقعة الآن تحت سيطرة إسرائيل ـ أما منافسه الأكثر

تواضعاً في أهدافه ، المحامي نبيه بري فيتهمه حسين موسوي بأنه لم يفهم قط البعد التاريخي لثورة الشيعة وأن أفكاره محددة بمعايير اقتصادية اجتماعية بورجوازية لا تريد إلا تحسين مستوى معيشة إحدى طبقات الشعب المحرومة حتى هذه اللحظة . وبالرغم من أنه يتزعم منظمة مقاتلي « أمل » إلا أن نبيه لم يدرك أن الوقت قد حان لثورة الإسلام التي صارت ممكنة من خلال استعداد المسلمين للاستشهاد .

. . .

كانت كلمات موسوي عن « ثورة الإسلام » أول دليل لرجال المخابرات الأمريكية على اشتراكه في العمليات الانتحارية في بيروت ـ وكان رجال المخابرات الأمريكية قد توصلوا بسرعة إلى الطريق المحتمل أن يكون قد سلكته السيارات الناسفة من المقر الرئيسي لموسوي في سهل البقاع خلال طرق جانبية في جبل لبنان لا تطرقها السيارات إلا نادراً . وكانت أجهزة الأمن الأمريكية واثقة من أنها كشفت عن الجهة المسؤولة عن هذه العمليات. وألقت على عاتق حسين موسوي المسؤولية أيضاً عن الانفجارات الأولى في سلسلة الهجمات ضد منشآت الولايات المتحدة الأمريكية في بيروت ، ففي أبريل ١٩٨٣ كان قد تم تدمير مبنى السفارة الأمريكية ـ الموجودة حينذاك في المنطقة الإسلامية غرب المدينة ـ وذلك من خلال تفجير عبوة ناسفة محملة على سيارة نقل . وحتى نهاية سبتمبر ١٩٨٤ توالت أربع عمليات بنفس الأسلوب وكانت كلها ناجحة . وقد أدت عمليات التفجير ضد « الشيطان الأمريكي » وعجز الأمريكان الواضح عن الدفاع عن أنفسهم إلى ارتفاع عظيم لجماهيرية حزب الله في المنطقة الإسلامية من بيروت . وصار لمنظمة « أمل » بقيادة المحامي السابق نبيه بري منافساً قوياً ممثلاً في حزب الله . وكان الشباب دائماً لا يرون أن نبيه بري يمثلهم البتة ، وهو الذي يرتدي الملابس الافرنجية البرجوازية ، ولكنهم لم يروا أيضاً أن حسين موسوي ممثلاً مناسباً لتصوراتهم . فكان الشباب بالذات يتمنون زعيماً من جيل أقدم ، رجلاً يشبه آية الله روح الله خوميني ـ فعثروا على ضالتهم في الشيخ محمد حسين فضل الله الذي يضع على رأسه عمامة سوداء والثابت يشبه لآل النبي ﷺ وبذلك يكون بداهة ممثلاً لحكام

إيران . ولكنه يمشي مثـل الخوميني ذي القـامة المهيبـة ، وعلى عكس الإمام موسى الصدر الذي كان ضخم البنيان. فالشيخ فضل الله يتسم بقصر القامة، ومن يراه تتحرك عواطفه بفعـل طريقـة فضل الله في الابتسـام ، وفيما يبـدو فإنـه لا يصـدق عليه مقـوله الخـوميني بـأن « المسلم لا يبتسم لأنـه يعبـد الله في كـل لحظة » .

أدى نقل قواعد حزب الله من سهـل البقاع إلى بيـروت وتعاطف شبـاب الشيعة إلى الدفع بفضل الله إلى مكانة مرموقة . وكانت نتيجة هذا أنه سرعان ما ألقيت عليه مسؤولية الهجمـات ضد المؤسسـات الأمريكيـة . وكانت محـطات إذاعة الموارنة في بيروت العارفة بذلك : فكانت تذيع أن الشيخ فضل الله كان يقوم بمشاركة قائدي عربات النقل الناسفة كل مرة قبل انطلاقهم بسيارتهم ، فهو المسؤول عن عمليات القتل هذه . أما رجـال المخابـرات الأمريكيـة فاعتبـروه الرأس الجديد الذي يمسك بيده خيوط عملية اختطاف وليم بكلي . وكان هذا الأمريكي يعتبر موظفاً سياسياً في السفـارة الأمريكيـة ، ولكنه كـان في الحقيقة رئيس فرع المخابرات المركزية الأمريكية في بيروت . وقد تم اختطافه في ١٦ مارس ١٩٨٥ أما وليام ج . كيس مدير المخابرات المركزية الأمريكية فكان واثقاً أن حزب الله هو الذي اختطف رجله ، وأن زعماء هذه المنطقة يعرفون على وجه الدقة شخصية الرجل الذي اختطفوه وشعر كيس بأنه مسؤول شخصياً عن مصير هذه الرهينة لأنه كان يعرف أن ولاء رجاله في جهاز المخابرات التابع له لا يمكن ضمانه إلا إذا كان كل عضو بالمخابرات الأمريكية واثقاً من أن جهاز المخابرات يفعل كل شيء لإنقاذ موظفيه الذين يتعرضون للخطر . ولكن وكالة المخابرات الأمـريكية أثبتت عجـزها حيـال وليام بكلي . فلم تسـاعد أحـدث الـطرق في الحراسة والتتبع في العثور على أي أثر للمختطفين .

وتم الإعلان بطريقة شبه علنية عن منح مكافآت مالية لمن يقدم معلومات تؤدي للكشف عن مخبأ الرهائن ، ولكنه كان من الواضح أن المال لم يشكـل إغراء لأحد لكي يخون المنظمة التي تحتفظ بوليم بكلي كرهينة .

وكان وليم كيس مدير المخابرات الأمريكية مستعداً لخدمة تعليمات رئيسه بالتحريم الصريح لاتصال مباشر بالمنظمات الإرهابية حتى ولو أدى ذلك إلى تحرير الرهائن من قبضة المختطفين ، ولكن البحث كان سائداً : فالمنظمة لم تطلب المفاوضة ولم تتقدم بمطالب فقد كانت قانعة بأسر رئيس المخابرات الأمريكية في بيروت. وكانت قوة خاصة من الكوماندوز قد أرسلت إلى بيروت لتحرير رئيس المخابرات للفرع هناك ، بالقوة إذا اقتضى الأمر ذلك ولكنها لم تر أية بوادر تبشر بنجاح العملية .

أما وليام ج كيس الرئيس الأعلى للرهينة، فإنه نفسه شعر بإحساس عميق المهانة في ربيع ١٩٨٥ . وما كان يجعله يشعر بمرارة أعظم أنه اضطر للاعتراف أنه خطط بنفسه لعملية كانت هي السبب على الأرجح في الاختطاف .

ففي الأسابيع الأولى من عام ١٩٨٥ تلقى وليام كيس زيارة من السفير السعودي الأمير بندر وكان السفير يعمل بتعليمات الملك فهد بتحسين علاقات مملكته بالمخابرات الأمريكية . وكان السبب وراء هذا هو وضع الحرب في شط العرب . فمن شهر لشهر كان الانطباع يزداد بتوقع انتصار إيران على العراق . وفي هذه الحالة لا تستطيع أسرة آل سعود الحاكمة توقع المساعدة إلا من القوة العظمى الولايات المتحدة الأمريكية . وكان على الحكومة الأمريكية أن تعمل طبقاً « لمبدأ كارتر » القائل إن أهمية المملكة السعودية للمصالح الأمريكية تماثل أهمية تكساس . وكان يجب على الأمير بندر تذكير مدير المخابرات المركزية الأمريكية بهذا المبدأ. وللتمهيد لتحسين العلاقات مع المخابرات المركزية الأمريكية من خلال بادرة ود عرض السفير السعودي مساعدة « الكونترا » في نيكاراجوا . وكانت خزانة الدولة الملكية قد قدمت المساعدة على نحو غير بيروقراطي عدة مرات في الشهور الأخيرة عند ما كان الرئيس الأمريكي لا يستطيع الوفاء بالتزاماته التي عاهد عليها الحركة المناوئة للحكومة الساندينية في نيكاراجوا ، بسبب استمرار الكونجرس في رفض الموافقة على مساعدة قدرها ٢١ مليون دولار . وفي هذه المرة أراد الملك فهد تحويل ثلاثة ملايين دولار على حساب ببنك في جنيف .

وعندما تم تسوية مسألة المال بدأ الحديث عن موضوع الصراع الإيـراني العراقي . فقال الأمير بندر بوضوح أن بلاده والولايـات المتحدة يقفـان حيارى أمام قضية مشتركة وهذه القضية هي الإرهاب . وكلما ازدادت الثورة الإسلامية ثقة بنفسها من خـلال انتصارهـا على الجبهة كلمـا يقوى الميـل لديهـا لتجهيز الأرض للثورة من خلال عمليات إرهابية . وضحايـا هذه العمليـات هي منشأة استخراج البترول في السعودية ، والبعثـات الدبلومـاسية الأمـريكية في الشـرق الأوسط . وهنـاك أمثلة على هذه العمليـات ضربهـا الثوار ولتعـريفهم أن هناك حدوداً لهم تحتم الضرورة بتوجيه ضربات قاصمة لمدبري الإرهـاب . وتنفيـذ مثل هذه الضربة المدمرة هـو في صالـح كل من الـولايات المتحـدة والمملكة العربية السعودية وفي الحال حدد مدير المخابرات الأمريكية والسفير السعودي هدف الضربة الموجهة ضد الإرهاب : يجب قتل الشيخ محمد حسين فضل الله . وكان كيس وبندر متفقين على أن الشيخ هو المدبر لأعمال النسف ضد السفارة الأمريكية في بيروت وضد المقر الرئيسي للبحرية الأمريكية وضد مقر الوحدات الفرنسية المشاركة في قوات حفظ السلام الدولية . فطالما ظل الشيخ آمنـا في بيروت يدعو لكراهية الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاءها فيجب توقع المزيد من العمليات ، ولما كان الشيعة يخوضون حرباً ضد الولايات المتحدة في لبنان فإنه يجوز للولايات المتحدة أن ترد على هذا .

إلا أن وليام كيس ، مدير المخابرات الأمريكية، أشار في الحـال إلى أن مراقبة الكونجرس لأعمال المخابرات التي تتطلب استخدام القوة تجعلهـا شبه مستحيلة . فـأعضاء الكـونجرس لا يـزالون يـرون أن استخدام العنف شيء لا يمكن تبريره . ولتجنب رقابة الكونجرس كانت المخابرات الأمريكية قد تعودت أن تقبل خدمات منظمات الردع التابعة لدول أخرى . وفهم الأمير بندر تماماً ما يريد كيس الوصول إليـه . فوافق السفيـر السعودي على تـولي مخابـرات بلاده « حـالة الشيـخ فضل الله » . وعـرف الشيـخ بـالتحضير لعمليـة هـذه . فقـام المسؤولون عن أمنه في حزب الله باتخاذ اللازم بسرعة . فأمام البيت ذي العشرة طوابق القائم في بير العبد ببيـروت ، والذي يقـطن فضل الله في شقـة بالـدور

الخامس منه ثم وضع أكياس الرمال ووقف خلفها مسلحون . وفي الشارع خلف البيت منعت السيارات من الانتظار خوفاً أن يترك أحد هناك سيارة محملة بالمتفجرات . إلا أنه لم يكن لكل إجراءات الأمن أية جدوى . ففي يوم ١٨ مارس ١٩٨٥ دخلت سيارة نقل إلى الشارع . على مقربة من منزل الشيخ حاول السائق أن يركن سيارته ، فصرخ أحد الحراس في الرجل طالباً منه الخروج بالسيارة من الشارع ، فرد السائق بأنه يحتاج للحظة لتغيير الإطار الاحتياطي ، فرد عليه الحارس بهز كتفيه . وبعد ثوان قليلة انفجرت السيارة . فكان أن حطمت موجات الضغط ولهيب النيران المنزل والمباني المجاورة له ومات ٩٦ شخصاً ـ بين قتيل وجريح بالحطام ومحروق باللهب ـ ونقل ٢١٦ جريحاً إلى المستشفيات . وكان عدد الضحايا مرتفعاً لهذا الحد بسبب حدوث الانفجار لحظة انتهاء صلاة في جامع بير العبد . وكان كثير من المصلين قد استخدموا عمداً الشارع الذي يسكن فيه الشيخ في العودة إلى منازلهم . وكانوا يأملون في رؤيته إلا أن الشيخ لم يكن موجوداً في ضحى هذا اليوم وهكذا لم يحدث له شيئاً .

واستطاع مسؤولو الأمن بحزب الله أن يقتفوا أثر الفاعل وكان مدبر الحادث إنجليزياً فقد أحضر السيارة وحث ميليشيا الموارنة على تقديم المتفجرات الكافية . وحسب رأي رجال الأمن بحزب الله ، كان تنفيذ العملية قد دبر بصورة تجعل الشبهة تحوم حول المخابرات الإيرانية كمدبر للحادث . أما الشيخ فضل الله فكان رده دائماً أن الأمريكان هم المدبرون وبسط ملاءة كبيرة على أطلال المنزل مكتوباً عليها « .Made in U. S. A » .

بعد هذا الحادث لم يكن مستغرباً ، أن يتم بعد أيام اختفاء ويليام بكلي رئيس مكتب المخابرات المركزية الأمريكية في بيروت أما الجدير بالملاحظة أن الشيخ فضل الله ، بعد الاعتداء على بيته ، لم يعد يشتم الولايات المتحدة في خطبه . وذات مرة قال إن الرسالة التي وصلته قد فهمها . أما المدير السابق للمخابرات الأمريكية فيرى سبب تراجع فضل الله هكذا « لقد ربطه السعوديون

إليهم بصـورة أوثق ، ليس من خلال المـال ولكن من خلال إمـداد حـزب الله بالأدوية والأجهزة الطبية . وربما رأى السيد الأمير بندر أن اكتساب الشيخ أسهل من قتله » .

TWA : رحلة مع أمل

بعد ثلاثة شهور من انفجار بئر العبد ـ أي في ١٤ يونيو ١٩٨٥ انتقل حرب الشيعة ضد الولايات المتحدة إلى الجو . وكان مكان الحدث طائرة تابعة لشركة « TWA » وكانت البداية في أثينا . كان مطار العاصمة اليونانية غالباً ما يمثل منطلقاً لعمليات ارهابية حيث إن إجراءات الأمن به يمكن تفاديها بسهولة أكثر من أي مكان آخر . وكان اثنان من المسافرين قد نجحا في تهريب مسدسات وقنابل يدوية إلى متن طائرة « TWA » رقم ٨٤٧ . وكانت القنابل والمسدسات هي أسلحتها لاختطاف الطائرة بوينج ٧٢٧ ، وإخضاع من فيها لأوامرهم ـ واضطر قائد الطائرة جون شتراك إلى تغيير مساره . فقد امرٌ بالتوجه إلى بيروت وفي الطريق إلى العاصمة اللبنانية تصرف المختطفان بوحشية . ويقول شهود العيان ـ الذين كانوا على متن الطائرة ـ إنه تم ضرب الركاب وأسيء معاملة إحدى المضيفات . وكان هناك شاب تعرض بصورة خاصة للمعاملة الوحشية وكان يدعى دين ستيثم ، فقد اكتشف المختطفان أن بطاقته الشخصية تشير إلى أنه من البحرية الأمريكية ، فاعتبر المختطفان « دين » تجسيداً حياً « للشيطان أمريكا » . وعندما اجتازت طائرة « TWA » قبرص واستعدت للهبوط في بيروت ، ساد الإضطراب فريق برج المراقبة في المطار اللبناني . فقد كان عليهم ـ خلال الثلاثة أيام الماضية ـ التغلب على اثنين من حالات خطف الطائرات . فقد خطف عشرة من الشيعة المسلمين طائرة أردنية تابعة لشركة الخطوط الملكية عالية . ومن بيروت إضطر قائد الطائرة للإتجاه أولاً إلى قبرص

ثم صقلية وفي النهاية عاد إلى بيروت مرة أخرى وكان طلب المسلحين هو ترحيل كل الفلسطينيين الذين يعيشون في مخيمات صبرا وبرج البراجنة وشاتيلا . وكان السبب وراء هـذا المطلب هـو أن هؤلاء الفلسطينيين يعيشـون في منـطقـة من المدينة التي تقع تحت سيطرة الشيعة . وعندما اختطفت طائرة عالية كان القتال الدامي دائراً منذ ثلاثة أسابيع في تلك المخيمات فكانت ميليشيا أمل التابعة لنبيه بري تريد بالقوة المسلحة الحيلولة دون عودة منظمة التحرير الفلسطينية التـابعة لعرفات إلى مناطق الشيعة مرة أخرى بعد أن تم طردها من صبرا وبرج البراجنة وشاتيلا في صيف ١٩٨٢ . وتذكر نبيه بري ما جرى في أوائل الثمانينات عندما كان الشعب الشيعي في جنوب لبنان يشكو من وصاية الفلسطينيين عليه ، ومثـل هذا الحال لا ينبغي تكراره . وتلبية مطلب المختطفين كان يعني ترحيل حوالي ٦٠٠ ألف شخص ، وفي النهاية أدركت المجموعة الشيعية المسلحة أنها بالغت في طلبها ، فأطلقت سراح الرهائن في بيروت إلا أنها فجرت الطائرة .

كان هذا هو أول اختطاف في تلك الأيام من شهر يونيو عام ١٩٨٥ وكان أن أراد بعض الركاب ـ الذين استطاعوا مغادرة طائرة عالية سالمين ـ أن يغادروا جهنم بيروت بأسرع ما يمكن ، فركبوا طائرة كانت متجهة إلى قبرص لينقلوا إلى الأمان في مطار لارنكا . وقبل أن تصل تصل الـطائرة إلى قبـرص اقتحم شاب فلسطيني الكابينة وأعلن اختطاف الطائرة . وكـان الفلسطيني يـريد الإحتجـاج على وحشية مطلب الشيعة باليـوم السابق التي أرادت تـرحيل الفلسـطينيين من صبرا وبرج البراجنة وشاتيلا . وبعد المفاوضات كان المختـطف على استعداد للنزول ومغادرة لارنكا إلى الأردن .

بالرغم من انتهاء هاتين الحالتين بسرعة إلا أن المسؤولون في برج المطار أدركوا عند وصول الطائرة TWA أن عملية الخطف هذه ستتطلب منهم تحملاً أقوى . وكان قـائد الـطائرة جـوشتراك قـد أبلغ من خلال الـلاسلكي الإعتداء الوحشي على بعض الركاب وكان يمكن سماع صرخات الألم في الكابينة .

كان مثل هذا الحدث جديداً على تاريخ إختطاف الطائـرات بالـرغم من تعرض الركاب غالباً للسباب أو الـدفع بقـوة إلا أنهم لم يتعرضـوا قط للضرب

بجدية . إذاً كان هذا المختطفان يقصدان إرهاب رهائنهم . وكان يجب إعتبار وحشيتهما دليلاً على أنهما مستعدان لتنفيذ تهديدهما بتفجير الطائرة .

وكان أن أقنع التحليل الهادىء والمؤثر لجون شتراك فريق برج المراقبة في مطار بيروت : فأعطوا طائرة TWA رقم ٨٤٧ إذناً بالهبوط . ووقفت الطائرة بجوار طائرة عالية التي تم تفجيرها قبل ساعات قليلة . وطلب المختطفان بحضور رجل من قيادة ميليشا أمل إلى المطار للإشتراك في المفاوضات الضرورية . إلا أنه لم يظهر أحد من قيادات أمل في برج المطار ولم يتقدم أحد ليكون طرفاً محاوراً للمختطفين . وفيما يبدو أثار صمت البرج غضب المختطفان فبدأ مرة أخرى ضرب الأمريكي « دين ستيثم » . وفي هذه المرة كان صراخ المعذب يسمح أيضاً في البرج - عن طريق اللاسلكي . وبعد حين من الانتظار أفصح المختطفان في النهاية عمّا يريدان الوصول إليه . يجب الإفراج عن ٧٦٦ شخصاً - كلهم من الشيعة - كان الجيش الإسرائيلي قد اعتقلهم أثناء إحدى حملاته التفتيشية . وبعد إعلان هذا الطلب بدأت عصبية المختطفين في الازدياد وقد ظهر في كل حالات اختطاف الطائرات أن المختطفين يزدادون عصبية طالما ظلت الطائرة على الأرض والسبب يكمن في عدم المعرفة التي لا يستطيع المختطفون التخلص منه : فهم لا يعرفون ما يحدث خلف أو تحت الطائرة المخطوفة والمختطفون لا يستطيعون أبداً التأكد من عدم وجود وحدة خاصة من المقاتلين المدربين تدريباً خاصاً ، يجهزون لاقتحام الطائرة . وكان هذا الإحتمال غير وارد في بيروت إلا أنه لا يمكن استبعاده تماماً . ولا يشعر المختطفون أنهم بالتأكيد في أمان إلاّ في الجو، فهناك يكونون هم سادة الطائرة بلا نزاع . وللعودة سريعاً إلى الجو طلب المختطفون - الذين ثبت أثناء ذلك أنهما لبنانيان من الشيعة - بتزويد الطائرة فوراً بالبنزين وبالطيران تجاه الجزائر (العاصمة) وتم السماح لتسعة عشر راكب بمغادرة الطائرة ، اثنين من كبار السن رجالاً ونساءاً والأمهات اللاتي يصطحبن أطفالاً . وفي الجزائر أطلق المختطفان سراح ٢١ رهينة آخرين من أجل الإثبات للناس في الغرب أن الشيعة بشر كرماء ، على حد قول المختطفين إلا أنه سرعان ما تحولت المشاعر

الإنسانية إلى وحشية فجرى تعذيب الرجال الرهائن من جديد ، وكان الضحايا لهذا يختارون من بين الرهائن الأمريكان . وكما ذكر المختطفون بعد ذلك أن أحد المختطفين كان يصرح مراراً « لا بد أن يموت واحد من الأمريكيين » وكما حدث من قبل في بيروت لم يوجد في الجزائر أيضاً مفاوض للمختطفين .
ولم يكن الأمر يتعلق مطلقاً بتعاطف الحكومات العربية مع الشيعيين اللذين اختطفا الطائرة . فالمسؤولون في الجزائر لم يرغبوا التورط في القضية إلا أنهم لم يستطيعوا تحمل مسؤولية تهديد حياة الركاب إذا لم ينظر مطار الجزائر إلى مشكلة الخطف هذه بعين الجدية . إلا أنه لم يوجد في البرج إلا هؤلاء المرشدون الذين لا يتحملون أية مسؤولية سياسية فنصحوا الخاطفين بالطيران إلى بيروت فهناك فقط يمكن حل المشكلة ، وكان أن عمل الخاطفان بالنصيحة . وكان أن حاول برج المراقبة في العاصمة اللبنانية هذه المرة أيضاً في الإبتعاد عن المشاكل فرفضوا إعطاء الاذن بالهبوط . إلا أن الخاطفين عرفا كيف يتغلبا على هذه المقاومة : فأبلغوا باللاسلكي أن أمراً أصدر للطيار بإختراق الطائرة للمنارة الزجاجية للبرج وظهر مفعول التهديد ، فتم السماح للطائرة « TWA » رقم ٨٤٧ بالهبوط في بيروت مرة أخرى ، وكانت عملية الخطف قد استغرقت حتى هذا الحين ١٦ ساعة . ولم يشأ أي مسؤول مفاوضة المختطفين ، ولما لم تكن هناك نهاية واضحة للعملية حل بهم اليأس والغضب ، فأوقفوا الأمريكي دين ستيثم عند باب الطائرة وأطلقوا عليه النار .
ولم يعرف حتى الآن من مِن المختطفين الشيعة أطلق النار ، ومن منهما رمى بجثته على أرض المطار وقد قابل مرشدو المطار عملية القتل بالإستنكار ، رد عليهم الخاطفين : « عندما فجر الأمريكان سيارة ناسفة في بئر العبد لم يستنكر أحد في أمريكا قتل أناس أبرياء ». إذاً كان السبب في المعاملة الوحشية للأمريكان على متن الطائرة الإعتداء على الشيخ محمد حسين فضل الله في ٨ مارس من نفس العام حيث قتل ٩٦ شخصاً ، واعتبر من عمل المخابرات الأمريكية ، وكان الانتقام للقتلى من أي أمريكي يعتبره الضمير الشيعي عدلاً .
بعد قتل روبرت دين ستيثم اختفى الخاطفان من الطائرة « بوينج ٧٢٧ » وحل محلهما مجموعة من الرجال كانوا مسلحين أيضاً مثل زميلاهم ، ولم يتم التعرف

على عدد الذين استولوا على الطائرة على وجه الدقة حتى الآن ، ولم يعد هناك شك في أن منظمة الأمـل صارت تسيطر على عملية الخطف ، ولم يكن لديها النية في وضع نهاية سريعة غير دموية للعملية ، بـل كانت مصممـة على عدم إطلاق سراح الرهائن بسرعة . وفي هذا المجال يمكن الإعتبار بأن زعيم منظمة أمل كان في هذا الوقت وزيراً للعدل في الحكومة اللبنانية ـ غيـر القادرة على العمل ـ وهكذا كان احتجاز الرهائن لا يمثـل بالنسبـة لوزيـر العدل نبيـه بري جريمة عليه هو شخصياً مواجهتها . ومن الممكن ايضاً أن يكون هو الذي أصدر الأمـر بمغادرة الـطائرة والـرهائن لبيـروت ، أي مغادرة المنـطقة الـواقعة تحت مسؤوليته القانونية وأقلعت الطائرة بوينج ٧٢٧ رقم ٨٤٧ في اتجاه مدينـة الجزائـر (العـاصمة) وكـان في انتظار الـطائـرة هنـاك شيعي آخـر ، ربمـا كـان ثـالث المختطفين الأصليين ، فقبل يومين من إقلاع الطائرة بـوينج ٧٢٧ من أثينـا لم يستطع حجز مكان له وكان هذا الرجل قد لفت انتباه رجال أمن المطار في صالة الترانزيت ، عندما تم الإعلان عن خطف الطائرة ، وخوفاً من اتخاذ الطائـرات اليونانية هدفاً للخطف من قبل الشيعة ، إذا بقي هذا اللبناني رهن الإعتقـال ، فقد سافر حسب رغبته إلى الجزائر وفي الجزائر أيضاً لم يتلق المختطفـون رداً على مطلبهم بإطلاق إسرائيل لسراح ٧٦١ شيعياً لبنانياً، ولم يعرفـوا أن نبيه بـري ـ الذي لم يقطع قط علاقته بالسفارة الأمريكية ـ قد طالب حكومة الولايات المتحدة بإلحاح بحث إسرائيل على إعادة الأسرى الشيعة إلى لبنان . وقد وجد بري آذاناً صاغية وتفهماً لدى ممثلي الولايات المتحدة في بيروت فكـانوا يـرون في نقل الأسـرى الشيعة من معسكـرات لبنان إلى السجـون الإسرائيليـة عملاً مخـالفـاً للقانون . ولم توجه أية إدانة لواحد من الأسرى ، فقد قام الجنود الإسرائيليون بتجميعهم وترحيلهم أثناء البحث عن المشتبه فيهم في جنوب لبنان ، فلم يكن إستمرار اعتقال ٧٦٦ رجلاً في إسرائيل قانونياً فكان هذا خرقاً للقانون الـدولي طبقاً لاتفاقية جنيف ، ولفت نبيه بري نظر الدبلوماسيين الأمريكيين إلى أنه يرى أن إسرائيل في هذه الحالة قد قامت باحتجاز رهائن . ولم يعترض أحد عليه إلا أن ممثلي الولايات المتحدة رجوه في تفهم موقفهم : فرئيسهم يرغب الآن في منع أية تنازلات لصالح الإرهابيين . ولهذا فإن الحكـومة الأمـريكية غيـر قادرة

مطلقاً حتى على إسداء نصيحة ودية للإسرائيليين بإطلاق سراح ٧٦٦شيعياً الآن . فالإرهابيون والعالم كله سيعتقدون أن أمريكا انصاعت للضغط . وبالرغم من أنهم لم يردوا على مطلب المختطفين إلا أن الأجهزة الجزائرية قامت بمفاوضة المختطفين هذه المرة ، وكرد على إمدادهم بالوقود والمواد الغذائية قام أعضاء ميليشيا أمل بإطلاق سراح بعض الرهائن واحتفظوا بثلاثة وأربعين رهينة وكانوا كلهم أمريكيين ، أي منتمين للبلد الذي يعتبره الشيعة تجسيداً للشيطان . وعادت الطائرة بوينج ٧٢٧ إلى بيروت على متنها الرهائن الأمريكيين ، وصل يوم الأحد ١٦ يونيو ١٩٨٥ فقام أحد المختطفين بقراءة نص بيان عبر اللاسلكي من الطائرة إلى برج المراقبة : « بسم الله الرحمن الرحيم . على أمريكا وإسرائيل أن تعلما أننا لن نطلق سراح أية رهينة طالما لم يتم الإفراج عن أخوتنا في السجون الإسرائيلية. وعلى الصليب الأحمر الدولي أن يقبل طلبنا وبسرعة قبل أن يفوت الأوان ، وإذا كان الإسرائيليون لم يعتقلوا أخوتنا ، ما كنا اضطررنا للقيام بهذه العملية قط ، فنحن لسنا مجرمين أو قراصنة جو ، فنحن نكافح من أجل حقوقنا ، ولا نستطيع استعادة كرامتنا إلا بقوة السلاح. وستسمعون منا مرة واحدة فقط، فبلاغنا الأخير الذي سيصلكم، سيبقى في ذاكرتكم للأبد . والله يهديكم سواء السبيل ». وطوال يوم الأحد ـ ثالث يوم للإختطاف ، كانت الطائرة بوينج التابعة لشركة T W A رابضة في مطار بيروت وكان الخوف يسود الطائرة ، أما موقف الرئيس الأمريكي فكان مثل موقف جيمي كارتر أثناء احتجاز الرهائن في طهران ، أي رد فعل غير معقول وفاشل ، وكان الخوف من أن يأمر رونالد ريجان أيضاً وهو في حالة يأس باتخاذ خطوة عسكرية لتحرير الرهائن، والمغامرة بمثل هذه العملية يعرفها الجميع ،فإذا لم يتم تحرير الرهائن في ثوان معدودة يقوم المختطفون بتدمير الطائرة . وفي ذاك اليوم كانت الإشاعات تدور في بيروت فعلاً أن حاملة الطائرات الأمريكية نيميتز تتحرك باتجاه الساحل اللبناني ، وبعد ذلك ستنزل قوة تهاجم الشيعة . ودفعت الشائعات زعماء ميليشيا أمل أن يأخذوا الرهائن في ساعة مبكرة من صباح الإثنين وفي سيارتي نقل مغلقتين ـ لا تسمح برؤسة ما في الخارج ـ تم نقل الرهائن خلال شوارع مزدحمة بالحركة . ولم تستغرق الرحلة وقتاً طويلاً

ووصلت السيارتان إلى جراج تحت الأرض. وتم توزيع الأمريكان على غرف مختلفة . وفي بعض الغرف المظلمة كان يحس الرهائن بهزات ناتجة عن إنفجار القنابل اليدوية وهكذا افترضوا أن الرهائن خبئوا في أحياء صبرا وبرج البراجنة وشاتيلا ، ففي تلك الأيام كان القتال هناك مشتعلاً : فقد كانت ميليشيات أمل تريد طرد أنصار عرفات الذين أرادوا إعادة قواعدهم إلى تلك المعسكرات السابقة في تلك المنطقة . وكان بعض الرهائن ـ على سبيل المثال أربعة رجال ثبت في هويتهم إنتماءهم للجيش الأمريكي ـ قد أنزلوا في أماكن أسوأ من الآخرين وكانوا يظنون أنهم في قبضة أعضاء بحزب الله ، وكان يتم تهديدهم بأن قتلهم شيء لا يمكن تفاديه . وكان هناك إحساس أيضاً ينطبق على كل حالة من حالات الخطف : فالرهائن يشعرون بالخوف من الأحداث القادمة ـ وكذلك حراسهم أيضاً ـ فهم يعيشون كذلك مثل الرهائن مختبئين ، وحسب ما يبدو لم يكونوا متأكدين أن الناس خارج المخبأ موافقون على ما يحدث في داخله . وبعد أسبوع من الأسر في الطوابق السفلى وفي الشقق كان موقف الرهائن قد تغير . فبعضهم نقل إلى مطار بيروت ليعقد مؤتمراً صحفياً أمام مراسلي التليفزيون الغربيين ، وقد أخبرهم حراسهم أنهم ميليشيا أمل التابعة لنبيه بري. وكانوا يسلكون مسلكاً صحيحاً للغاية. وامتنعوا عن أية تهديدات، بل إنهم حاولوا مساعدة رهائنهم من خلال جلب الأدوية الضرورية ، ومواد غذاء خاصة ، بل انه حدث أن حل تعاطف وود بين الحراس والرهائن . وفي خلال هذا الوقت أعلن زعيم ميليشيا أمل أنه أصدر بالفعل أوامره إلى رجاله بمشاركة حزب الله في عملية الخطف هذه حتى يمنع ـ على حد قوله ـ مواصلة إساءة معاملة الرهائن .

وكان نبيه بري لا يزال يرغب في الوصول إلى حل للمفاوضات وكان يجب النجاح في هذا من خلال أتصاله بالدبلوماسيين الأمريكيين . وأثناء محادثاته الأولى مع ممثلي الولايات المتحدة في بيروت وجد زعيم الشيعة تفهماً لغضب الشيعة من الإعتقال التعسفي لإخوانهم في العقيدة في جنوب لبنان . وكان عليه أن يلاحظ أيضاً أن الدبلوماسيين العاملين بالسفارة الأمريكية ـ وكان

قد تم تخفيض عددهم وصلاحياتهم تخفيضاً كبيراً بعد حوادث الإنفجار ـ لا يملكون الشجاعة لتقديم اقتراحات لوزارة الخارجية لاتخاذ إجراءات غير عادية .

أما المؤكد فكان هو ازدياد حدة ضغط الرأي العام في أمريكا على رونالد ريجان ، فهو الذي وعد عند توليه منصبه بأن أمريكا لن تقبل المهانة في عهده ، كما حدث في عهد كارتر الذي لم يجد حلاً للرهائن الأمريكيين في السفارة الأمريكية بطهران، ولم تتطرق المناقشات قط إلى عملية عسكرية لتحرير الرهائن الآن ، فالشيعة قاموا بتوزيع الرجال والنساء على أماكن مختلفة من المدينة وكان ريجان يطمح إلى المفاوضات ـ ولحسن حظه اتفقت مصالحة مع مصالح نبيه بري ، وكان وزيراً للعدل في الحكومة اللبنانية ـ غير العاملة ـ يحتاج إلى نجاح يخلق لمنظمته قوة جذب لشباب الشيعة اللبنانيين أكبر من تلك التي يتمتع بها حزب الله ،فإذا ما نجح في الإفراج عن الـ٧٧٦ رجلاً من سجون إسرائيل فسيكون بطل الشيعة . ولكن خطر فشله كان كبيراً ،وسيكون هو الخاسر في الصراع الداخلي وسيخسر بذلك منظمته أيضاً . وكان على نبيه بري أن يتحدث مع دبلوماسي أمريكي مسؤول بالفعل ، لكي يوضح له الموقف : فزيادة جماهيرية حزب الله لن تكن في مصلحة الولايات المتحدة لأن هذا سيعني تصعيد كفاح هذه المنظمة المتشددة ضد المصالح الأمريكية من الناحيتين الكمية والكيفية . ونتج عن محاولات الدبلوماسيين في بيروت أن قام جورج شولتز وزير الخارجية بتفويض روبرت مكفرلين . الرجل الخبير بشؤون الشرق الأوسط بإجراء محادثات مع نبيه بري ، وهذا يعني خرقاً للمبدأ المعلن بأن الولايات المتحدة لا تتدخل بأي حال من الأحوال في مفاوضات مع الإرهابيين ، وكان أن تم ما كان يعتبر في بيروت المدمرة غير محتمل : فقد استطاع مكفرلين ونبيه بري أن يتحادثا تليفونياً فرأى زعيم الشيعة أن هناك إجراء يمكن تنفيذه . هو أن تعطي الحكومة الإسرائيلية وعداً بالإفراج عن الـ ٧٦٦ شيعياً في المستقبل القريب ، إن لم يكن في موعد محدد، وأصر مكفرلين على ترك حيز للمناورة لإسرائيل يعطيها الفرصة لتزعم دائماً أن الإفراج عن الشيعة كان قد تم التخطيط

له من زمن بعيد وهو ليس له علاقة مع الإفراج عن الرهائن في بيروت . إلا أن مكفرلين كان يشك في موافقة منظمة حزب الله على حل يسرق منهم الفرصة في الزعم بأنها أجبرت الشيطان أمريكا والشيطان إسرائيل على الركوع . أما نبيه بري ـ الذي لا يستطيع تحمل فشل المفاوضات ـ فقد اضطر للإعتراف أن تحت يده جزء فقط من الرهائن وأنه يلاقي مصاعب مع المسؤولين في حزب الله ، فهم مقاتلون وليسوا دبلوماسيين وكان المفاوض الأمريكي أيضاً يلاقي مصاعب تكمن في شخصية أحد المسؤولين معه عن هذه المفاوضات المناوءة : فالرئيس ريجان أعتقد أنه يحسن التصرف عندما قام في هذه الساعة بالذات من المحادثات الحاسمة ـ بإلقاء خطاب شتم فيه مختطفي الرهائن ، أنهم غير آدميين ومن الضرورة أن يعاقبوا على جريمتهم . وبينما لم ترد قيادة منظمة أمل على أقوال الرئيس أظهرت قيادة حزب الله غضبها . فعندما اتفق نبيه بري وروبرت مكفرلين بالعمل بالاقتراح الذي وضعاه في البداية بإفراج إسرائيل عن الـ ٧٦٦ شيعياً فيما بعد ـ رفض حزب الله المشاركة في هذه الصفقة «غير الشرعية » ورفضت الإفراج عن الرهائن التي تحت يدها . وبهذا حاق الخطر بحل المشكلة لعدة ساعات . وفي هذه المرة تحدث نبيه بري باسم حزب الله وطالب وزارة الخارجية الأمريكية بإصدار بيان يستطيع الحد من فظاظة كلمات الرئيس ، وفي النهاية استطاع مكفرلين تحقيق ما يريد بأن صرح المتحدث باسم وزارة الخارجية أمام الصحفيين المنتظرين أنباءً من بيروت أن الولايات المتحدة ستفعل كل شيء لتخفيف آلام الشعب اللبناني . وكان أن نتج عن هذا النص الخالي من المعاني الإفراج عن كل الرهائن الذين غادروا بيروت في ٣٠ يونيو ١٩٨٥ في أتوبيسات إلى دمشق لكي يسافروا من هناك إلى المانيا الغربية ثم إلى الولايات المتحدة وعلى أحد الأتوبيسات كتب بحروف كبيرة : T W A Travel With Amal وقبل أن يصل الرهائن المحررين إلى وطنهم الولايات المتحدة كانت الحكومة الإسرائيلية قد بدأت في التمهيد لعملية الإفراج عن ٧٦٦ أسيراً شيعياً : فتم تقديم الطلب للإقتراع في الكنيست وقد تم أختيار الطريق البيروقراطي المتكلف حتى يتجنب كل ظن في أن الإفراج عن اللبنانيين من معتقلات التحقيق ليس له أي علاقة بحل قضية رهائن طائرة T W A رقم

٨٤٧ وكان يجب أن تبدو عودة الشيعة على أنها عملية عادية تماماً تم التحضير والتخطيط لها منذ زمن بعيد قبل يوم ١٤ يونيو الوخيم . أما تأجيل الإفراج فقد رفضته الحكومة الإسرائيلية فهي لن تترك الولايات المتحدة في موقف حـرج . وفي خلال أسبوع بعد الإفراج عن الرهائن كان نصف الأسرى الشيعـة قد عـاد إلى لبنان ونقل إلى قراه وشيئاً فشيئاً تم الإفراج عن النصف الآخـر . واستطاع الشيعـة كلهم أن يحتفلوا بنصـرهم . وبرغم كـل الاحتياطـات التي اتخـذتهـا الأجهزة الإسرائيلية لتخلق الإنطباع بأن قضية الرهائن ليس لها علاقة بـالإفراج عن الشيعة ـ فكان الشيعة يعرفون ما حدث على نحو أدق . وكان هناك بـطلان هما اللذان أحرزا هذا النجاح : الـرجلان الشيعيـان اللـذان اخـتطفـا الطائـرة بوينج ٧٢٧ أثناء طريقها من أثينا إلى روما يوم ١٤ يونيو . وهذا ما كان يؤمن به كل الناس في القرى والمدن بجنوب لبنان أن هذان الرجلان قد استطاعا الإفراج عن أخوتهم في العقيدة . ولم يكن هناك من شك أن الاثنين كانا من حزب الله . ولذا حظيت هذه المنظمة بالفوز في المقام الأول ، إلاَّ أن أسهم منـظمة أمـل ارتفع أيضاً في عيون الشيعة مـرة أخرى ، فـاتصال نبيـه بري بـالدبلومـاسيـين الأمريكيـين قد أثبت جدارته .

وهكذا نجح مختطفـو الرهائن في إذلال الولايات المتحدة مرة أخـرى ، وكان احتلال السفارة الأمريكية في طهران الذي وقع بأعوام ١٩٧٩ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨١ ـ قد استغرق ٤٤٤ يوماً ، أما قضية الرهائن في عـام ١٩٨٥ فلم تستمر أكثر من ١٧ يوماً ، وبالرغم من أن إحداهما لم ترهق الأعصاب إلا فترة قصيرة وجيزة جداً بالمقارنة بالثانية ، إلا أنها أظهرت أيضاً أن رونالد ريجان لم يقو على مواجهتها تماماً مثل جيمي كارتر حينذاك . واتضح للمرة الثانية مدى العجز أمام محتجزي رهائن مصممين وهم يتحكمون في حياة الرهائن تحت أيديهم .

ولم يبق أمام الرئيس ووزير خارجيتـه للتهديـد إلا أن الولايـات المتحدة ستفعل كل شيء لتقديم المجرمين للمحـاكمة ، هؤلاء الـذين قتلوا الأمريكي روبرت دين ستيثم . ولكن زعماء الشيعة في بيروت استطاعوا الـرد : « ننصح الولايات المتحدة بالحذر ، لأنه ما زال في قبضتنا سبع رهائن يحملون جوازات

سفر أمريكية ». أما قضية الرهائن السبع هذه فلم يكن حلها مع قضية طائرة T W A رقم ٨٤٧ .

وبعد عام ونصف من الأحداث الدرامية التي وقعت في يونيو ١٩٨٥ بدا أن الرئيس الأمريكي يقترب من هدفه المعلن تقديم واحد على الأقل من قتلة الأمريكي ستيثم إلى المحاكمة . وكان التحقيق عن شخصية هذين الرجلين صعباً . وبالرغم من أن الاثنين وقفا أمام الكاميرات والصحفيين أثناء مؤتمر صحفي في صالة ترانزيت مطار بيروت بعد انتهاء مشكلة الرهائن إلا أنهما كانا ملثمين . وكان هناك صور لواحد منهما يمسك بالمسدس مهدداً من شباك كابينة الطائرة إلا إنه لم يستطاع التحقق من الوجه بوضوح . أما القرائن ، التي جمعتها وحللاتها المخابرات اللبنانية ـ التي كانت لا تزال عاملة ـ فقد أكدت لوزارة العدل الأمريكية أن القاتل يدعى محمد علي حمادة . وتعتبر عائلة حمادة الأساس القوي للمقاتلين أعضاء حزب الله ، وكان شباب عائلة حمادة ـ والتي تضم ربما ٣٠ ألف شخص ـ يؤمن أن الشيعة واقعين تحت الظلم، وهم ما يزالون من الطبقات المحرومة حتى الآن في لبنان ولا بد أن يحتل الشيعة مكانهم من خلال النضال وهم يعتبرون الموارنة أعداءهم ، لأنهم حسب رأي الشيعة استغلوا المسلمين ، وكذلك الأمريكان الذين يريدون بمساعدة إسرائيل الابقاء على نظام حكم الموارنة . وهم يعتبرون فرنسا أيضاً عدواً لمساعدتها في تثبيت نظام « الشيطان السني » صدام حسين ، ليحكم الأغلبية الشيعية وذلك من خلال إمداده بالسلاح ولأن الفرنسيون أظهروا تعاطفاً مع الموارنة في لبنان ، فقد أكملوا بهذا صورة العدو أمام شيعة لبنان ومن بينهم أفراد عائلة حمادة الكبيرة ؛ فرنسا هي دعامة أكثر أعداء الشيعة نشاطاً ، ففرنسا تساعد صدام حسين في الصراع الإيراني ـ العراقي وتدعم الموارنة في لبنان في الصراع للمحافظة على الدولة المسيحية . وخلف فرنسا تقف الولايات المتحدة ، مدبرة كل المؤامرات ضد المسلمين الشيعة . ولا بد من معاقبة الفرنسيين على قبولهم أن يكونوا أداة في هذه المؤامرات . كانت رغبته في إلحاق الأذى بالفرنسيين هي التي أدت إلى اعتقال محمد علي حمادة بمطار فرانكفورت في يناير عام ١٩٨٧ . وقد قال إنه يحمل معه نبيذاً من لبنان ولكن

عند الفحص الدقيق لمحتوى الزجاجات ظهر إنه مادة نترات الميثلين الناسفة . فتم اعتقال محمد علي حمادة . وكانت أجهزة العدالـة الأمريكيـة تترقب هـذه اللحظة . فطلبت تسليم محمد علي حمادة إلى أجهزة الولايات المتحدة نـظراً لاتهامه بقتل المواطن الأمريكي ستيثم ولذلك يجب تقديمـه لمحكمة أمـريكية لمساءلته في هذا الشأن ولكن المـوقف تعقد بعـد أيام قليلة عنـدما وصـل إلى فرانكفورت أخو محمد علي حمادة ، ويدعى عباس حمادة . وقد تم اعتقاله هو أيضاً بتهمة أنه دبر عملية خطف الألمانيين رودلف كوردس وألفريد شميت قبل مغادرته بيروت مباشرة .

وفي الواقع كان كلا الألمانيين في قبضة مختطفين شيعيين على صلة قوية بعائلة حمادة . وطبقاً لرأي قيادة حزب الله ، التي اشارت رسمياً أنها ليست لها علاقة بعملية الخطف فكان هذا حالة مثالية لإجراء مقايضة : معتقلون على ذمة التحقيق مقابل رهائن . إلا أن هذا لم يكن ممكناً . فكلما ظهر هناك إتفاق بدون تدخل المحكمة كانت أجهزة العدالة الأمريكية تفسده بطلبها تسليم المتهمين . وكان أقصى ما تستطيع قبوله هو الإقرار باستقلالية المحاكم الألمانية . وكان عدم تسليم محمد علي حمادة في النهاية قد خلق أساساً لحل قضية الرهينتين كوردس وشميت . وعلى مرحلتين زمنيتين متباعدتين تم الإفراج عنهما .

وكان هناك عامل إيجابي آخر من مسلك الأجهزة الألمانيـة الغربيـة قدره زعماء الشيعة في لبنان وهو الإقـرار بأن محمَّـد علي حمادة يجب تقـديمه إلى محكمة الأحداث .

وكان النقاش قائم حول ما إذا كان المتهم وقت اختطاف طائرة T W A رقم ٨٤٧ لم يبلغ سن الرشد طبقاً للقانون اللبناني أم لا . وبعد الإستماع إلى الخبراء قبلت المحكمة إن محمد علي حمادة كان أقل من ٢١ عـاماً في يـونيو ١٩٨٥ . وبهذا يستطيع توقع حكماً مخففاً . وقد اعتـرف المتهم باشتـراكه في اختطاف الطائرة ، ولم يكن ممكناً إثبات تهمة قتله روبرت دين ستيثم .

عندما قدّم المختطفون طلبهم أثناء التوقف الأول للطائرة في بيروت ، لم

يكن الطلب يدور حول ٧٦٦ شيعياً فقط ، بل تضمن أيضاً ١٧ شيعياً آخر في سجون إمارة الكويت . إلا أن هؤلاء السبعة عشرة لـم يتم ذكرهم بعد ذلك في المفاوضات . فظلوا في السجون الكويتية . وكانت محكمة كويتية قـد أدانتهم لتفجيرهم في ١٢ ديسمبر ١٩٨٣ السفارة الأمريكية بالكويت بعبوة ناسفة ، وقتل ستة أفراد .

وكانت هذه المجموعة قد قامت بشحن عربة نقل بخمسين أنبوبة غاز ووضعت فيها مواد متفجرة بلاستيكية . ثم قاد أحدهم هذه السيارة أمام السفارة الأمريكية وأشعل الشحنة . وكانت سيارة نقل أخرى تستهدف محطة تكرير البترول الشيعية ، وكانت هذه السيارة تحمل ٢٠٠ أنبوبة غاز ممتلئة بمواد ناسفة ومن حسن حظ العاملين في محطة التكرير أنه لن ينفجر إلا عدد ضئيل من هذه القنابل المائتين . وإن كان الاشتعال قد تم لكانت المحطة البتروكيماوية الشيعية قد دمرتها النيران .

وكان هدف القائمين بعملية ١٩٨٣ هو الإثبات للعالم أن العائلة السنية آل صباح ـ والتي تحكم الكويت منذ منتصف القرن الثامن عشر ـ لم تعد تستطيع السيطرة على الإمارة وأن الشيعة صاروا قوة مسيطرة. ولإظهار أن الإمارة ما زالت تحت سيطرة آل صباح ، أعلن الأمير أحكاماً قاسية . إلا أنه لم يتم قط تنفيذ أحكام الإعدام . ولم يستطع إختطاف الطائرة في عام ١٩٨٥ أن يفرج عن الشيعة المدانين في الكويت ، كان يجب أن تحقق هذا عملية نفذت في ربيع ١٩٨٨ ، ففي ٥ أبريل ١٩٨٨ قام رجلان بالاستيلاء على طائرة من بانكوك إلى إمارة الكويت .

وتم تحويل الرحلة من الكويت للهبوط في مطار مدينة مشهد شمال إيران ، حيث يوجد ضريح الإمام علي الرضا ، الإمام الثامن في سلسلة النسل المباشر للنبي محمد ﷺ . وظلت طائرة الجامبو الكويتية رابضة في مطار مشهد لثلاثة أيام . وسمح بمغادرة الطائرة للمسلمين الشيعة فقط .

كما تم إطلاق سراح كل الأوروبيين والأمريكيين . ولم يبق رهينة إلا

المواطنون الكويتيون السنيون . وعملية الخطف هذه تختلف جوهرياً عن سابقاتها : فالعدو هنا ليس « الشيطان أمريكا » ولكن أهل السُّنة في نفس الإمارة ـ وعلى وجه الخصوص عائلة الأمير ذاتها . وكان أحد أفراد عائلة آل صباح موجوداً على متن الطائرة . ومن الواضح أن المختطفين قد اختاروا هذه الرحلة بسبب هذه الشخصية من عائلة آل صباح . وقد بدا أن مدبري العملية يفكرون في عملية طويلة الأجل وذلك من خلال تزودهم في مطار مشهد بالرشاشات والمتفجرات . فقد كان الرجلان ـ اللذان أجبرا الطيار على تغيير مساره من بانكوك ـ مسلحين تسليحاً رديئاً. والآن يصعد رجال ملتحون إلى الطائرة وكانوا مسلحين بكل ما هو ضروري لتدمير الطائرة بركابها . ومن الجدير بالملاحظة أن الأجهزة الإيرانية لم تمنع تزويد الطائرة في مطار مشهد بالعتاد الحربي . وكان هذا يعتبر موافقتها على العملية . وقد ورد أيضاً أن حركة الطيران في اليوم السابق على هبوط الطائرة الجامبو في مشهد لم تكن تجري بصورة عادية ، فالمسؤولون في المطار كانوا يستعدون في هذا الوقت للعملية .

وفي ٨ أبريل ١٩٨٨ غادرت الطائرة مشهد . وتجاوزت إيران وكذلك العراق وسوريا ، فبيروت كانت الهدف . وكانت التعليمات الصادرة إلى هيئة برج المراقبة بعدم تكرار غلطة ١٩٨٥ ، بأي حال من الأحوال ، فقد تراجع المرشدون حينذاك أمام الرجاء الحار لقائد طائرة T W A وأعطوه الاذن بالهبوط وعندما كانت الطائرة التابعة لشركة طيران الكويت تقترب من ساعة الهبوط في بيروت كان قد تم سد المدرجات بأتوبيسات وعربات مطافىء . وحاول الطيار الهبوط عدة مرات إلا إنه لم يجد مكاناً في الممر ـ والذي كان طوله يسمح بهبوط الطائرة ـ لكي تهبط فيه الطائرة . وفي هذه اللحظة أعلن أمير الكويت على الملأ : إننا نعتبر أن الطائرة قد سقطت في البحر ، ولا يبقى إلا إنقاذ الناس الذين قد يسبحون في الماء . أدت صلابة المسؤولين في الكويت بتحمل مقتل ٢٥٠ راكباً لإثبات أنهم لن يخضعون لحزب الله الخوميني ، إلى نتائج إيجابية في بيروت ، فكانت منظمة أمل الشيعية بقيادة نبيه بري تحتل برج المراقبة ولا تسمح لرجال حزب الله بالهبوط ، فقد كانت أمل هي التي منعت أخوتها في

العقيدة من الهبوط. وكان المختطفون ينوون أخذ الرهائن من الطائرة في بيروت ـ كما حدث في يونيو ١٩٨٥ ـ وإخفاءهم في منازل مختلفة في المناطق الشيعية . وبهذا تكون الظروف قد توافرت لمفاوضات غير محدودة الأجل . ولم يكن بمقدور أحد أن يحرر الرهائن . وكانت حسابات حزب الله تتوقع أنه بعد مدة سوف تتراجع عائلة آل صباح بعد أن تكون قد استنفذت قوتها . وكان مدبرو العملية قد تحسبوا أن يكون مطار بيروت في قبضة رجال حزب الله في يوم وصول الطائرة الكويتية . إلا أن هذا الأساس للعملية كلها لم تستطع المنظمة المتشددة تحقيقه . ولما لم يتم زحزحة القوة المحتلة لبرج المراقبة عن موقفها في رفض الاذن بهبوط الطائرة ، كان الخطر يهدد الطائرة فعلاً بالسقوط في البحر : فالوقود كان قد استنفذ تقريباً أثناء محاولات الهبوط .

وفي اللحظة الأخيرة حقاً فقد سمعت أجهزة المراقبة في مطار لارنكا بقبرص ـ والذي يبعد ١٥ دقيقة عن بيروت ـ بهبوط الطائرة ـ وكان الهبوط في لارنكا إن الهدف من خطف الطائرة قد ضاع . ففي قبرص ، وعلى مقربة من قاعدة عسكرية بريطانية لم يستطع المختطفون أن يأمنوا عملية لتحرير الرهائن بالقوة . وبالرغم أنهم لم يكونوا في العاصمة اللبنانية إلا أن أعضاء حزب الله سلكوا مسلك سابقيهم في صيف ١٩٨٥ : فأطلقوا النار على أحد الركاب. فإن كان خاطفا طائرة T W A قد قتلا الأمريكي روبرت دين ستيثم ، الذي اعتبر أحد أفراد الجيش الأمريكي الملعون ، الذي يدعم نظام حكم الموارنة البغيضين بأحدث الأسلحة التكنولوجية ، فقد قام مختطفو الطائرة الكويتية باغتيال الحارس الخاص لتلك الشخصية من عائلة آل صباح الموجودة على متن الطائرة . ثم ألقيت جثة الحارس على أرض الممر . إلا إن هذا الفصل من العنف الحاد لم يضطر عائلة الأمير إلى إجراء مفاوضات مع الخاطفين .

من لارنكا اتجهت الطائرة إلى مدينة الجزائر إلا إنه لم تصل هناك أية إشارة من طهران تدل على تخفيف حدة الموقف . وأعلن المختطفون عن إنذارات أخيرة إلا أنها لم تقابل بأي رد فعل . وكان أمير الكويت يستطيع ترقب التطورات بهدوء فشهر الصوم رمضان قد اقترب ، وهو الشهر الذي حرم فيه قتال

المسلم لأخيه المسلم . ومع أن الرهائن كانوا سنيي المذاهب ، إلا إنهم كانوا مسلمين وبهذا فالتحريم يشملهم أيضاً . وعندما بدأ شهر رمضان بالفعل ، تسلم المختطفون أمراً عبر اللاسلكي بإطلاق سراح الرهائن . وفي فجر اليوم السادس عشر للاختطاف كان المختطفون يغادرون الطائرة في الجزائر ويختفون . وفي طهران كان علي أكبر هاشمي رفسنجاني يقول يوم الهزيمة : « إنه يبدو ، وكأن الوقت صار لا يعمل في صالحنا » . وفي صيف ١٩٨٥ عندما كان ركاب طائرة T W A لا يزالون رهينة في يد المختطفين ، كان هناك إحساس بأن طهران لم تشجع « حزب الله » أو « أمل » ، بالتماسك على كل حال ، حتى يتم إطلاق سراح الأسرى الشيعيين من سجون إسرائيل . . لم يكن قد تم إبلاغ أحد زعماء رجال الدين في إيران بهذه العملية . أما بالنسبة لاختطاف الطائرة الكويتية فقد حدث العكس : فقد أرادت القيادة في طهران الإشارة إلى حقها في مد الثورة الإسلامية ونشرها . وكان يجب أن تلقى هذه الإشارة قبولاً في العالم كله . إلا أن العملية انتهت نهاية مخزية . ولم يكن الرئيس السوري حافظ الأسد غير مشارك في هذا . وهو حليف آيات الله في الصراع العراقي الإيراني ، إلا إنه كان لا يستحسن النفوذ المتنامي لحزب الله التابع لتوجيه رجال الدين بإيران .

وحافظ الأسد ينظر إلى لبنان تاريخياً على أنه جزء من سوريا : فقد كان جبل لبنان تابعاً للسيادة السورية حتى تأسيس الدولة اللبنانية عام ١٩٤٣ ـ ولذلك يجب إعادته إلى سوريا فإن سيطر عليه الأصدقاء الإيرانيون ، فلن يمكن الإبقاء على الأحقية السورية . وفي فبراير ١٩٨٨ وصل إلى مسامع الرئيس السوري خبر غريب : ففي إحدى نقاط التفتيش على طريق بين سهل البقاع ومدينة صيدا استوقف جنوده سيارة نقل ظانين أنها تحمل مواد ناسفة . ثم عثروا على صناديق بها أوراق مالية مطبوع عليها « جمهورية لبنان الإسلامية » . وكانت هذه الأوراق قد تم سكها في إيران . وبعد أيام قليلة استوقفوا سيارة أخرى على نفس الطريق لأن الجنود السوريين اشتبهوا في أمرها . وكانت حمولة هذه السيارة أيضاً لا تحتوي على مواد ناسفة إلا إنها كانت محيرة : فكانت السيارة تنقل طوابع بريد مكتوب عليها « جمهورية لبنان الإسلامية » .

أي إن تأسيس الدولة الدينية في لبنان سيقع قريباً .

وكان على الرئيس السوري أن يوقف هذا التطور الديني ـ السياسي بأي حال من الاحوال .

ويعتبر الرئيس السوري حافظ الأسد ـ المولود في ١٩٣٠ ـ شيعي المذهب . وهو ينتمي للفرقة الشيعية « العلويين » . ويعتقد العلويون أن « محمداً » ليس إلا رسولاً يأتي بعده التجسيد الآلهي . وعلي زوج بنت النبي رسول الله ﷺ ، هو في الحقيقة هذا التجسيد ، والذي يستحق كل التقديس . وقد نشأت هذه العقيدة في القرن التاسع الميلادي في منطقة حول سوريا . إلا أن حافظ الأسد ليس واحداً من الأتباع المتطرفين لهذه العقيدة على الإطلاق . بل إن هذه الفرقة تمثل له فقط أداة لممارسة السلطة . فهو يستطيع الاعتماد على تضامن العلويين معه ولهذا حرص أن يشغل المناصب الرئيسية في الدولة السورية أفراد من هذه الفرقة . وكان هناك عامل معين في صالحه وهو: إن الرجال الطموحين من العلويين كانوا لا يملكون في الماضي إلاَّ فرصاً ضئيلة للوصول لنجاح مرض في دولة معظم شعبها من أهل السنة . وكان الجيش يمثل طريق النجاح الوحيد بالنسبة للشباب الذين يريدون أن يصبحوا شيئاً . فالأغلبية السنية في دمشق كانت لا تميل عموماً للخدمة العسكرية ، بل كانت تفضل ترك هذا المجال للأقلية . إلا أن هذا الاهمال للقطاع العسكري عاد على أهل السنة بالضرر : فعندما نجح ضباط علويون في الإحاطة بنظام حكم سني فاسد ، كان من البديهي أن يأمن هؤلاء سلطاتهم من خلال شغل رجال موضع ثقتهم للمناصب القيادية في الوزارات وبالذات للمناصب في أجهزة الأمن حتى إن قائد الإنتماء للمذهب العلوي ـ الشيعي لم يدعم حافظ الأسد ومعاونية من خلال الحماس المذهبي ، إلا أن هذا كان عاملاً في التوجه السياسي فقد يسر له التحالف مع القيادة الشيعية في طهران . ففي الصراع الإيراني ـ العراقي وقفت الحكومة السورية في صف إيران عن قناعة . إلا أن حافظ الأسد قد غضب ، عندما صرح الخوميني ، بأنه يجب أن تكون لبنان جمهورية إسلامية شيعية وبأن هذه هي إرادة الله وهو يكافىء من يعمل على تنفيذها .

ولم يقتصر الخوميني على هذا الإعلان الشفوي بل إنه أمر بأقصى دعم لمنظمة حزب الله في كفاحها لإنشاء جمهورية لبنان الإسلامية ووفقاً لذلك تدفق المال الوفير على حسابات معاوني الشيخ فضل الله . وكانت نتيجة هذا أن حزب الله صار الميليشيا الوحيدة في لبنان التي تدفع رواتب مقاتليها بالدولار .

حدث هذا في بلد يعاني من تضخم ثلاثي المعدل ذي قيمة لا تقدر : رجال الميلشيا يقبضون رواتبهم بالعملة الصعبة . فأصبح في أيديهم مال لا يفقد قيمته بين عشية وضحاها . مال تستطيع العائلات أن تتعيش منه . فلم يكن في الأمر غرابة عندما يتزاحم الشباب على الإلتحاق بهذه المنظمة . وقد أعطت هذه الجماهيرية حزب الله ثقة بالنفس لتنفيذ أوامر الخوميني بالعمل على تأسيس جمهورية إسلامية في لبنان . وفي أوائل صيف ١٩٨٨ كان الشيخ محمد حسين فضل الله مشغولاً بوضع الصياغة الأخيرة على الدستور الإسلامي للدولة القادمة ، والذي تم صياغته بالفعل في أواخر خريف ١٩٨٧ . وكان النص يماثل تقريباً الدستور الإيراني . ولم ينص على مراعاة الأقلية المارونية ـ المسيحية ، فكان عليها أن تخضع للقوانين الإسلامية . ولم تكن هذه التطورات لتعجب أي سوري ، سواء كان علوياً أم لا ، لأنه كان من المتوقع إضمحلال السيطرة السورية في لبنان في حالة تصاعد النفوذ الإيراني . وكانت هناك إستراتيجية واحدة فقط لحافظ الأسد : لا بد من انكسار القوة الضاربة لحزب الله . وكان نبيه بري ـ زعيم « أمل » والحليف المخلص لحافظ الأسد والذي استطاع دائماً الإعتماد على الحماية السورية ـ مستعداً لاستئناف القتال مع حزب الله . وكشكر على هذا الاستعداد حرصت دمشق على تزويد « أمل » بكميات ضخمة من الأسلحة . وكان تزويدها بالمدفعية الثقيلة وستين دبابة له قيمة خاصة . وأثناء عملية اختطاف الطائرة الكويتية كان القتال مستعراً حول جنوب لبنان . وكالعادة في الحرب الأهلية الطويلة في لبنان : ينفجر الموقف المتفجر من خلال حادث لا أهمية له وعند نقطة تفتيش تابعة «لأمل» في جنوب لبنان رفض دبلوماسيون إيرانيون فتح حقيبة سيارتهم . وعلى ذلك قام رجال ميلشيا « أمل » بضربهم ضرباً مبرحاً ، وأحرق العلم الإيراني الذي كان موجوداً

في السيارة . فكان أن انحاز « حزب الله » للإيرانيين المصابيين : فأرسل قوة لتطلق النار على موقع « أمل » فنتج عن هذا العمل رد فعل حاسم لقيادة « أمل » : فأعطت مدفعيتها أمراً بالقصف المستمر لمواقع « حزب الله » . وبعد ذلك بقليل بدأ هجوم دبابات « أمل » . ولم يكن قواد « حزب الله » قد عرفوا بالسلاح الذي أهداه الرئيس السوري للمنظمة المنافسة . ففوجئوا بالقوة القتالية لخصمهم . وبعد أربعة أيام فقط من القتال كان نفوذ طهران في جنوب لبنان قد انكسر ويمكن مقارنة قوة النيران لأمل ولحزب الله إذا عرفنا أن أصدقاء آية الله فقدوا ٢٠٠ قتيل تقريباً بينما سقط من رجال نبيه بري حوالي ٥٠ قتيلاً . وهكذا شهر أبريل من عام ١٩٨٨ نقطة تحول في حرب الثورة الإسلامية . ففي لبنان ظهر أن الذروة قد تم تجاوزها : فالعملية المثيرة لخطف الطائرة تحولت إلى عمل من أعمال الإرهاب لا معنى له ، وكذلك ضاع جنوب لبنان ، المنطلق إلى حرب تحرير القدس، التي وعد بها زعماء السنية مراراً. وفي طهران صار على وزير الخارجية «علي أكبر محتشمي» ـ الذي تحمل مسؤولية اختطاف الطائرة الكويتية ـ أن يتقبل النقد المرير بأن خطته كانت ساذجة أكثر من المعقول . ولم يلحظ الرأي العام العالمي تقريباً ، أن إيران أيضاً اضطرت لتقبل خسائر في حرب الخليج كان يمكن تجنبها بشيء من بعد النظر .

ففي خريف ١٩٨٧ كان يمكن لقيادة الجيش الإيراني أن ترضى بالتطورات على الجبهة . فجزيرة الفاو سيطر عليها « حراس الثورة » ، وجزيرة الفاو على الخريطة تمثل نقطة صغيرة من البحر بين جزيرة بوبجيان والأراضي العراقية ، إلاّ أنها كانت في الواقع تمثل أهمية استراتيجية في الحرب .

فالفاو تقع في الوسط تقريباً بين المدينة العراقية البصرة وبين عاصمة إمارة الكويت . فمن الفاو تستطيع صواريخ « دودة القز » ـ التي حصلت عليها إيران من الصين ـ أن تصيب أهدافها بدقة في البصرة والكويت . بالاضافة إلى ذلك فإن جزيرة الفاو تقع تماماً على خط الحدود بين العراق والكويت . وهكذا كانت الفاو تمثل للجنود الإيرانيين بوابة إلى هدفين يطمحون إليهما : ثاني أهم مدن العراق وقصر عائلة الأمير الكويتية البغيضة . وكان خبراء الاستراتيجية في طهران

يرون إنهم ليسوا بحاجة إلا للاختيار بين الهدفين . وكانت الكويت والبصرة يترقبان بخوف هجوم خريف عام ١٩٨٧ وكانت صور الأقمار الاصطناعية الأمريكية ـ والتي سلمتها السفارة الأمريكية في بغداد إلى أركان حرب الجيش العراقي ـ قد أوضحت أن « حراس الثورة » حشدوا ٣٠٠ ألف مقاتل للإعداد لضربة حاسمة . ولردع هجوم الكتل البشرية لم يبق أمام الجيش العراقي إلا سلاح واحد مناسب للقضاء على الهجوم البشري للعدو : السلاح الكيماوي ، غاز التابون . وكان استخدام هذا السلاح هو الذي مهد لنهاية الحرب . فلم يكن لدى إيران ما تستخدمه ضد هذا الغاز ـ وبالذات أقنعة الوقاية ، فلم يفكر أحد في طهران أن هناك حاجة إليها فأقنعة الوقاية من الغاز كانت ستزيل رهبة الموت بالغاز من نفوس شباب المقاتلين . فكان الخوف قد شل حماس الجنود . وبينما كان « حراس الثورة » لا يهتمون أساساً بمواجهة الموت الأكيد ، كانوا يهتمون بالطريقة التي سيموتون عليها في حرب الغاز . فمنذ مقتل الشهيد الإمام الحسين ـ الذي مات في كربلاء متأثراً بجراحه الكثيرة ، والتي ألحقها به أسلحة رجال « يزيد » ـ والجراح تعتبر جزءاً من الاستشهاد . فالجراح كانت دليلاً على استحقاق الإنسان لدخول الجنة كشهيد . أما الموت بالغاز فلا يسبب جراحاً في الجسد .

وصار الشباب الإيراني المستعد للموت بلا شك ـ يناقش مسألة : « هل نكون شهداء إن متنا بالغاز ، وهل ندخل الجنة ؟

ولما كانت الجنة هي الهدف النهائي لوجودهم الإنساني والذي رسخ في أذهانهم رسوخاً تاماً ، فقد فزعوا لحقيقة أن الموت في سبيل الثورة الإسلامية ـ والذي كانوا يعتقدون أن الجنة هي جزاؤه ـ لن يكون له هذا الجزاء .

وقد أدت مناقشة مشكلة الموت بالغاز إلى إضعاف الروح القتالية لدى الجيش الإيراني بصورة جعلت كل عمليات الهجوم الحاسمة غير ممكنة . وفي ربيع ١٩٨٩ يزاح الستار عن أن شركات ألمانية غربية ساعدت بصورة حاسمة في بناء المصنع الذي زود الجيش العراقي بالغاز السام . وسرعان ما كانت جوامع « قم » و « طهران » تردد أقوالاً هددت العلاقة بين إيران وألمانيا الغربية ،

أما نص هذه الكلمات فكان : « ألمانيا هي أستاذة القتل » .

أدى استخدام الغاز إلى تغيير أوضاع الحرب . فعندما صار احراز النصر على جبهة شط العرب ، انتقلت طاقة الثورة الإسلامية إلى حرب الناقلات بأمل تدمير تجارة البترول في الكويت والسعودية من خلال قصف ناقلات البترول التي تم شحنها في موانىء هذين البلدين . وعلى هذا النحو يمكن ابعادهما عن تحمل تكاليف الحرب عن الشيطان « صدام حسين » .

ظلت الناقلات خلال عام ١٩٨٦ بلا حماية تقريباً أمام هجمات القوارب الإيرانية السريعة ، ولكن الحال تغير بصورة حاسمة عام ١٩٨٧ : فحاولت سفن حربية أمريكية حماية الناقلات في الخليج ضد هذه الهجمات .

ولما كان « اسبجنيو برزسينسكي » قد وعد قبل نشوب الحرب بأن الولايات المتحدة ستلتزم بالحياد الإيجابي تجاه العراق ، فإن وعده هذا ظل ساري المفعول . فالهجمات الجوية العراقية ضد الناقلات ـ التي تحمل بترولاً إيرانياً ـ مرت بلا عقاب ، وعندما أتى الإيرانيون بالمثل ، قامت وحدات الاسطول الأمريكي بتدمير موقعين لاستخراج البترول الإيراني .

ففي أبريل ١٩٨٨ كانت المدمرتان « مك كورميك » و« مريك » قد تحركتا تجاه منطقة الحفر الإيرانية « ساسان » والتي تقع في الوسط تقريباً بين ضفتي الخليج الإيرانية والسعودية . وتم إنذار العاملين هناك بأن القصف سيبدأ بعد خمس دقائق . وبالرغم من المهلة القصيرة نجح المهندسون والعمال في مغادرة الجزيرة الإصطناعية . وبعد خمس دقائق بالضبط فتحت المدمرتان النيران . فالتهمت النيران جزيرة الحفر .

ومن مكان غير بعيد من ساسان وفي نفس الوقت كانت البارجتان الأمريكيتان تقصفان منطقة استخراج البترول الإيرانية « ناصر » فدمرتاها تماماً . وعلى ذلك توقفت أعمال الحفر في حقل البترول « سيرى » بكامله وهي المنطقة التي كانت تضع إيران آمالاً كبيرة على إنتاجها . وكان هذا الإجراء يعني خسارة

يومية تقدر بـ ٣٠٠,٠٠٠ برميل ، أي حصيلة أكبر من أربعة ملايين دولار . وهكذا اضطرت حالة الحرب لوقف إستخراج البترول . فالموقف في قلب الخليج صار غير آمن لإنتاج البترول الإيراني . واضطرت القيادة في طهران أن ترد ، حيث أنها لم تكن مستعدة لخسارة كل مواردها من استخراج البترول .

وبعد ساعات قليلة هاجمت خمسة قوارب إيرانية صغيرة حقل بترول « مبارك » الواقع أمام ساحل إمارة الشارقة ، وقام « حراس الثورة » بفتح نيران الرشاشات وإطلاق الصواريخ . إلا أن القليل فقط من طلقاتهم هو الذي أصاب الهدف ، فلم تقع بالمعامل إلا خسائر طفيفة ، إلا أنها توقفت عدة أسابيع من أجل إصلاحها . ولكن راديو طهران احتفى بالعملية كنصر على « الشيطان أمريكا » ، فحقل مبارك هذا ملك للأمريكان . إلا أن هذا لم يكن صحيحاً ، فأربعة أخماس رأس مال حقل مبارك كان يخص إمارة الشارقة ، وكانت شركتان صغيرتان ـ لا تملكهما أمريكا ـ تقتسمان نسبة الـ ٢٠٪ الباقية من رأس المال .

وكان للخطأ في اختيار الهدف عامل آخر ، أضر واضعي الخطة في طهران : فلما كان هناك نزاع قائم على ملكية قاع البحر الواقع بين الساحلين العربي والإيراني ، فكانت حصيلة حقل البترول « مبارك » تقسم بين إمارة الشارقة وإيران. فكان تعطل الإنتاج ـ بسبب ضرورة الإصلاح لعدة أسابيع ـ لا يلحق خسارة لموارد خزانة دولة الإمارات فقط بل بالخزانة الإيرانية أيضاً . فكان أن أعطى خطأ اختيار حقل مبارك للهجوم دفعة للقوى الإيرانية التي كانت ترى أنه آن الآوان لإيقاف لعبة شد الحبل السياسية ـ العربية. وصار رأي يتردد بأن الحرب كانت تدار بأسلوب عقيم ، ونتجت عنه خسارة جسيمة في الأرواح بلا داع . فالحرب ليست الطريقة التي يمكن بها نشر الثورة الإسلامية .

كانت أية محاولة للتوصل إلى تفاهم مع العراق تصطدم بكلمة آية الله روح الله خوميني : « الله يحرم مهادنة الشيطان صدام حسين ». فالشهيد « الحسين » لم يفكر لحظة في إغماد سيفه حينذاك في كربلاء. والإمام الحسين أسلم نفسه للموت دون أن يقبل حلولاً وسط . وقد حدد الزعيم الديني الأعلى الإتجاه : قبل الإطاحة بصدام حسين لا يمكن التفكير في السلام . أما أن الحرب قد أزهقت أرواح مليون من البشر ، فلم يكن يهم آية الله .

وأثناء عام ١٩٨٨ كان غالباً ما يدور الحديث في إيران وفي الخارج عن أن الزعيم الديني ـ السياسي للجمهورية الإسلامية مريض جداً لدرجة أنه لم يعد يقدر على تقرير مصير الناس . ومن المؤكد ، أن ضعف الدورة الدموية أجبرت الرجل العجوز على الإقامة في المستشفيات وأجبرته على الإقلال من خطبة العلنية ، مثلما لم يحدث من قبل . ولكن من ينظر إلى بنية السلطة في « قم » و « طهران » كان لا بد أن يرى أنه بدون موافقة الخوميني لا يمكن إصدار أي قرار . ولكن كان هناك إحساس بتغيير في مسلك الخوميني .

فصار يتقبل من أتباعه تصرفات مستقلة ، كانت تؤدي بفاعلها في الأعوام السابقة إلى غرفة الإعدام . فلم يضطر قطب زادة وزير الخارجية السابقة ـ إلى الوقوف أمام غرفة الإعدام عام ١٩٨٨ بسبب انحرافه بالسياسة عن الخط المحدد .

وكان رئيس البرلمان علي أكبر هاشمي رفسنجاني واحداً من هؤلاء الذين أصروا على المضي في طريقهم غير ملتفتين لرغبة الخوميني . وقد لقب برفسنجاني نسبة إلى قريته الصغيرة رفسنجان ، تماماً مثل الخوميني الذي اشتق لقبه من مدينة خومين . وما زالت أم رفسنجاني تعيش في هذه القرية موطن هذا الرجل الذي صار ذا نفوذ عظيم . ومن ينظر إلى الأمور في طهران بعين ساخرة فسوف يسعد بهذه الملحة .

فعندما كانت الأم تُسأل عن حالة ابنها فكانت ترد : « كويس قوي ، ما هو دلوقتي شاه في إيران » .

وقد ولد علي أكبر هاشمي رفسنجاني في عام ١٩٣٤ . وفي عهد الشاه رضا خان كان قد حفظ القرآن في الكتاب .

وبعد هروب الشاه محمد رضا بهلوي إلى منفاه وعودته منه كان رفسنجاني قد نضج بدرجة جعلته يقبل على تعلم أمور الدين في « قم ». وكان معلمه هو الخوميني . وكان الخوميني معجباً بهذا الشاب المشاكس ، الذي يقود المظاهرات بشجاعة ، كلما استنكر رجال الدين أحد إجراءات الشاه . وقد اكتسب رفسنجاني صداقة أحمد بن الخوميني بالذات . وعندما أغضب الخوميني الشاه بخطبه على نحو جعله ينفيه خارج البلاد لم يتبعه تلميذه رفسنجاني إلى هناك ، في النجف بالعراق . وكذلك أيضاً بدون الخوميني كان رجل الدين ، الذي أوصلته دراسته أثناء ذلك إلى درجة حجة الإسلام ، مستمراً في الدعاية ضد حكم الشاه . وكان من ضمن هؤلاء الذين قضوا سنوات خلف القضبان . وعندما حصل على حريته مرة أخرى قل اهتمامه بالسياسة ، وزاد من اهتمامه بمستقبله : فتزوج ابنة تاجر ثري ، ونجح في زيادة ثروة حميه من خلال شراء وبيع الأراضي في طهران . أما اتهام رفسنجاني بالمضاربة في عهد الشاه فلم يوجهه إليه أحد حتى بعد ذلك .

فظل رجل دين ذو مرتبة عالية ، والذي لم يسمح له قط بأنه يزعم ـ مثل خوميني ـ بأنه من نسل النبي محمد ﷺ ـ وعمامته البيضاء تتناسب مع أصله

المتواضع . وبالرغم من ذلـك لم يكن رفسنجاني ليقـارن برجـل دين اخر من نفس مرتبته . فاسمه الحقيقي هو علي أكبر هـاشمي ، مما يدل على أنه من بني هاشم الذي ينتمي إليهم النبي ﷺ أيضاً . فرفسنجاني ليس من النسل المبـاشر للنبي ﷺ ، إلا أنه يمت له بصلة قـرابة بعيـدة ، توفـر له تبجيـلاً بدرجـة ما . بالإضافة إلى ذلك نجـح رفسنجاني من خـلال مؤلفاتـه أن يجعل لنفسـه اسماً كرجل علم ودين .

ولما كان تلميذاً للخوميني ، ولما كان قد قضى سنتين معتقلاً في سجون السفـاك ، صار لـه أسـاس صلب لصعـود نجمـه سـريعـاً بعـد انتصـار الثـورة الإسلامية . فمنحه الخوميني مقعداً وصوتاً في مجلس الثورة الإسلامي . ومن بين كل هؤلاء ، الذين كانوا يعتبرون ذوي أهمية ، كان هو الرجل الذي يستطيع تحليل المواقف وتقديم الحجج . فما يقـوله رفسنجـاني لـه معنى . وإذا كان هنـاك على الإطـلاق بجـوار الخـوميني المهيب شخصيـة في الجمهـوريـة الإسـلامية ، حـاولت التفكير والعمـل باستقـلال ، فكـان هـو حجـة الإسـلام رفسنجاني . ومنذ عام ١٩٨٠ ورفسنجاني رئيس للبرلمان في طهران . ولما كان قد نجا من الموت ، لأنه في ٢٠ يونيو ١٩٨١ وقبل انفجار عبوة ناسفة بدقـائق قليلة كان قد غادر مكان الإجتماع حيث كان يتحدث مع آية الله بهشتي ـ الذي قتل تحت الحطام ـ نشأت إشاعات بأنه هو الذي خطط لهـذه العملية ليتخلص من منافسه في الصراع على السلطة . وقد استفاد رفسنجاني من هذا الحدث ، الذي قتل فيه اثنان من آيات الله وسبعون رجلاً آخر، كانوا موضع ثقة الخوميني ـ وبعده لم يتوفر لنظام الحكم الإسلامي إلا عدد قليل من الشخصيات القيادية . واستـطاع هذا العجـز مساعـدة رفسنجاني ، فقـد كـان يملك عـدداً كبيـراً من المعارف والأقارب . وبعضهم كان هو الذي أشركهم في البرلمان الذي يرأسه . أما أخوه محمد هاشمي فقد تم تعيينه مديراً للإذاعة الإيرانية ، وبهذا يكون مديراً للتليفزيون أيضاً . وفي بلد ، ليس لدى أهله خيـار كبير لإمكـانيات التسليـة ، يصير لوسائل الإعلام الالكتـرونية أهمية عظيمة ، والتي تعمل ـ حتى وإن كانت حكومية فقط ـ على بث التنوع في الحياة .

وفي ربيع ١٩٨١ يعين الخوميني رفسنجاني قائداً أعلى للقوات المسلحة في الجمهورية الإسلامية . وقد ظن آية الله ، أن هذا الرجل النشط سوف يتغلب على عدم المبالاة التي أصابت القوات النظامية وحراس الثورة على وجه الخصوص بعد استخدام العراق للغاز . وبعد محادثاته مع قواد الجبهة ، التي حرص رفسنجاني على إجراءها بانتظام ، أدرك أن إيمانهم بإمكانية إحراز النصر صار ضعيفاً . وهكذا ولى الزمن الذي لبى فيه مئات الألوف نداء رئيس البرلمان بالتعبئة ، عندما كانت طوابير طويلة من الشباب تصطف أمام مكاتب التجنيد .

وكان حماس الشباب الإيراني قد بلغ ذروته في مارس ١٩٨٧ فقد كان الهجوم « كربلاء ٤ » الذي بدأ في أواخر عام ١٩٨٦ قد فشل لسوء الإعداد بعد أيام قليلة . فتبعه هجوم « كربلاء ٥ » والذي حصل فيه الإيرانيون على أسلحة أمريكية . وكان رفسنجاني قد حدد هدف الهجوم بالوصول إلى ضواحي البصرة للتمهيد لاحتلال هذه المدينة . في هذا الحين كان رفسنجاني الممثل الشخصي للخوميني في المجلس الأعلى للدفاع ومدافعاً متحمساً عن فكرة النصر على العراق ، والإطاحة بكل الملوك في الخليج وكذلك فتح القدس .

وعندما تولى رفسنجاني بعد ذلك المسؤولية كقائد أعلى أحس أن عدد المقاتلين مهم لأنهم لا يستطيعون تعويض المستوى السيىء للتدريب . وكان الخصم العراقي يملك عدداً أقل ولكن مستوى تدريب الجنود كان عالياً . وكان رفسنجاني يحتاج لوقت ليشرح للخوميني بأن إرسال الجموع البشرية إلى الجبهة لا يكفي ، إن كانوا لم يتدربوا على القتال . أما فكرة خوميني بأن دم الشهداء سيحرز النصر ، فقد ثبت عدم واقعيتها . ولكن لم يجرؤ أحد على ذكر هذه الحقيقة أمام الخوميني . وفي وجوده أيضاً لم يكن تسمية الهجوم موضوعاً للمناقشة « فكربلاء » هو الإسم . وكربلاء هو المكان الذي استشهد فيه حفيد النبي ﷺ الحسين . وكلمة كربلاء تشتمل على الألم والهزيمة ، فهي لا تأتي بالنصر وإنما بالإستشهاد الجديد . وكان الميل للإستشهاد ـ المنتشر بالذات بين الشباب الإيراني ـ قد اختفى من نفوس المقاتلين عندما كانت قيادة الجيش

العراقي تكثر من إستعمال الأسلحة الكيماوية .

وفي عام ١٩٨٨ بدأ رفسنجاني يختبر بحذر رد فعل إمكان العاصمة على تغيير سياسي في اتجاه الهدنـة . وكانت فـرصة أختبـار رد الفعل متـاحة أمـامه كخطيب لصلاة الجمعة . وفي البداية اتخذ موقف الخوميني باستبعاد الهدنة مع الشيـطان صدام حسين . وبعـد شهـر واحـد فقط كـان المصلون في الجـامـع يسمعـون أن الله يبارك أيضـاً السلام لأنـه يمنح الإنسـان السكينة ليستغرق في عبـادته . وكـان الواعظ أيضـاً مهتماً بـرد فعل رجـال الدين الآخـرين وبموقف الخوميني بالذات من السلام . أما خوميني فكان يصمت في العلن مما كان يدل على أنه يريد استمرار الحرب حتى « يأتي نصر الله ». وبينما كان خوميني يترك رفسنجاني ينتظر ، كتب إلى آية الله حسين منتظري ، والذي كان يـريده خليفة لـه ، قائـلاً : « من يريـد السلام مـع الشيـطان صـدام حسين يخـون مبـادىء النبي ﷺ » وكان آية الله خـوميني يأمـل أن يصير آيـة الله منتظري حليفـاً له في رفض كل محاولات التوصل إلى الهدنة .

خوميني إختار خليفته

في النصف الأول من الخمسينات كان حسين علي منتظري من بين تلاميذ خوميني وفي ذاك الوقت كان شخصية باهتة ، فلم تكن له مهارة التلميذ رفسنجاني ، والذي صادق أحمد ابن الخوميني ولم يكن له جاذبية محمد حسين بهشتي الذي يؤثر في النفوس من خلال إرادته وصلابته .

أما ما أعجب الخوميني في منتظري فكان الطابع الهادىء الرزين الذي تسير عليه حياته وعمله . وعندما تجاوز منتظري الثلاثين عاماً من عمره كان قد نجح في أن يقترب من الخوميني لدرجة أنه كان يدخل رواقه الشخصي، بينما يكون ممنوعاً على الآخرين ذلك لأن الخوميني كان يخصص هذا وقت اليوم كله للصلاة . أما مهمة منتظري فكانت إخبار الخوميني بما يحدث في درس العقيدة . وقد كان شرفاً لتلميذ مثل منتظري ـ الذي جاز له أن يلقب بالشيخ ـ أن يأكل مع أستاذه طعام العشاء المكون من الأرز واللبن الرائب . وقد كان منتظري ـ التلميذ ـ شاهداً على إعلان خوميني الحرب الصريحة على الشاه عام ١٩٦٣ . ولم يتبع منتظري الخوميني إلى منفاه في النجف ، ولكنه بقي في قم يلقي الخطب على هدى الرجل المنفي ، ولكن بكلمات معتدلة للغاية . ولم يشعر التلميذ أن عليه أن يكون لنفسه أفكاراً شخصية . ولم تكن هناك ضرورة لذلك فهو كان من بين القلائل الذين يتسلمون خطابات من الخوميني يرسلها من النجف كمادة دراسية على عناوين سرية في طهران ، ولم تقع الخطابات المرسلة إلى منتظري في أيدي السافاك .

وفي بداية السبعينات صدر الأمر لمنتظري بتأسيس منظمة ، مثلما فعل الإمام موسى الصدر في لبنان . وفي هذا الوقت من مرحلة ما قبل الثورة في إيران كانت منظمة أمل اللبنانية قدوة لإنشاء منظمة يستطيع الشيعة ـ رجال الدين والمؤمنون العاديون ـ أن يشعروا بالإنتماء لها . وقد نجح تكوين المنظمة في لبنان ، إلا أن منتظري فشل في تقليد هذا النجاح . فكان أن تقدم الإمام موسى الصدر الناجح إلى الإمام في قائمة المفضلين لدى الخوميني . فقد كان رجل دين بعمامة سوداء ـ وكان قريباً من أقارب الخوميني ـ والذي أثبت كفاءته تحت ظروف صعبة . وكان الخوميني معجباً على وجه الخصوص بنظرية الإمام في تقسيم المجتمع الإنساني إلى مستكبرين ومستضعفين . أما المستضعفون فهم الأغلبية التي تحتاج في حياتها إلى قيادة لأنه ينقصها السلاح الديني ـ العلمي ـ السياسي . وطبقاً لهذه النظرية لا يستطيع المستضعفون تقدير موقفهم ، لذا لا يجب الوقوع في خطأ منحهم الحقوق الديموقراطية . أما المستكبرون فهم الأقوياء ، ولكنهم ليسوا أناساً لهم رؤية ـ مثل رجال الدين ـ بل هم الحكام الحاليون ، مثل زعماء الموارنة في لبنان أو الشاه في إيران . وتنص نظرية الدولة للإمام موسى الصدر على : إن مهمة الموالي هي نزع السلطة من أيدي المستكبرين . وقد اقتنع خوميني بهذه الأفكار وطورها . ولكن كان هناك عدم ثقة بين خوميني والإمام الصدر، كان من الصعب التغلب عليه : كان من الملاحظ أن الشاه محمد رضا بهلوي كان معجباً برجل الدين الشاب ، وأيضاً إن رجل الدين كان يتعاطف أحياناً مع الشاه . أما اختفاء الإمام في ليبيا عام ١٩٧٧ فقد أزعج الشاه ، بينما صمت الخوميني . وفي ذاك الحين لم يعد الإمام موسى الصدر مرغوباً فيه كخليفة محتمل للخوميني . أما منتظري فكان أثناء ذلك قد ارتفع لمرتبة أعلى : فجاز له حمل لقب آية الله ، وبهذا تفوق على زميله السابق رفسنجاني الذي يحمل لقب حجة الإسلام فقط : ولكن كلا الإثنين اشتركا في تجربة واحدة : الإعتقال والحبس ، ففي النهاية كان لا بد لعملاء السافاك أن يلاحظوا أن منتظري يحاول تكوين كادر لمنظمة تكون مراكزها في جوامع المدن الكبيرة في جميع أنحاء البلاد. وتم اعتقال منتظري بشبهة العمل على الإطاحة بالشاه . بعد ذلك أخذ ابنه محمد علي منتظري على عاتقه بعض المهام التي

كان أبوه حسين علي منتظري يقوم بها . فقام الإبن أثناء الفترة النشطة للثورة بتنظيم الكفاح في اصفهان ضد المهندسين العسكريين الأمريكان الذين يشرفون على سرب طائرات هليكوبتر . وبعد سنوات من الإعتقال تم إطلاق سراح حسن علي منتظري عام ١٩٧٨ وقد حدث هذا في إطار موجة ليبرالية كانت تهدف من خلال العفو إلى تخفيف حدة ثورة الجماهير على نظام الحكم . إلا أن أجهزة أمن الشاه اشترطت على المفرج عنه ألا يغادر طهران وألا يشارك في أي عمل سياسي . لكن منتظري لم يلتزم بذلك . فرحل عن طريق غير مباشر متخفياً عن أعين السافاك إلى الخوميني الذي كان لا يزال في النجف، وتبع منتظري وليه إلى منفاه في باريس . وطلب خوميني من تلميذه ـ كما كان خوميني ينظر إليه ـ أن يحرك الثورة الإسلامية من الخارج .

وبعد انتصار الثورة تم تكليف آية الله منتظري بتنظيم صلاة الجمعة أي تجديد شخصية الخطيب. وكان غالباً ما يضطلع هو نفسه بالخطبة . ولما زاد عدد جماهير المستمعين نقل مكان خطبته إلى جامعة طهران . وكان المكان أمام الجامعة كبيراً بما يكفي لاستيعاب كل النساء والرجال الذين يريدون فهم معنى الثورة الإسلامية من منتظري . وأثناء الثورة صار خطيباً محنكاً يحس باهتمامات الجماهير . والفضل يرجع إليه في استمرار تقبل الجماهير لحكم الموالي ، فالناس لم تشعر بأي تغيير في حياتهم منذ رحيل الشاه . ولو كانت الثورة الإسلامية قد اعتمدت على الخطب القليلة للخوميني فقط لكانت علاقتها بالجماهير قد انفصمت . إلا أن غضب الجماهير لم يصل حد تهديد حكم الموالي لأن منتظري إستطاع أن يشرح لهم بأن الحفاظ على التراث الشيعي أهم من تلبية الحاجة اليومية .

فظل منتظري وفياً لمعلمه ولم يتورط في مؤامرات مثل آية الله الكبير شريعة مداري الذي اعتقد في سنة ١٩٨٢ أنه يمكن أن يحل محل خوميني ، والذي افتضح أمره كمتآمر وكان رجل الدين الشيعي الوحيد في تاريخ هذا المذهب الذي اضطر لخلع عباءته وعمامته .

بعد عزل شريعة مداري مباشرة كلف منتظري بتنفيذ حملة دعاية لتجنيد

المتطوعين للكفاح من أجل نشر الثورة الإسلامية . فتقدم الآلاف ليعدوا للاستشهاد على طريق الشهيد الحسين . حينذاك أصدر الخوميني أوامره بتكوين جيش قوامه ٢٠ مليون رجل يجب أن يستعدوا للكفاح لتسليم السلطة للإسلام في كل أنحاء العالم . واستطاع منتظري تنفيذ فكرة خوميني أيضاً ولكن على مراحل فقط . إلا أنه تم إعداد متطوعين في عدة معسكرات للعمل في الخارج .

وقد افترضت المخابرات الأمريكية أن جزءاً على الأقل من هؤلاء المتطوعين قد شارك في العمليات ضد السفارة الأمريكية وضد المقر الرئيسي للبحرية . ولما أثبت كفاءته عدة مرات في الكفاح في سبيل الإسلام قام « مجلس الخبراء » بناء على رغبة الخوميني في فبراير ١٩٨٥ بتعيين آية الله حسين منتظري خليفة للزعيم الديني والفكري للثورة الإسلامية . ومنذ هذا الحين والخوميني يؤكد مراراً بأن المرشح لخلافته يحوز ثقته كلها ـ وهذا ما تتضمنه وصيته ، التي لا يجوز فتحها إلا بعد وفاته . والإثنان يتفقان في طريقة حياتهما .

فكلاهما يرفض زخرف الحياة ويؤمن بأن النعيم ينتظر البشر في الحياة الأخرى وليس في الحياة الدنيا إلا أنه ينبغي العمل الشاق من أجل دخول الجنة . ولكن رأيا الخوميني ومنتظري يختلفان تماماً في نقطة أساسية : فالخوميني يعتقد أن إقامة جمهورية إسلامية في عالم المسلمين هو الهدف الذي يجب الوصول إليه . ولذا ليس هناك بعد ذلك حاجة للتخطيط للمستقبل لأن تحقيق هذا الهدف يعني حل كل المشاكل . أما منتظري فيرى أن هذا الرأي خاطىء . فحسب رأي منتظري إنه بعد تأسيس الجمهورية الإسلامية يبدأ الكفاح من أجل العدالة الإجتماعية في الدولة ومن أجل تحسين ظروف حياة الفقراء الذين يسكونون في الحجور . أما خوميني فيرى أن الدولة الإسلامية هي المرام ، وهي التي توفر كل الحلول ويراها منتظري على أنها وسيلة لتحقيق الهدف . ويستطيع الخليفة ـ منتظري ـ أن يبني على ما تم الوصول إليه . فقد قامت دولة إسلامية في إيران على الأقل فيستطيع منتظري البدء في الكفاح من

أجل العدالة الإجتماعية . أما السؤال فهـو إن كان سينجـح في وضع بـرنامـج لـذلك ، وكـان الخوميني يعتقـد أنه ليس هنـاك حاجـة لمثـل هـذا البـرنـامـج فاحتياجات الجماهير لا تهمه في شيء . أما آية الله منتظري فيعـرف أنـه يجب إرضـاء الجماهيـر ، إمـا من خـلال تحسن ملمـوس لأوضـاعهم أو من خـلال تحمسهم لهـدف ما . ومنـذ عام ١٩٨٠ كـان هذا الهـدف هـو الإنتصـار على الشيطان صدام حسين . ولكن في ربيع ١٩٨٨ ظهرت بوادر الإستعداد للسلام لدى هؤلاء الذين رأوا الفرصة الباقية أمام المسؤولين عن الحرب في طهـران . فقـد احتلت القوات الإيـرانية جـزيرة الفـاو لثـلاث سنـوات على أمـل إمكـان استخدامها كقاعدة لمـواصلة الإنطلاق تجـاه البصرة أو الكـويت . وفي أبريـل ١٩٨٨ كان على جنود الخوميني الإنسحاب من المـوقع الإستـراتيجي المتقدم الهام للغاية .

وكان الخوف من الموت المهين بسلاح الغاز العراقي قد أجبر الإيرانيين على الإنسحاب . ولم يكن رجال الدين قد حسموا بعد السؤال عمـا إذا كانـوا سيعدون شهداء إن هم ماتوا بالغاز بغير جراح .

وفي ٢ يوليو ١٩٨٨ وأثناء زيارته لبون اعترف طارق عزيز وزير الخارجية بأهمية سلاح الغاز بالنسبة للعراق : « كنا نقف وظهرنا للحائط . وأنا لا أقبل أي اتهام لأننا دافعنا عن أنفسنا ضد عدو لا يفكر في الإلتزام بالإتفاقيات الدولية . وكل شعب له الحق في أن يدافع عن نفسه بالطريقة الفعالة ضد مهاجميه . ومن يريد السلام لا بد أن يحترم الإتفاقات الدولية ولكنه لا يجوز لنا أن نعطي الفرصة للعدو أن يهاجمنا دون حتى أن يفكر في هذه الإتفاقات » .

وكان التهديد واضحاً ، فالقيادة العراقية كانت مصممة على الإستمرار في استخدام الغاز ـ وكان أن حقق التهديد هدفه . فقد ظلت القوة القتالية للإيرانيين مشلولة .

ولم يعـد هناك إلا رئيس الجمهـورية الإيـراني علي خامنئي وهـو الـذي يتشدق بالكلام ، ففى أول أبريل ١٩٨٨ قال فى خـطبة الجمعـة : « إن القيادة

الإيرانية لم تجهدها الحرب مطلقاً ، وإذا ما كان العراق قد أحرز انتصارات ، فإن هذا لا يعني شيئاً ، لأننا سنرد الضربة . وفي هذه المرة سنذل الشيطان « صدام حسين » حقاً ، فبعون الله القادر وشعبنا الباسل المؤمن بالإسلام سوف نوفق في هذا . وإن كان ظهر الآن ضعف في آلة الحرب عندنا ، فسوف نتغلب عليه ». إلا أن كلمات رئيس الدولة لم تستنفر المشاعر. فالوضع على الجبهة لا يعطي مجالاً للتفاؤل . فقد فقدت أيضاً جزيرة مجنون في شط العرب ، وتم الإستيلاء عليها بعد وقوع خسائر جسيمة في صفوف حراس الثورة . وعندما انتهى النصف الأول من عام ١٩٨٨ كانت الحرب تدور على الأراضي الإيرانية وفي ٣٠ يونية ١٩٨٨ عبرت الوحدات العراقية الحدود الإيرانية في الشمال أيضاً ، إلى كردستان . وصار الجنود الإيرانيون مدافعين لا يقدرون على رد العدو عن وطنهم . ووقع حدث حول مسار الحرب ، حدث جعل كلمة الخوميني « الشيطان أمريكا » قريبة جداً من الواقع. ففي اليوم السابق على هذا الحدث يعلن جنرال ليفتانت جورج كريست ـ القائد العام للقوات الأمريكية في الخليج العربي (الفارسي)، ان الصواريخ طراز « دودة القز » المنصوبة في الأراضي الإيرانية في نقاط مختلفة على مقربة من مضيق هرمز تعتبر تهديداً لأمن منطقة مصب الخليج العربي في خليج عمان . وقال جنرال ليفتنانت كريست : « إن مدى صواريخ دودة القز يبلغ ٢٩٠ كيلو متراً . والمقذوف يعد للإطلاق في خلال خمس دقائق . ولهذا يتوقع أن القيادة الإيرانية تريد إغلاق مضيق هرمز . وخطر إتساع الصراع الكبير ولكني أعتقد أن الست وعشرين سفينة حربية التي وضعت في حالة إستعداد في المجرى بين هرمز وشط العرب لقادرة على ردع هذا الخطر». بعد هذا الإعلان الرسمي للقائد الأمريكي كان التوتر قد زادت حدته حول المياه بين إيران والسعودية . وصار قواد المدمرات والبارجات الأمريكية أكثر يقظة وكذلك أكثر عصبية .

التذكر بخط قائد البارجة ستارك

كان قد مضى عام بالضبط ، عندما كانت البارجة « ستارك » تتهادى على سطح ماء الخليج الساكن ، متجهة إلى الشمال . كانت البارجة مركز إتصال قيادة سلسلة من السفن الأمريكية في هذه المنطقة : وكان مركز « Combat Information Center » مشغولاً دائماً وكان القائمون على الأمر يستخدمون أحدث الأجهزة الالكترونية في مراقبة المجال الجوي والبحث عن الألغام الغادرة في البحر ، تلك الألغام التي مثلت خطراً على بعض السفن المدرعة .

وكانت درجة الإستعداد قد رفعت إلى « Condition Three » أي في المنتصف تماماً بين الدرجتين الأولى والخامسة. إلاَّ أن هذا لم يكن يعني الكثير فدرجة « Condition three » كانت قد صارت روتيناً يومياً للقوة على السفينة البالغة ٢٢١ رجلاً . أما القبطان « جلن بريندل » ـ قائد « ستارك » منذ يناير ١٩٨٥ ـ فكان يعرف كم هو خادع هذا الهدوء السائد على المياه الساكنة .

فكان الخطر قائماً في كل لحظة لاكتشاف لغم في طريق السفينة ، أو لتوجيه صاروخ نحو « ستارك »، وكل هذا يحدث عند درجة الإستعداد « Condition three ».

حتى هذا الحين كان تم الهجوم على أكثر من ٢٠٠ سفينة وفي ذاك اليوم ، قامت طائرات مقاتلة عراقية بإطلاق الصواريخ على ناقلة ترفع علم قبرص، فأصابتها على نحو جعلها ترقد في الماء غير قادرة على الحركة .

وكانت المهمة القتالية المكلفة بها وحدات الأسطول الأمريكي ، في الخليج هي منع مثل هذه الهجمات : يجب أن تظل المياه مفتوحة وآمنة أمام الملاحة وذلك تحت حماية المدمرات والبارجات الأمريكية . وكان تنفيذ هذه المهمة مستحيلاً برغم التعاون الفعال بين الأسطول الأمريكي والسلاح الجوي للمملكة العربية السعودية وفي الساعة الثامنة مساءً حيث كان الظلام قد غشى هذه المنطقة ، اكتشف طاقم إحدى طائرات الإنذار المبكر « أواكس »، طائرة عراقية من طراز ميراج « أف ـ ١ »، وهي تقلع من القاعدة الجوية « شايبه » على بعد ١٥ كيلو متراً من جنوب البصرة . وطارت الطائرة بمحاذاة الساحل السعودي ، فكان هذا مألوفاً ، إلا أنها اقتربت من جزيرة البحرين على نحو غير عادي ، وأمام البحرين مباشرة اتخذت الطائرة مساراً حاداً لليسار متجهة للشرق . فاعتقد المراقبون في طائرة « الأواكس » أن الطيار ـ العراقي ـ قد اكتشف هدفاً وكذلك كان مركز « Combat Information Center » على البارجة « ستارك » يراقب الطائرة العراقية أثناء طيرانها الليلي بمحاذاة الساحل السعودي . ولم يكن هناك داع لإعطاء الطائرة الميراج أهمية خاصة ، فهناك إتفاق قائم بين الحكومة العراقية والولايات المتحدة على حياد إيجابي . فليس لدى السفن الأمريكية ما تخشاه من الطائرات العراقية . وفي الساعة ٩٠و٨ مساءً حسب التوقيت المحلي كان مركز « Combat information center » لم يعد يعتبر أن تلك الطائرة الوحيدة لا تشكل خطراً . فالإنحراف الحاد تجاه اليسار يعني أن الطائرة تتجه إلى « ستارك » وكان القبطان «جلن بريندل» يعرف تسلح هذه الطائرة : فهي تحمل تحت جناحيها صاروخين من طراز « Exocet A M 39 »، هذا النوع الذي أثبت فعاليته ضد السفن في حرب « فوكلاند » عام ١٩٨٢ . فاستبد القلق بالقبطان وطلب من ضابط اللاسلكي مخاطبة الطائرة ومطالبة الطيار بالكشف عن جنسيته وهدفه . فلم يتلق ضابط اللاسلكي رداً . وكانت الطائرة الميراج « اف ـ١ » ما زالت تطير مسرعة تجاه البارجة « ستارك » . وبعد ٣٦ ثانية من الطلب الأول بتحديد الهوية خاطب ضابط اللاسلكي الطيار مرة أخرى : « الطائرة مجهولة الهوية ، هنا سفينة حربية تابعة للبحرية الأمريكية ، حدد هويتك وأعلن هدفك . حول ». ومرة أخرى لا يصل رد .

وكان القبطان بريندل لا يزال يرى أنه ليس هناك داع لإطلاق النار على الطائرة ، لأن الإشارة الهامة دليل الهجوم لم تظهر : فالطيار لم يكن قد شغل رادار التصويب ، وإلا كانت الرادارات الألكترونية على البارجة قد سجلته ، وكان طاقم طائرة الأواكس أيضاً سيلتقط استعداد الطائرة العراقية للضرب . ولم يلاحظ إلا تصحيحاً غريباً للمسار تجاه الجنوب . ثم دارت الطائرة ناحية الشمال عائدة في اتجاه العراق . فأحس قبطان « ستارك » بالإرتياح . إلا أن ارتياح « جلن بريندل » لم يستمر طويلاً . فقد قام بحار مكلف بالمراقبة ـ بإخبار مركز « Combat information center » عن طريق اللاسلكي ، بأنه يرى في الظلام « سمكة طائرة » تتجه ناحية السفينة ، وبعد لحظة أدرك أنه صاروخ . بعد هذا التحذير بعشر ثوان فقط كان صاروخ « Exocet » قد أصاب البارجة « ستارك » فاخترق الجدار الفولاذي الرقيق بين ظهر المركب وسطح الماء . ولم ينفجر الصاروخ ، ولكنه نثر وقوده المشتعل داخل السفينة فأمسكت النيران بالجدران الالومنيوم . وفي غضون ثوان كانت ألسنة النيران قد وصلت إلى مركز « Combat information center ». ودل تطاير الشرر على وجود ماس كهربائي . وعطبت كل الأجهزة الرئيسية للقوة القتالية للسفينة . فصار طاقم البارجة أعمى ، من الناحية الحربية . ولهذا أيضاً لم يستطع أن يلاحظ أن صاروخاً آخر من طراز « Exocet » يطير في اتجاه السفينة . فأصاب هو أيضاً الهدف ـ وانفجر . وكان التلف عظيماً لدرجة توقع غرق السفينة الحربية . فالحريق كان يدمر باطن السفينة . وكان الصاروخ قد أصاب غرف نوم طاقم السفينة . وفي هذا الوقت كان أكثر من مائة بحار في وقت الراحة مقيمين في قمرات النوم . وهكذا نجم عن هجوم الطائرة العراقية موت ٣٧ فرداً من طاقم البارجة « ستارك ». وقد كان لدى القطبان جلن بريندل الحرية في إطلاق النار على الطائرة مجهولة الهوية. فتعليمات عمله تسمح له « بقصف الطائرات التي تظهر نية العدوان ». وقد قال فيما بعد إنه يعتبر إظهار نية العدوان لا يكون إلا عندما تقوم الطائرة بفتح النيران . « وعندما عرفنا أخيراً أن هناك صاروخاً يتجه ناحية السفينة ، كان قد فات الأوان لرد الفعل ». وكان السؤال هو لماذا لم يعمل النظام الألكتروني « فالانكس »، والذي يرد الصواريخ التي تكون قد أطلقت

بالفعل . وهذا النظام يطلق تلقائياً ستاراً من القذائف الصغيرة تصيب الصاروخ في كل الأحوال . فإذا ما أصابت بعض هذه القذائف الصاروخ ، فإنه ينفجر على مسافة لا تشكل خطراً على السفينة . إلا أن نظام « فالانكس » لم يستطع نشر هذا الستار لأن جهاز الكومبيوتر الموجه كان عاطلاً .

وفي اليوم السابق كان قد تم اكتشاف العطب عندما كانت السفينة ترسو لفترة قصيرة في ميناء البحرين . ولم يمكن تلافي العطب حتى وقت إبحار السفينة من الميناء . ولم يجد القبطان بريندل في توقف نظام دفاعي هام دافعاً لاتخاذ إجراءات إحتياطية خاصة . وقد أخذت عليه لجنة التحقيق فيما بعد هذا المسلك على أنه استهتار . وسحبت منه مهمة قيادة سفينة حربية .

وقد دعم في تبرير خطأه بعدم وضوح الأوامر : « فإنه لم يتم إخباره إن كانت الولايات المتحدة في حالة حرب مع العراق أم لا . ومنذ هذا الحين رسخ في أذهان قواد السفن الحربية الأمريكية في الخليج مقتل ٣٧ أمريكياً . فقرروا جميعاً عدم إنتظار إتضاح نية عدوان طائرة مجهولة الهوية حتى تطلق نيرانها فقد عرف القواد الآن أنهم في حالة حرب . ولكن ما زال غير واضح هو من هو العدو . ولم يساهم الرئيس الأمريكي في توضيح الأمر عندما قال « إن أوغاد هذه العملية هم الإيرانيون » لم يكن إدراك معنى هذه الكلمات ممكناً لأنه لم يشترك أي إيراني في قصف البارجة «ستارك» . أما نتيجة هذا التصريح فكان أن قواد السفن ـ الذين كانوا مكلفين بإدارة حرب غير معلنة في الخليج ـ أدركوا بوضوح تام أن عدوهم هو إيران . وساهم في هذا أيضاً أن إيران أمطر الولايات المتحدة بوابل من الشماتة . فها هو حسين موسوي رئيس الوزراء يقول مزهواً لقد وقع الشيطان الأكبر « أمريكا » في الفخ الذي نصبه بنفسه وكلا الشيطانين ريجان وصدام حسين يتقاتلان الآن .

وكان ما وقع فيه القبطان « جلن بريندل » كان محرك الحدث الذي جعل من الولايات المتحدة شيطاناً في نظر الإيرانيين كافة .

مأساة انسانية مريعة

في غابات كامب دايفيد حيث يقيم بعيداً عن حرارة الصيف في واشنطن ، كان الرئيس ريجان يقدم عزاءه :

« عزاؤنا لأسر الركاب وطاقم القيادة ». إلا أنه لم يقدم أي اعتذار ، بل بالعكس فقد هاجم إيران :

« إن ما حدث كان عمل دفاعي بحت ، فعندما تشن دولة ما حرباً في منطقة ما ، ثم ترسل بطائرة مدنية إلى نفس المنطقة فلا بد أن تقع كارثة . و لذنب يكون ذنب الدولة المعنية . فالطائرة الإيرانية كانت تتحرك في اتجاه مباشر للسفينة « فينسنس » والتي كانت في نفس الوقت تبدأ في صد هجوم خمسة قوارب إيرانية سريعة . فقد كانت سفينتنا متورطة بالفعل في أعمال حربية ».

إن الطريق الجوي بين المطار الإيراني بندر عباس وإمارة دبي على الساحل العربي للخليج لا يبلغ ٣٠٠ كيلو متراً . وكان الطيران لمدة أكثر قليلاً من نصف ساعة يمثل صفقة مربحة ، فالطائرات دائماً محجوزة بالكامل . وفي الغالب يكون المسافرون من الإيرانيين رجال عثروا على عمل في الإمارات الغنية ، ويقبضون رواتبهم بالدولار . وكثيراً ما يسافرون مغادرين البلد الذي يعملون فيه لزيارة أهلهم، الذين يسكنون غالباً في منطقة بندر عباس . وكان الحال كذلك في يوم الأحد ، ٤ يوليو ١٩٨٨ عندما أقلعت طائرة إيرباص

«A300»، المملوكة لإيران للطيران ، من مطار بندر عباس لتقوم بالرحلة رقم ٦٥٥ . ومنذ أول لحظة للإقلاع كانت شاشات الرادار للطراد الأمريكي « فينسنس » تتابع الطائرة وكانت تعليمات صدرت للضباط في المركز الألكتروني بمراقبة الطائرات المقلعة من بندر عباس مراقبة دقيقة جداً ، لأن هذا المطار لا تستخدمه فقط طائرات مدنية بل أيضاً طائرات حربية . وكان من المتوقع من أول يوليو ١٩٨٨ إعادة تشغيل الطائرات المتعددة الأغراض من طراز « جرومان أف ـ ١٤ » والتي كان قد اشتراها الشاه ، وكانت لا تستخدم لشهور طويلة لنقص في قطع الغيار وكانت تقف منذ هذا الحين بجوار ممر مطار بندر عباس . وكان أخصائيون أمريكيون اكتشفوا أثناء التنصت على الإتصالات اللاسلكية الإيرانية ، أنه فيما يبدو قد تم إصلاح الطائرات ، وهذا يعني توقع إستخدام الطائرات جرومان أف ـ ١٤ .

وفي اليوم السابق على هذا تسبب اشتباه في وجود طائرة مقاتلة سريعة على قرب خطير من إعلان حالة الإستعداد للقتال على السفينة الأمريكية « هسلي » .

وكان هناك حالة أخرى ساهمت في زيادة العبء على المسؤولين على المدمرات والبارجات الأمريكية : فقد نجح الخبراء أيضاً في حل الشفرة التي يخاطب بها قائدو طائرات أف ـ ١٤ مع بعضهم البعض ومع موقع قيادتهم ليتفحصون عن هويتهم . وكان ضباط الألكترون بالسفينة « فينسنس » ينتظرون في يوم ٣ يوليو ١٩٨٨ بتوتر إذا ما كانت طائرة جرومان ـ أف ـ ١٤ ستقلع من مطار بندر عباس وإذا ما كانت الطائرة ستستخدم الشفرة التي حلها خبراء المخابرات الأمريكية .

وكان اهتمام الضباط في مركز قيادة « فينسنس » مركزاً على طائرة « إيران أير » رقم ٦٥٥ ، وكانت الطائرة الإير باص هي أول طائرة في ذاك اليوم تتجه إلى المنطقة المهددة بالحرب على الخليج . وكان قائد المدمرة هو القبطان « ويل س. روجرز الثالث، أي ثالث فرد من العائلة يعمل كضابط بحري وكان مباشراً منذ البداية لمشكلة الطائرة المقلعة من بندر عباس ». إلا أن فكره كان

مشغولاً بخطر آخر أيضاً : فالسفينة « فينسنس » كانت مشتبكة مع قوارب إيرانية سريعة حاولت إطلاق النار على المدمرة . وكان قد تم إغراق قـاربين مـن تلك القوارب الخفيفة بنيران السفينة الأمريكية . ولـم يكن ليجوز لقبطان « فينسنس » أن يهمل لحظة واحدة فكرة عودة القوارب السريعة للهجوم ـ أو تقوم طائرة واحدة إيرانية من بندر عباس للانتقام لإغراق القاربين ومن خـلال جهازه الالكتـروني عرف القبطان ويل روجرز أن « الطائرة المجهولة » قد أعطت الإشارة بالفعل ، والتي تجعلها بحسابات المخابرات الأمريكية طائرة من طراز جرومان أف ـ ١٤ ولكن كـان هناك إشـارة أخرى يمكن التعـرف عليها ، وهي معـروفة منـذ فترة طويلة : وهي مستعملة من قبل الطائرات الحربية والمدنية .

ولكن أجهزة سفينة « فينسنس » لم تلتقط الإتصـال اللاسلكي بين طـائرة « إيران أير » ٦٥٥ وبين برج مطار بندر عباس .

وكان الطيار قد بدأ قبل ١٧ دقيقة من الإقلاع في مخاطبة البرج ولم يقطع هـذا بعد الإقـلاع أيضـاً . فلو كـان قـد تم ضبط جهـاز استقبـال في المـركـز الألكتروني على موجة الذبذبة العادية للمطار القريب لاستطاع القبطان أن يسمع السؤال الموجه للطيار من مرشدي المطار عما إذا كان قد ضبط جهاز الإرسـال على الإشارة الخاصة بالطائرات المدنية . وبعد رد الطيار بالإيجاب قال مـرشد المطار : « تماماً فأنا أستقبل إشارتكم » .

واتخذت طائـرة « إيران إيـر » ٦٥٥ الطريق الجـوي المخصص للطيران المدني بين الأرض العربية والإيرانيـة . والممر الجـوي الذي يمتـد مستقيماً عريض لدرجة أن الطائرات التي تنحرف ٦ كيلو مترات عن مركزه تعتبر نفسها ما زالت داخل هذا الممر وتماماً تحت مركز هذا الطريق الجوي كانت تسير السفينة الحربية « فينسنس »! إلا أن اتجاه الطريق الجوي لم يكن معروفاً لدى القبطان واشاراته الأليكترونية تدلل على أن فينسنس ستهاجم . وفيما يبدو كانت الطائرة في اتجاه الهبوط وعلى بعد ٢٧ كيلو متراً من فينسنس كانت هناك البارجة « جون ـ هـ ـ سيدس» ورؤي على أجهزتها أيضاً الطائرة «إيـران إير» ٦٥٥ على ارتفـاع مستقر يبلغ ٣٦٠٠ متر وهكذا لم يكتشف المسؤولون على «جون ـ هـ ـ سيدس»

أي اتجاه لهبوط سريع ولم تتلق أجهزة استقبالها أية إشارة تشير إلى أن الطائرة الغريبة هي طائرة حربية إيرانية . أما طاقم « فينسنس » فقد ترسخت لديه القناعة بأنه هناك طائرة جرومان أف ـ ١٤ لديها نوايا عدوانية . أما الإشارات على شاشات الرادار فلم تظهر أن الأمر متعلق بطائرة إير باص «A 300» التي يبلغ طولها ثلاثة أضعاف الطائرة جرومان أف ـ ١٤ وطول جناحيها يبلغ أيضاً ثلاثة أضعاف مثيلها في الطائرة الحربية . ولم يلتفت الضابط أيضاً إلى بطء سرعة الطائرة فطائرة الأيرباص تتحرك بسبب ثقلها البالغ ٤ أضعاف وزن الطائرة الحربية على نحو أبطأ بكثير من الطائرة جرومان أف ١٤ السريعة والخفيفة .

ولما أصاب القلق القائد « ويل روجرز » بسبب إشارات أجهزته ، أرسل النداءات المألوفة التي تطالب الطيار بتعريف هويته وأهدافه . إلا أن الطائرة الغريبة التي كانت تطير في هذه اللحظة فوق جزيرة قشم ، لم ترد ، ولم يأت تكرار النداء بجديد . أما أجهزة « فينسنس » فظلت توضح أن جسماً غريباً يطير في اتجاه السفينة الحربية . وعندما صارت المسافة بين الجسم الطائرة السفينة ٣٠ كيلو متراً فقط سأل ويل روجرز عن طريق اللاسلكي رئيسه قائد الأسطول عما ينبغي أن يفعله فجاءته الإجابة أنه لا يزال هناك وقت لتحذير جديد ، على أن الخطر سيكون كبيراً لدرجة أنه إذا أطلقت الطائرة المهاجمة صاروخاً بعيد المدى ، فلن يتبقى هناك إلا النظام الدفاعي « فالاناكس » الذي يستطيع فعل شيء . وطبقاً للأوامر أرسل ويل روجرز إنذاراً آخر . إلا أنه لم يصدر أمره بإطلاق الصواريخ المضادة للطائرات ، لأن بعض ضباطه أعلنوا تشككهم فجأة . فيما إذا كان الأمر يدور حقاً حول طائرة مدنية . وفي النهاية طرأت لأحدهم فكرة البحث في الكتاب الكبير الذي يحتوي على كل جداول طيران العالم ، عما إذا كانت هذه الساعة هي ميعاد طيران إحدى الطائرات من مطار بندر عباس في اتجاه الجنوب الغربي ، إلا أن الوقت كان قد أذن والقبطان لا يستطيع انتظار البحث في كتاب جداول الطيران ، ولم يشأ أن يقامر بالسفينة وبحياة طاقمها ، فأعطى الأمر بإطلاق صاروخين ، انطلقا بسرعة ضعف ونصف ضعف سرعة الصوت تجاه الطائرة التي لم يتمكن ضباط « فينسنس » من تحديد هويتها ولم يعد الآن بمقدور أحد منع وقوع المحظور ومن على ظهر فينسنس كان يمكن

رؤية كرة اللهب الناتجة عن انفجار طائرة « إيران إير » ٦٥٥ وفي هذه اللحظة مات ٢٩٠ إنساناً . وبعد دقائق قليلة كان متحدث باسم وزراة الخارجية الإيرانية يتهم أمريكا بارتكاب جريمة ضد الإنسانية ، ولما كانت وزارة الخارجية الأمريكية لم تتلق حتى تلك اللحظة أية معلومات من البنتاجون فقد أتى رد فعلها مضطرباً بل إنها اعتبرت تكذيب الحادث له ما يبرره . ثم كان أن اعترف البنتاجون بقصف الطائرة المدنية . وقد أعلن أدميرال وليام كرو ـ المتحدث باسم البنتاجون حينذاك ـ تأكيده من ثبوت أن طائرة إيران إير قد خرجت عن الممر الجوي وطارت مباشرة تجاه السفينة « فينسنس » .

« إن الأمريكان متعجرفون لدرجة تمنعهم من الإعتراف أنهم ارتكبوا جريمة « فالشيطان » لا يرتدع من شيء فهو باستطاعته أن يقتل بلا ضمير مئات الأبرياء من البشر » كان هذا هو رد وزارة الخارجية الإيرانية على حجج الأجهزة الأمريكية .

طالب آية الله روح الله الخوميني النساء والرجال بمضاعفة تضحيات الحرب . فلا بد من الانتقام لدماء القتلى : « إني أطالب أن يغطي دم الأمريكان السماء أيضاً ، كما لونها الآن دم أخوتنا في العقيدة » .

في طهران وفي ٣ يوليو ١٩٨٨ كانت هناك مناسبة ليزهو هؤلاء الذين لا يزالون يؤمنون بالحرب ، الذين لا يزالون يؤمنون بحتمية استئصال شأفة « الشيطان » . فلقد أظهر الآن وجهه الحقيقي فلا يستطيع أحد أن يمتنع عن القتال ضده .

ووصف رئيس الدولة علي خاميني رونالد ريجان بأنه مجرم يجب عقابه والحكومة الأمريكية ليست إلا عصابة مجرمين .

وأيضاً كان المرشح لخلافة خو ميني ـ آية الله حسين علي منتظري ـ ضمن هؤلاء الذين طالبوا بضرب المصالح الأمريكية في كل مكان في العالم . وأضاف منتظري عملية قصف طائرة الإيرباص إلى الأعمال التي ارتكبها الشيطان منذ مقتل الإمام الحسيني في كربلاء « الموتى الآن بصحبة الإمام الحسين في الجنة وقد وضعهم الله بين الشهداء والذين لهم مكانة عالية خاصة عند الله » . وعم الحزن كل مدن إيران على ضحايا قذف الايرباص . وقد عرض التليفزيون الإيراني صوراً تظهر كيف تم انتشال الجثث من مياه الخليج . ونشرت الصحف صور أهل الضحايا النائحين، أما ما أثار الجزع بصفة خاصة فكان مصير محمد

غولان غولاني أحد الإيرانيين الذي عاش وعمل في إمارة دبي : فبين المائتين وتسعين قتيلا كانت زوجته وأولاده الثمانية وأخوه وزوجته . أما الأخبار عن الأسر التي فقدت عائلتها وعن الرجال والنساء الطاعنين في السن الذين فقدوا سندهم وعن اليتامى الذين يأملون في عون الله فكانت صالحة لتأجيج المشاعر ، فمن كان يريد الحرب فيستطيع الآن أن يتوقع أن تصطف طوابير المتطوعين من الشباب في كل مكان أمام مكاتب التجنيد فالحزن كان هو الدافع دائماً لدفع الاستعداد للشهادة . وكان زعماء رجال الدين يعرفون دائماً منذ مئات السنين كيف يستغلون هذا الميل بالذات عند الشباب .

وبدا الطريق إلى احتمال عقد هدنة مسدوداً . وكان المحللون في السفارة الأمريكية بطهران يرون « لقد كان أسوأ توقيت على الإطلاق لوقوع مثل هذا الحدث . وكانت صيحة المدافعين عن سياسة حازمة لإيران في الحرب هو أن الولايات المتحدة قد أثبتت أنها لا تريد السلام في الخليج . أما الحكومة الأمريكية فكانت بحاجة لتصاعد التوتر لتبرير وجودها في المنطقة . أما نيتها الحقيقية فهي القضاء على الثورة الإسلامية والإسلام والتاريخ القصير للكفاح الشيعي منذ عام ١٩٧٩ فقد أثبت أنه يمكن ضرب آلة الحرب الأمريكية التي تبدو قوية . وفي لبنان كانت البحرية الأمريكية تستطيع ضرب مناطق شيعية واسعة ، إلا أن رجلاً شجاعاً اخترق بسيارة ناسفة المقر الرئيسي ، فجعل الانفجار الأمريكان ينسحبون من لبنان على عجل . . وكان الداعون للحرب ينشرون الكراهية ضد أمريكا على أمل أن يؤدي هذا إلى عمليات انتحارية ضد السفن الأمريكية في الخليج . إلا أن الرجل الذي كان لا بد أن يعرف أنه سيكسب الحرب ضد أمريكا والعراق القائد الأعلى للقوات المسلحة حجة الله رفسنجاني ، فقد عارض أصحاب الرغبة في الحرب . ففي ٤ يوليو ١٩٨٨ تحدث في التليفزيون الإيراني : « لسنا بحاجة الآن مطلقاً لنضع أنفسنا بين هؤلاء الذين يلعنون أمريكا ونستطيع أن ندع شتم أمريكا للآخرين . فسوف نكسب أكثر إن حافظنا على التعاطف العالمي معنا » . وبهذا صرح رفسنجاني أنه ضد ضربة انتقامية سوف تؤدي إلى فقد إيران لتعاطف العالم مرة أخرى وقد

أضاف « إنه من المفترض أن قصف الطائرة الايرباص A 300 جزء من مؤامرة ضد الإسلام ـ ولكنه ليس من المستبعد أن يكون هذا خطأ من قيادة السفن وسيان كان هذا مؤامرة أم خطأ فالعار سوف يظل عالقاً بأمريكا . ونحن نريد أن يتم التحقيق في هذه الجريمة بدقة » أما ختام خطابه فكان ينبغي أن يغلق الباب أمام حقوقه لاتهامه بالإنتهازية أو حتى بأنه يميل لأمريكا. «لن نترك فكرة الانتقام إلا أن وقت الانتقام فسنختاره بأنفسنا ولن ندع الحكومة الأمريكية تستفزنا » وبهذا أعلن القائد الأعلى للقوات المسلحة عن الاستعداد لعدم إسعار الصراع في الخليج ، بل أنه أعطى الفرصة لإمكان عقد هدنة إذا أدانت لجنة دولية الرئيس العراقي صدام حسين بجريمة الحرب . وفي ١٧ يوليو ١٩٨٨ أخذ صدام حسين الإشارة المستحية باستعداد إيران لوقف إطلاق النار على محمل الجد . وكان يتحدث بمناسبة مرور ثلاثين عاماً على الثورة التي أطاحت بالحكم الملكي في العراق عام ١٩٥٨ : « نحن نمد يدنا اليوم إلى حل سلمي للصراع ، ونطالب حكام طهران أن يتعلموا من هزيمتهم وأن يروا أخيراً أنهم لا يستطيعون إجبار العراق على الخضوع لمشيئتهم ويجب المغامرة الدولية لهذه الحرب » . وفي يوم الخطاب هذا كانت القوات الإيرانية تنسحب من آخر المواقع العراقية التي كانت قد احتلتها . أما رفسنجاني فقد علق على هذا الحدث على الملأ هكذا : « كان علينا أن نحسن خطوط دفاعنا ، ففي النهاية يجب علينا الاستعداد لحرب طويلة ، إلا أننا كنا نريد بهذا إثبات شيء للعالم : إننا لا نهتم باحتلال أرض عراقية » .

وكان على رفسنجاني أن يدرك أن القوات التي تحت رئاسته غير مؤهلة لحرب دفاعية فهي كانت مكونة من مزيج من القوات النظامية « وحراس الثورة » وكان التنسيق بينهما صعباً للغاية وكان اتفاق التكتيك لكل قطاعات الجبهة مهماً للغاية في مرحلة الدفاع وكان غالباً ما ينجح العراق في اختراق مؤثر للمواقع بين القوات النظامية وبين حراس الثورة . ثم يتحول الاختراق مباشرة إلى نصر مؤزر للمهاجمين لأن الجنود الإيرانيين يفتقدون للنظام للثبات أمام ضغط الهجوم . وكان لا يزال تحت يدي القائد الأعلى ما يزيد على ٢٢٠,٠٠٠ رجل

ـ فقد ولى عهد جيش الملايين ـ إلّا أن الكبير صار عبئاً وهو الذي كان يساهم يوماً ما في دعم الهجوم . . . . أثناء الانسحاب لم يكن هناك حماس بين القوات الغفيرة فقد كانت هناك حالة لضبط النفس وللنظام . وكان هذا واجب ضباط الأركان والذين كانوا على مستوى أعلى من التدريب . إلا أنه كان هناك نقص في ضباط الأركان ولم يبق أمام رفسنجاني إلا شرح الموقف الواقعي للخوميني : الجبهة تكاد تنهار .

في ١٨ يوليو ١٩٨٨ تعلن إيران عن استعدادها لقبول قرار مجلس الأمن الذي يطالب بالهدنة بين إيران والعراق . وكان رد العراق في اليوم التالي هو هجوم جوي على المنطقة البائرة بوشير والتي كان يشيد عليها المفاعل الذري الإيراني . وفي ٢٠ يوليو كان الخوميني يبذل الجهد ليشرح لشعبه الاستعداد للهدنة فأوضح أن انقاذ الثورة الإسلامية يأتي لديه في المرتبة الأولى . فقد بدأت الحرب للقضاء على الحكومة الإسلامية . ومن هذا المنطلق يجب مراعاة أن هدف خوميني الوحيد كان خلفه الجمهورية الإسلامية وهو ما كان يريد الوصول إليه . وفيما يبدو فقد شرح رفسنجاني له الخطر أن الهزيمة التامة لحراس الثورة تتساوى مع الهزيمة التامة للثورة . وكانت كلمة خوميني « إن قبول الهدنة أمر من شرب كأس سم » . تعتبر إقراراً بالإفلات بالكاد من الهزيمة . وفي أغسطس ١٩٨٨ ينجح سكرتير عام الجمعية العامة للأمم المتحدة دي كويار في الوصول لاتفاق للهدنة بين إيران والعراق . ولم يكن هناك منتصر ولا مهزوم . أما المشاكل فبقيت . فالقيادة الشيعية بإيران لن تقبل يائسة أن يستمر سني في حكم الأغلبية الشيعية في العراق وأن يحكم « الملوك » ضد إرادة الله .

أما الحكومة العراقية فكانت تعمل على إيجاد مادة جديدة للصراع فهي تريد أن تحول مجرى شط العرب ـ الذي كان الصراع دائراً حوله ـ على نحو لا يجعل الممر المائي الذي يجمع دجلة والفرات خط حدود بين إيران والعراق ـ بل يجب أن يجري في خط مستقيم من البصرة ممتداً في الأراض العراقية ليصب مباشرة في الخليج ومهما كان توجه الحاكم لإيران فإنه لن يطيق تحويل مجرى شط العرب وها هو صراع المستقبل يبدو واضح المعالم .

نظام الموالي يستغل المهنة لإصدار أحكام دموية

كان رفسنجاني على حق فبعد قصف السفينة الحربية الأمريكية « فينسنس » للطائرة إيرباص اكتسبت إيران تعاطفاً أكبر عن ذي قبل . فقتل ٢٩٠ راكب جعل إيران ضحية في الصراع في الخليج ، والآن يستطيع المسؤولون الإيرانيون النجاح وكسر العزلة التي وقع فيها النظام الشيعي منذ احتلال السفارة الأمريكية عام ١٩٧٩ . فقبول خرق القانون الدولي كان له أثر بالغ ، فمنذ هذا الحين ومجتمعي دول العالم أجمع تنظر بارتياب إلى نظام حكم الموالي . ولم يكن هناك إلا ألمانيا الغربية التي حافظت بحذر على العلاقات الدبلوماسية مع رجال الخوميني . ويرجع الفضل لهذا إلى وزير الخارجية هانز ديتريش جنشر ، ويحسب لوزير الخارجية هذا أنه كان دائماً يبذل الجهد حتى في تحمل وضع مادة خرق حقوق الإنسان كموضوع للبحث في جدول الأعمال ولم يكتب النجاح لجنشر إلا نادراً ، والسبب أن هناك اختلافاً شديداً بين تصور طهران لمضمون حقوق الإنسان عن تصور بون لذلك . فطبقاً لمفهوم علماء القانون المسلمين أصحاب السطوة في إيران ، يلغي حق الله حق الإنسان . فإذا ما أدين أحد بخرق قوانين الله فلا يكون له الحق في معاملة تليق بالإنسان . حتى بعد عشرة أعوام من نجاح الثورة الإسلامية لم يتغير شيء في هذا الأمر . فوزير الخارجية علي أكبر ولاياتي يقول : « إن حقوق الإنسان لا تمثل في حد ذاتها قيمة مطلقة فكل مجتمع ينظر إلى حقوق الإنسان نظرة مختلفة وهي في كل الأحوال غالباً ما تكون نتاج أحكام مسبقة » .

وهكذا خابت آمال هؤلاء الذين اعتقدوا أن أحكام الردع قد اقتصرت فقط على المرحلة الأولى للجمهورية الإسلامية واعتقدوا أن الزمن قد ولى الذي كان فيه القاضي يحكم بالإعدام رمياً بالرصاص طبقاً لما يتراءى له .

فمنذ خريف ١٩٨٨ وعائلات كثيرة في طهران تتسلم استدعاء للحضور إلى السجن الذي يحبس فيه أفراد العائلة ولما كانت عقوبة الحبس في بعض الحالات على وشك الانتهاء ، فقد ساد الفرح هذه الأسر للعفو الموهوم .

ففي السجن كان ينتظرهم الخبر بأن السجين قد تم إعدامه ويمكن تسلم صرة ملابسه . ولم تكن هناك أحكام قضائية بالإعدام قد صدرت فلم تنظر أية محكمة هذه الحالات .

فقد تم إطلاق النار على هؤلاء الذين قضوا أعواماً في السجن وكان الكثير منهم قد اعتقل في صيف عام ١٩٨١ مباشرة بعد انفجار العبوة الناسفة التي أودت بحياة آية الله بهشتي وسبعين آخرين من قيادات الجمهورية الإسلامية. ولم يكن بين هؤلاء المعتقلين أحد تقريباً يمكن إثبات وجود أية علاقة له بهذا الحادث . وكانوا كلهم من الشيعة وقد كان ذنبهم أنهم قالوا أن الحكم المطلق للموالي لا يعجبهم وأنهم يرغبون في حكم ديمقراطي لإيران . وقد كان المعتقلون الذين أعدموا الآن شباباً يعتقد أنه برحيل الشاه ستبدأ مرحلة عدل ورضا في إيران وقد كانوا يتهمون نظام الموالي بالرجعية ولكن الخوميني نفسه هو الذي أعد أسباب الحكم بالإعدام ـ إلا أن ذلك كان قبل أعوام ـ عندما كتب إعلان مبادىء حكم علماء الدين : « كل من يقول أن الحكم ليس من اختصاص رجال الدين، الذين درسوا الشريعة الإسلامية، ويجب تكليف سياسيين منتخبين للحكم ، يكون قد أنكر الشريعة الأبدية للإسلام ويكون أنكر بالذات حكم الإسلام الأبدي. أما من يخاصم الموالي فهو يخاصم الإسلام، هو عدو الإسلام » . وطبقاً لرأي منظمة العفو الدولية فقد تم إطلاق النار على الآلاف إلاَّ أن عمليات الإعدام هذه في سجون إيران لم تجعل الشعب يثور ضد حكم الموالي على أي نحو .

أما المنظمة الإسلامية ذات الميول اليسـارية « مجـاهدي خلق » ـ وكـان أعضاءها يشكلون معظم ضحايا عمليات الإعدام ـ فقد خسرت كثيراً من مكانتها عندما انتقل زعيمها مسعود رجوي ـ الذي كان منفياً في باريس ـ إلى بغداد في صيف ١٩٨٨ ليعد هناك جيشاً من المهاجرين الإيرانيين لقتال الجيش الإيراني وقد قوبـل هذا العمل بالاستياء من قبل الكثيـر من الإيرانيين الـذين يكرهـون الخـوميني ونظام حكمـه. وفي شتاء ١٩٨٨/١٩٨٩ تمَّ إعـدام أعضاء « الحـزب الشيوعي تودة » رمياً بالرصاص مع أعضاء « مجـاهدي خلق » الـذين كانـوا قد اعتقلوا من فتـرة بعيدة . ولم تسمـع احتجاجـات على عمليات الإعـدام هـذه أيضـاً . وقد قـام ريشاري رئيس جهـاز المخابـرات المكلف بـالإشـراف على السجون في خريف ١٩٨٨ . بإعلان العفو عن أعضاء الجماعات اليسارية في ربيع ١٩٨٩ ، « على أن يكون المعنيون لم يلوثوا أيديهم بالدماء » . ولكن عدد المتمتعين بالعفو كان ضئيلاً . وفي نفس الفترة الزمنية التي صدرت فيها أحكام الإعدام على أعضاء حزب « تودة » ، كانت تجتمع « المحكمة الخاصة برجال الدين » . وهي محكمة يحاكم فيها الموالي موالي آخـرين . وأصدرت حكمـاً بإعدام ٧ من رجال الدين ، من أنصار آية الله منتظري ، والذي كان الخوميني قد عينه خليفة له في وصيته ، وكان سبب الحكم بالإعدام هـو أن هؤلاء هانـوا الإسـلام والشعب المسلم وأنهم فقدوا البصيـرة . ولكن معلومات المهـاجرين الإيرانيين في باريس كانت تقول إن سبب أحكام الإعدام هو لأن السبعة كانت لديهم النية في الكشف عن العلاقة التي ظلت سرية بين رئيس البرلمان والقائد الأعلى للجيش رفسنجاني وبين المخابرات الأمريكيـة . إلا أن رفسنجاني قـد علم بهذه المؤامرة وحث الخوميني على اعتقال وإدانة خصومه هؤلاء . ويقال إن منتظري رد على هذا بقـوله : « لعن الله رفسنجـاني إلى الأبد » . ومـع بدايـة الهدنة كان الصراع على خلافة زعيم الثورة قد بدأ . فرفسنجاني ـ الذي يحمل لقب حجة الإسلام فقط وليس آية الله يريد برغم ضعف مـوقفه هـذا أن يحاول الاحتفاظ بمناصبه رغماً عن آية الله منتظري ، ولهذا كانت تلك المحاولة للقضاء على أنصار منتظري . وكـان رئيس البرلمـان قد نجـح بالفعـل في توجيـه عدة ضربات قاسية . وكان إمكانية فعل هذا دليل لرفسنجاني على أن تأييد الخوميني

لمنتظري صار ضعيفاً . وكان الخوميني قد كلف آية الله (منتظري) في عام ١٩٨٥ بمهمة تجنيد وتدريب قيادات تقوم بنشر الثورة الإسلامية في الخارج . وفي شتاء عام ١٩٨٦/١٩٨٧ تم سحب مهمة الإشراف على اللجان ـ المنظمة لهذا العمل الدعائي ـ من منتظري . وفي هذه الأثناء كان قد تم إعدام أنصار منتظري المخلصين رمياً بالرصاص .

وقد صاحب موجة العنف في طهران حملة دعاية لحكم طهران حول التعاون المشترك في المجال الاقتصادي مع الحكومات الأوروبية . التي كانت على جفاء مع إيران حتى هذا الحين . وقامت وفود إيرانية بزيارة باريس متذرعة بالاستعداد للسلام بهدف الإفراج عن ودائع مجمدة تبلغ مليار دولار . أما نائب وزير الخارجية الإيراني لاريجاني فكان يتفاوض في لندن حول استئناف العلاقات الدبلوماسية ، فجمهورية إيران الإسلامية لم تكن لها التمثيل الكافي في بريطانيا طبقاً للقانون الدولي . أما حكومة ألمانيا الغربية فلم تقم هناك حاجة لكسبها ، فقد كان باستطاعة وزير خارجيتها أن يقدم الخدمات للدول الصديقة في قلب طهران إلا أن هانز ديتريتش جينشر لم يستطع إعادة فتح الأبواب في طهران أمام الدبلوماسيين الأمريكيين فالتحول للتعاون الاقتصادي والسياسي مع « الشيطان أمريكا » لم يكن بمقدور الخوميني القيام به ولا حتى خليفته في وقت قصير .

فقبل الصلح مع الشيطان يجب محو نظرية الخير والشر في العالم من أذهان زعماء الثورة وأعلنوا سريانها الشامل وفي ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ وقع حدث أعاد لوعي الإيرانيين نوعاً من توازن السلم .

فكثيرون ، ممن حزنوا لقصف طائرة الايرباص الإيرانية رأوا الأمريكان وهم يعانون أيضاً من الحزن ـ وهكذا شعر بعض الإيرانيين بأن الانتقام قد وقع .

مسؤولية حراس الثورة
عن اسقاط الطائرة ؟

في ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ أقلعت طائرة جامبو تابعة لشركة بان أمـريكان من مطار هيثرو بـلندن إلى نيويورك . وكان طاقم الطائرة مكوناً من ١٥ فرداً بينما بلغ عدد الركاب ٢٤٣ راكباً . وكان المسافرون يودون قضاء إجازة أعياد الميلاد في وطنهم : جنـود أمريكيين وعـائلاتهم ، ومـوظفون بـالأمم المتحدة وصحفيـون ورجال أعمال وسياح . إلا أن كان بين المسافرين الأمريكيين إلى بلدهم رجلان تحتم عليهما وظيفتهما وجود علاقـة بالإرهـاب فالأول كـان يعمل مـوظف أمن بالسفارة الأمريكية في نيقوسيا والثاني يعمل بنفس الوظيفة في بيروت وكان من بين المسافرين أيضاً موظف بوزارة العدل الأمريكية. والذي كان مختصاً بتقصي حقيقة النازيين السابقين . وبعد ٥٤ دقيقة من الإقلاع كان الاتصال الـلاسلكي بين الطائرة ومركز المراقبة الأرضية قد انقطع وعلى شاشـة جهاز الـرادار كانت إشارات المحددة لهوية الطائرة قد اختفت تماماً . وعلى الشاشـة الأخرى التي تظهر موضع الجامبو كانت النقاط الأليكترونية قد انشطرت ثم سرعان ما اختفت أيضاً . وكان انقطاع إشارات تحديد الهوية قد أوحى لمرشدي الطيران أن جهاز الإرسال الخاص بالطائرة لم توقنت تغذيتة بالطاقـة . وقد استبعـدوا من هذا أن حدث خطير وقع على متن الطائرة « بان أمريكان » إلا أن انشطار النقاط البيضاء على شاشة الرادار الآخر فقد أظهرت ما حدث : حطام الطائرة الجامبو تتطاير . بعـدما رأى مـرشد الـطيـران الكـارثـة على شـاشـة الجهـاز الاليـكتـروني في بـرستويك . كان أنفجار قد وقع في قلب المنطقة الاسكتلندية « لوكربي » الواقعة

شمال مدينة كارليسيل قد دمر محطة بنزين وصفاً كاملاً من المنازل البسيطة المنخفضة وقد استطاع الجيران في المنازل المجاورة ـ الذين فزعوا ولكنهم لم يلوذوا بالفرار ـ تحديد سبب الانفجار ففي حدائقهم سقطت أجزاء معدنية للطائرة وفي الظلام رأوا أشلاء أجساد بشرية على أسطح منازلهم . فصار من المؤكد أن طائرة قد تحطمت فوق « لوكربي » وكانت أضخم أجزاء الحطام قد أصابت المنطقة . فكان يرى هناك حفرة يبلغ عمقها عشرة أمتار . كان قد حفرها واحد من المحركات النفاثة الثقيلة . وكانت أجزاء من هيكل الطائرة ترقد بجوار السيارات المحترقة على الطريق السريع « ٧٤٢ » المؤدي من « لوكربي » إلى جلاسيجو . وخارج هذه المنطقة وفي أحد الحقول أمكن التعرف بدقة على أجزاء من كابينة القيادة وكابينة الدرجة الأولى وعلى سطح الهيكل الأبيض الخارجي كان يمكن قراءة اسم الطائرة«Maid of the Seas» وقد استنتج الخبراء من خلال هذا الوضع وقوع انفجار على متن الطائرة دمر الجزء الأمامي للجامبو ، وهكذا لم يكن أمام طاقم الطائرة أية فرصة لإرسال أية إشارة مهما كان حجمها للمرشدين في برستويك عما حدث في الطائرة وعندما تم العثور على الصندوق الأسود اعتقد الخبراء أنه من المحتمل التوصل إلى شيء من خلال كلمات الطيارين ، ولكنهم كانوا قد صمتوا حتى آخر لحظة ، فصار من الواضح إنه لم يكن هناك ما يثير قلقهم . وكان التسجيل قد انتهى بضوضاء مكتومة . وهكذا رجح بوقوع أنفجار لتشابهه تماماً مع الضوضاء التي سجلها جهاز طائرة جامبو هندية سقطت عام ١٩٨٥ في البحر الإيرلندي وقد كان واضحاً أيضاً في تلك الحالة انفجار الجزء الأمامي للطائرة ، وهكذا كان لا يمكن تجاهل هذه المقارنة ، وبالرغم من ذلك فإنه لم يتم في البداية استبعاد سقوط الطائرة بسبب قدم الطائرة، ففي النهاية كانت «Maid of the Seas» أقدم طائرة من هذا النوع في أسطول « بان أمريكان » . فقد عملت تسعة عشرة عاماً وطارت ١٦ ألف مرة . إلا أن الصيانة الدورية لم تثبت قط مناطق ضعف بهذه الطائرة .

وبالرغم من أن الفحص ـ الممتد لعدة أيام ـ لأجزاء الحطام لم يثبت أن انفجار مادة ناسفة هو الذي فصل الجزء الأمامي للطائرة عن بقية جسمها ، إلا

أن الخبراء بقوا على يقينهم من إن هذا الذي لا بد أن يكون قد حدث . فقد وصلت إشارات عن تحذيرات من استعمال هذه الطائرة ففي ١٣ ديسمبر كان مدير الإدارة بالسفارة الأمريكية قد رأى إن عليه أن يعلق الملحوظة التالية على لوحة الإستعلامات : « وصلت معلومات إلى السفارة لإدارة الطيران الفيدرالية إنه في يوم ٥ ديسمبر اتصل شخص مجهول بأحد البعثات الدبلوماسية الأمريكية في أوروبا وأشار إلى أن في خلال الأسبوعين القادمين سوف تنفجر قنبلة في طائرة تابعة لشركة « بان أمريكان » وذلك أثناء طيرانها من فرانكفورت إلى نيويورك ». وترى الإدارة الفيدرالية للطيران إنه لا يمكن التحقق من صحة هذه المعلومات بأي وجه . وقد تم إبلاغ كل جهات الأمن التي توجة عنايتها لهذا الأمر . وكذلك تم إبلاغ « بان أمريكان » . وقد أكدت وزارة الخارجية أن التحذير من طائرة بان أمريكان قد تم إرساله إلى كل السفارات الأمريكية في جميع أنحاء العالم بعد أن اتصل بسفارة أمريكا في هلسنكي في ٥ ديسمبر شخص يتحدث الإنكليزية بلكنة عربية وزعم أنه يعرف بأمر خطة اغتيال . وقد استنبط من كلامه أن المجموعة الفلسطينية حول «أبو نضال» سوف تنقل المادة الناسفة إلى الطائرة بواسطة امرأة فنلندية . وفوق ذلك فقد ذكر هذا الشخص اسم الرجل الذي خطط للعملية في فنلندا . وكانت الشرطة الفنلندية تعرف هذا الشخص من خلال أحداث مماثلة سابقة . فقد قام بالتحذير أكثر من مرة ، إلا إنه لم يحدث قط ما كان يحذر منه . وقد أظهرت التحريات أن الشخص ذا اللكنه العربية له خصومات شخصية مع الرجل الذي يدعي أنه مخطط العملية ولم يكن للشخص صاحب التحذير أية علاقة بالدوائر الإرهابية ولم تعط السلطات في هلسنكي اسمه .

وقبل نهاية عام ١٩٨٨ عثر في « لوكربي » على بقايا آثار حقيبة تدل الأثار بها على أنها من الممكن أن تكون قد احتوت على المواد الناسفة وقد اكتشفت أيضاً أجزاء حطام كان اللون على بعض أجزائها يشير إنه ناتج عن حرارة انفجار وقد نقلت الحقيبة وبقايا الحطام إلى معهد : Carmament Research and Development Establishment في فورت هالستاد بالقرب من لندن .

وهذا المعهد يملك أجهزة تكشف عن التغيرات الكيماوية التي تطرأ على المواد والتي تنتج عن انفجارات . وعندما كانت الاختبارات قد انتهت كانت وزارة المواصلات البريطانية قد استطاعت إثبات أن : طائرة «Maid of Seas» كانت ضحية انفجار عبوة ناسفة وكانت المادة الناسفة المستخدمة في هذه العملية هي مادة الـ : «Semtex» وكيلو جرام واحد من هذه المادة يكفي لتدمير طائرة كبيرة بل لتدمير بيت كامل . وقد تم استخدام مفجر صغير ـ في حجم علبة الكبريت ـ في هذا الانفجار المدمر . وكانت المادة الناسفة « سمتكس » والمفجر لا يمكن اكتشافهما إلا بصعوبة بالغة من خلال أجهزة التفتيش في المطار وقد مات مساء ٢١ ديسمبر ١٩٨٨، ٢٤٤ راكباً و١٥ فرداً من طاقم الطائرة و١١ شخص من أهل « لوكري » وقد أعلنت منظمة « حراس الثورة الإسلامية » عن مسؤوليتها عن مقتل هؤلاء وقد قالت بأن عملية التفجير الناجحة تعني إعدام للأمريكان . بمثابة انتقام لقصف طائرة الإيرباص التابعة « لإيران إير » في ٣ يوليو ١٩٨٨ .

قال رئيس الوزراء الإيراني حسين موسوي مباشرة بعد الحادث المروع وبكلمات ملحة : ليس هناك لإيران علاقة بهذه الكارثة المريعة وقد قدم عزاءه للشعب الأمريكي .

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة

جرهارد كونسلمان : من أشهر الصحفيين الألمان وقد عمل لوقت طويل محققاً بالتليفزيون الألماني . ومن خلال عمله هذا صار على دراية كبيرة بالتطورات السياسية في منطقة الشرق الأوسط وخاصة في المنطقة العربية . وله مؤلفات كثيرة متنوعة تتناول المشاكل العربية ، نذكر منها : العرب والقدس ٤ آلاف سنة حروب ، وأغنياء الشرق ، والحرب غير المقدسة (لبنان) ، والنيل ، وغيرها الكثير .